

المعتدون اليهـود

”وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا“

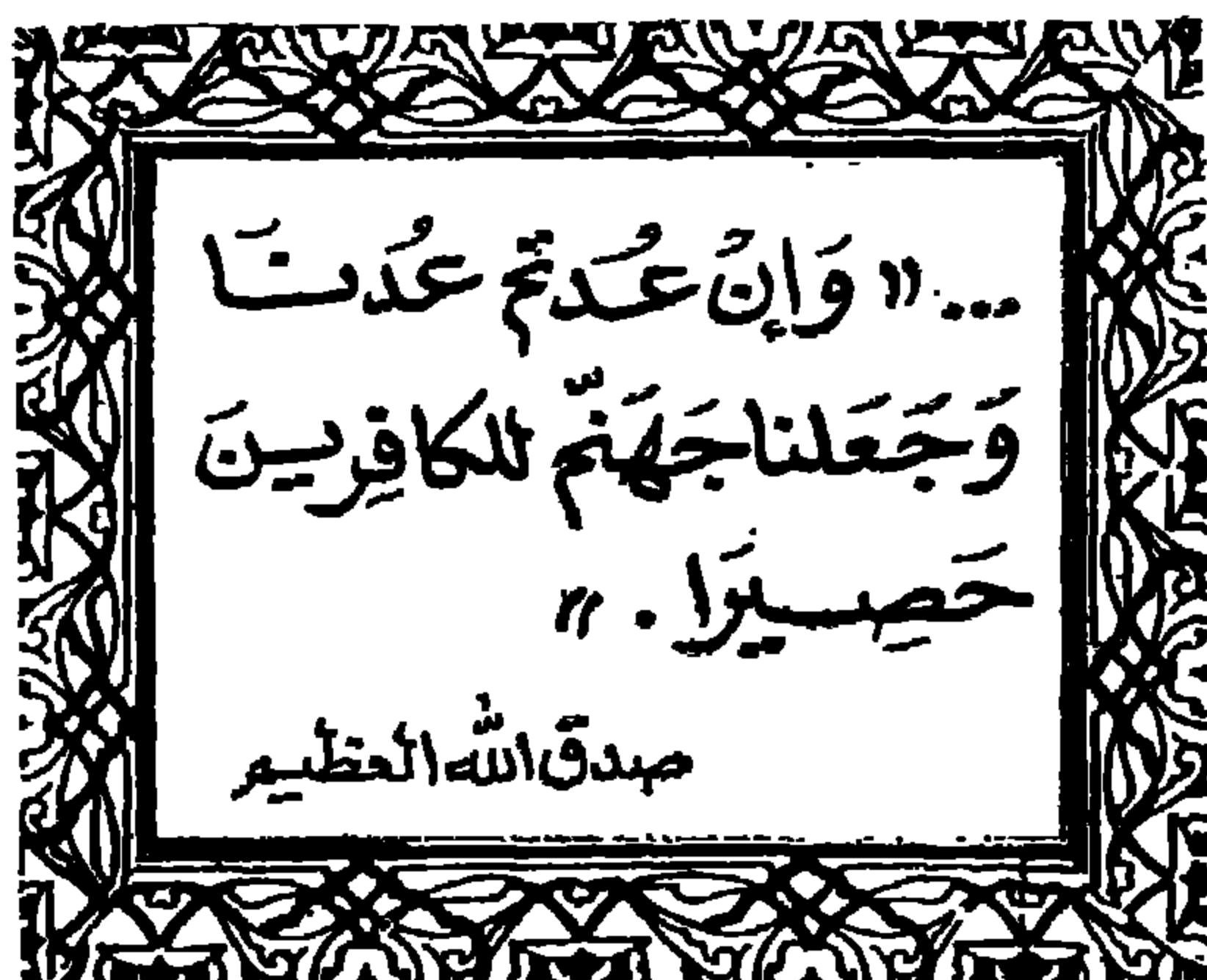
.. ”وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
حَصِيرًا.“

صدق الله العظيم

مَحَمَّدٌ صَبِيح

المعتذرون اليه

وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا



بقلم: محمد صبيح

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ،
وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ
أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ،
وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا .
[صدق الله العظيم]

سورة الإسراء

التبار : الهلاك

مقدمة

أكتب هذه المقدمة في منتصف شهر مارس سنة ١٩٦٩ ، بعد أن عدت على التو من زيارة للاردن استغرقت عشرة أيام ٠٠ وقد حدث أثناء هذه الزيارة أن سألتني آنسة عربية فاضلة تمثل الاذاعة البريطانية ، قالت :

— هل زرت مخيمات اللاجئين ؟ فقلت :

— لا ٠٠ لم أزرها ، وقد استبعدتها من برنامج الرحلة ؟

فرفعت محدثتي حاجبيها عجباً ، وقالت :

— ولكن كل من يأتي لزيارتنا لا بد له من زيارة المخيمات .

فأجبت على هذا الشريط المسجل :

— لست سائحا عاديا ، ولكنى محارب بالقلم في جبهة القومية العربية ، ضد كل بغى وعدوان عليها ٠٠ وقد أسهبنا في وصف الظلم الذي وقع علينا ، وعلى قومنا في فلسطين ٠٠ وجاء الوقت لنبحث عن الوسائل التي يزول بها هذا العدوان ، ويذهب الى بيته كل لاجئ ، وينتصف كل مظلوم من ظالمه .

وكنت صادقا مع نفسي ، فقد فضلت أن أزور الكرامة ، حيث وقعت منذ عام (٢١ مارس سنة ١٩٦٨) أول هزيمة لليهود في الجبهة الشرقية ، اذ زحفوا ب ١٥ ألف جندي يهودي اجتازوا نهر الأردن ، مع سلاحهم الثقيل ، واضطروا آخر اليوم الى الانسحاب بعد أن حملتهم مقاومة الفدائيين ومدفعية الجيش الأردني خسائر فادحة ، مازالوا يلحقون جراحهم بعدها ٠٠

زرت الكرامة ، وزرت قواعد الفدائيين ، ووقفت في « جرش » أشهد تشييع سبعة من هؤلاء الأبطال الى مقرهم الأخير، كانوا قد اشتبكوا مع المعتدين على سفوح « جولان » ٠٠ واستكشفت في سهرات وجولات وأحاديث لا تنقطع « الانسان العربي » الجديد ، الذي حلت لديه عقدة الحياة ، وأصبح أداء الواجب هو سبب الحياة ومحركها ٠٠

رأيت آلاف يحملون السلاح في كل مكان ، ولكنى لم أجد واحدا يدق الأرض ، أو يهز مدفعه ، ويباهي بأنه في الصف الأول يقاتل ٠٠ لا مباهاة ٠٠ لا تفاخر ٠٠ لا صياح ٠٠ الحديث كله أقرب الى الهمس ، ولكن فيه ثقة

وتصميم .. ولكل انسان عملان : واجبه فى احدى المنظمات المقاتلة فى خط أمامى ، أو خلفى ، أو جانبى .. وواجبه اليومى ، فى تسيير عجلة الانتاج ، والسعى من أجل الرزق . فاذا استشهد مقاتل ، فعليه الرحمة والرضوان ، ويهرع لياخذ مكانه واحد من الصف الطويل الذى ينتظر دوره .. والمنظمات ترعى أسر العاملين فى جبهة القتال ، رعاية دقيقة كريمة ، تعجز الحكومات عن الاتيان بمثلها .

وتناقشنا طويلا ، مع المقاتلين ، ومع السياسيين ، ومع الأفراد العاديين ، فلم نجد حديث أى منهم يختلف عن صاحبه : تصميم على القتال ، وإيثار للتضحية ، وانماء لحاسة الخوف لدى العدو ، خوفا يفقده أمنه ، ونومه ، ويبدد حلمه الذى جاء الى هذه الأرض يلتمسه ، فاذا السراب ، بل الممات يترصد له فى كل خطوة ، وفى كل حركة .

لقد وصل الأمر بكلمة « فدائي » ، أن عصابات ملثمة من اليهود أنفسهم ظهرت تسلب المارة وتجردهم مما معهم ، دون أى مقاومة ، بمجرد أن تذكر الكلمة ذات الوقع الرهيب عليهم .. وهى كلمة « فدائي » ..

ان العمل الفدائي - كما رأيت - ينمو نموا مضطربا ، وقد ذابت فى الضفة الشرقية للاردن كلمة فلسطينى ، وكلمة أردنى ، ليعود الجميع كما كانوا قبل أن يقسم تشرشل بلادهم قسمين فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وعند هذا النهر التاريخى - الأردن - وقفت أرقب مياهه ، وقد اجتازت ضفتيه من فجر التاريخ أفواج البشر قادمة من شبه الجزيرة أو من العراق ، أو من الشمال ... تمثل لى ابراهيم الخليل قادما من أرض الفرات ، هاربا من الأوثان التى حطمها ، ومن أصحابها الذين كاودا له كيدا .. حتى وجد فى مصر مأوى وأمنا .. وتمثل لى من بعده أبناؤه الذين دهمتهم المجاعة ، فكانت مصر منجاتهم فى عهد يوسف الصديق .. حتى اذا نما عدد هذه الأسر فى مصر ، وجاء وقت هجرتها الى فلسطين وجدوا الأرض عامرة بالعرب الكنعانيين والانباط والأدوميين واليبوسيين وغيرهم ... وكان قتال خلص فيه لليهود من أرض فلسطين العربية أقل من خمسها ، ولم يطل الأمر بهم ، الا سنين تقل عن القرن ، حتى جاءتهم غزوات المصريين ثم البابليين ثم الفرس ثم الرومان ثم العرب .. ولكن العرب لم يجدوا منهم الا بقايا ضئيلة ، وقد أمر عمر بن الخطاب فى عهده المشهور ألا يقيم أحد منهم فى هذه الأرض المقدسة ، ووقع العهد معه قواد جيشه : خالد بن الوليد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمرو بن العاص وغيرهم ...

لماذا أوصى عمر بن الخطاب بهذه الوصية التي تستبعد اليهود من الإقامة في مقدساتنا ؟

لأنه عايش مؤامرات اليهود على الدعوة الإسلامية ونبيها صلوات الله عليه، وأدرك الحكمة في أن رسول الله أمر بإجلاء اليهود نهائيا عن الحجاز ، لا يقيم منهم فيه انسان .. وللمقدسات المسلمين والمسيحيين في فلسطين مثلما لمكة والمدينة عند المسلمين ، من اجلال وتكريم ، وتحريم على أعداء الدين .

ولأن أمير المؤمنين عمر ، أدرك ما تعنيه الآية الكريمة في سورة الاسراء ، بعد أن استعرضت علو اليهود مرتين ، في أيام داود وسليمان ، وفي أيام هيرود ، ثم دمارهم مرتين بعد هذا العلو .. وانتهت الآية ، بهذا النذير الالهي الواضح : « وان عدتم عدنا .. » أى ان عدتم الى فلسطين ، عدنا لكم بالنكال والدمار الذى حل بكم أيام البابليين وأيام الرومان ..

لهذا أمر عمر بن الخطاب ألا يقيم في القدس ، وما حولها من أرض فلسطين يهودي .

وهذا هو ما يجب أن نسير عليه ، تنفيذاً لأمر الله تباركت آياته ... فقد عاد اليهود الى فلسطين ، والله يأمرنا أن نعود اليهم بالنكال والدمار ، حتى تصبح أرضها بالنسبة لهم قطعة من جهنم .

وهذا الأمر من الله تعالى ليس أمراً مؤجلاً ، فان خطرهم - كلما طال بهم الأمد - يزداد ، وأذاهم يتصاعد .. ولقد فصلنا موقف اليهود من الدعوة الإسلامية في الجزء الأول من هذه الدراسة ، ورأينا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لم يمهل جيشه بعد فراغه من معركة الخندق الا ساعات من أول النهار ، ثم نادى فيهم المنادى :

« من كان سامعاً مطيعاً »

« فلا يصلين العصر »

« الا نرى بنى قريظة »

وقد جربنا أسلوب الأناة مع اليهود ، خلال عشرين سنة مضت لهم ، وهم على حدودنا ، فماذا كانت النتيجة : ثلاثة حروب ، وآلاف الغارات الصغيرة والكبيرة على كل الحدود العربية ... وما أم الرشراش والسموع والصبيحة وغزة وغيرها بالجرائم التي تنسى .. وهذا فضلا عن الجريمة الكبرى وهي اغتصاب أرض فلسطين نفسها ، وما حدث في دير ياسين وغيرها مما يذكرنا بما صنعه أسلافهم في أريحا عندما تمكنوا منها .

وانى واثق تماما ، بعد أن سبرت أغوار النفس العربية فى الأردن والعراق ومصر ، أن الله بالغ أمره ، وناصر جنده ، ودافعنا الى أن نخطو فى سبيله هذه الخطوات المقدسة انتى كتبت علينا ، لنظهر قدسنا ، ومسرى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، ومولد نبينا عيسى المسيح عليه السلام .



أما وقد اقتربت المعركة الفاصلة مع اليهود من ميقاتها ، فان واجبا علينا، وقد قدمنا فى الجزء الأول : « المعتدون اليهود من أيام موسى الى أيام ديان » الظروف التاريخية التى أدت الى وجود اسرائيل فوق أرضنا عام ١٩٤٨ .

ومتابعة لهذه الدراسة ، حتى نمهد أرض المعركة المنتظرة ، فمن الواجب أن نلقى نظرة فاحصة على النتائج التى ترتبت على وجود اسرائيل .

لقد اهتزت كل قواعد الحياة التقليدية فى المنطقة العربية كلها ، وكانت ارادة التغيير شاملة ، والتعبير عنها صادفه العنف فى بعض الأحيان . فقد قتل من رؤساء حكومات الهزيمة الأولى الملك عبد الله [الاردن] ، ومحمود فهمى النقراشى [مصر] ورياض الصلح [لبنان] . وأسلوب الاغتيال ليس هو الاسلوب الأمثل ، ولكن فى حيرة الضمير العربى ، وجدنا مثل هذه الانفجارات . ثم ما لبث المد الثورى أن شمل مصر وسوريا والعراق وتونس والجزائر ومراكش والسودان واليمن ، والجنوب اليمنى : كل منها حدث فيه شىء هام وخطير

وفى أثناء هذه التقلبات والثورات ، هاجم اليهود مرتين : أول مرة عام ١٩٥٦ مستعينين بالانجليز والفرنسيين . . وثانى مرة عام ١٩٦٧ مستعينين بترسانة السلاح الأمريكى ، ومؤامرات دول الاستعمار الغربى .

وهدف اليهود واضح ، وهو ألا يحدث استقرار فى المنطقة العربية ، وألا يمد العرب أيديهم الى القوى الاسلامية والمسيحية الضخمة التى تساندهم ، لكى يوقعوا بهم الضربة القاصمة ، كما ورد ذكرها فى القرآن الكريم . .

ولكن الى متى ستعمل هذه المعوقات عملها ؟

فى اعتقادنا أن المعركة القادمة ، التى سوف تدور على أرض صلبة من العقيدة والاستعداد المكين ، فيها فضل الخطاب . . والله المستعان .

القاهرة فى ٢٣/٣/١٩٦٩

محمد صبيح

قيام الثورة في مصر

رقصة النهاية ..

كان الملك فاروق قد استعد للفرار من القاهرة ليلة حريق القاهرة ، وأعد طائرة تحمله إلى خارج البلاد . فقد خشى أن تتطور الأمور في اليوم التالي ، وأن تهدد الأخطار حياته . فآثر أن يهرب قبل أن تغرق به سفينة العرش .

ولكن الأمور سارت إلى ما هو أحسن — من وجهة نظره — وقامت وزارة على ماهر ، ووزير داخليتها مرتضى المراغى ، بما هو مطلوب منهم . .

ولم تعمر وزارة على ماهر إلا خمسة أسابيع ، تم في خلالها القبض على معظم العناصر الوطنية المتحركة ، وأودعوا معتقل الهاكستيب ، وذلك استناداً إلى قانون الأحكام العرفية الذي استصدرته الوزارة النحاسية قبل إقالتها ، كما حددت إقامة سراج الدين وزير الداخلية السابق .

وحسب فاروق ، بعد أن كان قد أعد عدته للفرار ، أن الأمر استقر له من جديد ، ولو لفترة من الزمن ، فراح مع بطانته ، يظهرون أعظم الاستهانة والعبث بالشعور المصري ، والاستخفاف بالمسؤوليات العامة .

ألم تضم المعتقلات والسجون، المئات من الشباب القادرين على تحريك الرأي العام؟

ألم تتوقف الصحف الثورية التي كانت تعبر عنهم؟

ألم يتم القبض على الفدائيين ، ويجردوا من سلاحهم ، ويصادر نشاطهم ضد الإنجليز ، والذي كان يمكن أن يوجه للجهة الداخلية؟

ألم يتحدث رئيس حزب الأغلبية ، الذي تحول إلى المعارضة ، في اجتماعاته الخاصة ، عن أن وزارته كانت على وشك « تحقيق مطالب البلاد » ، بتدخل ووساطة من الملك عبد العزيز آل سعود ، ونورى السعيد ، وهو ضحكك على العقول ، لا بأس من أن تلوكة المجالس؟

ألم يتقدم فرسان الأحزاب الأخرى ، والسياسيون الذين لا ينتمون إلى أى حزب ، ولكنهم ينتظرون فى النوادى فرصة مواتية ، لكى توزع عليهم بعض المناصب الوزارية ، بوصفهم «رجال الساعة» ، وأصحاب الكفايات ، ومنقذى ما يمكن إنقاذه . . إلى آخر هذه الأوصاف السقيمة التى ملها الشعب وكره تردادها . .

والشعب . . أين وقف بعد حريق القاهرة ؟ أى فى الأشهر الستة التى أعقبت شهر يناير سنة ١٩٥٢ . .

الشعب تجمع متحفزاً . . متربصاً . . يتلفت فى تمر عن لحظة الخلاص ، من كل هذه التفاهة الداخلية ، لكى يقف وجهاً لوجه مع عدوه الأصيل ، وهو الاستعمار بغير أعوان ولا أسناد ولا عملاء . والصهيونية بعد ذلك متجمعة عبر الحدود فى أرض فلسطين بكل أحقادها وكل طاقتها على المكر والخداع .

ومن برج المراقبة . . وبين الصقر التى ترى المنظر أمامها كاملاً ، وواضحاً ، وقف الضباط الأحرار يتابعون الأحداث دقيقة بدقيقة ، وقرروا موعداً مبدئياً لضربهم المباغتة فى شهر مارس ، أى بعد شهرين من يوم السبت الأسود ، كما وصفه بعض الكتاب الأجانب وهو يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢

وقد سميت لعبة التغير الوزارى ، فى هذه الشهور الستة الأولى من عام ١٩٥٢ ، برقصة الوزارات . . وما هى برقصة ، ولكنها لعبة الموت لرجال السلطة جميعاً . .

فى أول مارس سنة ١٩٥٢ قبلت استقالة على ماهر . . وقد عرف أنه أصبح غير مرغوب فيه باستقالة اثنين من وزرائه أحدهما زكى عبد المتعال وزير المالية ، والثانى أحمد مرتضى المراغى وزير الداخلية .

وكان رئيس الوزراء الجديد ، معد سلفاً ، وهو أحمد نجيب الهملالى الذى كان وفدياً وخرج على الوفد . .

وكان نجم وزارته مرتضى المراغى ، الذى رجى دوائر القصر أن يتمكن من القضاء على الحركة الوطنية كلها ، كما تمكن من القضاء على حركة الفدائيين فى القنال ،

ولهذا أسندت إليه وزارة الحربية ، مع وزارة الداخلية . وكان وزير خارجيته عبد الخالق حسونة (الذى تولى أمانة الجامعة العربية بعد ذلك) . .

وما لبثت هذه الوزارة أن اصطدمت بضرائب كان أحمد عبود ، صاحب مصانع السكر وغيرها ، يأبى دفعها للحكومة . ودفع عبود ثمن تغيير الحكومة نقداً ، لكي تسقط وزارة الهلالى ، وتتألف وزارة يرأسها واحد من موظفى شركاته ، هو حسين سرى ، وحتى يضمن هذا الرئيس الجديد جبهة القصر ، فقد ضم إلى وزارته كريم ثابت الصحفى والمستشار المقرب من الملك ومن الانجليز أيضاً .

وفى وسط هذه الدوامة من التصرفات الحقاء أرادت حركة الضباط الأحرار أن تختبر قوة تنظيمها . . واتخذت من معركة جزئية ، هى رياضة نادى الضباط مجال هذا الاختبار .

كان الملك يرشح حسين سرى عامر ، أحد أعوانه فى الجيش لهذه الرئاسة ، واختار الضباط الأحرار محمد نجيب . . وهزم مرشح القصر هزيمة منكرة ، مما دل على أن لتشكيل الأحرار سيطرة ، وأحكام تنظيم . .

وقد استشاط الملك غضباً ، وأمر بحل مجلس الإدارة الجديد لهذا النادى . وخشى رئيس الوزراء من مغبة هذا الاصطدام ، ووجد أنه ضد مصلحة القصر فأشار على الملك بأن يعين الرئيس المنتخب للنادى وزيراً للحربية ، وبهذا تهدأ ثائرة الضباط الغاضبين . . ولكن الملك من على مائدة القمار فى نادى السيارات بالأسكندرية قال : لا . . . وقبل استقالة الوزارة التى بقيت فى الحكم ١٨ يوماً من ٢ يوليو إلى ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٢ . وكلف الملك نجيب الهلالى بأن يعود فيؤلف وزارة جديدة فشكها وضم إليها أحمد مرتضى المراغى للداخلية ، وقام بمحاولة صليانية لإرهاب ضباط الجيش ، وهى اختيار إسماعيل شيرين زوج الأميرة فوزية أخت الملك وزيراً للحربية .

أعلنت أسماء مجلس الوزراء الجديد فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ . وفى هذا اليوم تقرر مصير هذا العهد كله . . العهد الذى بدأ بثورة ١٩١٩ ، وولدت فيه الأحزاب ودستور سنة ١٩٢٣ ، وثلاث قرن كامل من التجارب المتعددة ، وهى الفترة التى قامت بدورها فى محاولة المحافظة على الديمقراطية السياسية فى الداخل ، دون أن

تتمكن من قمع طغيان القصر . وقد ختمت حياتها هناك في أرض فلسطين ، حيث دارت معارك انتهت بقيام دولة إسرائيل . وكان كل الدور الذي قامت به للملاقة هذه الهزيمة ، هو أن تأمر الصحف والإذاعة بذكر كلمة إسرائيل مذيلة بكلمة « المزعومة !! » .

٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

لم يكن المراقبون المستفيدون من حكم فاروق بغافلين عن مخاطر الأيام التي يعيشونها ، وقد أدركوا من توالى منشورات الضباط الأحرار ، ومن عجز كل قوى التجسس في الداخلية وفي الجيش ، أن تكشف عن أستار هذه الحركة ، والقائمين بها ... أدركوا أنه لا بد من إعداد قوة بعيدة عن الجيش ، تكون سنداً للقصر في أى أزمة داخلية تحدث ، ولا يتقدم الجيش لحلها .

أعد هؤلاء المستفيدون تشكيلين مسلحين :

أولهما : في مصلحة السجون . إذ ظل حيدر قائد الجيش مشرفاً على حرس السجون ، وزاد عددهم ، ودربهم ، وزودهم بأسلحة ناجزة لكي يكونوا مدداً عند اللزوم .

ثانيهما : قوة في القاهرة من جنود الشرطة اسميت « بلوكات النظام » ، أعدها مرتضى الراغى ، وصل عددها إلى ألفين ، يمكن زيادتها إلى ثلاثة آلاف ، وجعلها تحت تصرف وزارة الداخلية مباشرة . ومسلحها بسلح حديث ، حتى تكون قوة ضاربة أو قوة اشتباك عند اللزوم ضد أى تحركات شعبية .

ولكن ظلت مشكلة المشاكل التي تترك الجميع هي لجنة الضباط الأحرار . وقد ألقى البوليس السياسى والقسم المخصوص^(١) مسئولية التحرى عنهم ومعرفتهم على مخبرات الجيش . وكانت مخبرات الجيش ، ومكتب القسائد العام بما نفذ إليه

(١) البوليس السياسى هو الجهاز الذى كان يعمل ضد الحركة الوطنية فى القاهرة . والقسم المخصوص هو جهاز الرئاسة فى وزارة الداخلية الذى كان يشرف على جهاز التجسس فى البلاد كلها . وكان يرأسه لمدة طويلة مختار خليل ، ثم عمر حسن ، ثم إبراهيم امام .

التشكيل واستطاع السيطرة على أهم أقسام فيه وتلقى الفريق حيدر أمراً في ١٠ يوليو سنة ١٩٥٢ بأن يضع يده على المجلس التنفيذي للضباط الأحرار ، وقد دلت التحريات على أنهم ١٢ ضابطاً ، وهدده الملك بأنه إن لم يفعل فسوف يعزله من الخدمة .

وكان هذا الأمر طريفاً في صياغته ، وطريقة تبليغه . فإن عبد العزيز رئيس خدم الملك ، كتب بقلم رصاص ورقة لرئيس الديوان الملكي الدكتور حافظ عفيفي ، يقول فيها بلسان الملك طبعاً : يجب أن يقال حيدر في ظرف خمسة أيام إذا لم يحل اللجنة التنفيذية لنادي الضباط ، ويعزل الاثنى عشر ضابطاً الذين يتآمرون على جلالة الملك . . ونقل رئيس الديوان لرئيس الوزراء حسين سرى هذه التعليمات ، وقال له أن حيدر يجب ، أن يعرف هؤلاء الضباط .

ووقع حيدر في ورطة شديدة ، واستدعى مدير مكتبه ، وأبلغه تعليمات رئيس الوزارة ، التي تلقاها من رئيس الديوان . وأنكر مدير مكتبه أنه يعرف شيئاً عن هؤلاء الضباط ، ولكنه يسمع بأنهم ضد حسين سرى عامر . .

ولم يكن مدير المكتب شخصاً غير الصاغ صلاح سالم ... أحد الضباط الأحرار . روى ثروت عكاشة ، في مجلة التحرير ، بعض التفاصيل عن الأسابيع الحرجة السابقة لقيام الثورة ، قال : في ١٠ يوليو سنة ١٩٥٢ زارني جمال عبد الناصر وخاله محي الدين في منزلي ، وطلبوا إلي كما كانا يفعلان عادة أن اسمعها قطعة موسيقا شهرزاد . وسرعان ما نشرت الموسيقا سحرها في الجو . وكان جمال يصغي إليها بعيون حاملة ، وما كادت تنتهي حتى نهض فجأة ، وأوقف البيك أب وقال : سنعمل في بداية الشهر القادم ، في ٥ أغسطس ، حتى يقبض الضباط رواتبهم . وحتى تعود من غزة الكتيبة ١٣ مشاة . وهي إحدى الوحدات الأساسية في الحركة . .

ويستمر ثروت عكاشة في ذكرياته فيقول إنه بينما كان يتناول أفطاره في العشرين من يوليو ، وكان حسين الشافعي ضيفه على مائدة الإفطار ، إذ تلقى تلفوناً من الاسكندرية بأن رئيس الوزراء حسين سرى استقال ، وإن الضباط المكروه حسين سرى عامر ، سوف يعين وزيراً للحربية ، وسوف يلقي القبض على عدد من الضباط . . . فذهب ثروت فوراً إلى منزل جمال عبد الناصر ، وكان مكتظاً في هذا الصباح بالعديد من الضباط الأحرار ، فأخبره بما سمع .

وعندها قرر جمال عبد الناصر استدعاء اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار إلى اجتماع عاجل ، لأخذ قرار بالقيام بالحركة فوراً . . وكان ثلاثة منهم في سيناء . كما دعى الضباط الأربعة الذين انضموا للجنة التنفيذية أخيراً ، وهم زكريا محي الدين وحسين الشافعي وعبد المنعم أمين ويوسف صديق منصور . وبذا اكتمل عدد هذه اللجنة ١٢ عضواً . .

وعقد الاجتماع المنتظر في منزل خالد محي الدين . وأخذ عبد الحكيم عامر يقرأ عليهم خطة العمل التي وضعها جمال عبد الناصر . .

وكانت الخطة تقضي باحتلال مقر القيادة العامة والشكنات التابعة لها ، والاستيلاء على محطة الاذاعة ، ومصلحة التليفونات ، ومحطة سكك حديد القاهرة وأن يكون ذلك بعد منتصف ليلة ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ . . في الساعة الواحدة صباحاً . . أي قبل فجر ٢٣ يوليو .

وتلقى جمال عبد الناصر خبراً من أحد أعوانه بأن الفريق حسين فريد رئيس أركان الحرب دعا إلى اجتماع عاجل في مقر القيادة الساعة العاشرة مساءً يحضره جميع قواد الأسلحة الموجودون في القاهرة . فقرر جمال تقديم ساعة الصفر إلى الحادية عشرة . . وأخذ بنفسه يطوف على منازل زملائه بسيارته الأوستن الصغيرة . وتواعد معهم على اللقاء في هذا الموعد تماماً .

وروى الرئيس جمال عبد الناصر أحداث تلك الليلة لجريدة الجمهورية . . قال لقد مرت بصعوبات كثيرة في حياتي ، ولكن أخرج ظرف عرقته كان ليلة الثاني والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، أي ليلة تنفيذ الثورة . كان يجب أن نحتل مقر القيادة في الساعة الواحدة والنصف من تلك الليلة . وكان من المتفق عليه أن تلتقي جميع القوات في القيادة العامة . ولكنني علمت أن القيادة العامة علمت بما اعتزمنا القيام به لأن أحد الضباط المتتمين لتشكيل الأحرار ، أثار ظنون شقيقه ، فحاول أن يحجزه عن الخروج ، ولما أخفق في منعه اتصل تليفونياً بقصر القبة وأبلغ ضابط الحرس ، فالتصّل بدوره بضابط قصر المنتزه حيث يقيم الملك ، وفوراً صدرت الأوامر إلى رئيس أركان الحرب ، كي يقاوم حركتنا ويقضى عليها . فاتجه إلى مقر القيادة العامة ، ومن هناك دعا جميع ضباطه لوضع خطة للقضاء علينا بسرعة .

قال جمال :

« تلقيت الخبر الساعة الحادية عشر ليلاً ، وكنت وقتها ما ازال في المنزل ، بعد أن تمت جميع الاستعدادات ، وكانت الوسيلة الوحيدة لحل المشكلة هي أسر رئيس أركان الحرب وجميع الضباط الذين كانوا معه قبل إنتهاء اجتماعهم والبدء في تنفيذ خططهم . قصدنا مقر البوليس الحربي ، فوجدنا سرية حراسة على الباب ، فتركناه واتجهنا فوراً إلى مقر فرقة الفرسان ، فوجدنا الباب مغلقاً ، وقد وضعت عليه حراسة مشددة ، فعزمنا على الذهاب إلى المأظلة نطلب المدد . وفي الطريق رأينا سيارات عديدة تتجه إلى القاهرة . وكان الوقت حوالى الثانية عشرة والنصف ، أى قبل الموعد الذى حددناه للتحرك بنصف ساعة . . . وأخذنا جانب الطريق لنلج من يقود هذه الوحدات ، فوجدنا اثنين من قواد الفرق في المقدمة ، وخشيناً أن يكونا قد انقلبا علينا ، وانضمنا إلى رئيس الأركان ، وفجأة وجدت أنفسنا ، محاصرين بخمسة ضباط من رتبة الملازم ، ومعهم المدافع الرشاشة وأمرونا بعدم الحركة .

« وبعد لحظات قصيرة ، ظهر البكباشى يوسف منصور ، وأخذ ينادى من السيارة الثالثة في المقدمة ، ولينبثى في سرور ، أنه قد أسر قائد الفرقة ومعاونيه ، وحجز جميع الضباط المتجهين إلى المأظلة ، وإنه في طريقه إلى موعد اللقاء . .

« عندئذ فهمت أنه بدأ سيره في منتصف الليل ، أى أخطأ في موعد التحرك وقدمه ساعة . .

« ولم يكن معه غير ثمانين جندياً ، إذ أن باقى وحدته لم تصل من فلسطين . .
« وكان أمامنا حل وحيد هو احتلال مقر القيادة بهذه القوة ، فوصلنا إليها قبل الساعة الواحدة صباحاً ، بعشر دقائق ، أى قبل الموعد المتفق عليه بأربعين دقيقة .
« وهاجم هؤلاء الضباط الشجعان الذين قدموا من المأظلة ، مقر القيادة ، ومعهم ثلاثون جندياً . . وتبادلنا إطلاق النار مع حرس البوابة ، واستمرت المعركة أربعين دقيقة ، وفي الساعة الواحدة والنصف استولينا على مقر القيادة ، ووضعنا يداًنا على كل من كان فيها من قواد . .

* * *

كان في حساب جمال عبد الناصر أن يلقى القبض على ١٢ فريقاً ولواء من قواد الجيش الموجودين بالقاهرة ، دون أسمائهم في كشف ، ووزع العملية على زملائه .

ولكن الصيد الذى حصل عليه فى مبنى القيادة كان أوفر . . لقد نزل من مقر القيادة عشرون ضابطاً كبيراً أيديهم فوق رؤوسهم .

وبينما كانوا يركبون السيارات إلى مقر حجزهم الاحتياطى ، سمعت جلبة قوية ، وتبين صوت أنور السادات . فقد نسى كلمة السر ، ووقع فى أسر القوات التى بدأت تتوافد وكان وقتها فى السينما ، وعند عودته تلقى من البواب الإشارة التى تركها له جمال ، فخرج إلى شارع الخليفة المأمون .

وكان على أنور السادات أن يقطع الاتصالات التليفونية فى العاصمة . ولكن تأخره فى السينما أدى إلى الاستفادة من شبكة التليفونات فى هذه اللحظات الحاسمة . وجلس عبد الناصر على مكتب القائد ، وأخذ يتلقى ويرد على التليفونات الكثيرة المنتشرة حوله ، كل بما يناسبه .

وكان القلم السياسى قد أبلغ الوزارة والقصر بأن دبابات الجيش المصرى ، تحتل الكبارى والإذاعة والتليفونات والمراكز الهامة . وتراىض أمام قصر عابدين . فأخذ حيدر يتصل من الاسكندرية بالقيادة ، يسأل :

— هل هناك شىء غير عادى ؟

فيحصل على رد بأن كل شىء هادىء فى القيادة . . .

ولما توالى إشارات القلم السياسى على الاسكندرية ، أصر حيدر على الاتصال بالفريق حسين فريد بنفسه . . . فكان الرد : إنه فى السجن !!

وعندها . . أى بعد الفجر بقليل ، تبين لحيدر ، والملك ، والوزارة ، أن الضباط الأحرار استولوا على قيادة الجيش ، وعلى القاهرة كلها . . . وكانت دبابات حسين الشافعى هى التى قامت بهذه المهمة ، بعد أن أسرت قائد الفرسان .

وأرسل عبد الناصر دوريات استطلاع فى طريق السويس كي تبين إذا كانت هناك أى تحركات للإنجليز . كما كلف على صبرى من مخبرات الطيران بأن يتصل بالسفارة الأمريكية ليخبرها بأن الحركة داخلية ، وعليها أن تبلغ بدورها السفارة البريطانية . . .

وفى الساعة الرابعة والنصف صباحاً ، تلقى عبد الناصر مكالمة من صلاح سالم فى سينا بأن الخطة نفذت فى العريش وأن الأحرار تولوا القيادة فى سينا .

المؤلف .. وهؤلاء الثوار ..

ورواية أحداث الثورة — أكبر وأنجح ثورة مصرية — في تاريخنا الحديث ..
يحمل كل منا ذكريات عن تلك الأيام ، ولا أرى حرجاً في أن أروى ما تعيه ذاكرتي
في هذه المناسبة . . .

كنت في الاسكندرية ليلة ٢٢ يوليو ، أتحدث مع الصديق المرحوم الدكتور محمد
فاضل سليم ، وكان على أوثق الصلات الشخصية بالدكتور حافظ عفيفي رئيس
الديوان .. وكان ذلك في فندق سيسيل حيث كنا نزل . قلت للصديق :
— إن عبث القصر وصل إلى غايته .. وستحدث ثورة قطعاً . . .

فتبسم ضاحكاً وقال لي :

— أنت تحلم بأوهام صباك ، وما تمنيته أيام مصر الفتاة ! لا شيء اسمه ثورة في
قاموس شعبنا ! !

قلت له : سنة ١٨٨٢ ، سنة ١٩١٩ .. هل نسيناها ؟

قال : كانت قلته . . .

ومر بنا الأستاذ ادجار جلاد ، وكان من الصحفيين المقربين من القصر ، فاولنا
أن نعرف منه هذا التكوين الغريب لوزارة الهلال ، فقال :

— البلد عايزه تطهير من الوفديين ، ومحاكمات . . . الهلال حيعمل كده .
ويوقف الانتخابات . . . والبرلمان .

وعدت أتحدث عن الثورة .. ثم ذهبت إلى غرفتي . وفي الساعة الخامسة صباحاً
دق جرس التليفون ، وإذا صديقي الدكتور فاضل يتصل بي ، ويقول :

— اصح .. انت سامعني .. أنا زعلان جداً .. لما انت عارف من الليل إن
فيه ثورة ، ما صارحتيش ليه ١٩

وحسبت أن أحداً يحلم .. ولكني قلت وأنا أحاول أن أكون أكثر تيقظاً :

— ليه يا دكتور .. أنا مش فاهم ..

فقال : حافظ باشا [عفيفي] على التليفون . ولما قال لي إن فيه ثورة في مصر ، قلت
له أنك عارف فطلب مني أن أسألك عن القائمين بها وأرد عليه حالا .

وهنا استيقظت تماماً .. وقلت له :

— حافظ باشا مين .. وثورة إيه ...

قال : أنا جاي لك .. غرفتك نمرة كم ؟

وجاءني الصديق ، في هذه الساعة المبكرة ، ليكلم من غرفتي الدكتور حافظ عفيفي ويخبره عن معلوماتي !

وما كانت لدى أية معلومات ، سوى ما توقعته . فخرج من عندي غضبان أسفا ، على تضيعي لحق الصداقة ، وتكتمى أمراً سوف يعلمه الجميع عما قريب ..

وتذكرت وقتها حديثاً دار منذ ثلاثة أيام ، بيني ، وبين رجل من أفاضل المصريين وهو السيد عبد الهادي القصبي ، من زعماء الغريبة ، وعميد بيت القصبي ، صاحب النفوذ الروحي العظيم ، وكان أبوه أوجده الذي بسط نفوذه على السيد عبد الله النديم — مجاهد الثورة العراقية الكبير — وأمكنه أن يحجبه عن أعين مطارديه لدى أتباعه ، حوالى تسعة أعوام كاملة !

قال لي السيد القصبي ، وأنا أدير معه حديث الحالة التي آلت إليها البلاد ، وهو حديث كل المصريين .. قال لي عبارة غريبة :

— أنت صحفي .. وأنبهك إلى حدث كبير سوف يقوم به ضباط الجيش الشبان قريباً .. قريباً جداً ..

فسألت : حدث إيه .. تقصد ثورة مثلاً !

فأجاب : أيوه ...

* * *

ولم تكن الصحف قد وصلت إلى الاسكندرية ، فنزلت من الفندق ، أطالع وجوه الناس ، وإذا بي أسمع الراديو في محل قريب ، وأتبع صوتاً يذيع بيانا على الناس عرفت فيه صوت أنور السادات ... وأصغيت له .. ثم ظلت في مكاني حتى أعيدت تلاوة البيانات .. وأدركت على الفور ، أن ما حدثني به السيد عبد الهادي القصبي وقع .. وأن صوت السادات ، يدل على الاتجاه الذي هبت منه ربيع هذه الثورة ..

إنها إذن ثورة وطنية شابة . . تعتمد على قواعدنا الخلقية والوطنية ، التي عاش بها ولها شباب الثلاثينيات ، فإذا بها تنجح في الخمسينيات . .

وبعد يوم ، وفي القطار العائد إلى القاهرة ، جاء مجلسي بجوار الضابط محمود رياض ، الذي عرفته قبل عامين ضمن وفد مصر لدى هيئة الأمم في نيويورك ، والذي أصبح الآن (عام ١٩٦٩) وزيراً للخارجية . .

لقد تحدثنا مدة ساعتين . . فإذا بي أسمع منه نفس العبارات والنغمات التي طالما ملأت نفوس آلاف الشباب . . وقد تحولت بين هؤلاء الضباط إلى عمل ، وتصميم .

وفي القاهرة ، ذهبت مع صديقي وجيه أباطة الذي تولى الشؤون العامة ، وأشرف على الصحافة ، لزيارة أنور السادات في القيادة . . وكان الليل قد انتصف ، وبعد أن انصرفت ، مررت على مكتب وجيه فسألني :

— شفت جمال عبد الناصر . .

فسألته : مين جمال عبد الناصر ؟

الله . . أنت يظهر نسيت زميلنا يا أخى فى مصر الفتاة . . ده دخل عليكم واتم بتتكلّموا . .

— اللي كان واقف أمام الشباك ده . . .

— أيوه . . هو رئيس حركتنا !! ؟

وخرجت أحاول تذكر جمال عبد الناصر . . وفجأة تذكرت هذا الشاب الصامت ، الذى كان يرأس شعبة مصر الفتاة فى باب الشعرية ، والذي قص على كيف اشتبك مع المدرس الإنجليزي فى مدرسته الثانوية ، لأنه أهان مصر . وأوقعه أرضاً ، وفصل . . وأصرت مدرسته على ألا تعود للعمل إلا إذا عاد قائدهم الوطنى الذى ثار لكرامة بلده .

وقد تحدث الرئيس بعد ذلك عن ثلاث سنوات قضاها فى هذه الحركة الوطنية من ميدان المنشية إلى مدرسة حلوان ، إلى هذه المدرسة الأخيرة ، وذكرنى ببليلة قضاها مع بعض الشباب فى قسم عابدين تنفيذاً لقرار مقاطعة بعض الأجانب الذين كانوا يتعالون على مصر والكرامة المصرية ! !

ولقد التحق قائد هذه الثورة بالكلية الحربية ، بعد أن انتهت صلاته بحركة مصر الفتاة ، ولكنها أثرت في نفسه تأثيراً ما يزال يذكره . وكذلك فعلت هذه الحركة مع كثير من زملائه الشباب الذين التحقوا بصفوف القوات المسلحة ، أو الذين عملوا في الحياة المدنية . وكانت صحيفاتنا في صحف مصر الفتاة تقول : يا شباب سنة ١٩٣٣ كن كشباب سنة ١٩١٩ . . . وتقول : عزاء لجيش لا يملك دبابة واحدة . . . وكنا نقول : يا فضيحة جيش يسقط في مناوراتهِ « خروفاً » بالبراشوت بدلاً من جندي !! وقد حوكنّا على كل هذا الكلام ، وبرأتنا منه المحاكم الوطنية ، ولكنه ترك بصماته في جيلنا كله .

وحاول مرتضى المراغى أن يجرب « شطارته » مع ضباط الثورة ، ولكن قيادة الأحرار كانت قد اتصلت بعلي ماهر ، وعرضت عليه أن يخلف وزارة نجيب الهلالي . قبل على أن يتلقى التكليف من الملك . .

ولم يكن الملك قادراً على أن يعارض في شيء . فقد كلف علي ماهر برئاسة الوزارة الجديدة ، الذي احتفظ لنفسه بالداخلية والحربية . وجمع بعض كبار الموظفين والمستقلين ليعاونوه في وزارته ، وكان تاريخ تشكيل هذه الوزارة ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢ .

وسنرى كيف سارت الأمور بين قيادة الثورة في القاهرة ، ومشرح العمليات الجديدة في الإسكندرية .

.. وانطلقت عجلة الثورة

تحرك من القاهرة طابوران مصفحان ، بعد أن اطمأنت الثورة إلى وضع يدها على مراقبها ، وعلى البوليس السياسي ، وقضت على مؤامرة قطع الإرسال الإذاعي من محطة الإرسال ، وذلك لتعزيز حامية الإسكندرية ، واسقاط الحكم كله ، الذي كان قد تركز في العاصمة الثانية . .

وبقي نصف مجلس الثورة في القاهرة ، بقيادة جمال عبد الناصر . . ونعني بالقاهرة مركز القيادة في شارع الخليفة المأمون ، فإن أسرة جمال ، وبقية أسر هؤلاء الضباط الثائرين كانت تسمع الأنباء مثل غيرها . . وفي اليوم التالي ، بعث جمال لزوجته كلمة مع ثروت عكاشة يقول لها إنه لن يعود إلى البيت قبل التأكد من نجاح الثورة ، وهذا يقتضي بضعة أيام . كما كان قد ترك لأسرته مع أخيه مبلغاً من المال تستعين به في حالة حدوث مكروه . .

وإذا كنا قد ذكرنا أسماء بعض الذين شاركوا في الثورة ، أو الذين مهدوا لها عبر السنوات العشرين السابقة لقيامها ونجاحها ، فلا ينبغي أن ننسى دور الزوجات والأمهات . . أن بطولة الصبر والاحتمال لا تقاس إليها بطولة . وأيام وشهور القلق ، التي تصل أحياناً إلى سنوات ، هي ضريبة دفعتها كل أسرة في هذا الكفاح المقدس ، ولا ينبغي لتاريخنا القومي أن يمر عليها مسرعاً متعجلاً . وحسبهن منا هذه التحية السريعة ، حتى يتاح لنا تأريخ الجانب الإنساني من ثوراتنا جميعاً .

لقد ورد في نص البيان الأول الذي قدمت به الثورة نفسها :

« اجتازت فترة عصيبة في تاريخها الأخير ، من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم . وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش ، وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين . وأما فترة ما بعد هذه الحرب ، فقد تضافرت فيها عوامل الفساد . وتآمر الخونة على الجيش . وتولى أمره إما جاهل أو فاسد . حتى أصبح مصر بلا جيش يحميها . وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا ، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال ثقف في قدرتهم ، وفي خلقهم ، وفي وطنيتهم . ولا بد أن مصر كلها ستلتقي هذا الخبر بالابتهاج والترحيب .

« وأما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين ، فهؤلاء لن ينالهم ضرر ، وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب . وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم ، أصبح كله يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور . مجرداً من أية غاية . وانتهز هذه الفرصة ، فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة ، بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف . لأن هذا ليس في صالح مصر ، وأن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل . وسيلقي فاعله جزاءه الخائن في الحال . وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس .

« وانا نطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم ، وأرواحهم ، وأموالهم . ويعتبر الجيش نفسه مسؤولاً عنهم .

« والله ولي التوفيق » .

نفي فاروق ..

ولترك زكريا محي الدين يقود عملية الإسكندرية ، لنطالع ما دونه روبرت سان جورج في كتابه : الرئيس .. عن المحادثات التليفونية التي دارت بين الإسكندرية — ثكنات مصطفى باشا — والقاهرة ، مقر القيادة بالقبة .. وكيف أدار جمال عبد الناصر عمليات نفي فاروق ، والتيارات التي صاحبت هذه العملية .

الاسكندرية : ليس مؤكداً مكان فاروق فالبعض يقول إنه في قصر المنتزه . والبعض يقول أنه في رأس التين ، والبعض يقول أنه محتبىء في مستشفى .

ناصر : على رجال مخابراتكم أن يحددوا مكانه بسرعة ..

الاسكندرية : أحد جواسيس القصر يؤكد أن فاروق كان يتحدث مع البريطانيين ويطلب مساعدة عسكرية من القنال :

ناصر : يجب أن نبدأ عملياتنا العسكرية بأسرع وقت ممكن .

الاسكندرية : تفيد الأنباء أن فاروق في قصر المنتزه .

ناصر : راقبوا قصر رأس التين على أية حال .

الاسكندرية : قائد الطابور المسلح ينصح بأن ننتظر حتى الصباح لنبدأ عملياتنا العسكرية . فرجاله لم يناموا لمدة ثلاث ليالى .

ناصر : زكريا محي الدين هو المسئول عن العملية . وقراره هو النهائي .

الاسكندرية : أتنا نعتقد أن فاروق ذهب إلى قصر رأس التين في الطرف الآخر من المدينة حتى يستطيع الهروب عن طريق البحر بسهولة أكثر .

ناصر : لا بد من مهاجمة كلا القصرين غداً .

الاسكندرية : لقد انتهى السادات من اعداد الانذار لرئيس الوزراء على ما هو ليقوم بدوره بتسليمه للملك غداً . وينتهي الانذار بهذه الكلمات ، وحيث أنك قد أسأت بذلك لسمعة مصر على مشهد من البلدان الأخرى ، وحيث أنك قد تغاضيت عن الرشوة والخيانة التي أعقبت هزيمتنا في حرب فلسطين ، فإننا ، باسم الجيش الذي

يمثل إرادة الشعب قد حولنا مطالبتك بالتخلي عن العرش لصالح ابنك الأمير احمد
فؤاد الثانى قبل الساعة الثانية عشرة ومغادرة البلاد نهائياً قبل الساعة السادسة مساء
اليوم . وإذا رفضت الرضوخ لهذا الانذار ، فإنك ستتحمل مسئولية العواقب ، .

ناصر : بلغ السادات بأن يسلم الانذار إلى رئيس الوزراء فى وقت مبكر من الصباح
بقدر الامكان ، ليحمله إلى الملك .

الاسكندرية : جمال سالم لا يوافق على الخطة التى أعدت للغد . فهو يرى ألا يسمح
لفاروق بالإفلات ، بل يجب أن ينزل عليه أقصى عقاب بأسرع وقت ممكن .

ناصر : هل يعتقد بضرورة شنقه ؟

الاسكندرية : نعم : ويصمم السادات على أن تنفذ أوامرك المعدة للغد .

ناصر : يجب نفي فاروق .

وبقى ذكرى يا محي الدين على الحيا . وهو فى القيادة العامة منكباً على خرائط
لاعداد حصار القصرين فى الغد .

وحوالى الساعة السادسة صباحاً استيقظ جمال عبد الناصر فى مواعده المحدد فى
القيادة العامة ووصل جمال سالم بالطائرة من الاسكندرية ليتناقش معه فى ضرورة إعدام
فاروق . أنصت ناصر له بهدوء . وعندما انتهى سالم من كلامه قال : « عندى فكرة .
سأذهب لأقابل عزيز المصرى . بما ينجلى أن أوقف الرجل العجوز مبكراً فى الصباح ،
ولكن دعنا نرى ماذا سيقول ، .

فارتدى ملابسه بسرعة واستقل عربة .

ضم الرجل العجوز صوته لصوت جمال سالم ، وقال : « إن رأساً مثل رأس فاروق
لا تهمنى إلا عندما تسقط ، .

ونبه ناصر إلى أنه قد يستعصى وقف سيل الدماء عندما يبدأ إراقتها .

فرد عليه عزيز المصرى قائلاً : « يجب أن تقتل وتقتل وتقتل . يجب أن تطيح
برقاب الآلاف لتنظف البلاد ، .

وبعد وقت قصير اجتمع خمسة أعضاء من اللجنة فى القيادة العامة وتحدث إليهم

جمال سالم حديثاً فصيحاً . ثم تحدث ناصر برزانة قائلاً : « إذا شقنا فاروق ، فإن عامة الشعب في اليوم التالي ستقتل على الأقل ثلاثمائة من حاشيته وهذا سيؤدي إلى أعمال قتل أخرى . ولن يكون هناك سبيل لوقفها » .

وتحدث كثيرون غيره . ثم أخذت الأصوات . وكانت الأغلبية في صف ناصر . وبعد عدة ساعات بدأ ورود رسالات من الاسكندرية مرة أخرى .

الاسكندرية : إتنا على اتصال لاسلكي مستمر برجالنا في كل من القصرين وبولسكي وطائرات المتيور والفامباير النفاثة تطير خلف القصرين وأمامهما . وفوقهما تطير قاذفات قنابل من أربعة محركات تحمل ذخيرة من القنابل : وهناك طائرات هوكر فيوريز المقاتلة على استعداد للضرب في حالة محاولة الملك الهروب عن طريق الجو ، وقد أطلق النار على رجالنا من برج في رأس التين . ورد على النار بالمثل ... أوقف الآن إطلاق النار من كلا الجانبين ... واستسلم الحرس الملكي ... وجرح ستة أشخاص .. وافق فاروق أخيراً على النزول عن العرش بشروط سبعة .

ناصر : ما هي ؟

الاسكندرية : أولاً ، أن يتم النزول عن العرش بطريقة تحفظ كرامته .

ناصر : ليست هناك من سبب لثلا يحدث ذلك .

الاسكندرية : وثانياً ، أن يسمح له بالذهاب إلى نابولي على اليخت الملكي « المحروسة » .

ناصر : هذا اليخت كلف الشعب المصري قدراً كبيراً من المال . يستطيع أن يبحر عليه ، ولكن لا بد من رجوعه بعد توصيله إلى شاطئ نابولي .

الاسكندرية : وثالثاً ، أن تطلق له المدفعية ٢١ طلقة تحية له .

ناصر : هذه التحية لا مانع منها .

الاسكندرية : ورابعاً ، أن يحضر ضباط الثورة رحيله حتى يضمن سلامته إلى آخر دقيقة .

ناصر : لا مانع .

الاسكندرية : وخامساً ، أن يسمح لانتونيو بوللي ، الكهربائي السابق في قصره الذي عادة ما يصحبه في مغامراته بالليل ، ومحمد حسن ، وصيفه ، بمصاحبته .

ناصر : هذا الطلب مرفوض .

الاسكندرية : وسادساً ، أن يسمح له بأخذ مجموعات الطوابع والعملات معه .

ناصر : هذه الطوابع والعملات تقدر بملايين الجنيهات المصرية وهو اشتراها بأموال الشعب . هذا الطلب مرفوض .

الاسكندرية : ورغبته الأخيرة هي أن تدار ثرواته وثروات اخواته في داخل مصر لحسابهم .

ناصر : لانستطيع أن نعد بذلك .

الاسكندرية : وافق الملك على توقيع اتفاق التنازل في الساعة الثانية عشرة ظهراً .

ناصر : هذا سيعطيه مهلة لمدة ست ساعات لاعداد حقائبه ورحيله .

الاسكندرية : أجل .

ناصر : اقرأوا لي صيغة التنازل عن العرش .

الاسكندرية : نحن فاروق الأول ، رغبة منا في رفاهية وسعادة وتقديم بلادنا ، وأملنا في مساعدتها على التغلب على الصعوبات التي تواجهها في الظروف الحاسمة . قررنا التنازل عن العرش لابننا ولي العهد أحمد فؤاد الثاني . ونحن بذلك نحول السلطة لعللي ماهر رئيس مجلس الوزراء للعمل طبقاً لهذا القرار .

ناصر : هذا لا يكفي . يجب أن تضعوا في مكان ما في الجملة الأولى شيئاً عن ارادة الشعب .

وأبلغوا جميع الضباط الأحرار الموجودين عندهم بأن يتخذوا أما كنهم على السفن الحربية الرئيسية في الميناء ، حتى يبقى الموقف تحت سيطرتنا .

الاسكندرية : لقد أحصينا عدد الحقائب التي نقلت إلى « المحروسة » فبلغت مائتين وأربع حقائب . وأخذ معه أيضاً بعض صناديق من الشمبانزا والنيذ من

المخازن الملكية ، وارتدى فاروق الزى الأبيض لأمير البحر في الأسطول المصري . وهو يودع الناس في الصالون الكبير في قصره ، لقد أرسل الملك الملكة ناريمان وبناته الثلاثة وإبنة الطفل إلى اليخت . وكذا مربية الطفل الانجليزية وثلاثة حراس البانيين ومدرّب كلاب ويوجد هنا رئيس الوزراء والسفير الأمريكى كافرى ، وهما يقومان بمحادثتهما النهائية مع الملك والآن يغادر فاروق القصر عن طريق سلام تؤدى إلى منصة مرتفعة قليلا . والآن ذهب إلى المحروسة ، وهو متأثر .

ناصر : ماذا كانت كلمات فاروق الأخيرة ؟

الاسكندرية : قال : « إن ما فعلتموه بى كنت سأفعله بكم ، ثم أضاف : « إن مهمتكم ستكون شاقة ، ليس من السهل حكم مصر ، . والآن تؤدى المدافع تحيتها ، وبدأت المحروسة تتحرك إلى البحر .

ناصر : الحمد لله .

لماذا لم يتدخل الانجليز ؟

ونعود مرة أخرى فنسأل : لماذا لم يتدخل الانجليز لصالح فاروق ؟

ونجيب بنفس الإجابة التى قدمناها على هذا السؤال بعد حريق القاهرة . فإن الانجليز كانوا قد فرغوا من فاروق ، ولم يعد يستحق معركة تخوضها جنودهم . . وإذا كان إيدن ووزارة تشرشل قد تآقت إلى احتلال القاهرة يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ — وهو يوم الحريق — فامتنع العسكريون ، لأن الجيش المصرى كان قد تسلم العاصمة ، فإن موقفهم بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، هو نفس الموقف ، لأن الجيش المصرى — تسلم الحكم كله ، لا القاهرة وحدها ، وعلى رأسه قيادة جديدة ، لا يعرفون عنها شيئاً ، وإن كانوا قد أحسوا بوجودها تتكون مع الأيام ، خلال عشرة أعوام أى منذ صيف سنة ١٩٤٢ ، حتى هذا الأسبوع الحار الملهب من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ .

ولقد حاول فاروق أن يتصل بالانجليز . . وطلب من كافرى سفير الولايات المتحدة ، أن يدعوهم للتدخل ، فما كان فى وسعه أن يتدخل بعد أن قطعت عنه

الاتصالات التليفونية باستثناء خط سرى واحد . . ولكن الجواب على هذه الدعوة كان سلباً ، وكل ما ضمنه له السفير الأمريكى ، هو وعد من قيادة الثورة بالألا تمس حياته ، إذا نفذ ما طلب منه . . كما سلمه الملك خاتماً ثميناً جداً . كانت إحدى المؤسسات الأمريكية عرضته عليه لشرائه ، ولم يكن دفع ثمنه .

والذى علمناه : أن جهات كثيرة كانت قبيل الثورة ، تبحث عن بديل لفاروق ، وكان الانجليز — عن طريق وكلائهم — يحسون النبض ، ويسألون إذا كانت مصر تقبل مجلس وصاية يرأسه الأمير محمد على ، أو هل لدى أحد حل آخر أنسب من هذا ؟ وكان هذا الأمير ، يسعى جاهداً ليحصل على تأييد بقية الأمراء .

وفى نفس الوقت ، كان سكرتير الوفد ، يحاول جس نبض الجيش . بمفاوضات عن طريق اثنين من الأحرار : أنور السادات ، وأحمد أنور . . . ماذا يكون الموقف إذا اصطدموا مع فاروق ، وحاولوا خلعه ؟ . . وقد نفى الضباط الأحرار أيديهم من الوفد ، بعد أن وجدوا أنه يحاول أن يحصل على معلومات عنهم ، ولم يلحوا طابع الجد فيما كان يتحدث عنه . .

كانت هذه الأحاديث سابقة على سقوط حكم الوفد . . أما الآن وقد قامت ثورة الجيش ، وانتصرت ، وخرج فاروق ، وزعماء الوفد وغيرهم من الأحزاب ، كانوا فى مصايهم الأوروبية يستمتعون بوقتهم ، فلم يعد هناك مجال لهم معاونة أو مستشارين . لقد بطل السحر والساحر .

فما وصل المسافرون إلى الخارج من الزعماء ، وأمعن الانجليز النظر فى الأمر ، حتى تسربت إلى الجميع الأنباء عن الشخصية التى تمسك بزمام الثورة ، وهى شخصية البكباشى جمال عبد الناصر ، الذى لا يوجد لدى أحد من هذه الجهات أى تفصيلات عن نشاطه السابق ، ولا توجد لدى المخابرات الانجليزية أو البوليس السياسى ورقة سمحت بفتح ملف له . . قالوا جميعاً ، أو هكذا يمكن أن نتصور : وماذا يمكن أن يعمل شاب فى الرابعة والثلاثين من عمره ، قضى حياته العاملة فى زيه العسكرى ، وفى محاضراته لطلبة الكلية الحربية . .

قرر الانجليز ، أن « ناصر » وزملاءه ، سوف تبهرهم السلطة التى وقعت بين

أيديهم ، ويسهل عليهم أن يحصلوا منهم على معاهدة تدخل مصر في جبال دفاع مشترك وقررت الأحزاب ، أن من الممكن الهاء هؤلاء الشباب من الضباط برتب عالية وسيارات فارهة ، ومرتبات كبيرة ، حتى يمكن استخلاص السلطة منهم ثم التخلص منهم . . . فان تعذر هذا ، فسوف تؤدي بعض الأخطاء ، في فترة الانتقال الهائلة ، لانفضاض الرأي العام عنهم .

وقد قابل جمال عبد الناصر رئيس حزب الوفد ، وكانت النصيحة التي سمعها منه ألا يفسد تفكيره بقراءة « الجرائد » ، فمعظم ما فيها كذب !!

وما أن بدأ مجلس الثورة يتجه إلى إعطاء الشعب بعض حقوقه ، بالحد من الملكية الزراعية ، حتى خيل « للبشوات » جميعاً ، أن هذه الخطوات ستكون الحفرة التي تتردى فيها الثورة . . . ولما أخرج على ماهر من الحكم لأنه تلكأ في إصدار قانون الإصلاح الزراعي ، وصدر هذا القانون في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ حتى تأكدت الطبقة التي تداولت الحكم في نصف القرن الماضي ، إن العام لن يمضي إلا وينتهي من كل شيء اسمه ثورة ، وتعود الأمور لهم ، ولكن بغير فاروق . . . وذلك لأن الموسم الزراعي يبدأ في شهر نوفمبر ، وسوف تبور الأرض ويجوع الناس !! ولكن الذي حدث كان على خلاف ما توقع هؤلاء جميعاً .

أربع سنين من العمل الشاق

ففي السنوات الأربع التالية لقيام الثورة وتدعيمها ، ولاء إعلان قانون الإصلاح الزراعي الذي قضى على الاقطاع تمت أشياء كثيرة .

• عقد الضباط الاحرار أول اجتماع لهم بعد نجاح الثورة ، واعادوا انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً لهم بالأجماع .

• ألغيت القاب الباشوية والباكوية ، إكتفاء بلقب « حضرة » ، ثم عدل إلى « سيد » لكل المواطنين .

• حاولت الأحزاب تحريض العمال ضد الثورة . ولكن فشلت المحاولة ، وحلت الأحزاب السياسية .

• أفرج عن المعتقلين السياسيين الذين أعتقلتهم الحكومات السابقة ، وكذلك الذين صدرت ضدهم أحكام في قضايا سياسية .

• أعطى السودان حق تقرير المصير . وبذا زالت العقبة التي كانت تتعثر فيها جميع المفاوضات مع الإنجليز بشأن الجلاء عن مصر . إذ كان يصر المفاوضون المصريون على أن يكون لقب الملك هو : « ملك مصر والسودان » . . . أما وقد زالت الملكية من مصر ، فأصبح من حق أبناء السودان أن يقرروا نظام الحكم الذين يريدونه لأنفسهم . ولم تعد للإنجليز حجة في عرقلة الجلاء عن مصر أو تعويقه يوماً واحداً . وكان تاريخ هذه الإتفاقية بشأن السودان ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ .

• أعلنت الجمهورية ، وألغى مجلس الوصاية ، وكان ذلك في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ ؛ وقد شيع قرار إعلان الجمهورية ، أسرة محمد علي بعبارة نابغة من المآسي والآلام التي عانتها البلاد من هذه الأسرة ، جاء في القرار :

« لما كانت الثورة عند قيامها تستهدف القضاء على الاستعمار وأعوانه ، فقد بادرت في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى مطالبة الملك السابق فاروق ، بالتنازل عن العرش لأنه كان يمثل حجر الزاوية التي يستند إليه الاستعمار . ولكن منذ هذا التاريخ ، ومنذ إلغاء الأحزاب ، وجدت بعض العناصر الرجعية فرصة حياتها ووجودها مستمدة من النظام الملكي ، الذي أجمعت الأمة على المطالبة بالقضاء عليه قضاء لا رجعة فيه .

« وأن تاريخ أسرة محمد علي في مصر كان سلسلة من الخيانات التي ارتكبت في حقوق الشعب ، وكان من أولى هذه الخيانات أغراق اسماعيل في ملذاته وأغراق البلاد بالتالي في ديون عرضت سمعتها وماليتها للخراب ، حتى كان ذلك سبباً تعللت به الدول الإستعمارية للنفوذ إلى أرض هذا الوادي الأمين . ثم جاء توفيق فأتم هذه الصورة من الخيانة السافرة في سبيل محافظته على عرشه . فدخلت جيوش الاحتلال أرض مصر ، لتحسب الغريب الجالس على العرش ، الذي استنجد بأعداء البلاد على أهلها . وبذا أصبح المستعمر والعرش في شركة تبادل النفع . فهذا يعطى القوة لذاك في نظير هذه المنفعة المتبادلة . فاستذل كل منها باسم الآخر هذا الشعب ، وأصبح العرش هو الستار الذي يعمل من ورائه المستعمر ، ليستنزف أقوات الشعب ومقدراته ، ويقضى على كيانه ، ومعنوياته ، وحرياته .

وقد فاق فاروق كل من سبقوه من هذه الشجرة ، فأثرى وفجر ، وطغى وتجبهر وكفر . نخط بنفسه نهاية مصيره . فآن للبلاد أن تتحرر من كل أثر من أثار العبودية التي فرضت عليها نتيجة لهذه الأوضاع . .

« فنعلن باسم الشعب : إلغاء النظام الملكي ، وإنهاء حكم أسرة محمد علي مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة . . . »
« وبهذا بدأ النظام الجمهورى فى مصر . . »

ويلاحظ أن بيان الثورة ، كان عنيفاً جداً ضد الاستعمار : وإن اتفاق تقرير مصير السودان ، لم يكن نهاية مرحلة فى العلاقات المصرية البريطانية ، ولكن كان فاتحة معركة جديدة . قدر لها أن تكون من أعنف المعارك فى تاريخ مصر الحديث .

وقد صودر ما كان فى مصر من أموال فاروق (٢٦ ألف فدان وأخوته ٢٢ ألف فدان كما صودر ٢٤ قصراً وركناً بما كان يملكه .)

الثورة . . وأعداؤها

ونقصد بهم الأعداء فى الداخل . وهم الطبقة التى عاشت وأثرت وتمتعت بالنفوذ والجاه ، فى ظل النظام القديم .

ونقصد بهم أيضاً الجمعيات والهيئات التى ظلت متماسكة ، وقد فاجأها نجاح الثورة ، ووصول القائمين بها إلى مركز القوة فى البلاد .

ويتمثل الفريق الأول فى الساسة القدماء ، والأقطاعيين ، والذين جربوا فى الماضى سيطرة أموالهم على جهاز الحكم ، ونالوا من ذلك مغايم جمة . وقد عالجت الثورة أعداداً منهم بمحاكمات علنية ، أظهرت للرأى العام ما كانوا يعملون ، وكشفت سيرتهم على الملأ ، وأصدرت محاكم الثورة ضدهم أحكاماً شتى بالسجن والمصادرة . ولكن معظمهم نال بعد فترة عفواً صحياً على أن يكف عن نشاطه المعادى للنظام الجديد .

أما الفريق الثانى ، فأهم عناصره جماعة الإخوان المسلمين ، الذين أحسوا أن منهم فى داخل الجيش أعداداً قد تساعد على عمل انقلاب . كما أن منظماتهم السرية المسلحة ،

التي كانت قائمة وأفرادها يدخرون قوتهم الأصلية لعمل داخلي . . وهذه الخطة تشبه ما لجأ إليه مفتى فلسطين أثناء حرب اليهود عندما احتجز السلاح لكي يستعمله في محاربة خصومه الفلسطينيين ، إذا تحررت فلسطين ، حتى يتمكن من السلطة .

وقد عمداً الأخوان إلى أسلوبهم الذي مارسوه قبل الثورة ، وهو محاولة الاغتيال ، ولكن خططهم باءت بالإخفاق ، ودفعوا ثمنها .

وعند ما تمت هذه التصفيات ، وكان آخرها في أوائل عام ١٩٥٤ ، أراد جمال عبدالناصر أن يختبر قوة الرأي العام الذي يسانده فقام بعدة رحلات إلى ريف مصر ، كان أولها في المنشية — مديرية الشرقية — وقد ظهر بوضوح أن الثورة عاشت في قرى الإصلاح الزراعي ، وبين جموع الفلاحين ، منذ بدأ توزيع الأرض عليهم في يوليو سنة ١٩٥٣ ، وكان عمرها أحقاباً وأجيالاً ، لا عاماً واحداً . .

وكان الفلاحون على حق في تمسكهم بهذه الثورة ، والذين قادوها . . فقد عاشوا أزماناً رازحين تحت مظالم يندى لها جبين التاريخ سواء في أيام الحكم المملوكي ، أو التركي ، أو في عهد محمد علي وخلفائه . . فلما جاء الإنجليز ، تفتتوا في وصف تعاسة الفلاح ، ولكنهم مكنوا للرايين الأجانب ، ومكنوا لأعوانهم من رقاب الفلاحين ، وأرزاقهم مما لم يحدث له مثيل من قبل . . وما حدث في أيام الحرب العالمية الأولى ، من سوق مليون شاب من أبناء الريف للعمل وراء خطوطهم في فلسطين ، بغير أي حقوق ولا رعاية ، جدد أيام حفر قناة السويس ، وما حدث في عهد دليسبس والخديوين سعيد وإسماعيل ولكن بصورة أعنف ، وتزيد عليها سخرة الفلاحين ، ومصادرة أرزاقهم ومواشيهم ، ودواب الحمل من كل نوع . .

فلما أعلن الدستور ، وقام في الظاهر حكم وطني ، واحتاجت الأحزاب إلى أصوات الفلاحين لإنجاح نوابهم ، كانت خطب الانتخابات ، وخطب العرش مليئة بالكلمات الرنانة الطنانة ، دون أن يكون لها ترجمة إلى الواقع . .

وجأة أعلنت ثورة الجيش ، وبعد أسابيع ، للمرة الأولى في تاريخ هذا الشعب ، عرف أن وزارة أقيمت (وزارة على ماهر) لأنها تلكأت في إصدار قانون الإصلاح الزراعي ، الذي يحدد ملكية الأرض ، وينص على أن الأرض لزراعتها . ويضع حداً أدنى لأجر الفلاح العامل في الأرض ، وما لبثت أن جاءت حكومة جديدة ، وما هي

إلا شهر حتى كانت سيارات الضباط الأحرار برياسة عبد الناصر تشق طريقها إلى مزارع الإقطاع الواسعة في شمال الدلتا وتسلم صكوك التملك للفلاحين ، وهي الصكوك التي أسماها عبد الناصر ، صكوك تحرير . . ونادى وهو يصفح كل فلاح على حدة . « ارفع رأسك يا أخى ، فقد مضى عهد الاستعباد ، .

إذن لم يكن الأمر وعوداً بالكلام ، ولكن عملاً تحقق ، وأرضاً وزعت . . وإذن فقد ألفت الثورة بنفسها في أحضان الكثرة من أبناء هذا الشعب . ونادتهم بأن الثورة منهم ، وبهم ، ولهم ، وأن القائمين بها لإخوانهم وأبناءؤهم . .

وعندما احتاج جمال عبدالناصر إلى استفتاء يثبت لمعارضيه في مارس سنة ١٩٥٤ أنه يسير في طريق الحق ، الذى يريده الشعب ، حصل على هذا الإجماع الرائع من الفلاحين ، وانتصرت الثورة على خصومها الظاهرين والمستترين ، وقيل وقتها إن اجتماعات « المنشية ، وبلتاج ، كانت أشبه ببدر ومركزها في دعوة الإسلام . ومن هذه الاجتماعات انطلقت الثورة في طريقها ، بعد أن وحدت الجبهة الداخلية لتواجه العدو المستعمر . .

* * *

الثورة الانجليزية

بدأت تصريحات جمال عبد الناصر تتوالى عن ضرورة الجلاء ، وسألت حكومة لندن سفارتها في القاهرة عما إذا كان « ناصر ، يتحدث باسم الحكومة ، وكان الرد : . . . أنه هو الحكومة !

لقد تكاملت لدى الإنجليز صورة واضحة عن التكوين الثورى الجديد ، من جواسيسهم ومن تتابع الأحداث . . وعند ما وقف عبد الناصر في بور سعيد يوم أول أغسطس سنة ١٩٥٣ ، أى بعد عام واحد من قيام الثورة قال :

« لا بد من تحرير مصر . . لا بد من جلاء قوات الاحتلال . . أن هذه المعركة ، هي معركة مصر كلها ، وسنتكاتف جميعاً ، حتى نحرر مصر من الغاصب ، ومن أى جندي أجنبي . . وإننا نوزع السلاح . لا نوزعه على أهل القتال فقط ، وإنما نوزعه على جميع أبناء الجمهورية ، لأنها معركة تخص المصريين جميعاً . .

عند ما تحدث جمال بهذه الكلمات ، نفذت إلى أسماع الإنجليز وعقولهم ، واتضح لهم أن ضباط الثورة ، لن يبحثوا عن بعض مناصب تلبهم ، وليسوا هم من طراز السياسيين الذين تعاملوا معهم منذ انتكاس الثورة العراقية ، ولا يوجد ستار يخفي الاستعمار الآن عن أعين الشعب ، من ملك ، ووزارات ، ونظام حزبي هدفه الحكم فقط ، دون سعى جدى لتحقيق الجلاء ، اللهم إلا مفاوضات مع الإنجليز تتبعها مفاوضات .

لا شيء من هذا كله . . فقد وجد الإنجليز أنفسهم فجأة أمام الشعب بثورته المسلحة ، وجهاً لوجه !

دلاس . . والاحلاف

قال دارسكين تشيلدرز ،^(١) وهو يصف الطريقة التي بدأ بها الغرب يفهم بها عبد الناصر ما يأتي :

في ربيع عام ١٩٥٣ (بعد الثورة بأقل من عام) زار « جون فوستر دالاس » وزير خارجية الولايات المتحدة ، القاهرة لمناقشة خطته الخاصة بإنشاء حزام استراتيجي على طول حدود روسيا الجنوبية . يعززه في الشرق الأوسط ، حلف دفاعي يضم دول هذه المنطقة . وهو الحلف الذي عوض على الدول منذ عام ١٩٥٠ . ولكنه كان يقابل بالرفض . وقابل « دالاس » الضابط الذي يبلغ من العمر ٣٥ عاماً ، والذي قاد الثورة المصرية منذ كانت مجرد مجموعات صغيرة في عام ١٩٤٢ . . استمع إليه عبد الناصر ، ثم رد عليه بقوله :

— نحن نعارض عقد أحلاف مع أية دولة كبرى أجنبية . لأن لدينا أسباباً قوية تدعونا للشك في مثلي هذه الأحلاف — ولأن شعوبنا لن تؤيد أية حكومة توافق على عقدها . إنك تطلب منا أن نعوق تحقيق أهدافك ذاتها . . إن الدفاع عن هذه المنطقة يجب أن يأتي من داخلها . من شيء يمكن أن يربط شعوبها بعضها ببعض الآخر . . أن هذه القوة الداخلية ، هي وطنيتنا ، وتقدمنا ، وإصلاحاتنا الاجتماعية .

(١) كتاب الطريق إلى السويس لأرسكين ر. تشيلدرز ترجمة الدكتور إبراهيم جمعة .

فإذا تعرضت جبهة العرب الداخلية ، التي لا يزال واجباً علينا أن ننشئها ، للضعف ، نتيجة لعرض أحلاف غير مرغوب فيها ، فإن هناك قوة سياسية واحدة يمكن أن تستفيد من ذلك . أن أكبر خطوة للشيوعية في هذه المنطقة هي الخطر الذي يمكن أن يأتي من هجوم من داخل المنطقة ذاتها . وما جدوى « الخطط الاستراتيجية » ، إذا كان هذا الهجوم من الداخل .

يقول تشيلدرز : ولم يعتمد عبد الناصر أثناء حديثه مع دالاس على تقدير القوة الوطنية في الشرق الأوسط ، بل لقد أبلغه أيضاً أن « الجبهة الداخلية » يجب أن تصبحها مقدرة دفاعية قوية ، لتواجه أى هجوم خارجي . ولكن هذا الدفاع ، يجب أن تتكفل به الدول العربية ذاتها عن طريق ميثاق « التضامن العربي » المستقل غير المنحاز ، الذي ينبغي تدعيمه بالأسلحة الحديثة ، والذي يجب على الغرب ، إذا كان حكيماً ، أن يقدمها دون شروط سياسية .

* * *

وروى روبرت سان جورج في كتاب « الرئيس » عن هذا الاجتماع مع دالاس ما يلي : قال ناصر لدالاس اتنا لن نرحب بأمريكا في محاولتها أخذ مكان بريطانيا في الشرق الأوسط ، ثم قلت له (القائل هو ناصر) إنه إذا أبلغه حكام من العرب في رحلته للدول العربية ، بأنهم سيسمحون للنفوذ الأمريكي بأن يحل محل النفوذ البريطاني ، فإن هؤلاء الحكام العرب يخدمونه بما يقولون .

وفي صيف هذا العام — ١٩٥٣ — زار مصر جواهر لال نهرو زعيم الهند . ثم محمد علي جناح منشيء الباكستان .

ولاشك في أن المصريين داخلهم سرور كبير لاستقلال هاتين الدولتين الكبيرتين ، فإنهم لم يذسوا أيام استعمار الإنجليز للقارة الهندية ، كيف كانوا يسوقون الجناقل منها لضرب الثورات ، حدث هذا أيام عرابي ، وفي الحرب العالمية الأولى ، وفي ثورة سنة ١٩١٩ .

ولهذا لم يدهش المصريون ، بعد التقاء ثوار مصر مع ثوار الهند والباكستان من صدور البيان التالي :

يجب أن نتذكر أنه يوجد في العالم اليوم قوة كبرى ، تهدف إلى الخير . ولن تسمح لنفسها بأن تكون أداة للشر . وهذه القوة تنزعها الهند والباكستان . وهذه القوة الكبرى التي تمثل ثلث العالم ، والتي استخدمت في الحروب الماضية ، كأداة في أيدي الدول الاستعمارية ، لن تسمح لنفسها بعد الآن ، بأن تستخدم كوقود في خدمة الاستعمار في أية حرب في المستقبل .

الخلاصة . . .

مواجهة الاستعمار في منطقة قناة السويس ، لها أسلوب واحد ، وهو تنظيم حركات التسلسل إلى القاعدة ، ومهاجمة العسكريين من ضباط وجنود ، ومهاجمة — المخازن والورش — وإشاعة الذعر في منطقة الوجود البريطاني كله . .

ومعركة الفدائيين هذه المرة ، لا يقوم بها شباب متحمس ، أخذ تدريبه على عجل لكن يقوم بها ضباط وجنود في أزياء مدنية من كل صنف ونوع يقوم بها شباب ، أتقن استعمال السلاح ، وآلات التدمير ، ولديه منها الكثير في مخازن الجيش المصري بكل ما تحويه . بل يوجد الكثير من معدات الحرب في مخازن الإنجليز أنفسهم بقاعدة القناة إذا أحسنت وسائل الإغارة عليها . وفي جميع الأعمال الفدائية يكفي أن يوجد السلاح في المنطقة ، وربما في يد العدو ، لكي ينتزع منه ويوجه إلى صدره . وهذا ما قام به عبد الكريم بطل الريف . وما قام به ثوار الجزائر وفيتنام بعد ذلك . وما يجب أن يقوم به كل فدائي تعوزه الكميات الكافية من السلاح . . ويتوفر منه القدر المطلوب لدى العدو . . حتى الطائرات يمكن الاستيلاء عليها عند اللزوم .

وبدأت المعركة ، قبل أن تحتفل الثورة بعيدها الأول ، وكانت صامتة ، لاتحدث عنها صحف القاهرة ، ويفخر الإنجليز أفواههم دهشة لما يحدث ؟ !

ألم يستثمروا حريق القاهرة بالقبض على الفدائيين في العام الماضي ؟ ألم تأتهم الأنباء بأنهم جردوا من سلاحهم نهائياً ؟ . ألم تشغل حكومة الثورة الجديدة بتدبير شئون بيتها الجديد ، وتشغلا مشا كله الداخلية الكبيرة ؟ . .

أخيراً ضاق الإنجليز ذرعاً ، بكل هذا الذي يحدث . فغيروا قيادتهم في القناة بعد أن أصبح لها ثأراً مع المصريين بعد أحداث الإسماعيلية في مطلع عام ١٩٥٢ ، وثأر آخر قبله منذ أحداث السويس ! !

وتلقت حكومة الثورة من الجنرال فستنجن ، قائد الإنجليز في القنال إنذاراً ، بأن
حد رجال الطيران الإنجليز اختفى ، وأن على الحكومة المصرية ، أن تسلبه قبل
صباح يوم ١٣ يوليو سنة ١٩٥٣ ، وإلا اتخذت إجراءات شديدة !

ورفضت القاهرة هذا الإنذار في حزم وهدوء . . وكان الرد تزايد هجمات
الغدائيين ، بشكل يوحى بأن حرباً فعلية تقع في المنطقة . وكثر عثور الإنجليز
على جثث ضباطهم وجنودهم في مياه قنال السويس وترعة الإسماعيلية وفي الشوارع
والطرق حول معسكراتهم . . ولم تمض ليلة دون أن يسمع أصوات الانفجارات
المدوية ، وترى الحرائق في قلب المعسكرات البريطانية .

ولفتت معارك القنال أنظار الصحافة والإذاعات العالمية ، فضلاً عن صحافة
الإنجليز وأميراطوريتهم ، حتى أن سلوين لويد اعترف في مجلس العموم البريطاني ،
بأن حوادث اختفاء الجنود البريطانيين تتزايد في منطقة القنال وبدأت بعد ذلك تنشر
إحصائيات عن الخسائر في أرواح هؤلاء الجنود (أوائل عام ١٩٥٣ كانت خسائر
سته أسابيع ٥٢ ضابطاً وجندياً)

وفي خلال هذه الفترة كانت السفارة البريطانية تدور حول موضوع المفاوضات .
وتجس النبض في كل اتجاه وعند ما قدمت اقتراحاً ، بأن يشترك ممثل أو أكثر
لحكومة الولايات المتحدة في المفاوضات ، رفضت مصر هذا الاقتراح بشدة وعنف ،
إذ لا يعقل أن نستدعى للنزاع طرفاً نعرف سلفاً أن له أطماعاً ، وأنه سيأخذ جانب
الإنجليز ، ويعينهم إذا اتسع نطاق المعارك في القنال . . أن دخولهم طرفاً ثالثاً
في النزاع معناه قبول عدو ثان لمصر في هذا للكفاح .

وأخيراً حصرت نقط البحث ، وتألف وفدان ، مصري برئاسة جمال عبد الناصر ،
وانجليزي برئاسة قائدهم الجنرال بنسون .

وفي المرحلة النهائية طلب الإنجليز ، أن تتوقف أعمال الغدائيين في القنال . وقد
أجيبوا إلى هذا الطلب . . . وحضر من إنجلترا المستر أنتوني هيد وزير الحربية
البريطانية والمستر شا كبور وكيل وزارة الخارجية البريطانية ووقع الطرفان الاتفاق
التهديدي على الجلاء بالحروف الأولى من الأسماء .

وفي ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ عقد الاتفاق النهائي ، على أن يترك آخر جندي إنجليزي أرض مصر بعد عشرين شهراً من تاريخ التوقيع . . . أي بعد عشرين سنة من توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، وهو التاريخ المحدد لسريان هذه المعاهدة، على أن تدور في نهايته مفاوضات جديدة . . . وكانت هذه هي المفاوضات وكانت هذه هي النهاية التصميم على الجلاء وترك الإتفاق لإنجلترا بعض مخازن تديرها شركة من الفنيين الإنجليز ، على أن تكون صالحة للاستعمال في حالة هجوم خارجي على تركيا أو إحدى دول الجامعة العربية وتبقى هذه المخازن فترة سبع سنوات ، ثم يستغنى عنها ، أو يتجدد وجودها باتفاق آخر .

وقع الاتفاق النهائي أنطوني ناتج وزير الدولة البريطاني والسفير البريطاني رالف ستيفنسون والجنرال بنسون رئيس الخبراء العسكريين في هذه المفاوضات .

وبدأت عمليات الجلاء فوراً ، وكان مما تسلمته مصر من منشآت هذه القاعدة عشر مطارات ، منها مطار أبو صوير الحربي الضخم ، ومطار ديفرسوار وهو واقع على البحيرات المرة ، وبعد أكبر مطارات الشرق الأوسط . . . وعادت معسكرات التل الكبير إلى مصر ، وارتفعت عليها الرايات المصرية للمرة الأولى منذ عام ١٨٨٢ ، خط أنابيب البترول ، والمراكز العسكرية في السويس والإسماعيلية وبور سعيد .

وقد عبر جمال عبد الناصر عن امتنانه العميق للظروف التي أدت إلى هذا النصر الكبير وذكر في بيانه هؤلاء الذين ضحوا في انتظار هذا اليوم بكفاحهم الصلب : أحمد عرابي ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، والشباب الذين باعوا أرواحهم للفداء على كل بقعة من ثرى الوطن .

والواقع ان اقتلاع قاعدة القنال من أيدي الإنجليز ، كان بمثابة اقتلاع عين أو ذراع من جسدكم .. أو الإثنين معاً .

وكان بودهم أن يحدث شيء . . . أي شيء لبكى لا يتم هذا الجلاء ، ولكنهم وقعوا تحت ضغط كبير من مصر ، لم يكن لهم قبل بصدده إلا من خلال معارك رهيبية ، قد يخسرونها . . . وضغط باشره الأمريكان عليهم ، وفي حسابهم أن يفوزوا من مصر

بغنيمة تشبه غنائمهم التي حققوها من وراء التراجع الإنجليزى المستمر فى الشرق الأوسط . فقد اقتسموا مع إنجلترا بترول إيران لكي يساعدوا على إسقاط حكومة مصدق ، وإلغاء التأمين ، وقاسموا فى بترول الكويت . وأعدوا مشروع دفاع مشترك ، حسبوا رغم الرفض المبدئى الذى قبلوا به أن فى وسعهم تنفيذه بصورة أو أخرى . . ثم ان إسرائيل كانت جائزتهم الرئيسية فى المنطقة ، فإنه بعد أن بذل الانجليز ما بذلوا لإقامة هذه الدولة الدخيلة ، أدارت ظهرها لهم ، وبدأت تنسيق عملها مع الجهة الأكثر ثراء ، وقدرة على دفع المال ، وهى الولايات المتحدة .

ثم ان قيام هيئة الأمم ، وتزايد عدد الدول المتحررة فيها ، خلق رأيا عاما عالميا ضد القواعد والاستعمار بصفة عامة . . يضاف إلى ذلك أن الحرب القادمة بين الشرق والغرب ، لن تكون حرب قواعد ومعارك برية أو بحرية ، ولكن حرب صواريخ بعيدة المدى ، ورؤوس ذرية قادرة على الإقناء .

وكان يكون عجيباً جداً ، أن تظل إنجلترا متشبثة بقاعدة السويس ، ومحتلة لجزء من أرض مصر ، فى الوقت الذى استقلت فيه الهند والباكستان وسوريا ولبنان والكثير من الدول الأفريقية والآسيوية الأخرى . . وهذا هو السودان فى طريقه إلى تقرير المصير ، ولن يكون مصيره العودة إلى الدائرة الاستعمارية المرنّة . .

نكبة إسرائيل . . .

ما كان يسهل على الاستعماريين الإنجليز قبول هذا المنطق أو ذاك . ولقد استبقوا سلسلة القواعد المحيطة بمصر ، على أمل أن تحدث أزمة ما ، فيطبقون على بلادنا مرة أخرى . . قواعدهم فى جبل طارق ومالطة وقبرص وعدن . . والقاعدة المشتركة مع أمريكا فى إسرائيل ، والقوة الأمريكية نفسها وقواعدها فى تركيا واليونان وإيطاليا . . كل هذه المراكز كانت تشكل حصاراً فولاذياً حول مصر ، تستطيع إكراهها ، أو احتلالها مرة أخرى ، إذا تطلب الأمر مثل هذا الإجراء .

وإذا بدا أن الانجليز قبلوا الجلاء ، مكرهين . . إلا أن الذين عبروا عن ضيقهم حتى درجة الانفجار ، كانوا اليهود فى إسرائيل . .

كانت إسرائيل تعتبر الـ ٨٠ ألف جندي بريطاني فى منطقة قناة السويس درعا

واقيا لها من أى تحرك مصرى أو عربى ضدها . وانسحاب هذه القوة ، يهدد كيانها تهديدا خطيرا ، وبالقليل يزيد فى أعبائها الدفاعية لتعوض هذا الفراغ الذى يحدثه الجلاء عن مصر .

وعلى طريقة الغدر والمكر التى صاحبت الخلق اليهودى طوال تاريخه ، فقد لجأت حكومة بن جوريون إلى وسيلة تقليدية ، وهى إثارة عدد من الاضطرابات وأعمال التخريب ، تشعر بأن الأمن مختلف فى مصر ، وأنه لا بد من قوة احتلال ، حتى يطمئن الأجانب إلى وجودهم فى مصر . .

محاولات عن طريق الجاسوسية :

ووضعت خطة عرفت فيما بعد باسم عملية « لافون »^(١) ، يقوم فيها عدد من العملاء الصهيونيين فى مصر بنسف واحراق عدد كبير من المراكز الحساسة فى مصر ، ومن بينهم مكاتب الاستعلامات الامريكىة ، وبعض دور التمثيل الاجنبى وطرق المواصلات ومكاتب البريد . . . ومن يدري فقد تتطور العمليات الصغيرة فتصبح حريقا كبيرا يشبه حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ .

وبدأ تنفيذ الخطة ، ومفاوضات الجلاء تتقدم فى مراحلها . ولكن ينفذ قوات الأمن المصرية ، ونشاط أجهزة المخابرات ، مكنت مصر من وضع يدها على العصابة المسكفة بتنفيذ عملية « لافون » . وقد تم القبض على جميع أعضاء هذه الحلقة وعددهم ثلاثة عشر صهيونيا بين رجال ونساء .

وتبين أن التعليمات كانت تصدر لهذه المنظمة الارهابية من رئاسة لها فى باريس . وان رئيس التنفيذ ، اسمه ماكس بينت . . . وكان من أهم التعليمات لهذه الجماعة الاجرامية ، أن ينتحر أفرادها إذا وقعوا فى أيدي قوات الأمن المصرية . . . وقد تمكن رئيس هذه المنظمة من الانتحار . كما انتحر كذلك أحد أعضائها واسمه موشى كريمونا .

(١) « لافون » كان وزيرا للدفاع فى حكومة بن جوريون وأختلف مع القيادات العسكرية التى كان يسيطر عليها رئيس وزرائه . فأحصيت عليه الأخطاء التى ارتكبت فى هذه العملية ، وظلت تلاحقه ، وما تزال . . .



اليهودى « ماكس بنيت » رئيس حلقة التخريب

وحكم على اثنين من عصابة عملية « لافون » أولها موسى ليتو مرزوق وكان طبيباً بالمستشفى الإسرائيلى ، وصمويل عازار . . وحكم على الباقين بالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة . . وبرات المحكمة اثنين من المقبوض عليهم .

وعلى عادة اليهود ، قاموا بمحاولة دولية للضغط على مصر كي لا تنفذ حكم الإعدام على من صدر الحكم بإعدامهما . . ولكن دون فائدة . وحدث أن عرف الأمريكان بعد ذلك بتفاصيل هذه المؤامرة الصهيونية القذرة على مؤسساتهم فى مصر ، واغتيال بعض رجالهم الدبلوماسيين . وظلت المسئولية عن هذه العملية تتقاذفها الأحزاب السياسية الصهيونية عدة سنوات ، وكانت سبباً فى تغلب أشكول على بن جوريون

وإقصاء بن جوريون تقريباً عن محيط العمل السياسي الإسرائيلي ترضية للولايات المتحدة .

• • •

وجاسوس فى دمشق :

وكان من بين أفراد هذه الشبكة ، شاب صهيونى من مواليد الاسكندرية اسمه إيلي كوهين تعلم فى كلية الهندسة بجامعة الاسكندرية ، وقد صدر الحكم ببراءته إذ لم يكن له دور واضح فى عمليات هذه الشبكة . . . ولكن حدث أن التقطته المخابرات الاسرائيلية ، وقامت بتدريبه تدريباً شاقاً طويلاً ، لكي يقوم بدور مهاجر سورى إلى شيلي ، ويحمل اسم كال أمين ثابت ، ويحفظ فاتحة القرآن . وفى شيلي التقى بالمستشار العسكرى للسفارة السورية ، أمين الحافظ ، الذى أصبح فيما بعد رئيساً للدولة السورية ، بعد انقلاب من الانقلابات الكثيرة التى عرفت بها دمشق .

وعن طريق هذه الصلة ، تمكن هذا الجاسوس ، من أن يستقر فى دمشق ويختلط بقيادات حزب البعث . بما كان ينفقه من مال وفير ، على سهراته وهداياها . . مدعياً أنه جزء من ثروته الطائلة التى حصل عليها من أعماله التجارية فى شيلي وغيرها ، وما هو إلا مال المخابرات الاسرائيلية .

وبعد أربع سنوات أمكن للكتب الثانى السورى ، أن يتبع هذا الجاسوس ، الذى بدأ حياته فى الاسكندرية ، ويعلق فى مشنقة نصبت له عام ١٩٦٥ فى ساحة المرجة بدمشق . وكما فشلت الجهود الصهيونية فى إنقاذ جواسيس مصر ، كذلك فشلت كل المغريات والضغط التى بذلوها فى إنقاذ جاسوسهم فى سوريا .

الحرب الساخنة . . . بعد الجاسوسية :

أما وقد أخفقت مؤامرات إسرائيل لتعويق عملية الجلاء ، فإنهم لجأوا إلى الأسلوب الثانى ، وهو محاولة استدراج الجيش المصرى إلى معركة سريعة ، قبل أن تنمو قوته وسلاحه وتدريبه ، مع ضغط متصل على أمريكا وإنجلترا لكي لا تمد مصر بالسلاح .

حدث في ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ أن هاجمت قوات كبيرة من اليهود مدينة غزة ، هجوما مفاجئا ، واشتبكت مع حاميتها المصرية ، ودامت المعركة حوالى ثلاث ساعات نسف فيها العدو محطة المياه ، وبلغت خسائرنا ٣٩ قتيلًا و ٣٣ جريحًا . .

وكان هذا العدوان بتدبير مشترك مع الدول التي تحمى إسرائيل ، لكي تقتنع مصر أنها فقيرة في سلاحها ، وأن مثل هذه المعركة ، سوف تتكرر ، إذا لم تنضم إلى الحلف الغربى الذى حاول دلاس أن يقنع به الحكومة المصرية دون جدوى . وقد كشف جمال عبد الناصر عن خطة الغرب ، وعن التفكير المصرى فى مواجهته فقال فى إحدى خطبه (١) :

« أوصلتنا معركة اشتباكات خطوط الهدنة مع إسرائيل ، إلى معركة أخرى فى حرب تبيت الاستقلال ، تلك هى معركة احتكار السلاح . . كانت معركة احتكار السلاح حلقة جديدة فى السلسلة . .

« أول حلقات السلسلة كانت جرننا إلى الأحلاف العسكرية الأجنبية . فلما رفضنا قيودها ، وأصررنا على الرفض ، كان تحريض إسرائيل علينا ، حتى يثبتوا لنا أننا لن نستطيع الدفاع عن أنفسنا ، وأتينا فى حاجة دائمة إلى حمايتهم

وكان طبيعيا ألا تنجح خطة الاستدراج ، التى سارت عليها إسرائيل ، ومن ورائها دول الأحلاف الغربية . .

ولم يكن هجوم إسرائيل على غزة هو الحركة العصبية التى ردت بها إسرائيل على معاهدة الجلاء ، ولكن هذه الهجمات تكررت فى عام ١٩٥٥ ، بطريقة لا يمكن أن تكون مجرد حوادث حدود . . .

فى ٣٠ مايو سنة ١٩٥٥ حاول اليهود احتلال مركز بوليس غزة وقطع الطريق بين رفح وغزة . وفى ٢٢ أغسطس تكرر هذا العدوان ، ثم عاد فى ٢٨ أغسطس وآخر هذا الشهر وأوائل سبتمبر .

وفى ٢٨ أكتوبر هاجم اليهود عر الكوتتلا جنوب سيناء ، وكان هذا الهجوم اختباراً لقوة الدفاع عن هذه المنطقة ، التى ظهر بعد ذلك باثنى عشر شهراً بالضبط ، أنها كانت نقطة تحرك اليهود ، أثناء اشتراكهم فى العدوان الثلاثى .

(١) من خطبة ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٧ .

وفي مساء ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٥ هاجم اليهود ، موقع « الصبيحة » ، داخل حدودنا في سيناء ، وكانت قوتهم هذه المرة معززة بالمدرعات والطائرات والمدفعية الثقيلة . واشترك في الهجوم عدد كبير من قواتهم ، وكان زحفهم عن طريق العوجة ، وهي منطقة منزوعة السلاح ، لايحوز لهم المرور منها . . . ومع ذلك فاليهود لا يعترفون بما يحوز وما لا يحوز .

وواضح أن هذا الزحف جاء بعد ما أذيع في أنحاء العالم عن صفقة الأسلحة الروسية بما سنوضحه فيما بعد . . . وبعد معركة استمرت ١٧ ساعة ، ارتد اليهود بعد أن بلغت خسائرهم أكثر من ٢٠٠ قتيل ، وكانت خسائر القوة المصرية المكلفة بالحراسة في هذه المنطقة ثمانين شهيداً .

ولم يكتف اليهود بمهاجمة الحدود المصرية ، ولكنهم أيضاً باغتوا الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية ، حيث تعسكر القوات السورية ، ودار قتال عنيف جداً استرد فيه الجيش السوري المواقع التي حاول اليهود الثبات فيها وبلغت خسائر الجيش السوري ٤٢ شهيداً ، وزادت خسائر اليهود عن ضعف هذا العدد .

ولإزاء هذه التحديات السافرة والساخنة ، كان على مصر أن تبحث عن السلاح الذي يقيا شر هذا الاعتداء ، وأخفقت كل الجهود للحصول عليه من الغرب . وكان لابد من جس نبض الشرق ، وما لبث الرد أن جاء بالموافقة ، وحمل هذه الموافقة « شيلوف » رئيس تحرير جريدة برافدا في ذلك الوقت الذي قدم إلى مصر لحضور احتفالات عيد الثورة في يوليو عام ١٩٥٥ .

وفي أول يوم من أيام الخريف — ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٥ — تم توقيع الاتفاق وكانت مخبرات الغرب ، قد عرفت بعض التفاصيل من براج . . . ولهذا بادر الرئيس فأعلن النبأ ، وما أن سمعت واشنطن حتى أخذ جورج ألن وكيل وزارة الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط ، أول طائرة وجاء إلى القاهرة ، وهي عجلة عبرت عن القلق الذي أصاب واشنطن ولندن من هذا النبأ .

وتلقى « ألن » وهو في الطائرة إشارة من المخبرات الأمريكية تحيطه علماً بما تلقت من براج بأن الاتفاق المصري التشيكي يتضمن ٢٠٠ أو ٣٠٠ طائرة ميج و ٣٥ قاذفة قنابل متوسطة و ١٠٠ أو ٢٠٠ دبابة ستالين وست غواصات .

ويبدو أن تعليمات دالاس لوكيل وزارته كانت تقضى بأن يكون حاسماً جداً مع « ناصر » وأن يفهمه بوضوح تام أن حكومة واشنطن « لا تقبل » أن تتسلح مصر من الكتلة الشرقية .

وتمهيداً لحرب الأعصاب : تناثرت أقوال كثيرة عن رحلة جورج ألن إلى القاهرة ، والهدف منها ، وكان ذلك سبباً في لفت نظر السفير الأمريكى الذى طلب تحديد موعد للزائر القادم من أمريكا ، إلى أن أى كلمة أو تصرف غير لائق ، سوف يقتضى تصرفاً مماثلاً ، أو أكثر حدة من الجانب المصرى .

وعندما وصل جورج ألن ، والسفير الأمريكى ، إلى قاعة الانتظار فى الرئاسة تأخرت مقابلتهم للرئيس ساعة ونصف . . وهناك ألفاظ قصيرة فى مثل هذه الظروف تعبر عن مواقف كثيرة . فقد اشتهرت ، كلمة « لا تغيير » ، No change التى كان يرد بها الانجليز فى ظروف كان القصر يستأذنهم فيها لتغيير الوزارة ، وهى قوية الدلالة على أن صاحب الكلمة الأخيرة فى شؤون الحكم المصرى ، لم تكن الأحزاب ولا الملك ، ولكن قوة المستعمر وسلاطانه . . . وقد ارتبطت زيارة « جورج ألن » ، بجملة أخرى قيل إن الرئيس رد بها على قلق زواره الأمريكان من تأخير مقابلتهم كل هذا الوقت الطويل ، وهذه الجملة هى : « دعه يهدى أعصابه

Let him cool Himself

وغنى عن البيان أن الزائر الأمريكى الكبير ابتلع كل العبارات التى كان أعدها لهذه المقابلة . . ورجع بخفى حنين كما يقول المثل العربى القديم . . وقال أحد المعلقين الأجانب : إن الممثل الشخصى لرئيس الولايات المتحدة كان فى موقف محرج أمام أنظار العالم . . لقد انتظرت مصر أجيالاً كثيرة لى تهين مثل هذه الدولة القوية جهاراً . . وأصبح ناصر فى ذلك الوقت رمزاً للعالم العربى . . وكان الناس يدفعون المال الذى كسبوه بالجهد مقابل صورة يعلقونها فى محلاتهم فى عمان وبيروت ودمشق وحتى فى بغداد ، وكان رد الفعل الذى جاء من أنحاء العالم العربى ، يدل على حاجة الأمة العربية الى تعبير قوى عن المعنى الذى ظل ناصر ينادى به ، وهو الكرامة . . ورد الضربات بمثلها .

والحقيقة ، أن هذا المعلق الاجنبى لم يعبر عن كل ما فى نفس المصريين ، وقصة الرسول الأمريكى الذى جاء يهدد ، تنتشر ، وتأخذ أوضاعاً شتى . . الحقيقة أن مصر

في أعماقها أحست بأن « ناصر » رد على اشتراك الجنود الأمريكيين مع جيش الغزو الانجليزي للاسكندرية عام ١٨٨٢ . . وأنه رد على بيان ولسون في مؤتمرات عام ١٩١٩ ، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وهو البيان الذي استثنى فيه مصر — وحدها — من حق تقرير المصير ، وهو الحق الذي أتيح لكل شعوب الأرض . . ولم يكن الرد فقط رحلة جورج الن وما حدث فيها ، ولكن الرد الاقوى كان تحطيم احتكار السلاح ودخول النفاثات والغواصات والدبابات الثقيلة في الشرق الاوسط .

ونستطيع أن نقول إن عام ١٩٥٥ ختم بنصر كبير هو نجاح مصر في مؤتمر بانندونج وعقد صفقة الاسلحة الروسية ، وتأكيد شخصية مصر في وجه جميع التحديات .

وكان في تقدير مصر ، أن يكون عام ١٩٥٦ فاتحة عهد من الاستقرار ، وفق خطة موضوعة تدور حول النقاط الآتية :

١ — إقرار الاستقرار السياسي الداخلي بإعلان دستور مؤقت وإجراء انتخابات رئاسة الجمهورية ، ومجلس الأمة .

٢ — تدريب الجيش المصري على الاسلحة الحديثة . وزيادة عدده بحيث يكون قوة رادعة حقيقية ، وتنتهي كلمة « الفراغ » التي طالما تشدق بها الاستعماريون ، كلما طولبوا بالجللاء . وأنها أسياسة الأحلاف .

٣ — إقامة مشروعات اقتصادية كبرى ، وقاعدة صناعية في داخل البلاد تحقيقاً لبرامج العدالة الاجتماعية عن طريق الرخاء . وأهم هذه المشروعات السد العالي

ولكننا نسأل : ماذا حدث بعد تحركات عام ١٩٥٥ الناجحة ؟

ما بعد حلاء الانجليز

كان الدوى الهائل فى عواصم العالم — لصفقة الاسلحة الروسية . باعنا عن مزيد من التفكير فى خطط هذا العدو التقليدى لحياتنا ، وقواتنا — ولنمونا . . . لقد صاحوا : إن النفوذ الشيوعى بدأ يتسرب مع السلاح إلى الشرق الأوسط وزدنا عليهم أن تسليح جيشنا من الكتلة الشرقية لا يعد فتحا للنفوذ الروسى ولا للنفوذ الأجنبى ، ولكنه قضاء على النفوذ الطويل الذى تحكم فىنا وبأشر فعلا سيطرته على مقدراتنا .

تقدير الموقف من الجانب المصرى هو الماضى بأقصى سرعة فى تنفيذ برامجنا التى ختمنا بها الفصل الثانى .

وتقدير الموقف من الجانب الغربى ، هو محاولة تحطيم هذه البرامج وافسادها بكل وسيلة ممكنة ، مستعينة بالضغط الاقتصادى ، والحرب الباردة وتهيشة ظروف تؤدى إلى حرب محدودة ضد مصر ، تصفى فيها جيشها الجديد قبل أن تتكامل قوته ، ويصبح من العسير التغلب عليه .

وهذه الحرب فى تقدير الغربيين يمكن أن تتم عن طريق كلب الصيد المسعور ، الذى أقاموا له حظيرة على حدودنا الشرقية ، ونعنى به إسرائيل . . . إذ لم يكن يتصور أن تقدم انجلترا وأمريكا على حرب مباشرة ، وقاعدة القتال كاد يتم اجلاؤها ، ومعاهدة الجلاء لم يحف مدادها^(١) . . . فضلا عن أن انجلترا كانت مطمئنة إلى وجود مراكز نفوذ كبرى لها حول مصر ممثلة فى نوري السعيد العراقى ، وكيل شمعون اللبنانى وجلوب على رأس جيش الأردن .

(١) تم الجلاء نهائيا فى ١٣ يونيو سنة ١٩٥٦ ، وفى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ رفع جمال عبد الناصر العلم المصرى على مبنى البحرية فى بور سعيد يوم ١٨ يونيو ، وهو ذكرى اعلان الجمهورية (١٨ يونيو سنة ١٩٥٣) .

في ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ أعلن الدستور الجديد ، وذلك في نهاية فترة الانتقال التي قدرت بثلاث سنوات .

وفي ٣ مارس سنة ١٩٥٦ أعلن قانون الانتخاب الذي تدور على أساسه انتخابات مجلس الأمة . .

وكان من أهم سمات هذه الحياة الدستورية الجديدة ، إعطاء المرأة للمرة الأولى حق الانتخاب ، وخفض سن الناخب إلى ١٨ سنة ، وإتاحة حق الانتخاب لأفراد القوات المسلحة ، وخفض تأمين الترشيح لعضوية مجلس الأمة إلى خمسين جنياً .

وللمرة الأولى نجد في الدستور نصاً على أن الشعب المصري ، يشعر بوجوده متفاعلاً في الكيان العربي الكبير ، ويقدر مسؤولياته والتزاماته ، حيال النضال العربي المشترك ، لعزة الأمة العربية ومجدها .

والنص على أن مصر جزء من الأمة العربية ، هو أول ثمرات الاستقلال الصحيح . وتحطيم الحاجز هائل إقامة الاستعمار البريطاني بين شعب مصر ، وبقية الشعوب العربية بتدخله في برامج التعليم ، وإقامة الحدود السياسية المانعة من حرية الانتقال ، وتبادل منافع الحياة ، وسيطرته على جزء كبير من وسائل الإعلام ، وتشجيع الهيئات والمنظمات الانفصالية ، والنزعات العنصرية والشعوبية ، اتباعاً لسياسة فرق تسد : وفي خلال سبعين سنة تعاقب جيلان من أهل مصر ، يرون بغداد أو القدس أو دمشق أو بيروت أو الخرطوم أو بني غازي وتونس والجزائر ومراكش بعيدة كل البعد — وكان قرب منها — كل القرب — لندن وباريس وروما .

وما كان الأمر كذلك قبل سيطرة الإنجليز على القاهرة . . فإن أهل يافا وجدة وبني غازي عاونوا المصريين معاونة ضخمة في حربها ضد نابليون وجنوده ودفعت يافا ثمناً ضخماً لهذه المقاومة عندما هاجمها نابليون ، وساق الفرنسيون من هناك السيد عمر مكرم والكثير من المصريين الذين اعتصموا بفلسطين بوصفها ملجأهم ، وامتداد قوميتهم ، وكذلك صنع طوبار زعيم الدقهلية في هذه الأزمة . . وإلى عكا هاجر آلاف الفلاحين المصريين من مظالم محمد علي ، وحلوا أهلاً على أبنائها حتى هاجمها محمد علي وساق من هناك المهاجرين . وعندما حلت الهزيمة بالعراقيين ، كانت بيروت

ودمشق والقدس وبلاد الشام الكبير ملجأ الزعماء الذين نفاهم الإنجليز أو هربوا من عسفهم . . . وكذلك كانت القاهرة في كل أزمة ، وفي كل محنة حلت بأبناء العروبة ، وكانت قادرة على مد يد المعونة ، كذلك صنعت لبنان معركة الاستقلال السوري واللبناني . . وهؤلاء نحن نرى موقفها مع فلسطين ومحتها . . . وكان عدلاً وصواباً أن يتضمن الدستور الذي انبثق من وحي الثورة وضمير الشعب ، نصاً على عروبة مصر . وهو ما تجاهله دستور سنة ١٩٢٣ الذي وضع والانجليز جاثمون على صدر هذه الأمة .

في شهر يونيو من هذا العام ١٩٥٦ — يوم السبت ٢٣ — جرى استفتاء على الدستور . وانتخاب رئيس الجمهورية . وقد أقبل خمسة ملايين ونصف المليون من المصريين على اعطاء أصواتهم بالموافقة على الدستور ، وانتخاب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية ، وكان طبيعياً أن يتأخر الانتخاب إلى منتصف هذا العام ، حتى يتم جلاء آخر جندي من جنود الاستعمار عن أرض الوطن . وبهذا يكون رئيس الدولة ، قد رفعه الشعب إلى كرسي المسؤولية الأولى ، وهو حر من كل قيد الأجنبي . . وهو يدفع إلى الصحائف السود من تاريخه قرار وزارة الخارجية البريطانية بتعيين السلطان حسين والسلطان فؤاد وولي العهد أحمد فؤاد . . ويدفع قبل ذلك ولاية فرمانات السلطانية التركية ، الذين رفعتهم إرادة خارجية إلى حكم هذه البلاد . . هي صحائف لانساها ، ولن تتكرر بإذن الله ، بعد أن تجرعنا في عهودها كؤوس الذل والمهانة مترعة بالمر والخنظل .

ويرجع بعض كتاب الأجانب ، نشأة الفكر « القومي العربي » عند جمال عبد الناصر بعد رحلته الأولى إلى الحجاز ، التي سبق أن أشرنا إليها وهذا وهم وخطأ فادح . . فقد نشأت فكرة القومية العربية مع مبادئ مصر الفتاة العشرة في الثلاثينيات .

وما أن ألتحق جمال عبد الناصر بالكلية الحربية ، وتعمق في دراسات ظروف مصر العسكرية وتاريخها القديم والوسيط والحديث ، حتى وجد أن المنطقة العربية في شرق البحر المتوسط منطقة متكاملة جغرافياً وتاريخياً وقومياً وعسكرياً . . . ولأنه ما من مرة سقطت فيه حلب ودمشق في يد جيش غاز إلا كانت القاهرة وجهة ثانية . . وكثيراً ما سمعت « عزيز المصري » رائد القومية العربية الحديث ، يقول

إن حدودنا العسكرية الشمالية جنوب جبال طوروس ، وحدودنا العسكرية الجنوبية في باب المندب ، أي جنوب البحر الأحمر .

لقد سقطت فلسطين في يد الغزاة الصليبيين ، وكانت دمياط والمنصورة هي معركتهم التالية ، فلما ردوا عن مصر ، أمكن بقوة مصر تحرير فلسطين وباقي بلاد الشام . ولما وصل التتار إلى شرق البحر المتوسط ، سارعت مصر لردهم في أرض فلسطين قرب غزة ، وأوقعت بهم هزيمة منكرة . وما أن سقطت حلب في يد السلطان العثماني سليم حتى كانت خطواته التالية القاهرة وكان الجيش الذي هزم قرب حلب هو جيش مصر بقيادة السلطان الغوري . وحروب محمد علي تشهد بتكامل المنطقة كلها عسكرياً ، فلما نجح الانجليز في هزيمتنا عام ١٨٨٢ ، امتدت أطماعهم إلى فلسطين ، وإلى العراق ، وبسطوا نفوذهم عليها .

القومية العربية ، ضرورة أمن ، وضرورة حياة ، ونداء تاريخ ، يمتد آلاف السنين ، ويستمر بإذن الله إلى أن يرث سبحانه الأرض ومن عليها .

معركة السد

بعد عام ١٩٥٦ :

- ١ - عام إتمام الجلاء .
- ٢ - عام السد العالي .
- ٣ - عام تأميم القنال .
- ٤ - عام العدوان الذي اندحر .

كانت صيحة التعمير، التي تحمل معها الرخاء والثقة ، تعبر عنها في ذلك الوقت كلمة « السد العالي » .

والسد العالي فكرة كانت موجودة بين أحلام المهندسين من زمن ، بل هامت أيضاً في ذهن مزارع متمصر يحمل اسماً يونانياً ، هو « ادريان دانيوس » ، وتخيالت لو أن لحية شيباء أحاطت بوجهه لبدأ أقرب إلى شخصية هوميروس شاعر الإغريق القديم .

وفي ٨ أكتوبر سنة ١٩٥٢ صدر قرار من مجلس قيادة الثورة بالبدء في دراسة المشروع فتألفت هيئة من كبار المهندسين المصريين ، وأنضم لهم أربعة من الخبراء العالميين في إقامة السدود اثنان أمريكيان وواحد فرنسي ورابع ألماني^(١) .

استغرقت الدراسة عامين وشهرين . ففي ديسمبر سنة ١٩٥٤ صدر تقرير موحد، وقعته جميع الخبراء المصريين وأجانب . بصلاحيته المشروع ، وسلامة أسسه الهندسية . .

ومن الواجب هنا أن نذكر أنه من بعد الدراسات المائية الأولى في حوض النيل ، التي قام بها بعض الخبراء الإنجليز ، أمثال مكدونالد وهرست ، اضطلع

(١) المهندسان الأمريكيان هما كارل ترزاكي وستيل لورنز ستراوب .
والفرنسي أندريه كوبن . والألماني ماكس بروس .

المهندسون المصريون بأعباء الدراسات والمشروعات الكبرى في حوض النيل . نذكر منهم قبل الثورة اسماعيل سرى ولبنه حسين سرى ويوسف سمكة وعثمان محرم ، وعبد القوى أحمد ، وحامد سليمان وصبرى الكردى وبعد الثورة أحمد عبده الشرباصى وموسى عرفه ، ومحمد أحمد سليم ، وعبد الخالق الشناوى ، وحسين زكى ، وصدق سليمان . وقد بذلت المجموعة التى اضططعت بالتنفيذ جهداً جباراً وهو عمل ، وعرق ، استغرق منهم ومن مئات الفنين المصريين^(١) وألاف العمال عشرة أعوام خالدة الأثر باقية على صفحة الزمن . وإذا عرفنا أن القناطر الخيرية التى بدأ تنفيذها في عهد محمد على بإشراف مهندسين فرنسيين تمت بعد أربعين سنة ، قدرنا قيمة ما عملناه حتى الآن حق قدرته .

وفي فترة السيطرة البريطانية ، على شؤون الري المصرى ، قام الإنجليز بتنفيذ مشروع نادى به النواب المصريون في عهد اسماعيل ، وهو إنشاء خزان أسوان إلا أنهم انشأوه عام ١٩٠٢ بسعة متواضعة جداً ، هى مليار متر مكعب ، وذلك لأن الإنجليز لم يكونوا يخططون لرخاء مصر ومستقبلها . ولكن كانوا ينظرون إلى مزرعة القطن التى تمد مصانعهم بالخام المطلوب لها من الذهب الأبيض . ولكنهم أحسوا أن هذا القدر من الماء لا يفي بحاجة البلاد ، فزادوا سعة الخزان عام ١٩١٢ إلى مليارين . وفي خلال السنوات العشرين ، كان الأيدى المصرية قد تمكنت من تسلم العمل في

(١) كانت لجنة بناء السد برئاسة وزير الأشغال وعضوية المهندسين : حسن زكى ، وسمير حلمى ، ومحمد أحمد سليم ، وظاهر أبو الوفا ، ومصطفى فتحى ، والمرحوم سيد عبد الجواد ، وعبد العظيم اسماعيل ، ومحمود عبد الباقي القشيري ، وأحمد على كمال ، وعلى عبد العزيز صبرى .

وأما لجنة الري والصرف فقد رأسها وزير الأشغال وعمل فيها المهندسون يوسف سعد ، ورياض على سليمان ، ومحمد عبد الرقيب ، ومحمد خليل ابراهيم ، ومحمد أحمد عتيبة ، وأحمد على فرج ، ومصطفى فتحى ، والمرحوم سيد عبد الجواد ، وعبد العظيم اسماعيل ، ومحمد أمين ، ويوسف سمكة ، وأحمد على كمال ، ومصطفى الجبلى ، ويحيى برادة .

وفي الأعوام الأربعة الأخيرة اضطلع المهندس محم صدقى سليمان بعبء التنفيذ ، بعد استحداث منصب وزير السد العالى ، وقد تمكن بمعاونة جميع العاملين في السد من اتمام مراحل العمل في موعدها .

مرفق الرى ، فزادت سعة الخزان عام ١٩٣٣ إلى خمسة مليارات . . . وكذلك إنشاء المصريون عام ١٩٣٧ خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم .

ودرس المهندسون ، مشروعات كثيرة للاستفادة من موارد النيل المائية ، وكان أهمها فى ذلك الوقت مشروعات المنطقة الاستوائية حيث تهبط كميات هائلة من الأمطار ، وتضيع بالبخار ، والتسرب إلى أراضي المنطقة الاستوائية على إمتداد بحر الجبل . . . وترى هذه المشروعات إلى .

١ — إنشاء سد عند مصب بحيرة فسكتوريا يتحكم فى تصريف مائها . ومن الحسابات المبدئية ، إنه كلما صرفنا من البحيرة ما يبلغ ارتفاعه سنتيمتراً واحد من سطحها ، زاد إيراد النهر مليار متر مكعب . أى أن تصريف متر واحد منها فى مصاب النيل يزيد ماؤه مائة مليار متر مكعب ١١

٢ — إنشاء خزان على بحيرة البرت يتحكم أيضاً فى تصريفها ، ويكون ماؤه رصيذاً مستمراً للنهر ، وهو ما يسمى بالتخزين القرنى ، أى لمدة قرن من الزمان .

٣ — شق القنوات التى تحمل ماء البحيرتين عبر بحيرة وسياحات كيوجا ثم تجاوز بحر الجبل شرقاً ، وشق قناة جديدة تتبع مجرى جافاً لماء النيل إسمه الجونجلى للوصول إلى بحيرة نو .

٤ — دراسة مجرى بحر الغزال ، وهو أحد روافد النيل الغربية ، الذى يتسرب ماؤه بطريقة غامضة فى باطن الأرض ، ولا يصل منه إلى المجرى الرئيسى شئ يذكر ومحاولة تعديل مجراه ، للاستفادة من مائه استفادة كاملة .

٥ — شق القنوات بجانب مجرى النيل الأبيض . وتعميق مجرى النيل الأبيض نفسه ، لاستيعاب كميات الماء الكبرى ، التى يمكن الحصول عليها من مشروعات أعالي النيل . وهذا تمهيد لإنشاء مجرى جديد للنيل الغربى ، يجمع المياه الجنوبية ويصبها فى منخفض القطارة .

٦ — توجد أيضاً مشروعات تخزين فى بحيرة تانا بأرض الحبشة ، ومشروعات مماثلة لنهر سوباط . ولكن هذه المشروعات تحتاج إلى دراسة وتعاون مع حكومة الحبشة ، التى ترفض حتى الآن تقديم التسهيلات اللازمة . وبذا يتيسر - أيضاً إنشاء النيل الشرقى ينطلق شمالاً حتى السويس .

٧ — إنشاء خزان كبير عند منطقة مروي فى إبتداء الانحناء الضخمة للنهر على مسافة من التقائه بنهر عطبرة .

وهذه المشروعات كلها تتطلب تعاوننا مع السودان ، وأوغنده^(١) .

وقبل أن تستقل أوغنده ، أقام الانجليز على مصب بحيرة فيكتوريا في النيل سداً اسمه سد « أوين » ، وطلبوا قبل الثورة مساهمة مصر في هذا المشروع بأربعة ملايين من الجنيهات ، دفع منها قسط مقابل إقامة مهندس مصري يراقب تصرف ماء النهر عند الخزان . ولم يكن هدف الانجليز من إقامة الخزان منفعة مصر ولكن توليد الطاقة الكهربائية من المساقط ، التي يستخدمونها في صناعاتهم . ولكن بعد قيام الثورة وظهور خلافات سياسية ضخمة بين الانجليز وحكومة مصر ، ألغى الانجليز مشاركتنا في الاتفاق على خزان أوين . وحتى لو كانت هذه المشاركة مستمرة ، فلا جدوى منها ، إلا بتحقيق سلسلة المشروعات التي ذكرناها آنفاً .

وهكذا سيظل وجود الانجليز . أو بقاياهم قابعين عند منابع النيل ، عاملاً معطلاً لنمو شعوب هذا النهر العظيم . وعلى الذين يتشككون في جدوى سياستنا الأفريقية أن يذكروا أن نهر النيل سخرى بالماء ، وأن إirاده في المتوسط يبلغ حوالى ٨٥ مليار متر مكعب وقد يصعد في السنين الموفورة بالأمطار إلى ١٥٠ ملياراً ويهبط في السنين العجاف إلى ٤٠ ملياراً فلا سبيل إلى التحكم في هبوب الرياح الممطرة ، وما تحمله من ماء . . ولكن هناك سبل آتاهها الله للإنسان كي يدخر الماء في وقت وفرة ، إلى أيام قلته وندرته . . وهى مشروعات التخزين الكبرى . .

أما والانجليز ، بدسائسهم ، وروحهم المعادية لتقدم شعوبنا ، ما زال بهم عرق ينبض في القارة الأفريقية ، فمن الواجب أن نوثق صلاتنا بشعوب القارة ، ولا سيما أبناء حوض النيل ، لكي نستفيد ويستفيدون من هبات الطبيعة لنا ، بمثلة في خير ما أعطاه الله لنا ، وهو الماء .

وحتى يتم للروح الأفريقية أن تنتصر على دسائس الاستعمار الانجليزى والاستعمار الأمريكى الذى بدأ أيضاً يتسرب حولنا . فلتقم مشروعات التخزين داخل حدودنا المصرية ، المصرية . وليكن مشروع السد العالى ، الذى احتضنته الثورة من أيامها الأولى ، ومن بعده مشروع وادى الريان ، بما نفرغ له الجهد ، ونواجه به الأيام .

(١) فى كتاب « النيل » لمحمد صبيح مناقشة مفصلة لهذه المشروعات .

تمويل السد العالي :

أما وقد تأكدت سلامة السد العالي ، وتأكدت ضرورته العاجلة ، فقد جاء دور الأرقام التي تترجم إليها عملية انشائه .

* قدرت تكاليف المشروع الاجمالية اللازمة لإنشاء السد والمحطة الكهربائية ، وخطوط نقل الكهرباء إلى أنحاء البلاد ، وعمليات استصلاح الأرض ، والاسكان ، ومرافق الطرق بـ ٤٠٠ مليون جنيه منها ٢١٠ مليوناً ، لإنشاء جسم السد ومحطته الكهربائية والمدينة السكنية اللازمة له والمرافق المطلوبة في منطقة أسوان .

* سيزيد السد العالي رقعة الأرض المزروعة ٤٠٪ عن مساحتها الحالية (المساحة الحالية حوالي ٦ مليون فدان) منها مليون وثلث مليون فدان جديدة ، و ٧٠٠ ألف فدان تتحول من الرى الموسمى ، إلى الرى الدائم .

* دارت مفاوضات مع الانجليز والأمريكان والبنك الدولي ، لتقديم قرض بالعملة الأجنبية اللازمة لاستيراد المعدات ، ومحطة الكهرباء ، وما إليها . . . وأبدى الأطراف الثلاثة استعداداً للتعاون ولكن مالبث الجانب المصرى ، أن أحس بخيوط مؤامرة تنسج حول شروط القرض . وهى محاولة السيطرة على المالية المصرية ، مثل ما اشترطه البنك الدولي وهو ، التفاهم حول الحاجة إلى ضبط المصروفات العامة للدولة ، . . . والدولة هنا هى مصر . وكأنهم بهذا يريدون الرجوع إلى عهد الرقابة الشنائية التى عرفت أيام الخديو توفيق . . . وإلى صندوق الدين ، وماسى تلك الأيام الغابرة .

وكان من شروطهم أيضاً التى قدمها البنك الدولي (أمريكا تساهم فى ثلاثة أرباع رأسماله تقريباً ، ولها الإشراف على إدارته) ألا تستدين مصر من أى بلد آخر ، وألا توقع أى اتفاقات دفع إلا بعد التفاهم مع البنك الدولي . .

* أليست هذه هى الوصاية ١٩٤

وصف الرئيس جمال عبد الناصر المفاوضات الغربية حول تمويل المشروع ،
قائلاً :

« تسكمننا مع ممثلى أمريكا . وقلنا لهم : إنه فى فترة خمس سنوات سيصرف على السد ٣٧٠ مليون دولار تدفع منها مصر ٣٠٠ مليون ، وتدفعون ٧٠ مليون . والمشروع كله يتكلف نحو ألف مليون دولار ، سندفع منها ٧٣٠ مليوناً أولاً (ثلاثة أرباع تقريباً) . فكيف يمكن لى أن أنفذ الشروط التى يملها على البنك الدولى . . . وقلنا لهم إن لنا تجربة فى ذلك (يشير إلى ماحدث فى عهد إسماعيل) . وسبق أن وقعنا فى هذا الاستغلال . وحضر كرومر ، وبقي فى مصر ، وهذه إشارة إلى الاحتلال الذى أعقب الوصايا المالية على مصر .

« أحس الروس أن ثمة عقبات يضعها الأمريكان فى طريق تمويل مشروع السد العالى ، فتقدم السفير السوفيتى فى القاهرة نيابة عن حكومته ، باستعدادها للاشتراك فى تمويل السد . فأرجأ جمال عبد الناصر بحث هذا العرض حتى ينتهى الكلام مع الأمريكان .

« جاء مدير البنك الدولى (أوجين بلاك) مرة أخرى إلى القاهرة ، بعد أن علمت الحكومات العربية ؛ بالعرض الروسى ، ووصف جمال عبد الناصر هذه المرحلة الجديدة من مفاوضات التمويل بأنها « فسخ » قال :

« أبلغت مدير البنك الدولى أننا لن نبدأ المشروع إلا بعد أن نصل إلى اتفاق مع البنك ، وقال مدير البنك ، إنه يجب علينا أن نحل مشكلة الماء مع السودان . ثم يوقع البنك الاتفاق معنا . ولكنه لم يضمن أن تدفع أمريكا وانجلترا أكثر من ٧٠ مليون دولار .

« وظهر الفسخ . نأخذ ٧٠ مليون دولار ، ونبدأ فى المشروع . ونصرف المال . فنطلب من البنك مبلغ الـ ٢٠٠ مليون دولار فيعرض البنك علينا شروطه ، وعلينا أن نقبل شروط البنك أو يتوقف المشروع ، ويضيع ما أنفقناه هباء .

« ومعنى هذا أن يرسل البنك من يجلس مكان وزير المالية . وآخر يجلس مكان وزير التجارة ، وثالث يجلس مكانى أنا ! »

« فى شهر فبراير سنة ١٩٥٦ أمر جمال عبد الناصر بإيقاف العمل فى مشروع السد العالى ، حتى يطمئن تماماً إلى مصادر تمويله بالعملة الأجنبية ، دون شروط ، ولا مساس باستقلال البلاد .

وفي آخر أيام هذا الشهر — فبراير — جاء وزير خارجية إنجلترا إلى مصر ، وكان سلوين لويد ، وقال لجمال عبد الناصر ، إنه مستعد للتوسط بيننا وبين السودان للواقعة على المشروع . ولكنه سمع الرد التالي : « إن تصرفاتكم تدل على أنكم تعتقدون المسائل . جرائدكم ، وإذاعاتكم تثير السودان ضد السد العالي . ومحطة الإذاعة البريطانية ، وإذاعة الشرق الأدنى (في قبرص) تذيع تعليقات للوقعة بيننا ، وبين السودان . ثم تقوم سفارتكم في الخرطوم بجمع ذلك في كتاب ، وطبعه وتوزيعه على السودانيين . ومعنى هذا محاولة خلق العداء بيننا وبين السودان . فكيف يستقيم هذا مع عرضك أن تكون وسيطاً بين مصر والسودان ، .

وكان كل نصيب إنجلترا من صفقة التمويل خمسة ملايين من الجنيهات . ومع ذلك دأبت وسائل الإعلام البريطانية على مهاجمتنا . ووقف اللورد كيلرن في مجلس اللوردات يشتم ، ويندد ، ويطالب بمنع هذا القرض . فاستدعى الرئيس السفير البريطاني . وقال له :

« إننا شعب عاطفي ، وإن نقبل الشتم بخمسة عشر مليون دولار ، وإن نقبل كلام كيلرن ، ولسنا أمة غنية . ولكننا نستطيع أن نوفر خمسة ملايين من الجنيهات ، حتى لو دفعنا الزايط أو كسرنا الطوب . ونحن قبلنا هذا القرض حتى لا يقال أن مصر ترفض إقامة علاقة حسنة معكم . ولكن إذا تكرر هذا الكلام ، فسنرفض القرض ، .

« وهنا وضع لمصر سوء نية الدول الغربية ، فطلبت الدخول في مباحثات مع الاتحاد السوفياتي لبحث موضوع القرض المطلوب للسد . وجاء شيلوف الذي أصبح وزيراً للخارجية السوفياتية إلى القاهرة في شهر يونيو سنة ١٩٥٦ . وعرض إعطاء قروض طويلة الأجل ، بفائدة قليلة . ودون قيد أو شرط .

وأضاف الوزير الروسي ، الذي كان له دور سابق في صفقة السلاح التي شرحناها في أحداث العام الماضي ، إن بلاده يهمها أن يسود السلام بين مصر وجميع الدول ، تخفيفاً من حدة التوتر الدولي ، وهم لا يريدون أن يوقعوا بيننا وبين الدول الغربية . وقد أجل جمال عبد الناصر بحث التفاصيل إلى حين زيارته للاتحاد السوفياتي التي كان تحدد لها موعد هو شهر أغسطس من ذلك العام .

• وهرع مدير البنك الدولي إلى القاهرة ، وفي اليوم التالى لمباحثات شيلوف ،
بدأ مباحثات جديدة مؤداها أن الغرب سيمول المشروع .
وقال له عبد الناصر : حسناً ، ونحن عند كلمتنا .

ولكن الأنباء جاءت بأن انجلترا والولايات المتحدة تقومان بمجهود دبلوماسى
ضخم فى الخرطوم وأديس أبابا ، لى تشور حركة احتجاجات فى السودان والحباشة
ضد مشروع السد العالى .

ويبدو واضحاً ، أن هذه الدول الغربية تتابع سيرتها ، من وقوفها ضد نمونا
الطبيعى ، وضد رخائنا ، واستقرارنا . . . إنه العداء الموروث ، الذى أحاطوه
بغلاف من الكلمات البراقة ، والأوصاف الجوفاء ، مشى قولهم : العالم الحر . .
وما هم بأحرار إلا فى محاولة تعويقنا عن التقدم ، نحن أبناء هذا الشرق ، وأبناء
العروبة ومصر بصفة خاصة .

ولقد حدث عند ما جاء سفير مصر فى الولايات المتحدة (أحمد حسين) يحمل
الكلمات البراقة ، والوعود الخلابية من واشنطن ، أن قال له عبد الناصر إنه سيتمشى
معه ومعهم إلى النهاية ، وعليه أن يعود حاملاً موافقته على الشروط التى جاء بها (سعر
العائدة) ، ولكنه يخبره سلفاً ، أن شيئاً من هذا لن يحدث . . وعاد السفير طائراً ،
ليعلم عند نزوله فى المطار ، أن الولايات المتحدة ، والبنك الدولى سحباً عرضهما فى
تمويل السد العالى ، وأن الحجة التى أبدت ، هى أنه ظهر — أخيراً — أن ظروف
مصر الاقتصادية غير ملائمة لتنفيذ المشروع . . مع أن تقرير البنك كان قبل سبعة
شهور يشيد بسلامة البناء الاقتصادى المصرى ، وأنه كفيل بتحمل المشروع .

وكانت مفاجأة غير سارة للسفير . وعند ما ذهب لمقابلة دالاس ، عبر له عن
مخبطه على هذا التلون ، وهذا التلاعب . وإذا كان سفيرنا قد فوجئ ، فإن رئيس
جمهوريتنا لم يفاجئ ، لأن استقراء الحوادث كلها كان يدل على هذه النتيجة .

إلا أن حكومة إيدن فى لندن فوجئت « بتسرع » دالاس ، فى اعلان رفض
التمويل ، فقد كان فى تقديرها المماطلة والتعطيل أطول فترة ممكنة ، وإن كانت
النتيجة واحدة . . واضطرت حكومة لندن بدورها إلى أن تعلن انسحابها من
عملية التمويل .

• ومن الواجب أن نستطرد قليلا ، بعد الفترة التي نقدم دراستنا عنها ، لكي نذكر ما حدث من تعاون محمود الأثر مع رجال الحكومة السوفياتية في عملية التمويل . .

ففي شهر أكتوبر سنة ١٩٥٨ أذاع نكيتا خروشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي ، أن حكومته وقعت اتفاقية قرض مقداره ٤٠٠ مليون روبل — ٣٥ مليون جنيه — للأسهام في تمويل السد العالي . وكانت الفائدة ٢.٢٪ وهي أقل فائدة عرفت في تاريخ القروض ، ويسدد القرض في اثني عشر عاما ، ابتداء من عام ١٩٦٤ أي بعد ست سنوات من تاريخ تنفيذه .

وبدأت دراسة جديدة مع الخبراء الروس ، وعلى الرغم من اتساع نطاق العملية ، فإن المراجعة الجديدة ، وبعض التعديلات التي أدخلت طبقاً لتجارب الروس الضخمة في ميدان إنشاء السدود والخزانات . . كل هذا لم يستغرق أكثر من شهر ونصف شهر .

يروى المهندس موسى عرفة^(١) عن هذه المرحلة النهائية من الدراسة :

« اجتمع في القاهرة كبار الخبراء والعلماء من الشرق والغرب ، لإعادة دراسة المشروع ، وعكف كل فريق منهم على بحث وجهات النظر التي أبداهها الفريق الآخر .

« وقد خطر لي (كان موسى عرفة وزيرا للأشغال) كسبا للوقت ، أن يلتقي الخبراء جميعا بعد اتمام الدراسة ، حول مائدة واحدة تطرح عليها مختلف الآراء في مناقشة مفتوحة ، يشتركون فيها جميعا ، ويصلون منها في النهاية إلى حل يطمئنون إلى سلامته اطمئنانا كاملا .

« عرضت الفكرة على الخبراء السوفييت ، فرحبوا بالاشتراك مع خبراء الغرب في المناقشة والبحث . ثم عرضتها على خبراء الدول الغربية ، فأبوا أن يساهموا في مناقشة أساليب لم يسبق ممارستها في بلادهم .

(١) كتابه عن السد العالي ص ٦٣ و ٦٤ .

« وعيشتاً حاولت تهيئة الجو للمناقشة ، فلم أظفر من ذلك إلا بالموافقة على لقاء الجانبين في اجتماع عادي للتعارف والمجاملة ، لا يتعرض للبحث والمناقشات الفنية .

« فكان على الجانب العربي أن يناقش كل فريق على حدة ، ليطمئن إلى سلامة كل خطوة بخطوها في دراسته ، قبل أن يدلي برأيه النهائي في أوضاع المشروع .

وعاد خبراء اللجنة الدولية إلى بلادهم ، بعد أن انتهت مهمتهم ، وقدموا تقريراً برأيهم في ذلك .

« وقد لاحظنا في هذا التقرير أنهم اعترضوا على ما اقترح الجانب السوفيتي إدخاله من تعديلات على المشروع الأصلي لبناء جسم السد العالي : أما عن إنشاء قناة مفتوحة في الضفة الشرقية للنهر ، لتحويل مياهه ، بدلاً من الاتفاق السبعة التي كانت في المشروع الأول ، فقد تركوا البت في أمرها إلى الخبراء العرب ، وإذن فقد انحصر الخلاف أخيراً بين خبراء الشرق والغرب ، في الأسس التي يقوم عليها إنشاء جسم السد ذاته . . .

وانفقنا على إنشاء قناة مكشوفة لتحويل مجرى النيل . . . وكذلك على بناء بعض أجزاء السد من الأحجار الجرانيتية الملبسة بالرمال ، مع توفير أوفى الضمانات وأوفر الاحتياطات ، لوقاية البناء من احتمال أى خلل يتطرق إليه .

« وفي ٢٨ يونيو عرضت نتيجة هذه المباحثات ، وتوصيات لجنة بناء السد العالي في صدورها ، على اللجنة العليا للسد ، فأقرتها ، وبذا تم الاتفاق نهائياً على المشروع .

وكان هذا المشروع يجري عملية بناء السد على مرحلتين . ولكن رؤى في يناير سنة ١٩٦٠ أن يسير العمل في مرحلة واحدة . وزيد القرض الروسي تبعاً لذلك إلى ٩٠٠ مليون روبل ، أو ما يعادل ٧٨ مليون جنيه مصري .

وقد حدث أن زار الرئيس جمال الاتحاد السوفياتي في مايو عام ١٩٥٨ ، وكنت ضمن البعثة المرافقة له . وكان من ضمن ما شهدناه هناك سد عظيم يقام على نهر الفولجا بجوار مدينة « فولجا جراد » (ستالين جراد سابقاً) .

وقد استغرقت زيارة هذا السد نصف يوم تقريباً وهو في طور الاعداد . وفي
نهر الفولجا ملاح كثيرة من نهر النيل ، إلا أن مجراه عنيف مندفع ، في حين أن النيل
هادىء في جريانه يوحى بالثقة والاطمئنان .

وكان بما علمناه ، أن الروس أنشأوا على نهر الفولجا وحده ١٢ سداً من هذا
النوع أهدافهم الرئيسية منها الكهرباء ، قبل الرى . وأن مئات الأنهار الضخمة في
روسيا الأوروبية وسيبيريا ، تحظى بمثل هذه العناية ، في إنشاء السدود والخزانات ،
بما يجعل المهندسين الروس أفذاذاً في هذا المجال .

ومن واجبنا هنا أن نشيد بالروح العالية التي اتسم بها ساسة وخبراء الاتحاد
السوفيأتى ، ولاسيما الذين عاشوا معنا في أسوان ، وهم قادمون من بلاد الجليد والمطر
الذى لا ينقطع .

وشريعة الانصاف تقتضينا أن ننوه إلى جانب نكيتا خروشوف ، بالسادة محي
الدينوف عضو مجلس الرياسة وقت انشاء السد ، وشييلوف رئيس تحرير برافدا ثم وزير
الخارجية ، وبيتر نيكيوتين نائب رئيس العلاقات الخارجية ، ونوفيكوف وزير القوى
المحركة ، وكوميزين الخبير الكبير في السدود ، والذى اختير نائباً لمدير الهيئة
التنفيذية لبناء السد ، والسفيرين كيسيليف وايروفيف وارخيوف الذى وقع عن
عن الاتحاد السوفيأتى اتفاقيات الفروض . . .

وقد عبرت مصر عن امتنانها لهؤلاء الأشخاص ، وعن مئات معاونين الذين
اشتركوا في هذا العمل ، ومنحتهم أوسمة تقديرًا لمجهودهم .

وأنا لتعجب، وقد دخل السد في دوامة الحرب الباردة بين الشرق والغرب وكادت
تقوم بسببه حرب عالمية : لماذا وقفت انجلترا وأمريكا ضدنا في إنشاء هذا المشروع ،
وفي حين أن كل ما كان يتطلبه هو حوالى سبعة ملايين من الجنيهات كل عام بالعملة
الأجنبية على مدى ١٢ سنة . . لأنه مبلغ تافه ، إذا قورن بالدخل القومى لبلادنا ،
الذى يتجاوز أربعة آلاف مليون جنيه في السنة ! !

السبب هو أنهم يكرهون أن نقوى ، وأن نستقر ، وأن نتمتع بالرخاء الذى
تمتعوا هم به مئات السنين بمجهودهم أو على حساب الآخرين . .

السبب أن إسرائيل تخشى خشية الموت أن تتحول مصر بزراعتها الجديدة و طاقة الكهرباء الهائلة إلى قاعدة صناعية . تقضى على دجلهم ، وادعائهم أنهم وحدهم أساتذة الصناعة والإنتاج الكبير .

ولقد سمعنا في مجلس الشيوخ الأمريكى سناتوراً يصيح : هل يمول السد العالى ليزيد مصر مساحة أرض القطن فيها ، وتنافس أقطاننا منافسة خطيرة .

ورأينا إسرائيل تحاول أن تغرق منطقة أسوان بسيل من المخدرات . قاصدة بذلك اضعاف المجهود البشرى لعباله . ولكن هذه المؤامرة كشفت فى وقتها وقضى عليها بحسم تام .

ورأينا سيل الدعايات الكاذبة المغرضة تغرق صحف العالم العربى ضدنا . لماذا . . لأننا نشئ سداً هذه أوصافه .

* يزيد حجمه ١٧ مرة عن حجم الهرم الأكبر ، معجزة الدنيا الخالدة ، ويرفع الماء عند جداره الجنوبى إلى ١٨٢ متراً : ويتسع حوضه لـ ١١٥٧ مليون متر مكعب ويمتد ماؤه جنوباً حوالى ٥٠٠ كيلو متراً بعرض عشرة كيلو مترات (بحيرة ناصر) وتحصل مصر منه سنوياً على ٧,٥ مليار متر مكعب والسودان يحصل على ١٤,٥ مليار متر مكعب .

• ويبلغ طول السد عند القمة ٣٦٠٠ متراً ، وطوله فى مجرى النهر ٥٢٠ متراً . وعرض قاعدة السد ٩٨٠ متراً ، وعرض السد عند القمة ٤٠ متراً ، وعمل الستارة الحاجزة لتسرب أى ماء تحت قاعدة النهر ١٨٠ متراً تحت قاع النهر وعرض هذه الستارة عند القمة ٤٠ متراً وعند القاع الصخرى ٥ أمتار .

• عدد أنفاق التصريف الرئيسية ٦ أنفاق قطر الواحد منها من الداخل ١٥ متراً . وطول كل نفق ٢٨٢ متراً ، ووزن البوابة المتحركة فى فتحة النفق ٢٣٠ طناً .

• عدد التربينات فى محطة كهرباء السد ١٢ توربيناً ، زنة كل واحدة ٧٦٥ طناً . وزنة مولدها ١٦٠٠ طناً ، وعدد لفات التوربين الواحد ١٠٠ لفة فى الدقيقة ، ومجموع قدرة المولدات ٢,١٠٠,٠٠٠ كيلو وات ، والطاقة القصوى التى يمكن الحصول عليها من هذه المحطة عشرة مليارات كيلو وات ساعة .

* وتحمل هذه الطاقة الكهربائية خطوطاً رئيسية طولها ١٥٨٠ كيلو متراً ترتفع أسلاكها فوق أبراج ارتفاع البرج العادى منها ٣٠,٦ متراً ، ويبلغ طول الخطوط الفرعية ٩٤٠ كيلو متراً ، وأما ضغط الكهرباء فى الخطوط الرئيسية فهو ٥٠٠ كيلو فولت ، والضغط الكهربائى فى الخطوط الفرعية ٢٢٠ و ١٣٢ كيلو فولت .

* ونذكر من الأرقام الفلكية التى تترجم عن بناء السد ، أن حجم الصخور التى تطلبها الانشاء ٢١,٥ مليون متر مكعب وحجم الرمال التى استخدمت ١٥,٣ متر مكعب ، وهذا غير مئات الألوف بل ملايين الأمتار المكعبة من الخرسانة وغيرها . . .

معجزة القرن العشرين :

وقبل أن ننتهى من الحديث عن ظاهرة هذه الأيام الكبرى ، وهى السد العالى ، نقول إن المفاوضات مع السودان ، التى كان سلوين لويد ، يريد أن يبيع لنا تدخله فيها باشتراكنا فى حلف ، أو شيء من هذا القبيل . . هذه المفاوضات استغرقت شهراً وقد ظهر خلاف وحيد بين الجانبين ، هو فى قيمة التعويض المطلوب عن إغراق مدينة حلفا ، ووافق الجميع على تحكيم الرئيس جمال عبد الناصر فى الأمر . . وانتهى التحكيم إلى دفع تعويض قدره ١٥ مليوناً من الجنيهات ، ووقعت الاتفاقية فى ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٩ (١) .

وقد قدرت الاتفاقية جملة ما تحصل عليه مصر من ماء النيل — إذا ظل متوسط إيراده ٨٤ مليار متر مكعب — هو ٥٥,٥ مليارات ، أما نصيب السودان فتكون جملة ١٨,٥ ملياراً من الأمتار المكعبة .

ونصت الاتفاقية على ضرورة قيام الطرفين بإبحث مشروعات أعالى النيل التى سبق أن أشرنا إليها ، على أن تقسم مصر والسودان النفقات مناصفة (٢) . ووكل إلى لجنة

(١) أنشأت حكومة السودان مدينة جديدة فى موقع مرتفع بعيد عن موقع حلفا القديمة ، أمدتها بكل وسائل الحياة العصرية ، وكلفتها حوالى سبعين مليوناً من الجنيهات ، وتعد حلفا الجديدة أحدث مدينة كاملة بنيت فى أفريقية .
(٢) ورد تفصيل لهذه المشروعات فى كتاب : « النيل » لمحمد صبيح طبعة سنة ١٩٤٥ .

فنية من الجانبين بأن تتولى بصفة دائمة دراسة الاحتياجات المائية والمشروعات المقبلة ، سواء كان ذلك داخل حدود السودان ، أو أوغنده والحيشة بعد موافقة هذه الحكومات المجاورة والتي تقع في حوض النيل .

وتضمنت الاتفاقية أيضا ملحقا يقضى بأن يعطى السودان لمصر سلفة مائية قدرها ١٥ مليار متر مكعب نستخدمها حتى عام ١٩٧٧ .

* * *

نأميم القنال

في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، ذهبت لزيارة صديق هو الأستاذ محمد علي الغنيت ، في أحد المكاتب بمجلس الثورة بالجزيرة . ودعاني ليعرفني برئيس هذه الخلية من خلايا العمل السري الصامت ، في بيت الأسرار ، وهو الدكتور حلمي بهجت بدوي . . قلت له : أتنا نلتقي عن طريق أخيه مصطفى بهجت بدوي ، أحد ضباط الثورة وأحد شباب مصر الفتاة في فجر كفاحها . . وحاولت أن أعرف ماذا يدرسون في هذا المكان . . ولكن صاحبي قال في ضحكة مرحة : أسرار . . أسرار . . ووجدت محمود يونس المدير الفني لمكتب رئيس الثورة ، كثير النشاط ، وله علاقة بما يدور . . وفهمت فيما بعد أن لجنة تألفت في مجلس الثورة لدراسة شئون قنال السويس ، وأن اختيار الدكتور حلمي بهجت لرياستها ، ليس إلا استمراراً لعمله السابق مع الثوار ، فقد كان وزير التجارة والصناعة في ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وهي الوزارة التي تنظم علاقة مصر مع شركة القنال . . ومن السرية التي أحيطت بها أعمال اللجنة ، أدركت أن جمال عبد الناصر ، يعد بالقرب منه دراسة وافية ، لإعادة قنال السويس إلى مصر ، بمجرد خروج آخر جنود الاحتلال من البلاد . . إذ لم يكن يمكننا أن نطرد الشركة الأجنبية من مصر ، وهي تقيم في أحضان ٨٠ ألف جندي بريطاني بأسلحتهم . .

ولكن التخلص من الشركة الأجنبية التي تدير القنال ، عمل كبير ، وليس قراراً يصدر بحجة قلم ، فإذا مظالم عشرات السنين تنتهي في لحظة . ولقد اتّمن زعيم الثورة ، على سره الكبير حفنة قليلة من الرجال ، وعلى رأسها هذا العقل القانوني الوطني الدكتور حلمي بهجت بدوي . .

روي الأستاذ الغنيت (١) : أنه التزم طريقته الجامعية وهي الحرص على تفهم

(١) حلمي بهجت بدوي العبقريّة المصرية الراحلة ، ص ٧١ .

وجهة النظر المعارضة ، والإحاطة بجميع الاحتمالات التي قد تثار ضد حقوق مصر .
وقد ساعد على الوصول بالدراسة إلى قمة الفهم لظروف الشركة الأجنبية ،
أن الحكومة عينت الدكتور حلمي بهجت مندوباً لها لدى الشركة ، ثم عضواً بمجالس
إدارتها . فوقف على كل أسرارها الداخلية ، وإمكاناتها العملية والمادية . . حتى أنه
عندما احتاجت الحكومة المصرية عام ١٩٥٦ إلى عملة أجنبية تمكن من أن يحصل
من الشركة على قرض مقداره ٢٠ مليون جنيه ، سددت منه ستة ملايين قبل التأميم .
وكان مدير الشركة الفرنسي ، يضرب كفاً على كف ويقول إن الدكتور حلمي ضحك
علينا ، عندما حصل لمصر على هذا المبلغ ، وهو يعلم أن الشركة سوف تأمم
بعد قليل ! !

وهناك شخصية أخرى لعبت دوراً فعالاً ، في مواجهة الشركة الأجنبية ، وهو
الدكتور مصطفى الحفناوى ، الذى كان له نشاط كبير فى الحزب الوطنى قبل الثورة ،
وأعد رسالة الدكتوراه لجامعة باريس عن القنال ، وبلغ من حماسه ضد سرقات
الشركة ، وحماسه لتأميمها أنه أصدر على حسابه مجلة أسبوعية كل حرق فيها
يطالب بالتأميم .

وإذن فقد كان من برامج الثورة السرية — بعد الجلاء البريطانى — أن يتم
الجلاء الثانى ، وهو إنهاء عمل الإدارة الفرنسية لقنال السويس . . وبعد أن تمت
الدراسات التى أشرنا إليها ، ووضعت خطط التنفيذ ، تلخص البرنامج فى انتظار
الوقت المناسب للقيام بهذه العملية الضخمة .

الوجه القبيل للولايات المتحدة

وفى ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ ، أذاعة حكومة الولايات المتحدة بياناً تسحب فيه
موافقتها على تمويل مسد العالى وقالت فى بيانها . . التطورات التى حدثت خلال
الشهور السبعة التالية لتقديم العرض لم تكن ملائمة لنجاح المشروع ، وعلى هذا
قد انتهت الحكومة الأمريكية ، إلى أنه من غير العملى فى الظروف الحاضرة
أن تشترك فى المشروع ، إذا لم يتم الاتفاق بين الدول المشتركة فى موارد مياه النيل .
كما أن مقدرة مصر على تخصيص موارد كافية تضمن نجاح المشروع صارت أكثر
افتقاراً إلى التوكيد مما كانت عليه عند تقديم العرض . .

إذن هذه هي الفرصة المواتية ، الرد على تهجم أمريكا ومن ورائها إنجلترا ، ولن يكون الرد إلا بضربة عنيفة تفقد الاستعمار سمعه وبصره ، وهي تأميم قنال السويس .

وكانت واشنطن ولندن تتوقعان رداً من القاهرة على الكلمات الوقحة التي صاحبت سحب تمويل السد العالي . فإن من حق الغرب ألا يقدم شيئاً من ماله . . ولكن ليس من حقه أن يشكك في مالية مصر ، أو قدرتها على تنفيذ برامجها . . وليس من حقه قبل هذا وذاك أن يتطاول بالشتائم علينا ، وأن تتحول معظم صحفه وبرلماناته إلى نشرات بذيئة ومنابر تنطلق منها إلا كاذيب بغير حساب .

كانت أمريكا مغيظة محنقة ، لأن مصر اعترفت بالصين الشعبية ، وتبادلت معها التمثيل الدبلوماسي ، مع قطع العلاقات مع حكومة شيانج كاي شيك في فرموزا^(١) .

فإذا أضفنا إلى هذا صفقة الأسلحة الروسية التي شرحنا ظروفها ، ورفض مصر الانضمام إلى شبكة الدفاع الغربية ، محتفظة بحيادها الإيجابي ، وبعدها عن تيارات الحرب الباردة . . فإننا نجد لدى الغرب الكثير يقوله ضدنا ، وسوف نفصل ، فيما يلي ما حدث للارشال تمبلر رئيس أركان حرب الأمبراطورية ، عند زيارته للأردن . . وما حدث لسلوين لويد في القاهرة يوم طرد جلوب من عمان .

كانت أول فرصة يتحدث فيها الرئيس جمال بعد بيان واشنطن ولندن ، هي خطب عيد الثورة في ٢٣ يوليو و ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ . . وقد مضت المناسبة الأولى ، لم يسمع الغرب إلا قول عبد الناصر مخاطباً الغرب : « لن نستطيعوا أن نتحكموا في مصر أو تستبدوا بها . فنحن نعرف طريقنا . طريق الحرية والشرف . أننا لن نمكن أي مستعمر منا ، وإن يسيطر علينا مستبد لا سياسياً ولا عسكرياً ولا اقتصادياً ، .

(١) كان مؤلف هذا الكتاب قد تلقى دعوة لزيارة فرموزا ، وقبل سفره بـ ٢٤ ساعة قطعت العلاقات مع حكومتها . . ولو أن هذه الحركة السياسية تمت وهو في هذه الزيارة لغدا الموقف محرراً للغاية .

لم يستشف الغرب شيئاً واضحاً من هذا الكلام ، ولكن ما أن ألقى عبد الناصر خطبته في ليلة ٢٦ يوليو ١٩٥٦ في ميدان المنشية بالإسكندرية ، حتى أصاب الدوار الغرب كله ، وقضت عواصم العالم ليلة ساهرة ، أعقبها ليالى أخرى ساهرة ما كان أطولها .

قرار التأميم

قبل هذا الاجتماع التاريخي اجتمع الرئيس جمال بمجلس الوزراء اجتماعاً طارئاً في الإسكندرية وأخبرهم أنه أعد قانون تأميم قناة السويس ، وسوف يعلنه في الاجتماع . وروى المهندس أحمد عبده الشرباصي ، أنه لم يكن أحد من الوزراء ، باستثناء الوزراء المختصين (التجارة والمالية) يعلم شيئاً عن هذه الحركة ، وأن الرئيس قام وحده بدراسة خطواتها ، وتوزيع أعبائها ، ولما سأله بعضنا عما إذا كانت النتائج المترتبة على هذا العمل قد حسبت بدقة ، أجاب بالإيجاب . وقد وافق المجلس بالإجماع على قانون التأميم ، معتمدين على أن الله وقف بجانب هذا الزعيم الثائر ، وإنه إذ يتوكل عليه في هذا العمل الخطير ، لا يقصد به إلا وجه الوطن ورد ظلم طال أمده ، فآله آخذ بنصره ومؤيده .

وقد صدر قرار اختيار المهندس محمود يونس ، لقيادة هذه المهمة ، وهو واحد من شباب هذا الجيل ، الذي أعطى الكثير من وقته وجهده للعمل العام ، وكان له دوره وذكره من الثلاثينيات وما تلاها .

واختار محمود يونس بدوره الذين عاونوه في العمل . . وأعدت خطابات سرية لمحافظي السويس والإسماعيلية وبور سعيد ، لكي يقوم كل منهم بما يطلبه مندوب الرئاسة في محافظته ، وقد روى لنا السيد محمود طلعت محافظ السويس في ذلك الوقت ، أنه في ساعة معينة من ليلة ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ قدم له مندوب القيادة هذه التعليمات ، وأعد قواته ، وصحبه إلى حيث وضعت السلطة المصرية يدها على كل مرافق شركة القناة في الميناء والمدينة . .

وكانت ساعة البدء كلمة معينة في خطبة الرئيس : تحركت عندها كل القوات بما فيها قوة قادها محمود يونس بنفسه في القاهرة متجهاً إلى مقر الشركة في جاردن سيتي . . كانت هذه الكلمة : «قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس» . .

عند هذه الجملة وصلت مجموعة القاهرة إلى مبنى الشركة ، وتصدى البواب للمجموعة ، قائلاً إن الشركة لا تعمل في الليل ، فتحى جانباً ودخل محمود يونس ، فوجد مكتباً واحداً مضاء ، وفيه خواجه ، هو سكرتير الشركة ، فطلب منه تسليم مفاتيحه . . . وذهل الرجل قائلاً هذه شركة عالمية . . . لا يمكن . . . فتقدم منه اثنان ونحياه عن المكتب بهدوء ، فامتل الرجل ، واخذت منه مفاتيحه ووضع تحت الحراسة حتى تم تسليم جميع المسكاتب والخزائن . ثم دار الاتصال على الفور بالاسماعيلية وبور سعيد والسويس عن طريق الخطوط المباشرة للشركة ، فإذا المفاجأة كانت تامة ، وكل شيء تم بادق نظام وعلى خير وجه .

وقد روى الرئيس في خطبة الاسكندرية قصة العلاقات المصرية البريطانية الأمريكية ، وما حدث بشأن السد العالي . وروى تاريخنا مع شركة قنال السويس وما جرى بين ديلسبس ، والتديويين . . . وكان بما قال :

« بلغ دخل شركة قنال السويس في عام ١٩٥٥ - ٣٥ مليون جنيه^(١) ، أى مائة مليون دولار ، وتأخذ منهم نحن الذين مات من أبنائنا ١٢ ألفاً أثناء حفرها مليون جنيه فقط ، أى ٣ مليون دولار . . . »

« هل تعلمون مقدار القرض الذى طالبناه من أمريكا وانجلترا في خمس سنوات ؟ ٧٠ (سبعين) مليون دولار ؟! وهل تعلمون من الذى يأخذ المائة مليون دولار كل سنة ؟ هم الذين يأخذونه بالطبع ! »

« وليس عيباً أن أكون فقيراً ، واقترض لأبنى بلدى ، أو أحاول أن أجد مساعدة لأجل بلدى . . . ولكن العيب أن أمتص دم الشعوب ، وأمتص حقوق الشعوب . »

« أننا لن نكرر الماضى ، بل سنقضى على الماضى . . . بأن نستعيد حقوقنا في قنال السويس . . . هذه الأموال أموالنا ، وهذه القنال ملك لمصر ، لأنها شركة مساهمة

(١) وصل صافي دخل قنال السويس قبل حرب يونيو ١٩٦٧ حوالى مائة وعشرة مليون جنيه بمختلف العملات الأجنبية .

مصرية . . شركة قنال السويس الموجودة الآن في باريس ، شركة مقتصة ، اغتصبت امتيازاتنا . . وعندما جاء ديليسبس إلى مصر ، كان مجيئه يشبه مجيء يوجين بلاك (مدير البنك الدولي) إلى مصر للتحدث معي .

« والتاريخ لن يعيد نفسه . بل على العكس سنبنى السد العالي . ونحصل على حقوقنا المقتصة . سنبنى السد العالي كما نريد وسنصمم على هذا . . ٣٥ مليون جنيه تأخذها شركة القنال فلتبتردها مصر .

« ولهذا فأتنا اليوم ، أيها المواطنون ، حينما نبنى السد العالي ، فإنما نبنى أيضاً لمصر العزة والحرية والكرامة ، ونقضي على سدود الذل والهوان .

« وتعلن - مصر كلها - جبهة واحدة ، أنها كتلة وطنية متكاتفه متحدة ، مصر كلها ستقاتل لآخر قطرة من دمائها . . كل واحد من أبنائها سيكون مثل صلاح مصطفى ، ومثل مصطفى حافظ (شهداء في فلسطين) . . لن نمسك منا تجار الحروب . . لن نمسك منا المستعمر ، .

وختم بقوله :

« الآن ، وأنا أتكلم معكم ، يقوم أخوة لكم من أبناء مصر ، ليديروا شركة القنال ويقوموا بعملها . . الآن في هذا الوقت يتسلمون شركة القنال . . شركة القنال المصرية لا شركة القنال الأجنبية . . قاموا ليتسلموا شركة القنال ومرافقها ويديروا الملاحة فيها . . في القنال التي تقع في أرض مصر ، والتي هي جزء من مصر ، وملك لها . . نقوم الآن بهذا العمل لنعوض ما فات ولنبني صروحاً جديدة للعزة والكرامة . ،

الاستعداد للمعركة

عندما وقعت معاهدة الجلاء عن مصر عام ١٩٥٤ ، وقف تشرشل — رئيس الوزراء في ذلك الوقت — يتحدث بصوت امتزجت فيه حشجة الشيخوخة مع نبرات الحزن ، وقال :

« لم أحاول قط إخفاء ما أحس به من أسى ، تجاه سير الحوادث في مصر . . . وذهني ما يزال قادراً على استيعاب التطورات الضخمة ، التي حدثت في المواقع الاستراتيجية في العالم كله . وهي تطورات جعلت نظرياتنا المنطقية القديمة في شئون الدفاع ، غير صالحة للبقاء ، نسخت تماماً . وكذلك حدث تبدل عام في تفكير قادتنا العسكريين . . . مما جعل قاعدة قنال السويس والمركز الذي تحتله في مصر ، لا يتفقان مع التطورات الهائلة التي حدثت ، ولا تناسبان ما نتوقعه في المستقبل ، مما يثير تصوره الفزع في نفوسنا .

« ويمكن أن تتخيل بشيء من الإيجاز ، ماذا سيحدث في الأسابيع الأولى من الحرب ، لو وقعت اليوم ، ولأني على ثقة من أن المجلس الموقر سيقنع بأن قاعدة قنال السويس أصبحت غير ذات موضوع ، .

ولقد كنا نتوقع أن يكون تشرشل أكثر حصافة ، وتفتح ذهن . . . وأن يزعم — ولو على طريقة النفاق الانجليزي الشهير — أن جلاء الانجليز عن مصر كان تقديراً من بلاده للحرية ، أو حرصاً منها على تطبيق ميثاق هيئة الأمم الذي ينص على ألا يبقى جنود دولة في أرض دولة أخرى بغير رضاها وقد كان تشرشل أحد واضعيه . . . وهو ما تمنيناه لتشرشل قبل عشر سنوات من معاهدة الجلاء ، ودعونا إلى أن يكون بطل حرية الشعوب ، بعد أن حمل لقب بطل الحروب (١) ١١

(١) ص ١٦٢ و ١٦٣ من كتابنا «تشرشل» صدر عام ١٩٤٤ .

ولكن الأمل خاب فيه ، فقد راح يذكر أن حكومته مكرفة على الجلاء لأن استراتيجية القنبلة الذرية غيرت كل شيء . . . ولو كان أكثر صدقاً ، لقال أن معارك المصريين في القنال عجلت بإظهار مزايا هذه الاستراتيجية !

على كل حال ، لقد ابن تشرشل بإسم الاستعمار ورجاله ، الوجود البريطاني في مصر ، ومنطقة قنال السويس . . . وتبعاً لذلك ، كان يجب أن يكون خليفته — أنطوني إيدن — وحزب المحافظين بصفة عامة ، أقل إنزعاجاً من تأميم القنال ، إذ لم تعد تمثل إلا مصلحة مالية ، هي نصيب حملة الأسهم الانجليز ، من دخل القنال . أى حصتهم من ٣٥ مليوناً من الجنيهات . . . وربما قلت هذه الحصة عن خمس عشرة مليوناً من الجنيهات سنوياً . فقد كانت أسهمهم تمثل ٤٥٪ من جملة أسهم القنال .

ولكن الأمر لم يكن كذلك . ولم يكن أمر هذه الملايين القليلة تنتهبها انجلترا أو فرنسا ، من عرق ودماء الشعب المصرى . ولكنه كان هذا الميراث الثقيل القديم ، الذى تخلف عن الحروب الصليبية وضراوتها وحرارتها . . . وأمر المحاولات العنيدة المستمرة خلال القرن التاسع عشر للاستيلاء على القاهرة والقدس وما جاورها من بلاد العروبة . . . ان رواسب هذا الماضى هى التى حركت عواصم الغرب الاستعماري ، أكثر من الواقع وحقيقته . . . انه الخوف من المستقبل ، اذا ما استيقظ الشرق ، وبلاد العروبة ، وأخذ مكانه الطبيعي على ظهر هذا الكوكب . . . هو هذا ، ولا شيء غيره . . . ومن أجل عقدة الخوف ، زرعت اسرائيل فى جسم الأمة العربية ، كما يزرع الميكروب الخبيث . . . ومن أجل هذه العقدة ، أنشأ الغرب جيلاً من السياسة ، أسلموه الجاه والمال والنفوذ ، لكن يؤمن بالغرب وبتفوقه ، وبسيادته .

ففى لندن . . .

كان رئيس الوزراء هو أنطوني إيدن ، بعد أن تخلى تشرشل عن رئاسة الوزارة والحزب لكبر سنه . وكان من أهم زملائه الأعضاء فى مجلس الوزراء : سلوين لويد للخارجية ، وإيرل أوف هيوم وزير الكومنولث ، وهارولد ماكيلان وزير الخزانة وسير وولتر مونكتون وزير الدفاع ، ولنوكس بويد وزير المستعمرات ، وريتشارد بتلر

حامل أختام الملكة وزعيم مجلس العموم . . ومن الوزراء الذين ليسوا أعضاء في مجلس الوزراء ، الفيكونت توماس وزير البحرية وأنطوني هيد وزير الحرب ، ونيجل بيرش وزير الطيران ، ووزيراً دولة للشئون الخارجية هما انتوني ناتنج والمركيز ريدنج .

والشخصان اللذان كانت لهما علاقة مباشرة بشؤون مصر . هما إيدن ، وسلوين لويد .

أما أولهما ، فقد جاء الحكم في مكان رجل يعد من أبطال إنجلترا ، ومن أكبر سياسة العالم في القرن العشرين وهو تشرشل . وحتى لا يبدو إيدن قزماً في المقعد الكبير الذي جلس عليه ، فقد بدأ عهده بزيارة ايزنهاور لأخذ تأييد منه ، ووعد بأن تكون إنجلترا شريكة في سياسة العالم على قدم المساواة مع روسيا وأمريكا . مستغلاً في هذا الطلب صلة صداقة توطدت بينه وبين الرئيس الأمريكي أثناء الحرب العالمية الثانية .

وهناك اعتبار ثان في حياة إيدن الخاصة سيطر على تفكيره ، وهو أنه تزوج في شهر أغسطس سنة ١٩٥٢ من السيدة كلاريسا تشرشل إحدى قريبات سلفه الكبير ، وهو زواجه الثاني . وكان فارق السن بينه وبين عروسه ثلاثين عاماً . . وقد حاول إيدن ، بعد أن وصل إلى رئاسة الوزراء أن يثبت لزوجته أنه سياسي عملاق ، وأنه قادر على أن يقف على سلم العظمة الذي وقف عليه تشرشل .

وكان إيدن يعد نفسه خبيراً بشؤون الشرق الأوسط ، أكثر من أى سياسي آخر ، فهو يعرف العربية والتركية ، ولو لم يلتحق بالعمل السياسي الحزبي لكان سار في نفس طريق لورنس ، وفيلبي . . .

وعندما حاوره المستر اتلي رئيس حزب العمال ، وزعيم المعارضة ، في معاهدة الجلاء عن مصر ، وقال إن الجلاء سوف يترك فراغاً في الشرق الأوسط ، رد إيدن قائلاً إن أعفاء ٨٠ ألف جندي من العمل المحدود في قاعدة قناة السويس سوف ينهي فراغاً وجد فعلاً ، إذ سيكون في الاستطاعة تحريك هذا الاحتياطى الكبير إلى أى جهة يتطلبها العمل العسكرى . ولم تعد القواعد ذات قيمة ، ولكن القوات

القادرة على الحركة هي التي تهم الآن . . . وأضاف رداً على المحافظين جداً الثائرين على الجلاء ، من أعضاء حزبه قائلا : أن ما نريده هو قاعدة قادرة على العمل ، لا حامية مشتبكة طـول الوقت في حرب . . . وتوقع إيدن — بعد جلاء الانجليز عن مصر — أن تتعاون حكومتها بحرية في شؤون الدفاع الغربى (يقصد الأحلاف) .

وأعلن إيدن في ٣٠ مارس سنة ١٩٥٥ عقد حلف دفاعى بين تركيا والعراق لـكى يكون درعا يصد أى هجوم من الخارج ، ولما سئل عن تأثير هذا الحلف على اسرائيل ، قال إنه للمرة الأولى يتجه نظر دولة عربية — عراق نورى السعيد — إلى نواحي أخرى ليس منها اسرائيل (١) .

أما سلوين لويـد

ما أن تولى وزارة الخارجية في وزارة إيدن ، أى جلس في مقعد إيدن السابق ، حتى رسم برنامج رحلة إلى الشرق الأوسط ، يحاول أن يبيع معاهدات جديدة . ويضم بلدانا جديدة إلى حلف بغداد ، ووصل إلى القاهرة في بداية شهر مارس سنة ١٩٥٦ وبينما كان يتناول العشاء في قصر عابدين ، ومعه السفير البريطانى السير همفرى تريفيليان حتى أخذ يعرض وساطته لـكى توافق حكومة السودان على مشروع السد العالى .

وكان عجيبا أن يظن الوزير البريطانى أنه أقرب إلى السودانين ، من مصر والمصريين حتى يحاول تسويق موافقتهم على السد العالى لنا .

وما أكثر ما حاول الانجليز أن يبيعوا مالا يملكون . ففي بداية الحرب العالمية الأولى ، حاولوا أن يبيعوا عرش الـمين لعزير المصرى ، فرد عليهم قائلا : إن الـمين ملك لشعب اسمه الشعب الـمينى ، وهو وحده صاحب الحق في اختيار حاكمه وحاولوا أن يبيعوا عرش مصر لأغاخان ، ولكن الصفقة لم تتم .

(١) ألان كامبل جونسون فى كتابه عن أنطونى ايدن ص ٢٥٧ .

وانتقل كلام سلوين لويد — وهو (يته) في حديثه ، إلى الأردن وراح ينتقد حملة إذاعة القاهرة ، وصحفها على الأردن . . فرد عليه عبد الناصر ، بنفس المعنى الذى دار فى خاطر عزيز المصرى من أربعين سنة بالضبط . . قال له :

— هذه مسائل بيننا وبين الأردن ، وهى تهم العرب وحدهم . فإذا يقلق باله فى هذا الموضوع ١١٩

فرد سلوين لويد :

— نعم . . نعم . لا ينبغي أن نقلق بالنسبة ، فلنا فى الأردن دجلوب باشا ، وهو يقود الفيلىق العربى كما تعلم . . فسأل عبد الناصر فى صوت خافت .
— . . جلوب ؟ فأجاب سلوين لويد مفاخرأ .

— أجل الجنرال باجوت جلوب . . فقال عبد الناصر .

— آه . . أظن أنه الآن فى طريقه إلى قبرص ، فقد أقيى من منصبه قبل أن تبدأ عشاءنا بوقت قصير ورحل من الأردن على عجل . . .

ولدينا مثل مصرى يقول : وقفت اللقمة فى حلقه ، هذا المثل ينطبق تماماً على حالة سلوين لويد فى هذه اللحظة . فقد أبطأ فى مضغ طعامه ، وتظاهر بالثبات أمام هذه الهزيمة المنكرة ، فى المصاراة الكلامية التى اشتبك فيها ، فاكتفى بالصمت ، أو ما يشبه الصمت ، حتى انتهت حفلة العشاء . . ويا لها من حفلة . . وركب مع سفير بلاده إلى دار السفارة وهو يردد بفأفأة وثأثأة : هل هذا صحيح ؟ . . كيف حدث هذا !

وقبدر لسولوين لويد ، أن تستقبله زيارته التالية . وكان للبحرين — استقبالا جاراً ساخناً بالطوب والمظاهرات العدائية . . وعاد إلى لندن وحقد الدنيا كلها بملأ صدره . .

ولم يكن وحده الذى جرعه القاهرة ، غصص الهزيمة . . فقد تلقاها أيضا رئيس أركان حرب الامبراطورية المارشال وولتر روبرت تمبلر . . وتلقاها فى عمان نفسها . . فقد راح بدوره يبيع . . يبيع حلف بغداد . ووصول أكبر قائد انجليزى إلى عمان ، كان فى ذاته حدثا كبيرا . . فهو لا يشغل هذا المنصب

فقط ، ولكن له تاريخ حافل . فقد كان من قواد الحرب العالمية الثانية أثناء غزو الحلفاء لإيطاليا ، ثم تولى رئاسة المخابرات الحربية لبلاده ، ثم تولى في الملايو حملة ضخمة ، لوقف التسرب الشيوعي إليها . ونتيجة لنجاحه في هذه المهمة ، عين رئيساً لأركان حرب الامبراطورية ، وكان من أول مهامه تنسيق حلف بغداد ، وضم الأردن له فقام بهذه الزيارة في أواخر عام ١٩٥٥ . وإذا بالشعب الأردني يشورثورة عارمة ، لم يملك تمبلر نفسه لإزاءها ، إلا أن يركب أول طائرة ، ويسرع من المنطقة كلها إلى بلاده ، على الرغم من أنه جاء أيضاً — يقدم هدية سخية من الأسلحة للأردن . وقد استقال نتيجة هذه الزيارة الفاشلة هزاع المجالي رئيس الوزراء الجديد ، الذي تولى الحكم أثناء وجود تمبلر . ولم تمكث هذه الحكومة أيضاً أكثر من خمسة أيام . ثم استقال . ليأتي بعده إبراهيم هاشم في رئاسة الوزارة ، الذي وكان عليه أن يعلن استنكار حكومته لحلف بغداد بما اضطر الجنرال جلوب أن يتدخل بقواته ويقبض على ألني شخص منهم ٣٠٠ في القدس وحدها . وعندها تقرر مصير هذا الإنجليزى الدخيل ، إذ لا يتفق وجوده مع ، تحرك القومية العربية إلى مواقع جديدة أسودها العزة والكرامة .

عاد الجنرال د تمبلر ، إلى لندن ، وقد استقر في ذهنه أن شيئاً غير عادى يحدث في البلاد العربية .

وكان من طرائف ما حدث في هذه الفترة أن فريقاً من شباب الموظفين في وزارة الاقتصاد ذهبوا إلى وزيرهم وقالوا له إن موضوع الاشتراك في خلف بغداد سيغرض على مجلس الوزراء بعد قليل ، فإذا وافق على الاشتراك فعليه أن يذهب إلى منزله ولا يعود إلى الوزارة أبداً ١١

وقد ألقى اللوم في حادث إقصاء د جلوب ، على الضابط الثائر على أبونوار رئيس حرس الملك ، والذي تولى قيادة الفيلق العربي كله . ولكن اللوم يجب أن يلقى أيضاً على الشعب العربي كله ، إن كانت « القومية العربية » بما يلام عليها أهلها وسمع إيدن أنباء القاهرة وأدرك من أين سوف تهب الريح عمناء قريب . . . وقد وصف الكاتب الكندي د ت . روبرتسون ، (١) حالة إيدن النفسية بقوله :
« كان إيدن شديد الحساسية بصورة خاصة للنهم التي توجه إليه عن رغبته في التهاون والترضية . فلقد كان هناك — في خزانة محفوظات الحرب — هيكل عظمى

(١) كتاب «أزمة ... القصة السرية لمؤامرة السمويس» ص ٧٠

محظ ، يطلق عليه اسم « ميونخ » ، ولم يكن هناك من هو أكثر إحساساً بوجود الهيكل العظمى من رئيس الوزراء نفسه . وهذه إشارة إلى الأحداث التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، عند ما هادنت وزارة المحافظين برئاسة تشمبرلن ألمانيا ، وظلت تراجع أمامها حتى نشبت الحرب . . .

يستأنف هذا الكاتب : « أن ليدن حزم أمره على أن تقوم وزارة المحافظين في حالة نشوب أزمة دولية تشبه أزمة ميونخ ، بانتهاز الفرصة لمحو هذه البقعة السوداء ، التي ما زالت عالقة بتاريخ حزب المحافظين » .

هذه كانت حالة لندن ، وكبار المسؤولين فيها في فترة التأميم . . وسنرى فيما بعد كيف استقبلوا القرار الخطير . . بعد أن نستعرض موقف فرنسا منا في تلك الفترة .

فرنسا . . والحكم الاشتراكي

في أول فبراير عام ١٩٥٦ ، ألف جى مولييه زعيم الحزب الاشتراكي الوزارة ، وكان وزير خارجيته زميله الاشتراكي كريستيان بينو . ومن الأعضاء في هذه الوزارة مانديس فرانس (وزير بلا وزارة) الذي كان رئيساً للحزب الاشتراكي الراديكالي ، ومن وزرائه الظاهرين فرنسوا ميتران رئيس الديمقراطيين واتحاد المقاومة الاشتراكيين . وكان الجنرال جورج كاترو وزيراً للجزائر . وكانت هناك أحزاب أخرى ممثلة في الوزارة ، إلا الحزب الشيوعي ولا تعجب من هذا ، فقد كان أعضاء مجلس النواب (٦٢٧) مقسمين على ١٢ حزباً ، وهذا غير المستقلين ولم يكن الشيوعيون مشتركين في الوزارة ، رغم أن لهم أكبر نسبة في عدد أعضاء مجلس النواب (١٤٤ عضواً) ، وكان زعيمهم — موريس توريه — ما زال عائشاً . .

وكانت فرنسا في ذلك الوقت ، مشتبكة في صراع دموي رهيب ، يدور على أرض الجزائر ، ويشترك فيه من جانبها نصف مليون عسكري . وعلى الرغم من المؤازرات التي كانت دول حلف الاطلنطي تمدّها بها ، إلا أنها كانت تحس بأن أعضاء هذا الحلف ينظرون إليها نظرة زميل ضعيف ، بعد الضربة القاصمة التي أصابت

الجيش الفرنسي في «ديان بيان فو»^(١) بالهند الصينية ، وطردت الامبراطورية الفرنسية نهائياً من آسيا ، وقد غاظ فرنسا ، أن الولايات المتحدة وإنجلترا ، شرعنا في عمل حلف في الشرق الأوسط ، وهو حلف بغداد دون أن تدعوا له فرنسا ، أو حتى تستشيرها فيه . وكأن فرنسا لا وجود لها أيضاً في هذه المنطقة ، على صورة من الصور ، ولهذا فقد وجد العسكريون الفرنسيون أن من واجبهم ، أن يصرعوا جيش التحرير الجزائري ، لكي يستردوا هيبته المفقودة في الشرقين الأقصى والأوسط ، وأن يبذلوا في هذا كل فرنك وكل روح يمكن التضحية بها في جبال الأطلس .

وبعد أسابيع قليلة من تولية الاشتراكيين الحكم في فرنسا ، قدم إلى مصر وزير خارجيتهم « بينو » في ١٤ مارس سنة ١٩٥٦ وكانت زيارته عقب زيارة الوزير الإنجليزي سلوين لويد .

(١) من مفارقات التاريخ ، أن هذه المعركة الحاسمة في نضال الشعوب الحديثة كانت سبباً في نشأة أحقاد ملأت نفس فرنسا ضد الولايات المتحدة ، فقد كانت الحامية الفرنسية في وادي «دين بيان فو» بفيتنام الشمالية مكونة من ١٣ ألف جندي ، وقد حاصرها الفيتناميون ، حصاراً تاماً من التلال المحيطة وكانت بطاريات المدافع المضادة للطائرات التي استعملوها ببراعة تامة ، تمنع الطائرات من امداد الحامية المحاصرة ، ولم يكن هناك سبيل للانقاذ الا أن تضرب مناطق التلال من الجو ضرباً مركزاً ثقيلاً يسكت مدفعية الفيتناميين . وكانت أقرب قاذفات قنابل لمنطقة العمليات هي القاذفات الامريكية وقدر ضرورة اشتراك ٥٤٨ طائرة أمريكية في العملية وعرض فوستر دلاس الأمر على لجنة مختصة بالكونجرس الأمريكي ، وتصادف أن كان زعيم المعارضة في المجلس ، هو لندون جونسون ، الذي عارض معارضة شديدة في اشتراك الطائرات الامريكية في عملية الانقاذ ، الا اذا اشتركت دول أخرى من حلف الاطلنطي أو جنوب شرقي آسيا في العملية . . [هو رئيس الولايات المتحدة فيما بعد] . .

وقد شدد الفيتناميون هجومهم ، وقتلوا ألفين من الفرنسيين وأسروا الباقين ، وكان ذلك في ٣ أبريل ١٩٥٤ . وبعدها قررت فرنسا :

١ - الانسحاب من الهند الصينية ٢ - احتقار الولايات المتحدة . . وهذا الحادث يفسر لنا موقف الجنرال ديغول من حرب أمريكا في فيتنام ، وموقفه بصفة عامة من الولايات المتحدة . ويفسر لنا أيضاً لماذا لم تعبأ فرنسا بمعارضة الولايات المتحدة في العدوان على بور سعيد .

وكانت روح الزائر الفرنسي ودية ، فقد تحدث باستهانة عن حلف بغداد وحيد
عدم اشتراك مصر فيه ، وأعطى وعداً ، بأن تنقص فرنسا من الأسلحة التي تتدفق
على إسرائيل . وكانت لدى مخبراتنا معلومات وثيقة عن أنواع وكميات هذه الأسلحة
التي حاولت تل أبيب وباريس إنكار وجودها ، إلى أن أفشى الرئيس ناصر
أسرارها في آخر عام ١٩٥٥ :

ووصل الحديث إلى الجزائر ..

وكان قد وصل إلى القاهرة ، نبأ أن إيدن وموليه ، اجتماعاً ، وتناقشا في اتخاذ
سياسة موحدة ، بعد أن عرف أن مصر تساعد الجزائر في حربها الاستقلالية وصرح
موليه للصحفيين : بأن هناك نتيجة واحدة لهذه المحادثات وهي أن فرنسا وبريطانيا
والولايات المتحدة ستتخذ موقفاً متحداً في سياستها حيال مصر ، .

كان طرد جلوب من الأردن حافزاً على هذا الاجتماع . وكانت أزمة فرنسا في
الجزائر حافزاً آخر ولهذا جاء بينو . . واستطرد بعد عودته (الكاذبة طبعاً)
بمنع السلاح عن إسرائيل ، في أخذ وعد مقابل من عبد الناصر ، لكي يكف عن
مساعدة الجزائر ، وقد رفض الزعيم المصري هذا الطلب في بساطة ووضوح . إذ لم
يكن يعقل أن تتخلى مصر الثائرة عن أخوتها لثورة الجزائر ، التي اشتعلت نيرانها في
نوفمبر عام ١٩٥٤ .

وأصيب بينو بصدمة عنيفة .. فقد كان حزبه مرتبطاً بوعد من ناخبيه أن ينهي
حرب الجزائر ، ووعى الناخبون ما قاله رئيس الاشتراكيين موليه أثناء الحملة
الانتخابية وهو أنه : يسقط كل يوم شبان فرنسيون ، وتبحث الزوجات والامهات
عن السبب : ماذا يجب أن نفعل ؟ يجب قبل كل شيء أن نكف عن الكذب ، وأن
نتفادى الأخطاء التي ارتكبت في الهند الصينية وتونس ومراكش . وعلى الشعب
الفرنسي أن يختار بين حرب يائسة ، وبين صلح وسلام . .

وكان في تقدير الحكومة الفرنسية ، أن السلام في الجزائر ، طريقه من القاهرة ،
وهذا هو عبد الناصر ، يقفل هذا الطريق ، ويقول ألا سلام في الجزائر قبل جلاء
الفرنسيين عنها .

وهكذا انضم « بينو » إلى الساخطين الحاقدين على مصر ، ومعهم رئيسه وزملاؤه .
وحتى تحصل الوزارة الفرنسية على نصر سريع في الجزائر ، فقد زادت قواتها
زيادة كبيرة ، ووعد « موليه » ، على أثرها بأن الثورة الجزائرية ستسحق في
١٥ مايو ١١ وجاء يوم ١٥ مايو ولم يحدث ما وعد به فأدلى بتصريح جديد مؤداه أن
ميعاد النصر هو الخريف . ولم يحدث أن سياسياً مسؤولاً أدلى بتصريح في مسألة لها
هذه الأهمية ، بمثل هذه الخفة ، كما فعل « موليه » !

كيف استقبلوا التأميم

في ليلة ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ كان أنطوني إيدن قد دعا إلى العشاء زواراً من
العراق ، هما الملك فيصل والأمير عبد الإله العراقيان ، ونوري السعيد رئيس الوزراء .
ودعا بعض وزرائه لهذه المائدة . . . وربما كان الحديث دائراً حول حلف بغداد ،
واحتمالات نجاحه ، وموقف مصر منه . . . وقبل أن ينتصف العشاء وأحاديثه المتفائلة
دخل سكرتير بقصاصة ورق ، ووضعها أمام إيدن فإذا به يقرأها ، ثم يعيد النظر
فيها قرأ ، ثم يقول لضيوفه إن قسم الاستماع بمحطة الإذاعة البريطانية ، أبلغنا أن ناصر
قال في خطبته بالمنشية أنه أمم قناة السويس ، وأن مندوبيه استولوا عليها فعلاً . . .

وبعد فترة صمت ، قال نوري : الآن فرصتك . . فرصتنا جميعاً . يجب أن تضرب
وتضرب فوراً . . .
يروى أنطوني إيدن في مذكراته عن هذه الليلة :

« في مساء السادس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٦ كان ملك العراق ،
وزعمائه يتناولون طعام العشاء معي في رواتنج ستريت ، وأثناء العشاء جاء أحد
السكرتيرين الخصوصيين يحمل أنباء استيلاء « ناصر » على قناة السويس ، واغتصاب
ممتلكات الشركة التي كانت تديرها وفقاً لاتفاق دولي . فقد أعلن « ناصر » في خطاب
ألقاه بالاسكندرية أن مصر ستجد الأموال اللازمة لبناء سد أسوان وكانت الوسيلة في
متناول يده . سوف يستولي على القنال ، ويأخذ من دخلها رأس المال الذي يريده .
« وأنبات ضيوفي بما حدث . وقد رأوا فيه بوضوح قلباً لكل اتجاهاتي وأفكارى .
التي سنقابل بها هذا التحدي . وانفض الاجتماع مبكراً ، بعد أن انتهى الغرض
الاجتماعي من عقده .

« وكان مستر سلوين لويد ، ولورد سالزبوري ، ولورد هيوم يتناولون العشاء معنا فتوجهنا إلى غرفة اجتماعات مجلس الوزراء لتناقش ما يجب أن نفعله ، وانضم إلينا وزير المالية (هارولد ماكيلان) ، ورؤساء هيئة أركان الحرب (المارشال تمبلر كان على رأسهم) ولم يكن لدى شك في الأثر الذي تركه تصرف الرئيس ناصر من إهدار لكرامتي . لقد كان ذلك استيلاء على ممتلكات غربية (كذا) ردأ على تصرف حكومة الولايات المتحدة ، وعلى نتيجة ما سنعمل سيتضح من تكون له السيادة والسيطرة في تلك المنطقة »

« وقررنا أن ندعو السفير الفرنسي ، ميسو شوفل ، والقائم بأعمال السفارة الأمريكية مستر فوستر . ليشاركنا في مشاوراتنا ، وعندما وصلا أخبرتهما بمرأيتنا . لقد كانت الحياة الاقتصادية ، لأوروبا الغربية — في رأينا مهددة ، من جراء أستيلاء مصر على القنال . وكانت تلك مسألة بالغة الأهمية ، فهي تتعلق باتفاق دولي تعرض للخطر . فيجب على الفور أن تنسق الحكومات الثلاث خطواتها المقبلة حيال ذلك . وقدمنا إلى الممثلين الفرنسي والأمريكي ، محتويات تصريح اقترحت أن أدلى به في مجلس العموم في الصباح التالي ، .

سهر إيدن الليل كله ، وقبل الفجر اتصل بباريس وواشنطن ، وفي صباح اليوم التالي ٢٧ يوليو ، وجه له زعيم المعارضة ، سؤالاً عن الموضوع أجاب عليه بقوله :

« القرار الذي اتخذته الحكومة المصرية من جانب واحد ، بنزع ملكية شركة قنال السويس بدون اخطار ، نقضت به اتفاقيات الامتياز الممنوح لتلك الشركة ، والذي يؤثر في حقوق ومصالح عدد كبير من الدول . وتشاور حكومة جلالة الملكة (انجلترا) مع الحكومات التي يهمها الأمر بصفة مباشرة (فرنسا صاحبة الامتياز والولايات المتحدة الوصية على غرب أوروبا) بخصيص الموقف الخطير الذي نشأ عن هذا التصرف . وسوف تتناول المشاورات أثر هذا العمل التعسفي على إدارة قنال السويس . والمسائل الكثيرة الناجمة عنه ، .

وقد تجاوب جيتسكل زعيم حزب العمال في مجلس العموم مع إيدن ، وقال :

« إن المعارضة تأسف أشد الأسف لهذه الخطوة الجائرة التي لا مبرر لها إطلاقاً ، والتي اتخذتها الحكومة المصرية .

واستطرد إيدن في مذكراته أنه بعث ببرقيات إلى واشنطن وباريس قال فيها : إن رجلاً له سجل ناصر يجب ألا يسمح له بأن يطبق يده على رقبتنا . . .

ويفهم من هذه التعبيرات ، أن إيدن وحكومته ، والمعارضة ذاتها ، أصابها الدوار بما حدث . فقد زعموا أن الشركة دولية ، وهذا ليس صحيحاً ، ولا يوجد شيء اسمه شركة دولية طالما أن موجوداتها في أرض بلد ما له سيادته . . . وأما سجل ناصر الذي تحدث عنه إيدن ، فهو أنه أجبر الانجليز على الجلاء ، ثم سلاح جيش بلاده من حيث وجد السلاح متاحاً ، وبدأت حركة تعمير ضخمة ، كان على قمتها السد العالي ، والنمس لذلك المسال الممكن ، والذي لبلاده فيه حق ، وهو دخل قنال السويس .

ولكن انجلترا كانت تنظر إلى الموضوع من زاوية أخرى . فقد هزتها من الأعماق ، حركة مصدق عام ١٩٥٦ ، عندما أمم بترول إيران . واضطرت لكي تستعيد صلتها بالبترول الإيراني ، أن تتنازل عن نصفه للولايات المتحدة ، ثم لجأت إلى سياسة الأحلاف ، ليكون لها الحق في أن تتدخل عسكرياً في المناطق التي لها فيها مصالح ، بحجة قيام تحالفات معينة . .

وإذا كانت حجج السيطرة على قنال السويس في القرن الماضي ، قامت على أساس مصالح انجلترا في الهند والشرق الأقصى ، فإن هذه الحجج القديمة زالت ، لتحل محلها المصالح البترولية في منطقة الخليج ، والتي تمر معظم سفنه من القنال .

والسألة بعد هذا ليست مسألة حجج . . ولكن مصالح . وأي الفريقين أقدر على تحقيق مصالحه . صاحب الشيء أو مقتصبه . .

وإذا سألت عن موقف « القاهرة » ، بعد خطبة التأميم ، فقد قالها عبد الناصر في صراحة : « سنحافظ على حقوقنا ، ودونها أرواحنا ودمائنا » .

وإذا سألت عن موقفنا من الولايات المتحدة ، وهجوم دلاس علينا ، وهو يسحب تمويل السد العالي ، ويسبنا ، فقد رد الزعيم المصري على دلاس وعلى بلاده بقوله : « أننى كلما صدر من واشنطن كلام : سأقول : موتوا بغيظكم » .

وقال عن معونة وقروض الأمريكان بصفة عامة : أننى لم أر أبداً معونة أمريكية متجهة إلى التصنيع ، لأن اتجاهنا إلى التصنيع سيزرب عليه منافستنا لهم . . . ولكن المعونة الأمريكية تتجه دائماً إلى الاستغلال .

وإذن فقد تحددت السياسة ، وهى القتال دفاعاً عن الحق . . القتال فى سبيل العمل الجاد لتنمية موارد هذه الأمة بمجدها وعرق أبنائها ، لا بمن ، ولا بتحكم من الغير . .

والواقع أننا إذا استعرضنا ظروف الدول الشرقية التى تعيش على معونات أمريكا ، مثل تركيا وإيران وإسرائيل ، فإننا نجد أنها أسوأ البلاد اقتصاداً ، ومستوى المعيشة فيها بالغ التخلف ، وأسعار المواد الرئيسية فيها بالغة الارتفاع ، والبطالة والبلوس والفقر يعمها . . وذلك لأنها بضغط شديد من أمريكا تنفق معظم دخلها وما تحصل عليه من الخارج على شراء سلاح من أمريكا ، حتى لتبلغ ميزانية الجيش فيها حوالى ٤٠٪ ، ونسبة كبيرة من إنفاقها الحكوى يأتى من هذه الهبات الخارجية ، فإذا كفت أمريكا يدها ، توقف دولاب الحياة فيها — وهو دولاب أشبه بالخراب .

ولأننى أن نسبة كبيرة من المعونة ، تذهب إلى جيوب الطبقة المتحركة ، حتى يزدادوا تمسكاً بالسياسة الأمريكية وما تمليه عليهم .

واذكر أنى حضرت مناقشة فى هيئة الأمم عام ١٩٥٠ ، وكانت الصين أيام حكم شيانج كاي شيك ، موضوع الحديث . ووقف مندوب روسيا يتلو بياناً عن الرشاوى والفساد ، وتبديد طاقات الشعب ، بألفاظ بالغة فى الأقداع . وهنا أوقفه رئيس الجلسة ، قائلاً : إن هذا الكلام الفاحش لا يصح القاؤه على مسمع هيئة موقرة مثل هيئة الأمم !! فرد المندوب الروسى :

— عفوا ياسيادة الرئيس ، إننى لا أتلو كلامى ، ولكن أتلو مقتطفات من تقرير

مارشال ، عن الحالة في الصين . . ومارشال قائد أمريكي مشهور ، وكان رئيس بعثة أمريكية في الصين ! ويتحدث عن شيء رآه وعرفه .

ويجب في هذا المقام أن نفرق بين معونات أمريكا للغرب ، ومعوناتها للشرق فبالدولار الأمريكي وقفت ألمانيا الغربية على قدميها في ظرف أعوام قليلة بعد دمار الحرب العالمية على يد الأمريكان أنفسهم . . وكذلك صنعت فرنسا وإيطاليا . وكذلك تعيش إنجلترا اليوم على سخاء الدولار الأمريكي . . وسنرى دور هذا الدولار وتأثيره على سياسة الانجليز أنفسهم في أزمة العدوان الثلاثي على مصر .

مصر تقدر الموقف

نشطت المخابرات المصرية في استطلاع الموقف العسكري بالنسبة لانجلترا وفرنسا وإسرائيل وحصلت على معلومات ثمينة . .

ووضع الرئيس جمال عبد الناصر « تقدير موقف » للحالة التي نشأت بيننا وبين الانجليز ، بأن قدر على وجه دقيق ، ما يمكن أن يكون عليه تفكير « إيدن » ومعاونيه ، وخرج بنتيجة واضحة ، وهي أن الانجليز سيحاولون — لا لاسترداد القتال وحدها — ولكن لاسترداد مصر . . وعلى عادة الانجليز ، فإنهم سوف يضمون معهم فرنسا ، بالقوة التي تستطيع الاستغناء عنها من حرب الجزائر ، وشك في إمكان انضمام إسرائيل لهذه الحرب ، حتى لا تخسر إنجلترا عطف العالم العربي ، وتخرج حكامه الموالين لها . .

وهذا منطق سليم ، واستنتاج صحيح ، إلا أن عبد الناصر ، أعطى إيدن في موضوع إسرائيل وزنا لا يستحقه . فقد انتهى رئيس وزراء إنجلترا إلى إهمال كل مصالح إنجلترا في الشرق الأوسط ، وقبل أخيراً انضمام إسرائيل لهذه الحرب لطفة منه على نصر سريع في القتال ، وتوقا إلى إسقاط حكومة عدوه رقم ١ : جمال عبد الناصر .

وقد أورد محمد حسنين هيكل (١) في جريدة الأهرام « تقدير الموقف » كما كتبه

(١) جريدة الأهرام في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٦٦ .

جمال عبد الناصر بخطه في يوم السبت ١٩٥٦/٧/٢١ أى قبل إعلان التأمين بخمسة أيام . . وفيما يلي نصه :

ظهر يوم السبت ، وفيما بين الحادية عشرة صباحاً والثانية عشرة ، وفي مكتبه كتب جمال عبد الناصر بالقلم الرصاص على أوراق دفتر مذكرات من القطع المتوسط ، مستطيل الشكل ، وثيقتين من أهم الوثائق في تاريخ مصر المعاصر .

أولها عنوانها :

« تقدير موقف من وجهة النظر المصرية في حالة تأمين قنال السويس » .
كانت هذه الوثيقة في ست صفحات ، وأما الثانية وكانت من خمس صفحات فقد كان عنوانها :

« تقدير موقف من وجهة النظر الغربية في حالة تأمين قنال السويس » .

الوثيقة الثانية ، « تقدير موقف من وجهة النظر الغربية في حالة تأمين قنال السويس » هي التي تهمننا في هذا الحديث ، فهي الأقرب اتصالاً إلى السؤال الذي نحاول أن أجيب عنه أثناء مناقشة دراسة هيوتوماس عن السويس وأثناء تعقبى للطريقة التي استطاعت بها فرنسا أن تجمع — برغم المحاذير — بين بريطانيا واسرائيل .

وفي وثيقة « تقدير موقف من وجهة النظر الغربية في حالة تأمين قنال السويس » فإن جمال عبد الناصر وضع وأجاب على مجموعة من العناوين الفرعية :

ماذا يصنع إيدن ؟

ماذا يصنع موليه ؟

ماذا يصنع دلاس ؟

وفي آخر صفحة من الصفحات الخمس سؤال أخير للمناقشة :

— هل تستغل إسرائيل الفرصة ؟

* * *

في هذه الوثيقة الهامة ، كشف عن الأفق الفكري الذي كانت تدور فيه قيادة مصر في هذه الفترة وقد كان قريبا جداً من الحقيقة إلا في تصور موقف إسرائيل . فقد توصل عبد الناصر في تحليله وتقديره لموقف إيدن وماذا يستطيع أن يصنعه إلى عدة افتراضات لابد أن ينبني موقف مصر على أساسها :

(١) رد الفعل في بريطانيا سوف يكون عفيفاً ، لأن الضربة القادمة في الصميم موجهة إلى مطامع السيطرة ، وإلى النفوذ السياسى والهيبة الدولية .

(٢) إيدن سوف يلجأ إلى القوة العسكرية بالتأكيد .

ضعف موقفه في حزبه .

ضعف موقفه في بلده .

ضعف موقف إيدن في الخارج ذلك كله ، سوف يدفعه إلى العنف . . أقصى العنف .

(٣) احتمال التعاون العسكرى بين بريطانيا وفرنسا قائم بسبب غضب فرنسا من مساعدة مصر لثورة الجزائر .

(٤) احتمال تعاون بريطانيا مع إسرائيل مستبعد . بسبب حرص بريطانيا على أصدقائها من العرب ، وتعاونها بطريقة سافرة مع إسرائيل يكشفهم ويحطمهم واستغلال إسرائيل للموقف بغير تنسيق مع بريطانيا يعرضها لمشاكل معقدة فضلاً عن ذلك فإن بريطانيا في حالة إقدامها على عمل مسلح لاحتجاج معونة إسرائيل العسكرية فيه .

لقد خرج من هذه الوثيقة سؤال هام كان ظهر ذلك اليوم ملء مكتب جمال عبد الناصر . . . وملء فكره كله :

— ما هو وضع بريطانيا العسكرى في الشرق الأوسط وفي البحر الأبيض ؟

أن الدرعة هي العامل الحاسم في الموقف .

فلو استطاع إيدن أن يتدخل فوراً ، وأن يبدو تدخله وكأنه رد فعل طبيعي لتأميم قناة السويس فمعنى ذلك أن إيدن سوف يجد تأييداً داخل بلده ومن جانب حلفائه ويبدو عمله أمامهم وكأنه رد مشروع في مواجهة تحد لا يطاق !

أما إذا لم يستطع إيدن أن يتدخل بسرعة ... ومضى وقت ، شهران أو ثلاثة ، فسوف تكون الفرصة قد فاتت لأن الجو النفسى يكون قد تبدل وتكون السياسة المصرية قد لعبت على المسرح الدولى دورها المطلوب ، خصوصاً إذا عززته بحسن إدارة قناة السويس .

ولإذن فسؤال الساعة هو .

— ما هو وضع بريطانيا العسكرة فى الشرق الأوسط وفى البحر الأبيض ؟

وكانت لدى مصر معلومات وافية عن القوات البريطانية الموجودة فى الدول العربية القريبة منها . بالتحديد الأردن وليبيا .

فى البلدين كانت هناك الفرقة المدرعة العاشرة البريطانية . نصفها فى الأردن ونصفها فى ليبيا .

لكن الفرقة بنصفها كانت خارج الحساب لسببين :

* من الصعب أن تستخدم بريطانيا قاعدة عربية فى غزو ضد مصر .

والسبب الثانى :

* أن بريطانيا سوف تكون فى حاجة إلى هذه القوات حيث هى فى الأردن وفى ليبيا لحماية الوجود البريطانى فهما أمام الغضبة الشعبية التى سوف تحدثها عملياتها العسكرية ضد مصر .

ولإذن تبقى من القواعد الغربية .

قبرص — مالطة — عدن .

ما أوضاع القوة البريطانية فيها ؟

وليس سراً الآن إنه كانت هناك صلات بين مصر وبين حركة التحرير الوطنى فى جزيرة قبرص ، وكان لمصر ضباط اتصال يعملون فى الحفاء داخل الجزيرة نفسها .

وفى عصر ذلك اليوم السبت ٢١ يوليو فلقدم اتصال بين القاهرة وقبرص وكانت القاهرة تسأل عن القوات البريطانية فى قبرص وحجمها وتوزيعها . وكانت بعض هذه المعلومات متوفرة فى قيادة « أيوكا » تحتاج إلى بعض التجمع والتحقيق والربط .

حدث نفس الشئ فى مالطة عن طريق بعض القوى الوطنية .

حدث أيضاً فى عدن .

ومر يوم الأحد ٢٢ يوليو .

ثم جاء يوم ٢٣ يوليو الذى كان العالم كله يتوقع فيه رد جمال عبد الناصر على قرار سحب العرض الغربى بالمساهمة فى تمويل السد العالى . . .

لكن جمال عبد الناصر لم يرد ، وإنما اكتفى بأن قال إن مصر ستبدر ، وأنها ستبنى السد العالى ، وأنه ليس عنده لأعدائها فى الوقت الحالى أكثر من قوله : « موتوا بغيظكم » !

وكان يخطب فى احتفال أقيم فى مسطرد بمناسبة افتتاح خط أنابيب البترول بين القاهرة والسويس .

كان ذلك هو نفس الاحتفال الذى طلب فيه من المهندس محمود يونس — الذى وقع اختياره عليه ليشرف على إدارة قناة السويس — أن يقابله فى بيته مساء نفس اليوم الاثنين ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٦ .

صباح الثلاثاء كانت الإجابة على السؤال الكبير كاملة فى مكتب جمال عبد الناصر .

ما هو وضع بريطانيا العسكرية فى الشرق الأوسط وفى البحر الأبيض ؟ .

الرد :

في قبرص . لواءان من المشاة وثلاث كتائب من فدائي المظلات مدربين على عمليات مقاومة أيوكا ولكنهم ليسوا على أهبة الاستعداد لعمليات هبوط بالمظلات إلى جانب ذلك سرب مقاتلات وسرب من طائرات النقل .

في مالطة : حاملة طائرات واحدة .

في عدن : طرادان يقومان بأعمال الدورية في البحر الأحمر وسرب مقاتلات ولواء مشاة .

هذا عدا الفرقة العاشرة المدرعة الموزعة ما بين الأردن وليبيا والتي يستحيل في الظروف الحاضرة استعمالها في هجوم مباشر ضد مصر .
وأما أقرب احتياطي بريطاني بعد ذلك فهو الفرقة الثالثة ومقرها «سوثامبتن» في جنوب بريطانيا نفسها .

* * *

مساء يوم الثلاثاء ٢٤ يوليو كان تقدير جمال عبد الناصر :

(١) أن إيدن سوف يقرر استعمال القوة العسكرية ضد مصر .

(٢) في نفس الوقت فإن إيدن لا يملك قوة عسكرية قريبة وكافية يستطيع استعمالها بسرعة ونجاح .

(٣) ولو أقدم على عمل طائش بما لديه من القوات فإن هزيمته ممكنة ويمكن أن تكون ساحقة .

(٤) وإذا انتظر لأكال استعداداته العسكري وطال انتظاره فسوف يستحيل عليه بعد ذلك — سياسياً — أن يتدخل عسكرياً في غير الجو السياسي الملائم فإنه يهزم نفسه بنفسه .

* * *

صباح يوم الأربعاء ٢٥ يوليو كان قرار تأميم شركة قناة السويس معداً ومكتوباً يدخل صياغته النهائية وكان هناك شرطان للنجاح .

- (١) لا بد أن تبقى قنال السويس تحت الإدارة المصرية ، مفتوحة . . وبكفاءة .
(٢) لا بد أن يبقى باب المفاوضات مفتوحاً وأن تكسب مصر مع كل يوم أرضاً في الرأي العام العالمى . .

وقد نشرت تفاصيل كثيرة عن الطريقة التى يصدر بها قرار حكومتى لإيدن وموليه بدخول الحرب ضد مصر ، والقليل جداً من تفاصيل هذه الأيام العصيبة هو الذى بقى سرّاً لم يكشف عنه بعد .

كان ايزنهاور^(١) ضد الحرب ، فهو رجل عسكرى ، خاض غمار أكبر حرب عالمية شهدتها التاريخ ، ويعلم مصائبها ، ولهذا كتب فى ٣١ يوليو سنة ١٩٥٦ إلى إيدن رسالة يقول له فيها :

« علّت من الرسائل التى وصلت منك ومن هارولد (ماكيلان) أن قرار (دخول الحرب) حازم ، ولا يمكن الرجوع فيه ، ولكن أرجو أن توافق على إعادة النظر فى هذا الأمر مرة أخرى على أوسع نطاق . ومن أجل هذه فقد طلبت من فوستر (دلاس) أن يسافر هذا المساء ليقابلكم فى لندن ،^(٢) .

وذهب دلاس ليبدل كل طاقته الدبلوماسية كي يمنع الحرب الساخنة فى الشرق الأوسط ، وقال لإيدن وهو يحاوره : « لا بد من العثور على طريقة ليخرج ناصر من حلقه ، ما أراد أن يبلغه ، . . . يقصد القنال . .

وكانت الطريقة فى نظر دلاس ، الضغط الاقتصادى ، والمؤامرات الداخلية من محاولة عمل انقلاب داخلى ، إلى اغتيال يقوم به العملاء !!

أما الطريقة فى نظر إيدن ، فكانت الأساطيل والطائرات . .
لقد اختلف كل منهما فى تفسير كلمة « الطريقة » ،

(١) توفى ايزنهاور يوم ٢٨ مارس ١٩٦٩
(٢) الدراسة التاريخية للعدوان الثلاثى التى أعدها المؤرخ الانجليزى هيو توماس ، ونشرتها جريدة الأهرام تباعاً فى شهر سبتمبر سنة ١٩٦٦ .

وفي ٢ أغسطس سنة ١٩٥٦ ، حصل إيدن على قرار من مجلس وزرائه بالدخول في حرب ضد مصر بالتحالف مع فرنسا ، جاء فيه أن على إنجلترا أن تمضي في المفاوضات ، فإذا مضت مدة معينة ، دون الوصول إلى نتيجة ، استخدمت القوة ، وقد وافق أعضاء هذا المجلس على قرار بهذه الأسس ، ودون مناقشة باستثناء السير وولتر منكوتون وزير الدفاع . وهو الوزير الثاني في ترتيب أعضاء مجلس الوزراء البالغ عددهم ١٨ وزيراً . . . وهم غير الوزراء الذين لا يحضرون المجلس وعددهم ١٥ وزيراً .

أما المدة المعينة للمفاوضات ، فقد حددها رؤساء أركان حرب القوات المسلحة ، من انجليز وفرنسيين بستة أسابيع . يضاف إليها أسبوع سابق لاتخاذ هذا القرار استنفذ في المناقشات . . . أي أن الموعد المحدد في تقديرهم للهجوم هو ١٥ سبتمبر . كما طالب العسكريون بدعوة الاحتياطى .

وكان الفرنسيون في ضيق شديد من طول هذه المدة . فهم يريدون العودة للقنال بسرعة وفوزاً . .

وقد طلب العسكريون الانجليز شيئاً آخر ، وهو التصريح بالزحف إلى القاهرة . إذ أن احتلال القنال ، والقاهرة معادية لهم ، لن يساعد على استمرار وضع أيديهم عليها . .

واختير القائدان الانجليزى والفرنسى للحملة . . القائد الأعلى الجنرال ستانلى كيتلى ونائبه الفرنسى الاميرال بارجو . . واختير قائد العمليات الانجليزى الجنرال « ستوكويل » . . والفرنسى الجنرال « بوثر » ، وعين لقيادة الطيران الجنرال سلاز البريطانى ، ولانسلو الفرنسى . .

وقد رت لجنة التخطيط المشتركة بين الانجليز والفرنسيين عدد القوات اللازمة للحملة . فكانت كما يلى :

تقدم إنجلترا ٤٥ ألف جندى (غير قوات الاسطول) و ١٢ ألف عربية مدرعة . و ٣٠٠ طائرة ، ١٣٥ سفينة حربية . وكان على فرنسا أن تساهم بـ ٣٤ ألف جندى و ٩ آلاف سيارة مدرعة ، و ٢٠٠ طائرة و ٣٠ سفينة حربية .

وسنورد فيما بعد بياناً كاملاً عما تجمع من قوى العدوان في الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٦ .

وبدا للراقبين المدققين ، أن صداقة انجليزية فرنسية وطيدة أخذت تنمو ، من وحى هذا الحلف ضد مصر . ولكن هذه الصداقة كانت إلى حين ، فما أن تولى ديجمول الحكم بعد هذه الأحداث ، حتى تبين له أن ما كان في عام ١٩٥٦ ليس صداقة أصيلة ، ولكن استغلالاً عابراً . . فليس للانجليز أصدقاء دائمون ، وليس لهم أعداء دائمون ولكن لهم مصالح هي التي تتزايد حولها الصداقة أو تنكش . . أو تزول ، وسنرى في حرب السويس بالذات ، كيف استدرج الانجليز الفرنسيين إلى المعركة بسهولة تامة فلما تعارضت مصالحهم مع استمرارها ، أخرجوهم منها بنفس السهولة ، وكان شيئاً لم يكن . . وهو درس تعلمه ديجمول ، ولذلك حذر أصدقاءه من القواد الفرنسيين ، وكان ما يزال معزلاً بعيداً عن الحكم ، وأكد عليهم ألا يؤمنوا للانجليز ، ولا يسلموهم قيادهم .

الاسكندرية أم بور سعيد !

أطلق الانجليز اسماً رمزياً على عملية الغزو هو : « العملية ٧٠٠ » ، ثم عدلوا إلى اسم آخر هو « هاميلكار » (اسم قائد قرطاجني قديم) ورسموا حرف H على السيارات ومعدات الحملة . ولكن ظهر بعد قليل أن الفرنسيين لا ينطقون الهاء ، ويحولونها إلى « أ » ، فغيروا الاسم إلى « موسكتير » ، أي فارس .

وقد استشير تشرشل في العملية ، وأشار بأن يكون الغزو عن طريق الاسكندرية لأسباب تاريخية أبادها ، وأسباب عسكرية سمعها من رجال البحرية ، وكانوا جميعاً يترددون عليه ، رغم أنه ترك الحكم . .

أما السبب التاريخي ، فهو أن الانجليز ارتدوا مرتين عن الاسكندرية . الأولى أيام حملة فريزر عام ١٨٠٧ . فقد ردهم المصريون عند رشيد وهزموهم شر هزيمة . . المرة الثانية عام ١٨٨٢ : فعلى الرغم من أنهم استولوا على الاسكندرية كالمرّة السابقة إلا أنهم وقفوا عند خط كفر الدوار الدفاعي ، الذي أعده عرابي . وكان مهندسهم ورئيس أركان حربهم محمود فهمي باشا ، وقد هاجموا هذا الخط مرات عديدة ، وارتدوا

عنه خائبين . . وتشرشل دارس للتاريخ الحديث ، لا يشق له غبار . . ولذلك فعندما بدا أن هناك صعوبات حولت خطة الزحف إلى بور سعيد ، قال . إذن سأستشير مراجعي التاريخ لآرى كيف عملها نابليون ١١ [مشيراً إلى أن نابليون زحف من الإسكندرية إلى القاهرة بنجاح] .

أما الأسباب العسكرية التي رجحت أول الأمر ، أن تكون الإسكندرية هي هدف الزحف ، فتخلص في أمرين :

١ — توجد في ميناء الإسكندرية السعة الكافية ، التي تسهل لأسطول الغزو الضخم ، مرونة الحركة وهي أمور لا تتوفر في ميناء بور سعيد .

٢ — توجد قرب الحدود الغربية قاعدة بريطانية ، تعسكر فيها فرقة مدرعة انجليزية ومطارات يمكن أن تكون في خدمة الهجوم وفي حالة تحطيم الزحف البرى لسبب ما ، يمكن للقوات الغازية أن تنسحب غرباً إلى هذه القواعد ، والانجليز على خبرة تامة بمسالك الصحراء الغربية ، فإن حرب العلين علمتهم الكثير في هذه المنطقة . .

وكما أمكن لمخابراتنا ، أن تعرف عدد القوات العسكرية الانجليزية ، المتاحة لإيدن وقواته في هذا الوقت ، فقد وقفت أيضاً ، على تفاصيل كافية عن خطة «موسكتير» ، ومنها أن الهدف كان الإسكندرية .

وكان الانجليز ، وقت احتلالهم لمصر يعرفون معرفة دقيقة مواقع الطوابى الساحلية في ميناء الإسكندرية . . وكان بديهاً أن يلجأوا هذه المرة إلى ما لجأ إليه الأميرال سيمور عام ١٨٨٢ . عندما سلط مدافعه على هذه الطوابى وهدمها

وفي هدوء تام حصلت القيادة المصرية على مدافع ضخمة جداً ، يفوق مرماها أقصى ما لدى البحرية البريطانية من مدافع في سفنها الكبيرة ، وأخذت في غسق الليل توزعها على أماكن مختارة في الإسكندرية بعيدة عن المدفعية التي عرف الانجليز أماكنها ، وزودت بتحصينات ووسائل تنكر متقنة ، وأبعدت عنها الحركة العسكرية بقدر الإمكان . . وبهذا اطمأنت قيادتنا إلى أن الأسطول عند ظهوره قرب شواطئ الإسكندرية سيلقى استقبالا ساخناً جداً ، ودرساً لم يتح لسفن سيمور أن تلقوه في عام ١٨٨٢ . .

يروى المؤرخ هيو توماس : كان لدى الجنرال كيتلي من القوات أكثر مما كان تحت قيادة الجنرال ولنجتون في ووترلو ، وهى المعركة التى هزم الإنجليز فيها نابليون .

وقد ذكرنا أن وزير الدفاع « مونكتون » لم يكن مؤيداً لعمليات الغزو ، وظهر أيضاً أن اللورد مونتباتن ، وهو أكبر العسكريين البريطانيين . . وكان قائد الأسطول . . وأحد أقرباء الملكة وأقرباء زوجها . . لم يكن متحمساً . .

قال هيو توماس : لم يحدث لاية حكومة بريطانية أن جمعت مثل هذه القوة الضخمة ، بدون تأييد أو علم زعماء المعارضة . ولم يعلم جيتسكيل زعيم المعارضة (لم يكن البرلمان منعقداً) بحجم هذه القوات إلا بطريق الصدفة ، فى منتصف شهر أغسطس . فقد أخبره المستر مينتون رئيس وزراء مالطة ، بالتفاصيل ، صدفة ، أثناء زيارته للندن فى أغسطس ، وكان جيتسكيل غير مصدق ما سمعه .

قنبلة زمنية ٠٠ ، موعدها ١٥ سبتمبر

كانت خطة مصر ، الدخول فى أى مباحثات ، وإطالة أمدها ، مع إتقان عملية إدارة القنال على أعلى مستوى من الكفاءة . . وذلك لكى يزول عامل المفاجئة ، وتكسب مصر تدريجياً ، عناصر قوية فعالة فى الرأى العام العالمى .

لقد بدأت عناوين الصحف العالمية هكذا : « لا ميونخ فى البحر المتوسط » ، قالتها الفيجارو الفرنسية .. و « لا مكان لأمثال هتلر » . . قالتها الميرالد العالمية البريطانية .

وأذاع الأميرال بارجو الفرنسى (الذى اختير بعد ذلك نائباً للقائد العام لحملة الغزو) بياناً قال فيه : أن ٧٥ مليون طن من البترول الذى يحصل عليه الغرب ، يمر فى قنال السويس ، فهل تريد القاهرة فرض رقابتها على هذا المرور ؟

ونخذت شركة قنال السويس توزع « الشيكات » على الصحف ، ولكن صحيفة يسارية فرنسية ، فضحتها ، إذ نشرت صورة الشيك الذى تلقتة ، مما اضطر باقى الصحف إلى رد هذه الشيكات .

والواقع أن « جورج بيكو » مدير الشركة المؤتمنة ، كان رجلاً جشعاً ، بالغ الحق في نفس الوقت . . . والمصريون يعرفونه جيداً . . . فكان له مشهد في مصر ، مع كل وزارة مصرية جديدة قبل الثورة . . . كان يزور وزير التجارة الجديد ، ثم يفتعل « خناقة » ويوجه كلاماً لاذعاً وإهانات متعمدة إلى الوزير أو أئمة معاونيه ، لكي يفهمه أنه كممثل للشركة العالمية فوق أى إشراف مصرى . . . وعندما قامت الثورة ، أراد أن يكرر هذه « الوصفة » التى رآها مفيدة فى جميع الحالات السابقة ، فزار الدكتور حسن مرعى وزير التجارة ، وتناقشا فى مسألة قانونية ، فدعا الوزير نائبه ، السيد محمد أبو نصير ، بوصفه من رجال القانون . . . وما أن بدأ يتكلم ، حتى فاجأه هذا الـ « جورج بيكو » بسيل من الشتائم دهش لها الوزير ، فنظر إلى الفرنسى اللاحق وقال له ، وكانت القهوة قد جاءت : — لا تشرب هذه القهوة . . . وقم أخرج من غرفى فوراً فأنت رجل غير مؤدب ، وإلا طلبت من الساعى أن يسحبك من يدك خارج الوزارة !!

فشحب وجه بيكو ، وقام يتعثر فى مشيته ، لم ينبس بكلمة . . . وأدرك أن شيئاً جديداً حدث فى مصر . . . إنه « الثورة » .

وكان من رأى « موليه » وزملائه الوزراء الاشتراكيين ، ألا يظهر ممثلو شركة القتال المعروفين : جورج بيكو ، وشارل — روبرتس مجلس الإدارة ، حتى لا يسرى بين عناصر الرأى العام الفرنسى — ونسبة كبيرة منهم يساريون — هذا السؤال : أمن أجل هذه الحفنة من الرأسماليين الجشعين ندخل حرباً جديدة ؟ فقد كان رجل الشارع فى فرنسا يدرك بفطرته أن العشرين مليون جنيه (حصة فرنسا بالتقريب) تنسرب فى هدوء إلى جيوب قليلة فضلاً عن المزايا الهائلة التى يتمتع بها المدبرون والموظفون الفرنسيون فى الشركة ، مما جعلهم من كبار الأثرياء بغير عناء بذلوه . . .

ولا تحتاج التحركات السياسية التى لجأت إليها إنجلترا وفرنسا ، والولايات المتحدة ، وهىئة الأمم إلا إلى السرد . فإن تحليلها يسير . . .

• جددت الدول الثلاثة أرصدتنا لديها .

* دعيت الدول الثلاثة إلى مؤتمر دولي يعقد في لندن يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٦ تحضره بعض الدول المستخدمة للقنال وحددت بـ ٢٢ دولة . وقد رفضت مصر حضور هذا المؤتمر ودعت إلى مؤتمر أعم منه ، تحضره الدول الموقعة على معاهدة الأستانة سنة ١٨٨٨ والدول التي تمر سفنها في قنال السويس ، لوضع اتفاق جديد يؤكد ضمان حرية الملاحة .

وعقد مؤتمر لندن (الذي لم تدع له أي دولة عربية ، ودعيت له الحبشة وإيران !!) . . . وما يستحق التقدير لشعب صديق هو اليونان ، أن حكومته دعيت إلى مؤتمر لندن ورفضت الحضور .

واقترح وزير خارجية أمريكا تأليف لجنة دولية تدير القنال ، وكلف روبرت منزيس رئيس وزراء استراليا بالحضور إلى مصر ، وعرض المشروع على ناصر . . . ولكن ناصر رفض المشروع مقدماً .

* قال إيدن عن نشاط مصر في شرح موقفها ، وكسب تأييد عالمي على أوسع نطاق ، قبل بدء المؤتمر ببضعة أيام ، ألقى ناصر خطاباً من النوع المبهين الذي كنا تعودنا عليه في ذلك الوقت ، واتهم العالم الحر بالاستعمار وببص دماء الشعوب ، ووصف تدويل القنال المقترح في مؤتمر لندن ، بأنه مؤامرة ، ومضى في إثارة العالم العربي ضد الغرب بقوله : بعد تأميم قنال السويس بيوم واحد ، بدأت أصوات العالم العربي ، هذه ليست قنال السويس ، وإنما هي قنال العرب ، وبدأت القومية العربية تظهر في أكل صورها . وتدقت على مصر كافة التأييدات من ملوك وقادة العرب .

وهاجم إيدن موقف الروس ، وقال أنهم سيحضرون مؤتمر لندن ككلاب حراسة ! أما الهند فقال إن حكومتها كانت واقعة في حرج . . وظل يمثلوهم في القاهرة ، وكريشنا مينون الطائر ، على اتصال دائم بالحكومة المصرية . . ولم يكن الهنود يؤمنون بالحلول التي تعرض على مؤتمر لندن .

* وتلقى إيدن تقريراً من سفيره في الولايات المتحدة قال فيه أن الرأي العام

الأمريكي منقسم انقساماً كبيراً في الرأي حول استخدام القوة . والمشاكل السياسية التي يثيرها العمل العسكري ، في نفس السنة التي تجرى فيها الانتخابات ، قد تبلغ درجة مفزعة . وليس أحسن من الوقت الذي اختاره ناصر للقيام بعمله هذا من ناحية السياسة الداخلية في أمريكا .

• وصل منزيـس رئيس وزراء استراليا إلى لندن ، لحضور المؤتمر . وطلب منه إيدن أن يتكلم في التليفزيون تأييداً لوجهة نظر إنجلترا وفرنسا . ولكن التليفزيون اعترض ، بأن إيدن أبدى وجهة نظره ، ويحسن دعوة سياسي معارض لإيدن ليتكلم ، ثم يعقبه منزيـس ، محافظة على التوازن في عرض وجهات النظر . وقد ثار إيدن وفار ، وعد رأى التليفزيون البريطاني ، حادثاً غريباً ، وإهانة لأحد رؤساء وزارات الكومنولث . وبذل أقصى ضغط لكي يبدى منزيـس وجهة نظره ، دون اعتبار لنظرية التوازن في إعلام الرأي العام البريطاني . . وقد كان .

• وانهقد مؤتمر لندن ، وكانت الدول التي وافقت على إدارة القتال عن طريق لجنة دولية ١٨ دولة ، منها إيران ، والحبشة ، وباكستان ، وتركيا ، من المجموعة الأفريقية الآسيوية ، التي حضرت ، وال ١٤ دولة الباقية من دول أوروبا والكومنولث البريطاني (استراليا ونيوزيلنده) ومعها الولايات المتحدة . . أما كندا فلم تحضر المؤتمر . . وعارضت الهند وروسيا وأندونيسيا وسيلان مشروعات التدويل . .

• وكل المؤتمر إلى لجنة يرأسها منزيـس الاسترالي بالذهاب إلى ناصر ، وإقناعه بقبول اللجنة الدولية ، وقد انضم له مندوبون عن إيران والسويد والحبشة والولايات المتحدة .

وجاء منزيـس ولجنته إلى القاهرة ، وزعم في تقريره أن حججه التي أبداهـا « لناصر » كانت مقنعة . ولكن « ناصر » أوضح وجهة نظر مصر ، وهي أنه من غير المعقول أن تطرد البلاد دولة واحدة مستعمرة هي إنجلترا ، لتحل محلها استعماراً جماعياً .

ويزعم إيدن أن تصريحاً لايزنهادر صدر أثناء وجود منزيـس في القاهرة ، هو

الذى جعل د ناصر ، لا يقبل قرارات مؤتمر لندن .. ونص هذا التصريح الأمريكى :
د ما زال عندى (أيزنهاور المتكلم) كبير الأمل فى أن تقبل مصر مقترحات لندن .
ولكن موقف الولايات المتحدة هو عدم اليأس ، حتى ولو صادفتنا العقبات ، .

وواضح جداً ، أن الرئيس جمال رفض فكرة عقد مؤتمر لندن ، وأى قرارات
تصدر عنه مقدماً ، وأن هذا الرفض لم يكن فى حاجة إلى كلام يصدر عن واشنطن ،
ولكن لإيدن كان فى حالة دوار وهو يكتب مذكراته .

وقد قال منزيس فى تقريره لإيدن عن الزيارة : لقد قيل لى قبل سفرى إلى
القاهرة ، أن الرئيس ناصر رجل يتمتع بجاذبية شخصية كبيرة ، وقد يتحایل على ،
ويقنعنى بغير ما أومن به وأعرفه ، ولكنى أؤكد لك أن ناصر لم يستطع أن يضحك
على .. وأستطيع أن أقول أنه رجل يتمتع بكىة هائلة من الذكاء ..

والواقع أن ناصر وزملاءه ضحكوا ليلة بحالها ، أثناء مهرة عشاء مع منزيس ،
فقد أخذ يتمتعهم بقدرته على تقليد الأصوات والشخصيات . ولو أنه مارس هذه
الحواية ، لكأن أبقى له من جريه فى ركاب إيدن !!

• إنتهت زيارة منزيس للقاهرة فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٦ ، وعاد منها بخفى
حزين المشهورين .

وعاد جى موليه رئيس وزراء فرنسا من لندن فى ١٢ سبتمبر ، وقد روى
الحديث التالى الذى دار بينه وبين فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا واشترك فيه
بينو وزير خارجية فرنسا^(١) .

موليه — اعتقد أن سياستك تقوم على السلبية ، ولا ريب فى أن النتائج التى
حققتها حتى الآن تؤيد قولى هذا .

دالاس — هناك أمران ليس إلا ، يهمانا نحن الأمريكين . وهما المسيحية ،
والنظام الاجتماعى القائم على حرية المشروعات الخاصة . وسنقاتل

(١) كتاب «أزمة ٥٥» القصة السرية لمؤامرة السويس» للكاتب الكندى

ت . روبرتس ، ص ٨٦ .

حتى النفس الأخير للدفاع عن مسيحيتنا ، وعن حريتنا الاقتصادية.

بينو — أنا أصدقك .. ولكن بعض المشتركين معنا في اجتماعاتنا ليسوا من المسيحيين ، بل من المسلمين والبوذيين ، ولذلك فإن إيمانك المسيحي لا يهمهم في شيء . أما بالنسبة لحرية المشروعات الاقتصادية الخاصة ، فقد تكون مشمرة في البلاد المتقدمة صناعياً ، مثل الولايات المتحدة . لكنه لا يعنى شيئاً أبداً للبلاد المتخلفة .

دالاس — لا . . أن رأيك يمثل وجهة النظر القصيرة . ففي الامكان على المدى الطويل ، حل هؤلاء الناس على احترام المسيحية ، والتمتع بفوائد المجتمعات المتنافسة .

بينو — هل تعنى أنهم سيكونون أحراراً في أن يفعلوا ما يريد منهم أن يفعلوه ؟ ؟ .

ونرى من هذه المناقشة العقيمة ، مدى سطحية التفكير الذى تدور حوله مناقشات هؤلاء الساسة الذين ظهروا في بلادهم ، والحق أن النصف الثانى من القرن العشرين ، شهد شخصيات في الميدان الدولى ، لا تتسم بأى قدرة إلا القدرة على الدس والخديعة . وإذا كنا بين الحين والحين نستشهد بفقرات من مذكرات إيدن ، فلكى نبين الهوة التى انحدرت إليها السياسة الدولية في هذه الفترة .

* وزع جورج ييكو مدير شركة قنال السويس المؤمنة تقريراً سرياً ، أكد فيه أن الخطة وضعت لسحب المرشدين الأجانب من قنال السويس ، وقال أن حوالى مائة مرشد سوف يتركون العمل ، وبهذا يقع الاضطراب في مرفق القنال ويتضح عجز المصريين التام عن إدارتها ، ويصبح التدخل لإدارتها أمراً منطقياً جداً . .

حدد يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ لسحب المرشدين الأجانب .

* وتلقى إيدن تقريراً من الجنرال تشارلز كيتلى القائد العام للحملة ، بأن قواته مستعدة للتحرك يوم ١٥ سبتمبر .

وكانت الخطة توضع سراً في مخايء هويتبول ، حتى لا تتسرب عن طريق

حلف الاطلنطى ، أو أية مخابرات أخرى معادية . وكان وزير الدفاع، أنطونى هيد ، وهو بريجادير سابق فى الحرب العالمية الثانية ، يقوم بدور الاتصال بين الجهات السياسية والجهات العسكرية .

• فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٥٦ أدلى الرئيس الأمريكى أيزنهاور بتصريح فى مؤتمره الصحفى ، كان بمثابة سيل من الماء المثلج سقط على أجهزة الحرب فى كل من لندن وباريس وقيادة العدوان فى قبرص . . وجه له السؤال التالى :

— هل تنوى الولايات المتحدة دعم موقف بريطانيا وفرنسا فى حالة لجوئها إلى استخدام القوة . . ورد ايزنهاور :

— لا أفهم حقاً ما تعنيه بكلمة « الدعم » . . . ولكنى أؤكد أن هذه البلاد لن تدخل الحرب طالما احتل أنا مقعد رئاسة الجمهورية ، إلا إذا دعى الكونجرس إلى جلسة أقر فيها إعلان حرب كهذه . . وقد أقننا الأمم المتحدة ، لنزيل احتمال العدوان عن طريقها . ولن أكون طرفاً فى أى عدوان . . .

• وفى هذا اليوم ١١ سبتمبر أعلن رسمياً عن مؤامرة سحب المرشدين الأجانب من القنال . وفى اليوم التالى — ١٢ سبتمبر سنة ١٩٥٦ — وقف إيدن فى مجلس العموم يمهّد للحرب التى توقع أن تقع بعد ثلاثة أيام ١١

وكان فوستر دلاس ، قد تقدم باقتراح تعويق ، سماه تأليف جمعية المنتفعين بالقنال ، وعين للجمعية مدير ، وكان مشروع هذه الجمعية (الفكاهية) هو النقطة التى اتكأ عليها إيدن فى خطبته المنتظرة . .

قال إن على المدير الجديد أن يتعاون مع مصر بقدر ما يسمح التعاون فى مسائل الإرشاد ، ومواعيد المرور ، والاشارة ، ومعالجة الجسور . ويجب أن يستعين إلى أقصى حد ممكن . بمرشدى شركة قنال السويس القديمة ، وموظفيها الفنيين . فلما خلقت مصر الصعوبات ، فعلى المدير أن يؤدى عمله من على ظهر سفينتين راسيتين فى مدخل القنال ، كمركزين للتنظيم . . وعليه أن يجمع الرسوم من كل السفن التى تعبر القنال ، فى قوافل ، بإشراف النادى (المنتفعين) ، بأسعار يقررها النادى بدون أى

ربح لاى من أعضائه . ويجب أن تعرض مصر عن التسهيلات التى تقدمها ، ولكن الغرض الأساسى لجمع الرسوم هو الوفاء بنفقات الجمعية :

وقال إيدن فى خطبته فى مشروع هذه الجمعية الهزلية .

«أرى لزوما على أن أوضح أنه فى حالة محاولة الحكومة المصرية التدخل فى عمليات النادى ، أو رفض تقديم الحد الأدنى الضرورى من التعاون ، فإن هذه الحكومة (مصر) ستكون من جديد متتهكة لمعاهدة عام ١٨٨٨ الدولية . وستكون الحكومة البريطانية والحكومات الأخرى المعنية ، فى هذه الحالة ، حرة فى اتخاذ أية خطوات أخرى يتطلبها الموقف ، إما عن طريق الأمم المتحدة ، أو بأى سبيل آخر ، لتوكيد حقوقها وضمانها .»

وختم كلمته بقوله :

«أريد أن أتناول مسألة ما إذا كانت حكومة جلالة الملك ستعطى تأكيداً بعدم استخدام القوة ، إلا بعد الالتجاء إلى مجلس الأمن ، فلو أن هذا التأكيد أو الضمان سيكون مطلقاً ، لما كان بإمكانى ، ولا بإمكان أحد من الواقفين على هذه المنصة إصداره ، فليس هناك أحد يمكنه إخبارنا عما سيتخذه ناصر من إجراء فى المستقبل بخصوص القنال ، أو بخصوص مصر .»

«مع كل ذلك ، فسأرد عليكم بهذه الإجابة التى لا يمكن لأية حكومة أن تجيب بأكثر منها : من المؤكد أن نيتنا ستنتج إلى عرض مثل هذا الموضوع على مجلس الأمن ، لو سمحت الظروف ، أو بعبارة أخرى لو لم يحدث طارئ جديد .»

وقد قامت فى مجلس العموم ضجة عالية ، أثارتها المعارضة العمالية ، واتضح أن رأى العام البريطانى ، أصبح منقسماً تماماً .

وألقى موليه رئيس وزراء فرنسا بياناً مماثلاً فى برلمان باريس .

ونشرت الصحف توضيحاً للطريقة المقترحة لإدارة القنال وذلك بأن تتم الإدارة من سفينتين راسيتين فى بورسعيد والسويس . . وأن تتولى بارجة حربية شق الطريق أمام قوافل السفن !!

* وألقى فوستر دالاس بيانا في واشنطن وقال :

« أنا لا أعرف شيئا عن وجود خطة لاختراق القنال بالقوة . ونحن لا ننوى أن نفعل ذلك بالطبع .. ولا ننوى مقاطعة القنال أيضاً . ولو استعملت مصر القوة ، فكل ما نفعله هو أن نحول سفنتنا إلى رأس الرجاء الصالح . وإني أود أن أقول الآن ، إنه من المضحك أن يحاول إنسان فرض نظام على مصر لا ترغب فيه .. »

* وعلى الرغم من تهديد إيدن بالحرب فقد اتضح من موقفه عدة أمور :

أولاً — أنه اعترف بانتهاء ولاية الإدارة الفرنسية على قنال السويس ، وسمّاها الشركة القديمة .. وبهذا سلب من فرنسا الأرض التي كانت تقف عليها ، وهي تتوق إلى الحرب من أجل إعادة الشركة القديمة .

ثانياً — ذكرنا من قبل أن دخل الـ ٣٥ مليون جنيه الذي حققته القنال في السنة السابقة للتأمين ليس مبلغاً ضخماً ، يهز بلدين مثل إنجلترا أو فرنسا .. ونرى إيدن هنا شديد الاكتراث ، والتدقيق ، بالألتحصل مصر على دخل القنال .. تسلم رسوم المرور في حساب خاص .. تخفض هذه الرسوم .. تكون للبصروفات الضرورية .. أى شيء يمكن أن يحدث إلا أن تأخذ مصر هذا المال .

وهنا تتضح لنا حقيقة ناصعة المعالم .. وهي أن هدف بريطانيا ألا تقوى مصر ، وألا تزيد مواردها .. تظل فقيرة ، حتى لا تخرج من الحيز الضيق الذي وضعه الاستعمار ، وحكم أسرة محمد علي ، لها ... فإن مصر القوية الغنية تستطيع أن تعمل الكثير في منطقة الشرق الأوسط ، وفي أفريقيا ...

والواقع أن هذا التفكير الخافد المسموم ضدنا ، ذل على أن الإنجليز ليسوا بلهاء ... فما أن هزموا في معركة السويس ، حتى تحقق كل أو معظم الذي خافوا من حدوثه في أفريقيا وفي شرق آسيا ، وفي كل مكان فيه استعمار ..

وتطور الرأي العام في بريطانيا ، بعد إعلان « حكاية » نادى المنتفعين على النحو السابق .. يقول ت . روبرتسون في تحقيقه الدقيق :

« ساد الاضطراب السياسى العاصمة البريطانية . . وقد أذهلت إيدن الصدمة ، وبعثت فى نفسه اليأس ، وعقد مجلس الوزراء جلسة طارئة ، طالب فيها بتلر زعيم الأغلبية فى مجلس العموم ، ومونكتون وزير الدفاع ، مع تصميم وإصرار ، بأن يفسر موقفه ، والعوامل التى دعت له لقبول اقتراح نادى المتفعين . دون أن يضمن أولاً تأييد الولايات المتحدة . . . وانهقد مجلس العموم فى اليوم التالى ، وحضر إيدن متأخراً ، وقد بدا عليه الشحوب والوجوم ، وتقلصت ملامحه ، وبأن عليه الغضب العاصف . وقد ظل أكثر من ساعة يواجه هجوماً مستمراً من أعضاء المجلس بالتخلى عن فكرة النادى ، وإحالة الموضوع إلى الأمم المتحدة . مما اضطره آخر الأمر إلى الوعد بأنه سيذهب إلى مجلس الأمن . »

« وهكذا أفلت من إيدن موعد منتصف سبتمبر سنة ١٩٥٦ ، الذى حددته مع العسكريين ، وشركة القنال المنحلة ، للهجوم على مصر ، حتى يذهب إلى مجلس الأمن .

« ومن الواجب فى هذا المقام أن نشيد بموقف الهند تحت زعامة نهرو ، وموقف كرشنا منون ، بصفة خاصة ، الذى عاش هذه الأسابيع ، وكأنه يسكن فى الطائرات تقله بين القاهرة ولندن ووشنطن ونيويورك . . إنه بدا الشخص المستيقظ أبداً ، الذى لم يعرف النوم طريقه إلى عينيه . . لقد فاز بحق ، بلقب المحامى الأول عن قضية مصر ، وظفر بأوسمة الحقد والكراهية ، من أمثال إيدن وسلوين لويد الإنجليزيين ، وسباك البلجيكي ، وزعماء الاشتراكية المزيفة فى باريس . . واستطاع أن يكسب إلى جانب قضية العقل والحكمة وعدم العدوان ، عضواً قديراً فى الكومنولث البريطانى ، وهو ليستر بيرسون وزير خارجية كندا ، والذي يعد من أقدر خطباء الإنجليزية فى الوقت الحاضر ، ويتمتع باحترام كبير فى الدوائر العالمية . . إنه بطبيعة الحال لم يهاجم السياسة البريطانية علناً ، ولكنه كان يمسك بأزمة قوية قادرة على كبح جماح دعاة الحرب على الجانب الآخر من الأطلنطى .

ولا نستطيع أن نقول أن موقف كندا ، هو مجرد تأثر بسياسة أيزنهاور الأمريكية ، بوصفه الجار الأقرب والأقوى ، بقدر ما نقول إنه إدراك أعق لمضار الحرب وتناجها الوخيمة على الجميع . فإنها ستحرق بنارها كثيرين ، أولهم انجلترا نفسها . .

وهكذا ذهبت انجلترا للأمم المتحدة لتجد في جانب عبد الناصر ، ممثلي الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتي ، والهند ، ويوغوسلافيا ، واليونان ، ولتجد كندا ضد الحرب . . . وتجد استراليا ونيوزيلندا في صف دعاة الحرب . . .

* وانسحب المرشدون الأجانب باستثناء اليونانيين . . . واحتشد عند مدخلي القنال أكبر عدد من السفن اجتمع في وقت واحد . فحتى تحبك المؤامرة طلب أعداء مصر ، من الربابنة التابعين لهم ، التلصق في الطريق والظهور أمام بور سعيد والسويس في وقت واحد . . .

ولم تنطبق السماء على الأرض كما خيل لهم . . .

كل ما حدث أن محمود يونس وزملاءه في قنال السويس لم يناموا أسبوعاً أو نحوه ، وواصلوا العمل بأعصاب قوية ، وعزيمة من حديد ، وصبر وسعة صدر ، حتى اجتازت هذه الموجات ، ولا نسميها القوافل ، القنال في نظام ، وهدوء . . .

وسارعت مصر إلى سد الثغرات في عدد المرشدين ، بعد مؤامرة الانسحاب ، وقبلت تباعاً مرشدين من الاتحاد السوفياتي ويوجسلافيا واليونان ، والولايات المتحدة ، وألمانيا والدول الاسكندنافية . . . عينت نحو مائة واحد منهم . وتخلت قيادة الأسطول المصري ، عن عدد من أكفأ ضباط البحرية ، ووضعهم تحت تصرف الإدارة المصرية للقنال .

سار كل شئ بخير . . . حتى عندما أراد بعض الربابنة الإنجليز السفهاء التحرش بالمرشدين . . . وحتى عندما حاول أحدهم أن يجنح بالسفينة إل الشاطئ ليرتطم ويعيق الملاحة . . . لقد حلت كل هذه الأزمات الصغيرة فوراً ، لأنها كانت في الحساب .

ومضت الملاحة في القنال ، وانكفاً وجه الإدارة الفرنسية السابقة للقنال ، في الوحل خراباً وعاراً ، وارتفع رأس الإدارة المصرية ، عالياً . . . عالياً . . . حتى كاد يلامس السماء . . .

وهكذا انتهزت أقوى حجة تدرع بها الاستعمار وهو يطالب بإعادة وضع يده على المرفق المصرى الكبير بحجة كفاءة الإدارة الأجنبية .. فقد ثبت أن هذا الادعاء الضخم ، وهم وسراب .

وكسبت مصر عطفا عظيما ، وتأييدا شاملا كاملا .. فقد تلخص الموضوع إذن ، فى من يأخذ رسوم المرور : أصحاب القنال ، أم هذه العصابة ؟

وسئل دالاس ، صاحب مشروع نادى المتفعين :

— لماذا انتزعت الولايات المتحدة الأسنان من نادى المتفعين .. (إشارة إلى محاولة المرور بالقوة لسفن هذا النادى ؟) فأجاب فى سخرية :

— أنا لا أستطيع أن أفهم هذه الأقوال السائرة عن انتزاع الولايات المتحدة الأسنان من قم نادى المتفعين . وذلك لأنى لم أعرف مطلقا ، أنه كانت هناك أسنان على الإطلاق فى قم النادى المذكور ! !

يقول روبرتسون الكندى فى كتابه « الأزمة » :

ولم يمض أسبوع واحد بعد انسحاب المرشدين (١٥ سبتمبر) حتى كانت شركة لويد للتأمين البحرى فى لندن تحذف الرسوم الإضافية على التأمين التى كانت قد فرضتها على السفن المستخدمة للقنال ، معبرة بذلك عن ثقتها فى قدرة مصر على إدارة القنال بمنتهى الكفاية .

• ونترك انجلترا وفرنسا تذهبان إلى مجلس الأمن ، لنلقى نظرة على باب سرى خلف هذه المشكلة ، أخذ يفتح تدريجياً .. وهو العلاقات الفرنسية الإسرائيلية ، التى تطورت فجأة ، ثم قفزت فجأة ، لتصبح عاملا رئيسياً فى الاندفاع نحو الحرب ، فى موعد جديد ، بعد أن أفلت من إيدن موعد ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ .



ايدن في طريقه الى مجلس العموم البريطاني
لعرض مشروع نادى المنتفعين ..

معركة بورسعيد

عرضنا في الفصل السابق للتحركات السياسية ، التي كانت تخفي نوايا العدوان ، في عواصم الغرب على جانبي الأطلنطي . .

ولنتقف معاً في القاهرة ، التي كانت دوائرها الرسمية مشغولة بعض الوقت باستقبال السياسيين من كل مكان ، والاتصال بدول العالم جميعاً ، وإمداد وسائل الإعلام بحاجتها من الأنباء . . هذه الدوائر كانت — أيضاً — مشغولة كل الوقت بإعداد لمعركة مسلحة ، لم تغب عنها تفاصيل التجمع لها .

وإذا استعرضنا خطب وأحاديث الرئيس جمال عبد الناصر في الفترة ما بين تأميم القنال ، وخطبتها المشهورة في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، ولإبتداء العدوان ، نجد أمامنا ما يأتي :

١ — كلمة قصيرة ألقاها في دمنهور يوم ٢٨ يوليو قال فيها :

« إذا أرادوا أن يتدخلوا فيما نقرره ، فإننا نقول لهم إننا أحرار في بلادنا وسنبقى دائماً أحراراً في بلادنا . »

٢ — وفي نفس اليوم رد على وفود الشعب التي أقبلت تهنئ بعودة القنال إلى أهلها فقال لهم : لقد قامت الضجة التي كنا ننتظرها في لندن ، وباريس ، وسيحافظ شعب مصر على استقلاله حتى آخر قطرة من دمه . وذكر أن قنال السويس كانت ستعود لمصر بعد ١٢ سنة ، وما حدث اليوم قد كشف المستور . . « لقد أمت بريطانيا الحديد والصلب والنقل البحري ، ولم يقل لها أحد لماذا تؤمّن هذه المرافق . هي حرة في شركاتها البريطانية المساهمة ، ونحن أحرار في شركاتنا المصرية المساهمة . . وقال عن فرنسا ووقاحة وزير خارجيتها إنه سيترك للجزائر أن ترد عليها وتعطيه درساً في الأدب . »

وأكد أن مصر ستقابل العدوان بالعدوان .

٣ — وفي ٣١ يوليو أكد الرئيس أنه ماضٍ في سياسته ، وفي أول أغسطس سنة ١٩٥٦ ألقى في شباب جامعة الإسكندرية ، كلية أشاد فيها بموقف العرب وتأييدهم جميعاً لمصر ، وقال : إتنا نعرف كيف نرد المعتصبين . . كيف نرد القراصنة . .

٤ — وفي ١٢ أغسطس ، شرح الرئيس الموقف ، ورد على الدعوة لمؤتمر لندن ، وهو مؤتمر يعالج موضوعاً خاصاً بمصر ، ولم تستشر مصر في عقده ١١ وسأل على أى أساس تدعو إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ٢٢ دولة لمؤتمرها ، مع أن عدد الدول التي تمر سفنها بالقنال ٥٤ دولة . . وقال : « لقد انتظمت الملاحة منذ تأميم الشركة أكثر من ذي قبل . فهناك ٧٦٦ سفينة مرت في القنال حتى الآن (في أسبوعين) ولم يقدم أحد أية شكوى .

« القضية ليست قضية القنال ، بل قضية الدول الصغرى التي حصلت على استقلالها ، وترغب في تأمين هذا الاستقلال . فهل تمكنوا من خداع الشعوب كما أرادوا أن يفعلوا ببيانهم الثلاثي ؟

« لقد حصل رد فعل في مصر . . فكل فرد فيها صمم وأحس أن هناك مؤامرة تحاك ضده للاعتداء على كرامته وسيادته .

« وسئلت في المؤتمر الصحفي الذي عقد في الساعة الخامسة من أحد الصحفيين الأجانب : هل هناك حالة طوارئ . فقلت إنني منذ أن نشأت في مصر ، وأنا أعلم أننا في حالة طوارئ ضد الاستعمار ، وإتنا سنكافح من أجل حقوقنا . .

وأبان الرئيس في مؤتمره الصحفي صورة الحرب المقبلة مع دولتي الاستعمار فقال : سنشن حرباً شاملة كالتى فى الجزائر والهند الصينية ، وكل الشعب يعي نفسه للحصول على استقلاله وسيادته . . سنكافح بكل الوسائل ، وأقول عن نفسى : إننى سأكافح لآخر قطرة من دى من أجل حقنا فى الحياة ، وسنتجه إلى الأمام بقوة وعزم وتصميم . . سينصرنا الله الذى أعاننا فى كل أزماتنا . . وسنتصر على قوى السيطرة والتحكم . .

وفى المؤتمر الصحفي الذى أشار إليه الرئيس فى خطابه هذا سأله أحد الصحفيين عن عدد القوات المصرية التى تعد عسكرياً الآن (١٢ أغسطس) فرد يقول :

— إننا نستعد لمواجهة أى هجوم ، لكننى لا أستطيع أن أذكر أرقاماً عن قواتنا .

وقد أدلى الرئيس فى ١٨ و ٢٠ و ٢٤ أغسطس و ٢ سبتمبر بأحداث صحفية أخرى . كما نشر نص الرد على مشروع الغرب بتدويل القنال ، والذى سلمه لمؤيد رئيس وزراء استراليا .

وكذلك أدلى بحديث فى ١٣ سبتمبر لمراسل الديلى هيرالد العالمية الانجليزية قال فيه : إن الاقتصاد المصرى يستطيع الصمود لتجميد الأموال المصرية فى الغرب . وسواجه المتاعب ، ولكنها لن تجعلنا نركع طالبين الرحمة .

وفى منتصف سبتمبر ، وهو الموعد الأول للهجوم على مصر ، بمناسبة سحب المرشدين الأجانب ، ألقى الرئيس خطبة فى كلية الطيران ببليس ، أشاد فيها بالمرشدين المصريين واليونانيين الذين احتملوا عبء مرور السفن وحدهم ، وقال إنه يهدى باسم الشعب ، وباسم كل فرد من أبناء مصر إلى هؤلاء الرجال البواسل وسام الاستحقاق المصرى من الشعب المصرى .

وعرض فى هذه الخطبة لموقف أمريكا . . قال :

« الرئيس الأمريكى يقول كلاماً معناه السلام . ووزير خارجيته يقول كلاماً معناه الحرب . . وإذا كانت أمريكا فعلاً تسعى إلى السلام فلماذا تقدمت باقتراح جمعية المنتفعين ؟ . . . »

وهكذا كانت خطب وأحداث عبدالناصر ، هى مدفعية مصر الثقيلة ، التى أطلقتها على صروح الكذب الإنجليزى الفرنسى ، فدكها ، وتكشفت الحقائق لمعظم شعوب

الأرض ، ولنسبة كبيرة من رأى العام الإنجليزى ، وعناصر قوية فى رأى العام الفرنسى .

وهذا هو المكسب الضخم الذى وصلت إليه مصر فى فترة الأسابيع السبعة السابقة لـ ١٥ سبتمبر .

الاستعداد للحرب ٠٠ وقوات العلوان الثنائى

وبينا كانت حرب الأثير والورق على أشدها ، تجمعت فى القاهرة البيانات المؤكدة عن التجمع الذى تم فى قبرص ومالطة وليبيا والجزائر وعدن ، وبين القواعد الرئيسية فى فرنسا وإنجلترا نفسها .

وفى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ كانت القوات المعادية موزعة كما يلى (١) :

أولا - القوات البرية فى قبرص :

حشدت بها من القوات البريطانية الوحدات الآتية :

بمجموعتان للوائين من المشاة (رقم ٥٠ ، ٥١) فى نيقوسيا وفماجوستا . وعشر كتائب مشاة حول نيقوسيا ، وعلى الساحل الشمالى والساحل الجنوبى وفى المنطقة الوسطى . وآلاى سيارات مدرعة موزعاً بين نيقوسيا وفماجوستا وليماسول . وآلايين مدفعية ميدان فى فماجوستا ولينى . وآلاى مدفعية متوسطة فى باقوس . وآلاى مدفعية مضاد للطائرات خفيف وآلاى مدفعية للطائرات ثقيل موزعين حول المطارات ومستودعات البترول فى لارنكا . وبمجموعة اللواء السادس عشر للهابطين بالمظلات فى منطقة نيقوسيا . ومع هذه الوحدات كل العناصر الإدارية اللازمة للخدمة فى شئون النقل والصيانة والتأمين .

كما تم حشد بعض القوات الفرنسية فى قبرص ، وتضمنت الوحدات الآتية : اللواء العاشر لجنود المظلات فى منطقة جنوب غرب مطار تمبو . وكتيبة من الفرقة الأجنبية .

(١) كتاب معركة سيناء وقنال السويس ، اللواء أ.ح. محمد كمال عبد الحميد

ثانيا - القوات البرية فى مالطة :

بجموعة اللواء الثالثة المشاة بكتائبه الثلاث . وكتيبة مشاة إضافية . ولواء من الفدائيين البحريين (الكوماندوز) كاملا بكتائبه الثلاث . وآلاى سيارات مدرعة . وآلاى خفيف مدفعية مضادة للطائرات . وآلاى ثقيل من المدفعية المضادة للطائرات . ووحدات مختلفة من مدفعية الميدان . ووحدات إدارية متنوعة لخدمة هذه القوات .

ثالثا - القوات البرية فى ليبيا :

رياسة الفرقة العاشرة المدرعة . وآلاى دبابات سنتوريان فى ميسراته بطرابلس . وآلاى دبابات سنتوريان فى المرج بركة . وآلاى مدفعية ميدان ٣٥ رطلا فى طرابلس : وورش ومستشفيات ومهمات المهندسين ووحدات خدمة الجيش موزعة فى منطقتى طرابلس وبرقة ، وبخاصة بعد إضافة العربات الناقلة للدبابات واستكمال حاجة كل هذه القوات من الذخائر للحرب .

رابعا - القوات البرية فى الأردن :

كانت قوات بريطانيا موزعة فيه كآلاتى : آلاى دبابات ثقيلة من طراز سنتوريان فى العقبة (عدا أورطة) . الأورطة الباقية من آلاى الدبابات السنتوريان فى معان . ومعها سرية مشاة وفصيلة رشاشات متوسطة فى العقبة وبطارية مدفعية ميدان ٢٥ رطلا وتروب مدفعية مضاد للدبابات ١٧ رطلا فى العقبة ومستودعات مهمات وذخيرة وعربات لأعمال النقل والتكوين فى الزرقا . و٥٠ عربة ناقلة للدبابات الثقيلة فى العقبة .

خامسا - القوات البرية فى عدن :

حشدت بها كتيبتان من المشاة .

* * *

وبالنسبة للقوات البحرية التى حشدت فى المدة نفسها وفى هذه القواعد نفسها فكانت كما يلى :

أولا - القوات البحرية في قبرص :

كان هذا الأسطول موزعا بين قبرص ومالطة بصفة أساسية علاوة على القطع التي كانت راسية فعلا في موانئ طولون ووهران بالجزائر ، جاهزة تحت الطلب ، وكانت القطع الانجليزية مكونة من :

٤ حاملات طائرات (ايجل ، ثيسوس ، بلوراك ، البيون) . و ٥ طرادات ، و ١٢ مدمرة ، و ٧ غواصات ، و ٩ كاسحات ألغام ، و ٥ باثة ألغام ، و ١١ ناقلة للجنود ، و ١١ سفينة شحن للدبابات ، وسفينة ورشة صيانة ، و ٢ سفينة تموين ، و امدادات .

وفي طبرق : ٣ ناقلات للبترول ، و ١٤ زورقا حربية صغيرا ، و ٨ زوارق حربية كبيرة

أما القوات الفرنسية فكانت مؤلفة من : البارجة جان بارت (التوام للبارجة ريشيليو) ، ٢ حاملة طائرات هما : لافاييت وأرملوتاش ، و ٢ طرادات هما : جورج ليجوس ، ودي جراس ، و ٤ مدمرات ، و ٨ فرقاطات ، و ٣ غواصات

ثانيا - القوات البحرية في مالطة :

١ طراد نيوفوندلاند ، و ٢ مدمرة ، و ٢ سفن تموين ، وبعض سفن ناقلة للزيت .

* * *

أما بالنسبة للقوات الجوية فقد كان توزيعها كالاتي :

في قبرص (مطار اكروتييري) فكان فيها : ٣ سرب فينوم ، و ٢ سرب مقاتلات متيور ، و ٥ طائرات متيور للتصوير ، و ٣ طائرات أنسون للنقل الداخلي .

وفي مطار نيقوسيا : ٢ سرب هنتر ، و ٢ سرب فامبير ، وسرب هليوكوبتر و ٣ أسراب نقل جنود ، وسرب نقل طائرات فرنسية في مطار تمبو .

وفي مالطة كان بها : ٤ أسراب قاذفات قنابل نفائة كانبرا (٦٠ طائرة) . وشرب فينوم . وهذا بخلاف الطائرات الموجودة على حاملات الطائرات .

وفي ليبيا كانت هناك في مطار العظم ، بعض الطائرات من طراز متيور وكانبرا وطائرات النقل .

وفي الأردن كان في مطار عمان : سرب من طائرات فينوم ، وأعداد من طائرات متيور وفامبير .

وهذا علاوة على الاهتمام الخاص الذي أبدته بريطانيا بتحسين مطار المفرق بالعراق استعداداً لاستقبال كل أنواع الطائرات وامتداده بالمخازن اللازمة ل ذخيرة الطائرات النفائة وقطع الغيار اللازمة .

وفي عدن ، حشد فيها : ٢٥ طائرة فينوم ، و ١٥ طائرة فامبير ، و ٦ طائرات هنتر و ٣ طائرات كانبرا .

وأما بالنسبة للقوة الجوية الفرنسية فكانت موزعة بين حاملات الطائرات (لافايت ، ارموناش) وبين ميناء طولون وبين قواعد إسرائيل .

وقد رثى أن الحشود البريطانية كانت بطبيعتها أكثر عدداً ، وقد اقتضى أمر تجميعها بتلك الصورة إلى سحب بعضها من قواعد هافي ألمانيا الغربية . بل إلى استدعاء قوات كثيرة من الاحتياطى العام فى بريطانيا .

وبدأت عملية التدريب تدخل طور التنفيذ الجدى ، واشتركت القوات الفرنسية والبريطانية فى قبرص فى هذا التدريب على العمليات المشتركة ليلاً ونهاراً وخاصة فيما يتعلق بتكتيكات الهابطين بالمظلات ورجال الغزو من الفدائيين .

وبجانب ذلك ضاعفت بريطانيا نشاطها فى قبرص ومالطة لتوفير التكوين والترفيه وأخذوا فى البحث والتنقيب عن موارد جديدة لمياه الشرب فى قبرص بعد أن زادت الطاقة الاستهلاكية عن إمكانيات الموارد الموجودة بها . . وكان من جراء البحث عن موارد المياه أن تسربت أنباء وتفاصيل جديدة عن تطور الزيادات فى عدد وأحجام القوات المحتشدة فى قبرص . ،

لندن ٠٠ المرتبة

وقع لإيدن وعصابته تحت ضغط بالغ الشدة ، مرجعه إلى عدم ثقته في نجاح الخطة التي دبرها ، وبعد أن رأى انقسام الرأي العام في بلاده بدرجة خطيرة وبعد أن رأى تخلي أيزنهاوز وحكومته عنه ، وبعد أن رأى أقوى دول الكومنولث لاتوافق على الحرب . وهي الهند والباكستان وكندا وسيلان .

ولكن عاملاً آخر كان شديد الإلحاح عليه في أن يقدم ، وهو زوجته « كلاريسا » فقد قالت إنها أحست كن قنال السويس تجري في غرفة نومها من كثرة ما عاشت في دوامتها منذ ٢٦ يوليو ، وأنه لاشفاء لها من هذا الفيضان . إلا بأن يأتي لها زوجها لإيدن برأس عبد الناصر على طبق ! !

وكان الرؤساء العسكريون (باستثناء اللورد مونتباتن) يطلبون حسم الموقف . إما بالحرب أو بالعدول عنها ، فقد بدأ الجنود يقلقون من طول انتظارهم في القواعد التي أرسلوا إليها ، ومن القيام بتدريبات لا يعقبها إلا تدريبات .

وفي اجتماعات حلف الاطمنطى ، كانت الولايات المتحدة تحاول الحصول من ممثلي بريطانيا وفرنسا على اعتراف بأنهم سيحاربون . لكي تتخذ موقفاً مناسباً في داخل الحلف . ولكن هؤلاء الممثلين لا ذوا بالصمت التام .

وكانت روسيا توالى الضغط ، لكي تحول دون العمل العسكري ، فقد أذاع خروشوف أنه سيسمح للمتطوعين السوفييات بالسفر إلى منطقة القنال إذا طلب منهم ذلك ، وعندما وجه أحد الصحفيين الأجانب للرئيس عبد الناصر سؤالاً عن هؤلاء المتطوعين ، وعما إذا كانت مصر ستستعين بهم ، كان جوابه : لا تعليق .

وكتب بولجانين إلى إيدن رسالة طويلة يؤيد فيها وجهة نظر حكومة مصر ، ويحذر من ارتكاب أى عمل طائش . ورد عليه إيدن بأن ناصر رجل عسكرى ، ويؤمن بالعمل العسكرى .

وزاد قلق فرنسا من انجلترا ، فقد بدأت حرباً كلامية في هيئة الأمم ، سوف تحيل الموضوع كله إلى مفاوضات ومناقشات ، فطار إيدن ومعاونيه إلى باريس في

١٦ سبتمبر ليؤكد للفرنسيين ، أنه لا يجب ترك القضية تفرق ، أو وضعها في المياه
الراكدة لهيئة الأمم ١

وكان إيدن شديد الضيق من خطب ناصر « القوية » كما كان يصفها . وما أن وصله
خطاب ثان من بولجانين أكثر حزماً ، حتى راح يكتب لايزنهاور مستجداً .

ولكن وخزات دلاس كانت أكثر إبلاماً وإزعاجاً . ولا سيما وهو يتحدث
عن الاستعمار ، الذي لاتعاني الولايات المتحدة من عقده . . فما كان من إيدن إلا أن
راح يهاجم هذه المعاني ، ويقول :

« من الحقائق التي لا يمكن مناقشتها أن ثمة بلدين من أكثر بلاد الشرق الأوسط
وأفريقيا تأخرآ ، وهما العربية السعودية ، وليبيريا ، وهما بلدان تلعب أمريكا فيها
دوراً هاماً كبيراً (١) . »

الاعتراف سيد الأدلة

وفجأة دخل عامل جديد في الموقف ، كانت فرنسا تمهد له من زمن ، وتحس
به المخابرات الإنجليزية والأمريكية ، وهو علاقة إسرائيل بفرنسا ، وهذا السيل
من الأسلحة الذي كان يتدفق من الترسانات الفرنسية على إسرائيل وكأنها جزائر
أخرى ١١

يروى موريس بورجيز — مانورى وزير دفاع فرنسا للكاتب الكندى
روبرتسن قصة العلاقات الاسرائيلية الفرنسية الحديثة كما يلي :

« حدث الاجتماع الأول بينى وبين بيريز (٢) ، قبل أكثر من سنة واحدة من وقوع
الحرب أى في خريف عام ١٩٥٥ ، وكنت وقتها وزيراً للداخلية . ولكن علاقاتنا

(١) مذكرات إيدن ص ١٨٠ .

(٢) هو وزير دولة فى وزارة بن جوريون ومن أركان حزب الماباي وكان
بن جوريون يتولى مع رئاسة وزارة اسرائيل وزارة الدفاع .

واجتماعاتنا سرعان ما تزايدت بصورة جدية ، بعد أن عدت وزيراً للدفاع في يناير عام ١٩٥٦ في حكومة الميسوموليه . وقد توصلنا إلى تفاهم كامل حول التعاون الفرنسي الاسرائيلي في النضال ضد العرب . ودخلت بريطانيا في الصورة بعد تأميم قناة السويس . وكانت سياستنا تتركز على عدم القيام بأى شكل من أشكال العمليات العسكرية دون اشتراك بريطانيا معنا .

وبالرغم من أن الخطط البريطانية لم تعلن إلا أنها كانت بطيئة واستغرقت أمداً طويلاً ، حتى أتى اضطررت إلى إيفاد الجنرال شال من رئاسة أركان الحرب لمقابلة ايدن رئيس وزراء إنجلترا ، واستعجال الأمور معه ، ولكن استعجال الأمور لتنفيذ الخطة الموضوعية لم يصبح ممكناً ، إلا بعد أن أصبح المستر أنطوني هيد وزيراً للدفاع^(١) . (كان وزير دولة للحرب ، وليس عضواً في مجلس الوزراء) . وكان السبب الرئيسى من ناحية البريطانيين فى الحيلة والحذر ، هو أن الانجليز لعبوا دوراً هاماً فى الماضى فى تدريب الجيش المصرى . وكانوا يعتقدون أنه جيش طيب . (الفرنسيون لا يوافقون) وكانت هناك صعوبة أخرى وهى أن البريطانيين أصدقاء العرب وأعداء إسرائيل (كذا ١١) بينما نحن على النقيض أصدقاء إسرائيل ، وأعداء العرب .

وهنا ننتقل ببيانات وزير الدفاع الفرنسى إلى نقطة بالغة الخطورة فى الكشف عن التيارات الدولية . . . فيقول :

« بعد أن تمت الاستعدادات ، وقرر الاسرائيليون موعد الهجوم ، رحنا نسارع فى تنفيذ برنامج المساعدة لاسرائيل . ورأيت نفسى مضطراً للتشاور مع الأمريكان للحصول منهم على ما نفتقر إليه من قطع الغيار ومن المعدات الأخرى ، وكان الأمريكيون يعرفون

(١) استقال السير وولتر منكوتون وزير الدفاع وعضو مجلس الوزراء يوم ١٨ أكتوبر . وكانت استقالته أول احتجاج من رجل شريف على حماقة ايدن . وان كان ايدن قد ادعى فى مذكراته أن الاستقالة لأسباب صحية !!

كل شيء عما هو حادث في باريس تقريباً . وكنت أستقبل السفير الأمريكى ديلون ، مرة كل أسبوعين على الأقل ، لأطلب منه المزيد من المعدات من الولايات المتحدة ، ولا ريب فى أنه كان يعرف أن هذه المعدات ترسل إلى قبرص ، حيث تشحن نسبة كبيرة منها إلى إسرائيل .

« وأبلغنى السفير ديلون أن البريطانيين كانوا يطلبون أيضاً من السفير فى لندن — الدرتسن — المعدات والتجهيزات من أمريكا . وقد طلبنا من أمريكا وتلقينا منها ما يربوا بمجموعه على أكثر من تسعين مادة مختلفة من معدات الأسلحة كما تسلم البريطانيون منهم نحواً من ١٦٧ (مائة وسبعة وستين) مادة حربية . وأرى من غير المنطق أن يواصل الأمريكان القول إنهم كانوا يجهلون كل شيء عن خططنا ، .

واستطرد وزير دفاع فرنسا يقول :

« وكانت السلطات العسكرية الأمريكية أيضاً مطلعة على كل شيء ، عن طريق رئاسة أركان الحرب فى واشنطن ، التى كنت دائم الاتصال بها ، للاسراع فى تنفيذ برنامج إرسال الأسلحة . وعن طريق جهاز المخابرات الأمريكية . وكان المألوف فى مثل هذه الظروف أن نسمح بمرور المعلومات عن طريق الوسائل السرية لا عن طريق الاتصالات الدبلوماسية العادية . وكان هناك بالطبع احتمال بأن لا يكون الرئيس ايزنهاور ، المشغول بحملته الانتخابية ، قد عرف بهذه الحقائق إلا بعد فوات الأوان ، .

ومن حق أى باحث ، بعد هذه الإفشاءات الفاضحة البالغة أعلى درجة من الخطورة أن يسأل : من الذى يحكم الولايات المتحدة ؟ ...

إننا عرضنا بأمانة الموقف بالنسبة لأيزنهاور - رحمه الله - ، ولانشك فى أنه كان رجلاً صادقاً مع نفسه . ولكننا نشك كثيراً فى موقف دلاس ، الذى قالوا المعركة فى نهايتها

لصالح مصر . . قال لسلوين لويد وهو يزوره في المستشفى : — لماذا لم تتموا
مهمتكم ١١٤

أى أن هناك كلاماً يقال للناس على الملأ وخططا تنفذ سرّاً . . يتفذه الحزب
العسكرى فى الولايات المتحدة . . ويتفذه جهاز المخابرات الرهيب . .

إن حجم المعونة العسكرية الأمريكية لقوات العدوان ، لم يوضح حتى الآن
بدقة ، لأنه تم فى طى كتمان تام : حتى أفشاه وزير دفاع فرنسا . ولكن من الواضح ،
للتعدد الأصناف التى تحصى بالمئات ، أنها معونة لها قيمتها ، قدمت من وراء ظهر
رئيس جمهوريتهم ، وتحدياً لسياسته ، ولما كان يصرح به دلاس علناً للناس ، وهو
يناور ويراوغ على المسرح الدولى . .

وهنا نعود بالذاكرة مرة أخرى إلى موقف الولايات المتحدة عام
١٩١٩ عندما أصدر ويلسن رئيس الولايات المتحدة بياناً ينكر على مصر
طموحها إلى الاستقلال ، وفى عام ١٨٨٢ عندما شاركت الولايات المتحدة برجال
وسلاح فى التمهيد لاحتلالنا ، مشتركة مع انجلترا .

وهذا موقف ثالث . . اذكروه أيها العرب للحكومة الأمريكية ، بل للحكومات
السرية التى تسيطر فى الخفاء على الولايات المتحدة . . وأما العدوان الرابع السافر
فقد كان فى مؤازرتها السياسية والعسكرية لإسرائيل عام ١٩٦٧

وإذا قلنا الحكومات السرية فى الولايات المتحدة ، ونسينا إسرائيل
ونفوذها الهائل هناك — وعلى كثير من السياسيين الغربيين ، فأنتا ترتكب خطأ
فاحشاً . .

فلننصف إذن إلى الحزب العسكرى الأمريكى وجهاز المخابرات ، الأخطبوط
الصهيونى .

لقد اتضح لنا الآن ، أن فرنسا وإسرائيل كانت تدبران عدواناً على مصر ،
ولكل منها هدف : فرنسا تريد إخماد ثورة الجزائر بضرب مصر ، وإسرائيل
تريد قطعة من مصر ، أو بالقليل إكراهها على الاعتراف بوجودها . وكان ذلك
فى خريف عام ١٩٥٥ ، أى قبل أن يتحقق الجلاء النهائى عن مصر . . وطبعاً

قبل أن تؤمم القنال ، وتثور أزمة السد العالي . . أو على الأصح قبل أن يستوعب الجيش المصرى صفقة الأسلحة الروسية . وكل ما هو مطلوب ، البحث عن وسيلة لاشتراك إنجلترا فى الحرب .. وجاءت الفرصة ، بوصول إيدن المغرور الفاشل رئيساً لوزراء إنجلترا ، وبتأميم القنال . .

معاهدة سيفر

أما وقد استقر رأى الشريكين : فرنسا وإسرائيل على الاشتراك فى الحرب فقد بقى الاستيثاق نهائياً من موقف إنجلترا . . . وفى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٦ وصل إيدن وسلوين لويدي مرة أخرى إلى باريس ، وتم اجتماعهما مع المتآمرين الفرنسيين : موليه ، وبينو .

يصف ت . روبرتسون هذا الاجتماع بقوله :

« جلس السياسيون الأربعة ، يواجهون بعضهم البعض فى قصر ماتينون الفخم الذى كان فى يوم ما مسكن الأمراء ، ومنزل السياسى تلليران . . . وظهرت على الجدار وراء إيدن ولويدي صورة فنية رائعة ، تمثل دون كيشوت يعالج طواحينه الهوائية .. وبدأت وراء موليه وبينو الفرنسيين صورة ضخمة لأكبر سياسى متآمر فى تاريخ فرنسا ، وهو الكردينال ريشيليو ، وقد تطلع بنظرة لا تخلو من المكر والدهاء إلى الاجتماع الذى يدور أمامه . »

وفى هذا الاجتماع عرف إيدن باشتراك إسرائيل ، ولم يبد اعتراضاً ، وفى هذا الاجتماع عدلت خطة الغزو من الاسكندرية إلى بور سعيد . . وهو اليوم الخامس من نوفمبر ، وهو اليوم السابق لانتخابات رئاسة الجمهورية فى الولايات المتحدة .

وفى هذا الاجتماع ، ظهر أنه لا بد من معاهدة مكتوبة ، تضمن لإسرائيل أن إنجلترا ستنفذ نصيبها من الحرب ، بعد اندفاع جنودها فى سيناء فقد رفض بن جوريون أن يتحرك خطوة واحدة من غير هذا التعهد الكتابى .

وفى هذا الاجتماع أيضاً عرضت فرنسا نماذج من العملة التى أعدتها لقوات الغزو ، وعليها إشارة تقول إنها عملة « احتلال مصر ١١ » .

وفي ساعة مبكرة من يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، نزلت في مطار فيلا كوبلاى جنوب باريس طائرة ركاب ، استقبلها مندوبون من وزارة الدفاع الفرنسية . . وفي ضباب هذه الساعة المبكرة مرق ركاب الطائرة في سيارتين إلى بلدة « سيفر » في ضواحي باريس . وهناك في فيلا لأحد الفرنسيين من أصدقاء « بورجيز مانورى » . نزل هؤلاء الزوار ، وكانوا بن جوريون ، وموسى ديان ، وبيريز ، وهم زعماء الحكومة الإسرائيلية .

وأدركهم بينو وزير خارجية فرنسا ، ورحب بهم باسم المسيو كوتى رئيس جمهورية فرنسا ، وفي اليوم التالى قدم موليه في سيارة عادية لينضم إلى المجتمعين ودار حديث حول الأسلحة الجديدة التى تتلقاها مصر وضرورة تحطيم هذه الاسنان الخطرة التى تنمو لمصر قبل أن تطبق على إسرائيل ، وعلى المصالح الغربية فى المنطقة . وأشار بن جوريون إلى القيادة العربية المشتركة التى جعلت بلاده كبندقة ، تكفى ضغطة واحدة من هذه القيادة لكى تتحطم .

ولم يكن الاشتراكى « موليه » فى حاجة إلى مزيد من الإقناع ، فقد اتفقوا على الموعد الذى تعلن فيه إسرائيل تعبئتها وهو ٢٦ أكتوبر (إسرائيل عبأت قواتها قبل هذا التاريخ سراً ، ووقفت المخابرات المصرية على التفاصيل من ناحيتها) ، واتفقوا على حجم المظلة الجوية الفرنسية بطائرات المستير التى تحلق فوق جيش بن جوريون الزاحف على سيناء ، وعلى سفن الأسطول الفرنسى لحماية شواطئ إسرائيل ، وانهز بن جوريون الفرصة ، وطلب مزيداً من السلاح حتى كاد يخلى مخازن حلف الأطلنطى عما لديه . . .

وتحدد موعد الهجوم الإسرائيلى يوم ٢٩ أكتوبر ، على أن يدركه الهجوم الإنجليزى الفرنسى على بور سعيد بعدها بيومين .

وفى أثناء هذه المداولات ، حضر من إنجلترا ، بنفس الطريقة السرية ، سلوين لويد وزير الخارجية ، وباتريك دين وكيل الوزارة ، ومندوب عن المخابرات البريطانية . وعرض الإنجليز التمثيلية الهزيلة التى ألفها إيدن بأن يوجه إنذاراً للقوات الإسرائيلية والمصرية ، بالابتعاد عن ضفاف القنال عشرة أميال . حتى تدخل قواته لتفصل بين المتحاربين ، حرصاً على سلامة القنال ١١ وطلب الإنجليز من إسرائيل أن تقبل الإنذار . . .

يروى بينو الفرنسي هذه الأحداث ويقول :

« لقد دهشت لما في هذا الإجراء من نفاق وخداع ، ولم أخف حقيقة مشاعري ، لكن بن جوريون كان في حاجة ماسة إلى ضرب الطائرات البريطانية للطائرات المصرية . ولهذا قبل شرط الإنجليز الذي أصرّوا عليه . وقبلناه نحن (الفرنسيين) أيضاً ، .

وطار سلوين لويد إلى لندن ، لعرض ما توصل إليه المجتمعون على إيدن ، وعاد في الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، ووضعت مسودة المعاهدة ثم أرسلت بالطائرة مرة أخرى إلى إيدن ، ثم جاءت موافقته ، ووقع باتريك دين عن إنجلترا ، وبينو عن فرنسا ، وبن جوريون عن إسرائيل . ولم تكتب منها إلا ثلاث نسخ محافظة على السرية التامة ووضع اليهودي نسخة في جيبه ، وهو يقول : على أي حال عدت بورقة ما ؟ ! وكان موضوع اتفاق ألا تنشر نصوص اتفاقية سيفر في أي وقت .

كانت إسرائيل توالى الهجوم على الأردن ، في حوادث حدود متلاحقة ، كي تحول النظر عن قواتها المتجهة إلى الحدود المصرية ، وفي الموعد المحدد — ٢٩ أكتوبر — اخترقت قوات موسى ديان الحدود عند منطقة العوجة .

ولترك الهجوم اليهودي إلى حين لاستعرض مواقع وخطط القيادة المصرية في مواجهة العدوان .

مصر .. تتأهب للعاصفة

كان تعداد الجنود الذين قادم نابلليون لغزو مصر في آخر القرن الثامن عشر ، وأول القرن التاسع عشر ٣٥ ألف جندي ، وتصدى لهم الشعب المصري كله في حرب شاملة . وبعد ثمانين سنة من جلائهم نجح الإنجليز في غزو مصر ومعهم مساعدات أجنبية ، وكانت قواتهم ٦٠ (ستين) ألف جندي بما فيهم الهنود والفرنسيون والأمريكان .. وكانت قوات عرابي بين ١٢ و ١٨ ألف جندي .

وفي سنة ١٩٥٦ حشد الإنجليز والفرنسيون ٨٠ (ثمانين) ألف جندي غير احتياطهم المستبعد للمعركة في ليبيا والأردن وقبرص ، بما يصعد بهذه القوة إلى ١٢٠ ألف جندي . فإذا أضفنا جيش إسرائيل كله ، واحتياطيه . بدد التعبئة ، فإننا

نحصى قوات العدوان بـ ٢٤٠ ألف جندي ، أى أربعة أمثال قوات الجنرال واسلى عام ١٨٨٢ ، وثمانية أمثال قوات نابليون .

ولم ندخل فى حساب هذه التحركات العسكرية الأوربية قوات فريزر التى هاجمتنا عام ١٨٠٧ ، فقد أخطأ الإنجليز خطأ جسيماً ، إذ نزلوا الإسكندرية بستة آلاف جندي ، وما أن وصلوا رشيد ودخلوا المعركة حتى تعرضوا لما يشبه الإبادة التامة من قوات الشعب . . . وكانوا معتمدين على انضمام قوات المماليك لهم . ولكن هذا لم يحدث . . . فكانت هزيمتهم المرة . . .

وفى عام ١٩٥٦ ، تغير ظرف العدوان تغيراً تاماً . . . وذلك :

أولاً — قدر الرئيس عبد الناصر أن حرباً لا بد ستشب بيتنا وبين الإنجليز وذلك قبل تأميم القنال ، وكانت قيادة الجيش على علم بالامر .

ثانياً — استطاعت الحرب النفسية التى سلطتها القاهرة على إيدن وحكومته والنشاط الدولى واسع النطاق الذى بذله جهازنا الدبلوماسى والإعلامى أن يؤخر الاشتباك شهور أغسطس وسبتمبر وأكتوبر . . . وهى مائة يوم تقريباً ، كانت لها قيمتها فى رسم خطط الدفاع .

ثالثاً — قدرت قيادتنا أنه إذا كانت الكلمة النهائية ، للإنجليز فى هذا الهجوم فسيكون عن طريق الإسكندرية ، وقد تأهبت قواتنا البحرية ، ودفاعنا الساحلى على النحو الذى شرحناه قبل .

رابعاً — عندما ضعفت أعصاب إيدن فى أواخر مرحلة الإعداد للمعركة ، وافق على رأى الفرنسيين ، فى أن يكون الهجوم عن طريق بور سعيد ، لىكى يستفيد استفادة كاملة من انضمام اليهود إلى المعركة ، وإن كان هدفه هو غير أهدافهم . فقد كان حله أن يصل إلى القاهرة ، ويسقط حكومة عبد الناصر ، وكان هدف الفرنسيين الاستيلاء على قنال السويس ، وكان هدف إسرائيل شبه جزيرة سيناء وإن أمكن أن يصلوا إلى القاهرة فأنهم سيثأرون مما حدث لهم أيام الفراعنة ! !

وعندما دعت القيادة الإسرائيلية الملحقين العسكريين لفرنسا وانجلترا لاجتماع فى تل أبيب مساء ٢٩ أكتوبر قال لهم المتحدث باسمها : لا أستطيع أن أصرح باسم الهدف الذى نقصده ، ولكن انظروا إلى هذه الخريطة . . . وأشار إلى القاهرة ! !

خامساً — جعلت القيادة المصرية منطقة الدلتا كلها ، كهدف للهجوم المنتظر ، وأولت عناية خاصة للموانئ الثلاثة الكبيرة السويس وبور سعيد والإسكندرية .. فنشرت شبكة الرادار ووسائل الوقاية الجوية على شكل مروحة نقطة ارتكازها في القاهرة وأطرافها تغطي الدلتا كلها . وكان من أهم ما عُنيت به القيادة إنشاء مجموعة كبيرة من الطائرات الهيكلية مصنوعة من الخشب على طراز الطائرات الموجودة لدى مصر ووضعتها في المطارات المعروفة .

سادساً — وزعت وحدات الجيش المدرعة ، في معسكرات محيطة بالقاهرة على شكل مروحة قصيرة ، بحيث يسهل تحريكها إلى أى جهة يقع فيها الهجوم .

سابعاً — عزز الدفاع حول قنال السويس تعزيزاً كاملاً ، وأعطيت عناية خاصة للسويس ومداخل الخليج ، وأخفيت بقدر الإمكان حقيقة القوات والأسلحة التي حشدت لمعركة القنال ، بوصفها هدفاً رئيسياً للعدوان مثل القاهرة تماماً . حتى إذا توغل العدو في منطقة القنال ، وقع في فخ القوات المسلحة المعدة له ، والتي لم يحسب حسابها .

ثامناً — أنشئ جيش التحرير ، الذي انضم إليه المواطنون بحماسة كبيرة ، وشرع في تدريبه ، وتسليمه السلاح ، وإيكال حراسة المراقق العامة له من كبار وطرق ، وأى هدف يغرى جنود المظلات بالهبوط عنده لتدميره .

تاسعاً — خففت القوات في سيناء ، لتعزيز عمليات الحرب في القنال والدلتا مع إبقاء العدو على علم بأن ما حشد فيها يزيد عن ٥٠ ألف جندي ..

عاشراً — أعد التكوين الداخلي ، لإعداداً سليماً لمواجهة الحرب ، ووزع البترول على المحافظات ، بحيث كان رصيده كافياً للاستهلاك العسكري والمحلى حتى لو استمرت الحرب ستة أشهر .

* * *

الحرب في سيناء

قبل غروب الشمس بوقت قصير ، يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، أسقطت إسرائيل كتيبة مظلات حملتها ١٦ طائرة داكوتا في منطقة منعزلة شرقي قنال السويس

وعلى بعد ٢٥ ميلا منها . : واسم منطقة الإسقاط عمر متلا ، وشرقي سدر الحيطان .
وكان الغرض من هذه الخطة الصببانية ، إذاعة أن اليهود هددوا قنال السويس فعلا ،
بوصولهم قريبا ، وبهذا يصدر الإنذار الإنجليزي الفرنسي الممهد لضرب العدو
للمطارات والموانئ والمدن المصرية ! .

* * *

وقد أدت الدراسة المتعمقة للمعلومات الواردة على القاهرة من مخبراتنا ، التي
امتد نشاطها إلى عواصم الهجوم ، ومراكز التجمع .. والمعلومات الواردة من المناطق
التي للإنجيز فيها سلطة ، مثل العراق والأدن ، إلى أن هناك محاولة لاستداج الجيش
المصري إلى سيناء ، ومحاولة جره إلى الهجوم على إسرائيل ، وبذا تخلق ذريعة مناسبة
لإعلان الحرب على مصر ، بمقتضى ضمان الحدود الإسرائيلية الذي أعلنته فرنسا
وانجلترا والولايات المتحدة ، وربما أدى هذا الهجوم المصري — في حالة وقوعه —
إلى استدراج الولايات المتحدة للمركة ضدنا ! !

ولتحقيق هذا الهدف ، أخذت إسرائيل تهاجم الحدود الأردنية ، هجوماً متصلاً .
وأخذت إذاعة لندن — طبقاً لخطة موضوعة — تبأغ في تحرشات إسرائيل
بالأردن ، وعندما وزنت قيادتنا هذه المعلومات بما تجمع لديها من معلومات عن
حقيقة الاشتباكات على الحدود الأردنية ، وضع أن هناك خطة تخفيها هذه العملية ،
وأن هذه الخطة لابد أن تكون استدراج مصر للحرب مع إسرائيل .

وقد أدلت جولدا ماير وزيرة خارجية إسرائيل بتهديدات ، وسافر الملك حسين
إلى العراق ، وقال نوري السعيد إنه مستعد فوراً لإمداد القوات الأردنية بالجيش
العراقي . . . ولكن مصر لم تلح من كل هذه التحركات إلا الخطة الأصلية وهي
مهاجمة قنال السويس لا أى مكان آخر .

يقول الفريق أول محمد فوزى وزير الدفاع المصري ، فى الدراسة الفنية —
التي عملت لحرب السويس (١) .

(١) نشر التقرير فى جريدة الأخبار خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٦٦ .

« كان الهدف بسيطا واضحا .. إن كلا من إنجلترا وفرنسا كانتا تأملان من وراء هذه الاضطرابات المرسومة ، أن تستفز القاهرة ، لترسل جيوشها إلى سيناء كي تعمل ضد إسرائيل ، وتساعد الأردن المهددة . فالفرصة لا شك متاحة أمام مصر للهجوم على إسرائيل . وإنجلترا ترغب أيضا في الوقوف إلى جانب الأردن ضد إسرائيل .

« رغم دهاء هذه الخطة وعمقها ، فإن الفرصة المرتقبة لم تسنح للبعثتين لسبب واحد بسيط ، وهو أن مصر قد فطنت إلى الأمر ، فلم تشن هجوماً على إسرائيل وفوتت الفرصة على الدهاة .

ولاذن فلم يكن هناك بد، من الهجوم على مصر، مهدوا له بمعاهدة سيفر السرية .. وتحدد مواعده وتفصيله على النحو الذى سنراه بعد .

وكانت الخطة تقضى بأن يقوم الطيارون الفرنسيون بعمل مظلة جوية فوق هذه القوة بطائرات المستير تحميها ، حتى تدركها مجموعة اللواء ٢٠٢ اليهودى مندفعة نحوها من نقطة الكونتيللا ، وبعد أن يصل التعزيز إلى نخل ثم سدر الحيطان ، تتقدم القوة كلها إلى السويس .

وفى نفس الوقت كان على القوات البرية الإسرائيلية ، الاندفاع من المنطقة المنزوعة السلاح ، وتستولى على القسيمة وأم قطيف وأبو عجيلة .. وتندفع إلى الإسماعيلية .. وقد أعدت لهذا الزحف ثلاثة ألوية إسرائيلية هى اللواء السابع المدرع واللواء الرابع المشاة واللواء السابع والثلاثين المشاة ، وهى فى جملتها خيرة ما لدى الجيش الإسرائيلى من قوة ضاربة .. وكان هدفها الإسماعيلية ، مرة بالقسيمة وأم قطيف وأبو عجيلة ، ثم القنال .

وثمة هجوم ثالث يقوم به لواءان يهوديان وكتيبة من الاحتياطى ، وثلث هذه القوة مدرع ، لكى يستولى على رفح والعريش ، ثم يندفع نحو القنطرة .

وأعدوا كذلك هجوما رابعا بقوات ضخمة مؤلفة من أربعة ألوية منها ثلاثة مشاة ، ولواء مدرع للاستيلاء على قطاع غزة ثم تعزيز الوجود اليهودى فى العريش ، وعزل سيناء ، عن مصر .

والقوة الخامسة ، التي أعدها اليهود ، في بير سبع ، فقد كلفت بأن يكون قسم منها احتياطياً ، والقسم الآخر يزحف الى الجنوب للاستيلاء على المواقع المصرية في نصراني وشرم الشيخ .

* * *

وقد ذكرنا من قبل أن خطة القيادة المصرية أن تخفف القوات المصرية في سيناء ، بطريقة هادئة جداً ، حتى تبين أين يقع ثقل الهجوم المنتظر . واستبقت هذه الخطة في منطقة سيناء كلها القوات التالية :

في غزة : لواءان من الحرس الوطني ، ولواء فلسطيني وكان تحت التدريب .

في رفح : كتيبتان من اللواء الخامس مشاة .

في العريش : لواء واحد مشاة . . هو اللواء الرابع ومدفعية مساعدة .

في أم قطيف : كتيبتان من اللواء السادس ومدفعية مساعدة .

في شرم الشيخ : الكتيبة ٢١ المشاة ، ومدفعان سواحل عيار ٦ بوصة .

وكشفت مواقع الإنذار المصري تحركات اليهود ، فسارع سلاح الطيران على الفور بضرب الحشود اليهودية من بعد المغرب إلى منتصف الليل ، مما أوقع الذعر في صفوف الطواير المتحركة ، وأفقدوها ميزة المفاجأة ، وعاق زحفها إلى صباح اليوم التالي .

وفي نفس الليلة ، بعد أن عرفت أنباء الهجوم اليهودي ، طلبت سوريا رسمياً أن تشترك في المعركة ، وكذلك طلبت القوات الأردنية . ولكن القيادة المصرية ، طلبت من الجيشين عدم الاشتراك في الحرب في الوقت الحاضر ، مع الوقوف في وضع الاستعداد خشية أن يفتح اليهود جبهة ثانية ...

* * *

وفي صباح اليوم التالي — ٣٠ أكتوبر — بدأ أول اشتباك للعدو مع قوة الحراسة في الكونتلا ، وكانت المواقع الدفاعية في سيناء محصنة تحصيناً قنياً ، بما تعذر منه على الهجوم اليهودي الاستيلاء على الموقع ، فعدل خط سيره ، وانطلق في اتجاه نخل .

وعند نخل ، وفوقها دارت معارك جوية بالغة في الشدة ، فقد طردت طائرات العدو من السماء بعد أن أوقعت به خسائر جسيمة ، ثم انهالت قذائفها على تجمعات اليهود في العوجة ونخل وتمد ، حتى بددت قوة اندفاعه وأوقفت حركته .

وصدر البلاغ المصرى التالى : « بدأ العدو يستخدم قواته الجوية للضغط على قواتنا البرية ، وقد تدخل سلاحنا الجوى فى الحال ، فأسقط طائرتين نفائتين للعدو ، كما دمر ١٢ عربة مصفحة » .

وبعد ذلك صدر بلاغ آخر فى نفس اليوم : « تمكنت قواتنا بعد ظهر اليوم من تطهير قوة العدو غرب نخل ، وقضت عليه تماماً واشتبكت أربع طائرات من قواتنا الجوية ، بثمانى طائرات اسرائيلية من طراز مستير . وقد تمكنت طائراتنا من اسقاط طائرة من هذه الطائرات الاسرائيلية الثمان ، ويحتمل أن تكون طائرة قد أصيبت إصابة مباشرة ، كما أسقطت نيران المدفعية المضادة طائرة للعدو من طراز أورجون ، وأسقطت طائرة أخرى فى قطاع غزة . وجرى تطهير باقى قوات العدو فى أرض العمليات » .

وفى نفس الوقت صدرت تعليمات القيادة المصرية بتعزيز قوات سيناء على النحو الآتى :

١ — يتحرك اللواء ٢٨ من قوة الحرس الوطنى من الاسكندرية إلى المشط شرق قنال السويس .

٢ — يتحرك اللواء الثانى مشاة من غرب القنال إلى فايد . واللواء الاول مشاة من القاهرة إلى الشلوفة . والآلاى الاول من مدفعية الميدان من القاهرة إلى العريش ، والبطارية الثانية إلى أبو عجيلة . .

ويبدو من تحريك القوات على هذا النحو أن القيادة المصرية ، كانت ما تزال تدرس الموقف ، بعد أن تواترت الأنباء من قبرص ، بوجود استعدادات كبيرة فى معسكر البريطانيين والفرنسيين ، وصدرت الأوامر بتجمع قوات المظلات التابعة لهم للذهاب إلى مكان ما فى الشرق الأوسط ١١٤

وكانت القيادة المصرية قد أرسلت من السويس قوة للقضاء على المظليين اليهود في
مر متلا ، كما أمرت لواء مشاة ومجموعة مدرعة بالتقدم من القنال إلى الجفجافة ، للقضاء
على أى قوة أخرى من المظليين اليهود ، يمكن أن تسقطها الطائرات مرة أخرى في
في سدر الحيطان والتمدد شرقى قنال السويس .

أما الطريق الأول ، فقد وجهت له لواء مشاة للقضاء على أى زحف يحدث من
نخل والحسنة .

ولخص اللواء أ . ح محمد كمال عبد الحميد الخطة التي راعتها القيادة المصرية ، في
مواجهة الهجوم اليهودي فيما يلي :

١ — توريط العدو في معارك ثانوية على أطراف المنطقة الدفاعية الرئيسية
لاستنزاف قوته المادية والمعنوية وللكشف عن مدى صلابته وعزمه ،
وتعطيله الى حين تجمع القوة الضاربة ، التي تقوم بالقضاء عليه .

٢ — ظهر من الهجوم اليهودي على مواقع «أم قطف» انه في خلال ثلاث محاولات
لم يستطع أن يحقق غرضه ، وخارت قواه ، بما أكد نجاح عمليات التعويق ،
بحيث تحولت إلى انتصارات واضحة . . وقد أدت المواقع والألغام أغراضها
في تكبيد العدو الزاحف أغراضها تماماً .

وهكذا مضى اليوم الثاني للهجوم اليهودي دون أن يصل إلى نتيجة .

وفي اليوم الثالث ، أخذت إذاعة تل أبيب ، والاذاعة البريطانية ، في قبرص
تدعيان أن الهجوم اليهودي وصل إلى قنال السويس . . وهو كذب واضح ، ولكن
إرساله بهذه الصورة ، كان يحمل التهديد للقوات البريطانية والفرنسية بالتدخل حسب
ما تم الاتفاق عليه في معاهدة سيفر .

وقد صدر البلاغ الرسمي التالي يوم ٣١ أكتوبر يقضى على هذا الادعاء :

« إن القوات المصرية ، قد سيطرت على الموقف الذي نشأ عن العدوان الاسرائيلي
المفاجيء في خلال الـ ٢٤ ساعة الأخيرة : وأن قنال السويس غير مهددة على الإطلاق
بأى تهديد عسكري . وليس هناك ما يهدد سلامة السفن المارة بالقنال ، أو حرية
الملاحة فيها . والقوات المسلحة المصرية قادرة في كل الظروف على حماية القنال ، .

وأعلنت بريطانيا بياناً رسمياً ، ثبت بعد ذلك أنه وسيلة حقيرة من صور التضليل ، كان يجب ألا تلجأ إليها دولة — كانت عظمى في يوم من الأيام — قال هذا البيان أن إنجلترا لا تنوى استغلال القتال الذي نشب فجأة (كذا ! !) في سيناء لمصلحتها .

هل تقف إنجلترا متفرجة في معركة سيناء ١١٩

سنرى . . . فقد تقدمت قوة مصرية لعبور القنال ، مكونة من مجموعتين من الدبابات التشيكية والروسية ، لتأخذ أماكنها في منطقة بير روض سالم وهي قادرة على رد التقدم للعدو وتحطيمه .

وفي يوم ٣١ أكتوبر ركز العدو هجوماً ضخماً على موقع أم قطف وأبو عجيلة وهو الموقع المتحكم في الطرق الممتدة الى العريش والاسماعيلية . . ولم يكن في الموقع غير كتيبتين مصريتين . وإذا بالعدو يذهل لل مفاجأة ، فما أن انتهى اليوم حتى كان قد خسر ٤ دبابات ومدرعة، واضطر إلى التراجع ، مع أن الطيران الفرنسي والانجليزى ، كان قد دخل المعركة تأييداً لهذا الهجوم . . وقد اسقطت المدفعية المصرية المضادة ١١ طائرة من طائرات العدو .

وظلت هذه المعركة الرهيبة مستمرة يومين آخرين ، وتولى القيادة الاسرائيلية قائد جديد ، بعد مصرع قائده الاول أصاف سمحوني .

وحاول اليهود أن يقتحموا الموقع بالسلاح الأبيض ، مستعينين بتفوقهم العددي الضخم . . ولكنهم ارتدوا أيضاً أمام مهارة ويسالة الجندي المصرى الذى استطاع أن يصرع ٢٥٠ يهودياً ضرباً بالخنجر والقنابل اليدوية في أقل من نصف ساعة .

وكان موسى ديان القائد العام لليهود يشرف بنفسه على هذا الهجوم ، وقد رأى موت ضباطه وجنوده بعينه الواحدة في هذه الرمال التى شهدت من ثلاثين قرناً ، عصيان بنى اسرائيل لربهم ، وبقائهم في هذه البرية أربعين سنة ، حتى باد منهم جيل ، وخلفه جيل آخر .

وهكذا ، وبعد مائة ساعة من هذه الحرب تعلم اليهود درساً وراحوا من اليوم الاول يصرخون مستنجدين طالبين التدخل الانجليزى الفرنسى ، بقوات بحرية وبرية .

الإنذار . . وقرار الانسحاب

أمام د حوسة ، اليهود أمام الحامية الصغيرة في أبو عجيلة . وتلبية لاستصراخات بن جوريون ، وجهت بريطانيا وفرنسا في الساعة السادسة والنصف من مساء يوم الثلاثاء ٣٠ أكتوبر إنذارا لمصر (وتمويها لإسرائيل ١) ، تطلب فيه خلال ١٢ ساعة إيقاف جميع الأعمال الشبيهة بالحربية في البر والبحر والجو ، وسحب القوات العسكرية إلى مسافة عشرة أميال من قنال السويس ، وأن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية للمواقع الرئيسية في بور سعيد والاسماعيلية والسويس . .

وهكذا بدأ الفصل الثاني من التمثيلية .

ولم يحتج الرد على الإنذار البريطاني وقتاً طويلاً فقد دعا الرئيس عبد الناصر السفير البريطاني ، وقال له في هدوء :

« سنقاتل ، فلقد سمحنا لكم في المرة الأخيرة (سنة ١٨٨٢) بدخول البلاد بصورة مؤقتة ، فبقيتم أكثر من سبعين عاماً ، ولن تسمح مصر بتكرار ذلك ثانية » .

وكان السفير في موقف حرج . . فقال إنه سمع عن الإنذار من الإذاعة . ولم يهتم أحد في لندن بأن يبلغه بالأمر ، ولو قبها بقليل !

وفي لندن حاول إيدن أن يراوغ مجلس العموم ، و المعارضة تحاصره . . . قال له جيتسكيل زعيم العمال :

— حقاً إنه وضع غريب للغاية . إن المجلس ، والبلاد كلها . . الجميع ينتظرون رداً على هذا السؤال : هل نحن في حرب ؟ . . ورد إيدن متأففاً :

— إن هناك حالة صراع مسلح نشأت !

وفي نيويورك كان مجلس الأمن مجتمعاً . وقد قام داج همرشولد الأمين العام ، بطلب اتخاذ إجراء إيجابي فوراً ، وإلا فانه سيستقيل من منصبه ، ووجه المندوب السوفياتي سوبوليف ، كلامه لمندوب فرنسا في المجلس قائلاً له :

— على فرنسا وانجلترا أن تدرسا بإمعان ما تقومون به ، فإن العدوان المسلح على منطقة قناة السويس قد تترتب عليه نتائج خطيرة . . نتائج خطيرة تلحق بالجنس البشرى كله .

وأغنى على المندوب الفرنسي . أغنى عليه حقيقة لا مجازاً ، عندما استوعب أن ما سمعه يعنى الحرب الذرية !

* * *

ودرس الرئيس عبد الناصر الموقف من الواجهة العسكرية ، واتفق مع قيادة القوات المسلحة ، على توحيد الجبهة ، وإيقاف حرب سيناء ، وسحب جنودنا منها ومواجهة العدو في القناة وغربها ، حتى لا تقع هذه القوات في الفخ الذي أرادوا من شهرين تدبيره لها . .

وكان على قوات أبو عجيلة الباسلة ، التي أوقفت الزحف اليهودى قرابة خمسة أيام واجب آخر ، وهو أن تحارب حرب مؤخرة . حتى يتم سحب كل القوات في سيناء ، وتدمير ما لا يمكن حمله من الأسلحة .

وتحية لهؤلاء الجنود البواسل ، ولإخوانهم الذين صمدوا مثلهم في رفع بنفس البسالة ، حتى صدر أمر الانسحاب ، نقتطف الفقرة التي وردت عن قوات سيناء في التقرير الفنى لرياسة أركان الحرب المصرية عن المعارك . . قال التقرير :

« هاجمت اسرائيل سيناء ، بقوة مكونة من ٣٥ كتيبة من المشاة ، وعشر كتائب ونصف من المدرعات . و ٣٥ كتيبة من المدفعية . وبمقارنة بسيطة كان كل جندى مصرى بسيناء يواجه أكثر من أربعة جنود اسرائيليين ، وكل مدفع مصرى يطلق نيرانه يجد رداً من عشرة مدافع إسرائيلية ، وكل دبابة مصرية ، كانت تواجهها عشر دبابات إسرائيلية . . . » ، ومع هذا لم تستطع إسرائيل أن تخطو إلى الأمام ، حتى أعلنت انجلترا وفرنسا أن قواتهما ستحتلان قناة السويس . . وصدر قرار ترك سيناء مؤقتاً . لمواجهة العدو الأقوى ، والأجدر بالعقوبة ، والذي تحركت اسرائيل بأسلحته ، وتحت حماية طائراته .

تعليق عبد الناصر عن المعركة

سنعود إلى اليهود مرة أخرى ، وهم ينسحبون من سيناء بحملهم الحزى والهزيمة . . .
ولكننا نقتبس هنا فقرات من خطبة ألقاها الرئيس في أدينا ، وهو يوزع الأرض
على الفلاحين ، شرح لهم والتاريخ ما حدث في سيناء بأسلوب أستاذ أركان الحرب المبسط
كل التبسيط حتى يستوعبه السامعون على كافة المستويات ، قال :

« وكان عندنا ٢٥٠ طائرة ، ولكن في وقت المعركة كان عندنا ٤٠ (أربعين)
طياراً فقط . بمعنى أنه كانت توجد ٢١٠ طائرة ليس لها طيارين . . . قال سمحوني
في مفكرته ، أنه لم يستطع مواصلة الزحف لأن الطيران المصري سبب لقواته
خسائر^(١) .

« يوم ٣١ قررنا الانسحاب ، وكانت خطتنا أن نبدأ بالانسحاب من رفح أولاً
ثم العريش وأبو عجيلة ، وأبو عجيلة تنتظر ليوم ٢ نوفمبر . . . يعني نفسحب على ليلتين .
ودباباتنا التي نقلناها شرق القنال ، تعود مرة أخرى في الليل وتعدى القنال لانتقاها
طبعاً من الطيران الانجليزي والفرنساوي التي اشترك في هذه الليلة في المعركة .

« وأصدرنا أوامرنا لقواتنا في غزة ، بعدم القتال ، وأن يسلم الحرم الوطني
حفظاً لدماء المدنيين في القطاع .

« والناس في كبريت (غرب القنال) شافوا ثمانى طائرات يهودية فرنساوية
وصلوا للإغارة على كبريت ، وطلعت لهم ٣ طائرات مصرية من المطار أثناء
الإغارة والثلاث طائرات وقعوا ثلاث طائرات يهودية .

« اتصل القائد العام بقائد اللواء في رفح ، وأبلغه أن الخطة هي أن تنسحب وأن
عليه أن ينسحب من رفح . وكانت إجابته أنه منتصر على اليهود . وقال أنه ضامن
استمرار الانتصار . فرد عليه القائد العام إن العملية مش معركة محلية ، نتصر فيها .
ولكن ده يؤثر على قواتنا كلها ، وعلى جيشنا . ويجب أن ينسحب تحت ظروف القتال .

(١) وصف اليهود طائراتنا بأنها كانت تهاجمهم كالكلاب المسعورة .

« وفي أبو عجيلة ، قاتلت قواتنا إلى يوم ٢ نوفمبر ، وعند الظهر انسحب قائد موقعنا وخرج من أبو عجيلة لغاية الاسماعيلية ، وفي المغرب أعلن موسى ديان أنه استولى على أبو عجيلة . .

« كان فين جيش اسرائيل وموسى ديان يوم ١ و ٢ نوفمبر ! وهل بدأ موسى ديان يتحرك إلا بعد جلاء كل القوات المصرية غرب القنال ! وهل هي شطارة ، طبعاً لقائد عسكري ، أنه يلاقى أرض أسفلت قدامه ، بدون مقاومة ، ويركب عربته ويمشي فيها ؟ هو ده يشرف أى واحد ؟ أو ده شرف قديكون أحسن منه الهزيمة ،

المصاييح المشتعلة

عاد موليه رئيس وزراء فرنسا ، من لندن ، بعد توجيه الإنذار إلى مصر . وذهب إلى الجمعية الوطنية ، وأخبر أعضاء برلمانه بنص الإنذار وعقب عليه بقوله . « قيسوا عملنا بنتائج ، أننا نأمل أن نحطم عبد الناصر بقليل من إراقة الدماء ونحن نعلم أن الخطأ قد يكون في جانبنا ، ولكن الخطأ الأكبر هو أن نقف موقفاً سلبياً من مصر .

وروى الرئيس عبد الناصر ، ما حدث قال :

« في الساعة السابعة مساء كنت في بيتي أقابل السفير الأندونيسى ، وسمعت صوت صفارات الإنذار ، ثم سمعت مباشرة أزيز الطائرات المغيرة ، فأدركت على الفور أنها غارة بريطانية ، كانت الطائرات المغيرة نفائة ، والطائرات النفائة الوحيدة في شرق البحر المتوسط ، لا يمكن أن تكون إلا واحدة من نوعين : الأليوشن ٢٨ الذى تملكه مصر ، أو الكانبرا البريطانية .

« وتيقنت على الفور أن بريطانيا تدخلت عسكرياً في المعركة ، وأردت أن أتأكد على أى حال فتركت السفير الأندونيسى ، وصعدت إلى سطح المنزل أراقب الغارة وأسمع صوت الطائرات ، لتأكد أنها طائرات بريطانية ، ثم تلقيت الإعلان البريطانى — الفرنسى عن بدء عمليات حربية ضد مصر .

« وعلى وهج المصاييح ، التى كانت الطائرات المغيرة ، تلقيها على مطار القاهرة للدولى ، وكانت الغارة البريطانية الأولى عليه ، رأيت المؤامرة . . لم يكن الوهج

يكشف منطقة المطار وحدها .. وإنما كان هذا الوهج ، يكشف في أفكارى منطقة الشرق الأوسط .

« إذن فإن الهجوم الإسرائيلي لم يكن هدفه ، إلا دعوة قواتنا الرئيسية إلى سيناء ثم إقفالها ، وقطع الطريق عليها باحتلال منطقة القنال ، وبهذا يتحقق للعدو هدفان :

الأول : تخطيط قواتنا العسكرية شرق القنال تخطيطاً تاماً ، بعد حرمانها من المساعدة الجوية .

الثاني : دخول مصر ، واحتلالها بدون مقاومة منظمة ، إذ أن مصر ستكون بغير جيش يدافع عنها . »

وفي ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦ أذاع الرئيس جمال عبد الناصر بياناً على الشعب المصرى قال فيه :

« أمس في الساعة السابعة بدأت فرنسا وبريطانيا غاراتها الجوية على القاهرة ، وعلى منطقة القنال وعلى الاسكندرية . وكان الغرض من هذا واضحاً . وكانت غاراتهم مركزة على المطارات . كان غرضهم أن يدمروا سلاح الطيران المصرى الذى أظهر التفوق الساحق في اليومين الماضيين ، والذي سيطر على المعركة ، وأصاب السلاح الجوى الإسرائيلى بالعجز .

« .. سنقاتل أيها الإخوان في سبيل حرية مصر .. سنقاتل في حرب شاملة ، جنودها الشعب المصرى جنباً إلى جنب مع قواته المسلحة .

« أيها المصريون إننا سنقاتل قتالاً مريئاً ، ولن نسلم . إن كل فرد منكم جندي في جيش التحرير الوطنى . ولقد أصدرت الأوامر بتوزيع السلاح عليكم وعندنا منه الكثير .

« سنقاتل في معركة طاحنة من قرية إلى قرية ، ومن مكان إلى مكان .

« سنقاتل ولن نسلم .. فأتنا اليوم أيها الاخوة نكتب صفحة جديدة في تاريخنا ، وأنا أعاهدكم أنى سأقاتل معكم من أجل حريتكم ، كما أعاهدتكم من قبل ، إلى آخر قطرة من دمي . »

الأعداد الهائلة

للطيران أهمية كبرى في المعارك الحربية الحديثة . . وقد حل محل المدفعية بعيدة المدى ، وكلف بأعباء ضخمة جداً ، وصلت إلى نقل الأسلحة الثقيلة والفرق المدرعة ، ورأيناه في حرب فيتنام ، يقوم بما كانت تقوم به البغال فيما قبل عصر الطيران ، من نقل العتاد إلى الأماكن التي لا تمتد إليها طرق في الغابات والأحراش . . وهي طائرات الهليكوبتر . . .

كانت قيادة القوات المعتدية ، تقيم وزناً كبيراً جداً ، لإمكان تدخل التفافات المصرية في عمليات النقل البحري ، ولهذا خصصت ستة أيام كاملة ، لضرب المطارات المصرية ، حتى تتعطل حركة سلاحنا الجوي . :

وأى تقدير لقوات الغزو أثناء المعركة ، ما كان يمكن أن يصل إلى الأرقام الكاملة لحجم الحملة ، التي عرفت بعد ذلك من الوثائق الرسمية ، سواء في عدد الجنود ، أو المعدات . : وكان ما وصل إلى مصر في ٢٥ سبتمبر من تقدير نشرناه من قبل ، قد تضاعف على النحو الذى سجلته الدراسة الفنية التي قامت بها رئاسة أركان الحرب المصرية بعد المعركة .

جاء في هذه الدراسة ما يلي :

لقد كان تفوق الحملة البريطانية الفرنسية أمراً حقيقياً وظاهراً . وقد بدأت الاستعدادات للحملة منذ اليوم التالى للتأميم . ففي الأسبوع الأول من أغسطس استدعت بريطانيا ١٢٥ ألفاً من الاحتياطى . . وفي فرنسا ، وبعد تعبئة جزئية أمكن استدعاء ٥٠ ألف جندي . وبعدها بدأت قوات الغزو تتدرب في سهل سالزبورى بجنوب بريطانيا . ثم جرى إرسال الجنود إلى قواعد الغزو في مالطة وقبرص .

وفي خلال الأسابيع الأخيرة السابقة على الغزو تحركت مجموعات كبيرة من المقاتلات والقاذفات البريطانية والفرنسية متجهة إلى قواعد قبرص ومالطة . .

وهكذا عندما بدأ الهجوم الجوى على مصر مساء ٣١ أكتوبر ، كان عدد الطائرات
التي تغير على مصر كالآتي :

طائرات بريطانية :

٩ أسراب قاذفات في قواعد لوقا وهالفار بمالطة .

٩ أسراب قاذفات في قاعدة نيقوسيا بقبرص .

٢ سرب مقاتلات في نيقوسيا .

٥ أسراب مقاتلات في أكروتيرى بقبرص .

٢ سرب استطلاع جوى بالصور في أكروتيرى .

١ سرب استطلاع جوى في لوقا .

٧ أسراب نقل جوى في تمبو بقبرص .

١ سرب أمداد جوى واتصال .

والمجموع ٣٥ سرباً ونصف . . إذا أضيف إليها ١٣ سرباً من القاذفات فوق
أسطح ٣ حاملات طائرات بريطانية ، ثم وحدتان من طائرات هليكوبتر للاقتحام
فوق ظهر حاملتين أخريين ثم ٦ أسراب أخرى رابضة في قواعد بريطانية قريبة من
مصر بالأردن أو عدن .

من هذا كله . . يتضح أن لبريطانيا ٥٥ سرباً ونصف سرب ، ووحدتي اقتحام
هليكوبتر وكان هذا العدد كله موجهاً لخدمة حملة مصر .

وإذا أضيفت لهذه الأرقام قوة الطيران الفرنسي المخصصة لحملة مصر . . وقد
بلغت الآتي : ٢١ سرباً في قواعد قبرص وإسرائيل ، ٣ أسراب تعمل من فوق ظهور
حاملات الطائرات الفرنسية . . يكون مجموع قوة الطيران الفرنسي ٢٤ سرباً . .

وإذا أضيف الرقم الفرنسي لقوة الطيران إلى الرقم البريطاني لأصبح المجموع
٧٩ سرباً ونصف سرب . . كلها للهجوم على مصر من الجو . . ولو حاولنا ترجمة هذا
الرقم إلى أعداد الطائرات . . نجد السرب البريطاني يضم من ١٠ إلى ١٢ طائرة .
وهذا يعنى أنه عموماً تعرضت مصر لهجوم ٧٩٥ طائرة إلى ٩٥٤ طائرة نفائة ١

وفي البحر . . . أعدت حملة الغزو البحرية لتضم خمس حاملات طائرات بريطانية تعمل كطائرات متحركة تقترب من الشواطئ المصرية . . . وهي الحاملات إيجل ، تيسوس ، بولو أرلت ، ألبين أو شن . . . بالإضافة إلى ٥ طراد ، ١٢ مدمرة ، ٧ فرقاطة ، ٧ غواصة ، ٤ كاسحة ألغام ، سفينة لبث الألغام ، ١١ ناقلة جنود ، ١٤ سفينة لإنزال الجنود والدبابات ، وبمجموعة أخرى من السفن بينما قدمت فرنسا لأسطول الغزو البحري البارجة جان بارت ، وحاملتي الطائرات لا فييت وأروماسيون ، ٣ طراد ، ٤ مدمرة ، ٨ فرقاطة ، ٢ غواصة ، وفي البحر الأحمر كانت قوة بحرية مكونة من الطراد تنوفوندلاند والمدمرتين كرين وديانا البريطانيتين ، والمدمرة جازيل الفرنسية .

* * *

ولم تكن هذه هي كل القوة المعدة لحملة مصر . . . فقد كانت إسرائيل قد سبقت غزو بور سعيد بهجومها على سيناء لتصنع الذريعة المطلوبة . . . وكانت إسرائيل قد حشدت للهجوم على الجيش المصري بسيناء قوة مكونة من ١٨ لواء مشاة ومدرع ، ١٠ كتيائب مشاة ، ١٦ كتيبة مدفعية ، ١٩٢ طائرة مقاتلة و ٥٠ طائرة أخرى قاذفة قنابل ، ٣٣ طائرة نقل ، ٥٥ سفينة بحرية وزورق ووحدات أخرى مساعدة .

ولو جمعت الحشود البريطانية والفرنسية والإسرائيلية التي وجهت ضد مصر خلال العدوان الثلاثي ، لوضح أن القوة التي هاجمت مصر كانت قوة هائلة وتحقيق عنصر التفوق بشكل مؤكد . . . وكاحصائية أخيرة تبين القوى التي تهاجم مصر يبدو أن مصر تعرضت لما يأتي:

المهجوم يضم ٣٨ لواء من جنود المشاة ومن المدرعات يعتمد على قوة ضاربة تتكون من ٧٥٠ دبابة . . . وتقدمت الحملة تحت طلقات ٢٥١٠ مدافع . . . وبدأ غزو شاطئ بور سعيد في ظل فوهات مدافع بارجة و ٧ طرادات و ٢٠ مدمرة و ٢٠ فرقاطة و ٢٢ لنش طوريب تراقبها ٩ غواصات . وعملت ١٣٤ سفينة أخرى في خدمة الحملة ، تحمل جنودها وتموينها وذخائرها وطائراتها . . . وتم هذا كله في حماية ٢٨ سربا من المقاتلات و ٢٥ سربا من قاذفات القنابل المقاتلة و ٢٣ سربا من

قاذفات القنابل . . كما ساهم في سرعة امداد الحملة ١٩ سربا من طائرات النقل
الجوى . . وقام ٩ أسراب ونصف سرب من طائرات الاستطلاع تسبق اقتراب
الحملة من مصر للاستكشاف علاوة على خدمات سربين هليكوبتر اقتحام و ١٥ سربا
للامداد الجوى .

« ستوكويل » يقدر القوات المصرية

وكما صنعت القيادة المصرية ، اذ حصلت على أوثق المعلومات عن قوات العدو
كذلك حاول العدو بكل وسائله ، ومنها التصوير الجوى ، أن يحصل أيضا على كل
المعلومات المتاحة عن قواتنا ، وعلى أساس هذه المعلومات بنى خطته .

وكان الجنرال ستوكويل ، هو القائد الانجليزى للقوات المهاجمة . . تحت القيادة
العامة للجنرال كيتلى . .

وبمناسبة مضى عشر سنوات على العدوان ، نشرت جريدة الصنداي تلجراف
الانجليزية مذكرات ستوكويل عن حرب السويس ، وقامت بترجمتها جريدة الاخبار
في ٣١ / ١٠ / ١٩٦٧ .

وقد جاء في هذه المذكرات عن القوات المصرية ما يلي :

كان السلاح الجوى المصرى يمثل تهديدا كبيرا لطائراتنا ، سواء من ناحية العدد
أو نوع المعدات . لقد كان لدى السلاح الجوى المصرى ما يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠
من المقاتلات جزء كبير منها من طائرات ميج ١٥ وكنا نعتقد أن لدى المصريين عددا
من أحدث المقاتلات السوفيتية من طراز ميج ١٧ . وكان لديهم أيضا طائرات
فامبار ومتيور . مع حوالى ٤٠ أو ٥٠ قاذفات قنابل من طراز إليوشن ٢٨ وبمجموعة
من طائرات النقل وطائرات التدريب .

وكان الجيش المصرى قد نما على يد عبد الناصر وأصبح قوة مفيدة ذات تسليح
جيد وكانت معظم معداته سوفيتية ، وكانت معنوياته قد ارتفعت وبالتالي تحسنت
كفاءته فى القتال . وكان لدى الجيش المصرى ما يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ دبابة ،



ماء على رماد الخرائق في بور سعيد ثم معاودة للجهاد في سبيل الحرية

دبابات ستوريون البريطانية تدعمها دبابات ستالين و ت ٣٤ و ت - ٩٥ السوفيتية وكلها دبابات حديثة سريعة ذات مدافع قوية . كذلك كان لدى الجيش المصرى عدد كبير من المدافع المضادة للطائرات ومعدات الرادار . وكانت قوات المشاة المصرية تضم ٧٥ ألف جندي .

وكان الجيش المصرى موزعا إلى قوات فى سيناء ، للدفاع ضد أى تهديد اسرائيلى أو كقوة ضاربة ضد اسرائيل ، وقوات فى مصر موزعة للدفاع عن بور سعيد والاسكندرية ، مع احتياطى رئيسى موجود للدفاع عن القاهرة .

وكانت الخطة العامة التى أعطيت لنا أن تقوم بعملية جوية ضد السلاح الجوى المصرى تتبعها عند الضرورة عملية هجوم على الطرف الثانى من قناة السويس . . . وكان المقرر أن تكون هناك أيضاً عملية ضد الاسكندرية المهدف منها تحويل الانظار . وكانت الخطة تتضمن القدرة على التقدم على طول القناة بعد هذه العمليات الأولية الجوية والبرية - أ . هـ .

ويبدو من هذا البيان أن الإنجليز لم يستطيعوا الحصول على معلومات كافية عن الدبابات التى فى حوزة الجيش المصرى . كما إنهم أخطأوا التقدير فى إهمالهم قدرة السلطات المصرية على الاستيلاء على المخزون البريطانى من العتاد فى قاعدة قناة السويس . . . وقد تم اعتقال الخبراء الانجليز والحصول على كافة ما فى القاعدة سليماً . . . وهى كليات هائلة من جميع معدات الحرب باستثناء الطيران . . .

أما الطيران المصرى ، فقد حدث قبل ابتداء العدوان العدوان بيوم واحد أن طائرات انجليزية أسرع من الصوت ، كانت تطير على ارتفاع أربعين ألف قدم ، فهاجمتها طائرات مصرية ، وأصابته واحدة منها وكان لهذا الحادث وقع عميق لدى إيدن وأعوانه من المعتدين . . . قال فى مذكراته .

« فى مساء يوم ٢٩ أكتوبر كنت أتحدث مع وزير الدفاع (أنطونى هيد) ومع رئيس أركان حرب الطيران ، وقلت لهما إن من المهم لنا أن نحصل على معلومات يمكن أن نعتمد عليها اعتماداً أكيداً ، بحيث تصل إلينا فى صباح اليوم التالى ، وفى الفجر قامت أربع طائرات استكشاف من طراز « كنيبرا » بالتحليق على ارتفاع يتراوح

بين ٣٠ و ٤٠ ألف قدم ، بقصد تحديد مواقع القوات المتحاربة وتصويرها إن أمكن ، وبالرغم من أنها كانت تحلق على ذلك الارتفاع الكبير ، فقد تعرضت للنيران ، ولكنها عادت سالمة ، رغم أن إحداها أصيبت .

« فلما علمت (إيدن يكتب) بما حدث لتلك الطائرات فكرت في الأمر بشيء من القلق . ولقد دهشت بعد ذلك حين ابتعد سلاح الطيران المصري عن القتال . ولم أفهم السبب . . ربما كانوا طيارين من دولة أخرى هم الذين كانوا يقودون الطائرات « الميج » ، التي تعرضت لطائراتنا في الفجر ، أثناء قيامها بعمليات الاستكشاف . »

ولم يكن هناك طيارون من دولة أجنبية كما يزعم إيدن . وقد ذكر عبد الناصر بعد ذلك ، أن عدد طيارينا كان أربعين طياراً فقط ، فلم تكن تدريباتهم على « الميج » قد تمت . وقد قاموا بدورهم في سحق الطيران الإسرائيلي والفرنسي ، ثم رأيت قيادتنا أن تودع الطائرات في أماكن بعيدة عن متناول العدو ، لكي تتدخل في المعركة في الوقت المناسب ، وبالطريقة المفاجأة التي تربك العدو . .

وبمناسبة القوات المهاجمة من قبل الانجليز والفرنسيين ، يجدر إكمالاً لهذا البحث ، أن نورد البيان الرسمي للمعونة الفرنسية التي زود بها الجيش الإسرائيلي الخائب ، والذي « اتوحد » كما عبر الرئيس عبد الناصر أمام أبو عجيلة ورفق ، دون أن ينال من المدافعين عنها رغم التفوق الهائل في العدد . . فلما صدر قرار الانسحاب من سيناء بعد تدخل الانجليز والفرنسيين ، أخذ موسى ديان (يبرطع) في الطرق الاسفلتية ، لأنه لم يجد أمامه أية مقاومة .

قالت البيانات الرسمية عن معونة حكومة فرنسا تحت زعامة حزبها الاشتراكي ، لجيش إسرائيل ما يلي :

قبل ابتداء العدوان الإسرائيلي بأربعة أيام تحركت قطع الأسطول الفرنسي كريسانت وسيركوف وبوفيه وجورج ليجوس في اتجاه إسرائيل ، للقيام بحماية سواحلها تنفيذاً لما تم في سيفر .

وفي يوم ٢٣ أكتوبر تحرك الطيران الفرنسي إلى المطارات الإسرائيلية ، تحرك الجناح ٦٤ نقل جوى من طراز « نورد » ، من قوات حلف الأطلس من قاعدة سان ديزيه الفرنسية إلى مطار اللد الإسرائيلي . . . وتحرك الجناح الثانى مقاتلات مستير (١٤) من ديجون إلى حيفا . وتحرك الجناح ٦٤ نقل جوى من طراز (نورد أطلس) إلى حيفا . وفي ٢٨ أكتوبر وصل ٦٠ طياراً فرنسياً إلى ميناء حيفا : وقبلها فى أوائل أكتوبر كانت الأسلحة الفرنسية تتدفق على إسرائيل . ووصل إلى إسرائيل ٢٦ طائرة مستير ١٤ ، ٣٠٠ دبابة سوبر شرمان ، ٣٠٠ ناقلة جنود مددى ٦ × ٦ و ٢٠ ناقلة دبابات . . علاوة على ١٠٠ دبابة قدمتها فرنسا فى أوائل عام ١٩٥٦ .

ضرب الطائرات ستة أيام

ظلت الطائرات الإنجليزية والفرنسية ، وقد قارب عددها الألف طائرة ، تقذف المواقع المصرية ستة أيام متوالية ، هى المدة اللازمة لوصول القوات الإنجليزية الفرنسية من مالطة ، وانضمامها إلى القوات البحرية من موانئ قبرص .

ولم تكن تحركات الاسطول الهائل ، بحمولته من الرجال والعتاد خافية على قيادتنا ، وكان القصد من استمرار ضرب المدن والطرق هذه المدة الطويلة تحطيم المعنوية المصرية ، ولكن الجنرال ستوكويل اعترف بأن النتيجة كانت عكسية ، إذ قال فى مذكراته : « لم أكن مقتنعاً بأن إطالة فترة الحرب الجوية يمكن أن تحرز النصر فقد أثبتت التجربة أن ذلك من شأنه أن يزيد المقاومة ، »

والحقيقة أن ثبات الشعب المصرى فى هذا الموقف يحتاج إلى كثير من التأمل والتحليل . . . فلم يحدث أن فزع الناس ، وحاولوا الفرار من المدن إلى الريف وملأوا الطرق ، وعرقلوا حركة النقل العسكرى ، كما حدث من الشعب الفرنسى فى الحرب العالمية الثانية . فعلى الرغم من احتمائه وراء خط ماجينو إلا أن ضرب الطائرات الألمانية أحدث من الرعب ما جعل فرنسا كلها تهرع ملتزمة الفرار

إلى الريف . وتوقفت التنقلات العسكرية تماماً ، مما مكن هتلر من أن يحتاج فرنسا في أيام .

ولم يحدث أيضاً خلال هذه الأيام الستة ، أن فكر مواطن مصري واحد ، أن يزيد مخزونه العادي من التموين .. فمن كان يحصل على قدر معين من السكر أو الشاي أو الدقيق أو الوقود ، حافظ على هذا القدر ، وربما انقص منه .

وكان البريجادير فرجسون يدير الحرب النفسية من قبرص ، ويوجه إذاعات مسمومة مضللة للشعب المصري ، فيقول إن الطائرات ستضرب موقع كذا ، وموقع كذا .. ابتعدوا عنه . وطريق كذا وطريق كذا تجنبوه .. وما من مصري اهتم بكلمة من هذا الهذيان الذي كان يذاع ، حتى بعد أن نجحت طائرات العدو في تحطيم محطات الارسال في أبو زعبل ، وتوقف صوت القاهرة عن العمل .

وقد وجه الجنرال ستوكويل ، اللوم لفشل الحرب النفسية ، وقال : « كنت أشك في جدوى وقيمة الحرب النفسية » .

ولعل أسخف المنشورات التي ألقها الطائرات ، أنهم حاولوا أن يستعينوا بسلح النكته الذي يعجب به المصريون ، فكانت النكته التي اهتدى إليها الانجليز باردة مثلهم .. كتبوا كلية بورسعيد ، وقالوا تحتها إن عبد الناصر أخذ « سعيد » وترك لكم « بور » ١١ .

ولنضرب مثلين اثنين في الداخل لنتائج الهجوم الجوي ، ومثلين من الخارج لكي نكشف بها عن حقيقة المعدن النليل الذي صاغ الله تعالى منه هذا الشعب العربي بكل طبقاته ، وفي جميع ظروف الحياة التي يحياها ..

في مساء ٢ نوفمبر صدر البيان الرسمي المصري التالي ، وهو رقم ١٥ :

« أغارت الطائرات الانجليزية والفرنسية على المدن المصرية ، وقد أصابت بقنابها ١٠٠ قتيل و ٤ مصاباً في أبي زعبل ، وهدمت ٧ مراكز في أبو حماد وقتل ٣ أشخاص بها . وأصيبت محطة ماركوني . وهدمت كنيسة للأقباط في عين شمس ، كما حدثت بعض التلفيات المادية الأخرى في بعض المدن .

أسقطت قواتنا المسلحة ١٤ طائزة فرنسية وانجليزية وهذا بيان عنها :
طائرتان في بور سعيد ، ومثلها في الاسكندرية وواحدة في رشيد و ٩ في
القاهرة .

وهذا البلاغ يدل على شمول القصف الجوى لكثير من المدن . وقد كانت
الحسرة الكبيرة في الأرواح ، في سجن أبو زعبل ، إذ تهاوت فوقه احمال
ضخمة جداً من القنابل . . وقد تهدمت مبانيه . وأصيب بعض ضباطه
وجرحه إصابات قاتلة . وهرع الذين نجوا من المسجونين يسعفون حراسهم ،
وينقلون الجرحى إلى أماكن آمنة . . ولم تسجل بعد الغارة غير أربع حوادث هرب ،
عاد أصحابها من تلقاء أنفسهم خلال الأسبوع التالي لهذه الغارة الوحشية . . وكان
كل ما يتمناه هؤلاء المسجونون أن تتاح لهم فرصة لقاء مع العدو ، لكي يثأروا من
ضحايا هذه الغارة .

هذه قصة . . وقصة أخرى شاهدها بنفسى في قرى الدقهلية والشرقية . . .
فقد كنت أطوف أثناء اشتداد الغارة بها (١) ، وأنا فخور بالسكينة التي
أسبغها الله على نفوس هذه الملايين من أبناء الشعب الذين تجاوز قراهم منطقة
العمليات الحربية ، وكانت القيادة المصرية قد أجلت من منطقة القنال عدداً من
المدنيين من الاسماعيلية وحولها ، فنزلوا في قرى الاصلاح الزراعى ، والقرى
الأخرى . . وترك لهم فلاحونا الطيبون مساكنهم ، وقالوا : حسبهم أنهم تركوا
كل شيء وراءهم . . بل لقد حدث أن رفض معظم هؤلاء المواطنين الطيبين أن
يحصلوا على معونة من وزارة الشؤون الاجتماعية لتكوين هؤلاء المهاجرين ، قائلين :
سنقتسم اللقمة الموجودة مع اخوتنا وضيوفنا ، وهذا شرقنا ، ونصينا المتواضع في
المركة حتى الآن .

والواقع ان كل مصرى كان يحس بواجبه المقدس في الدفاع عن وطنه إزاء هذا
التعصب المجنون . . وهو تصميم أحسه من قبل المواطنون الذين وقفوا ضد نابليون

(١) كنت أعمل وقتها مستشاراً صحفياً للاصلاح الزراعى .

في معركة الألف يوم . . وهو تصميم أحسه المصريون ، بعد ذلك في كل مواقف
الفداء التي خاضوها .

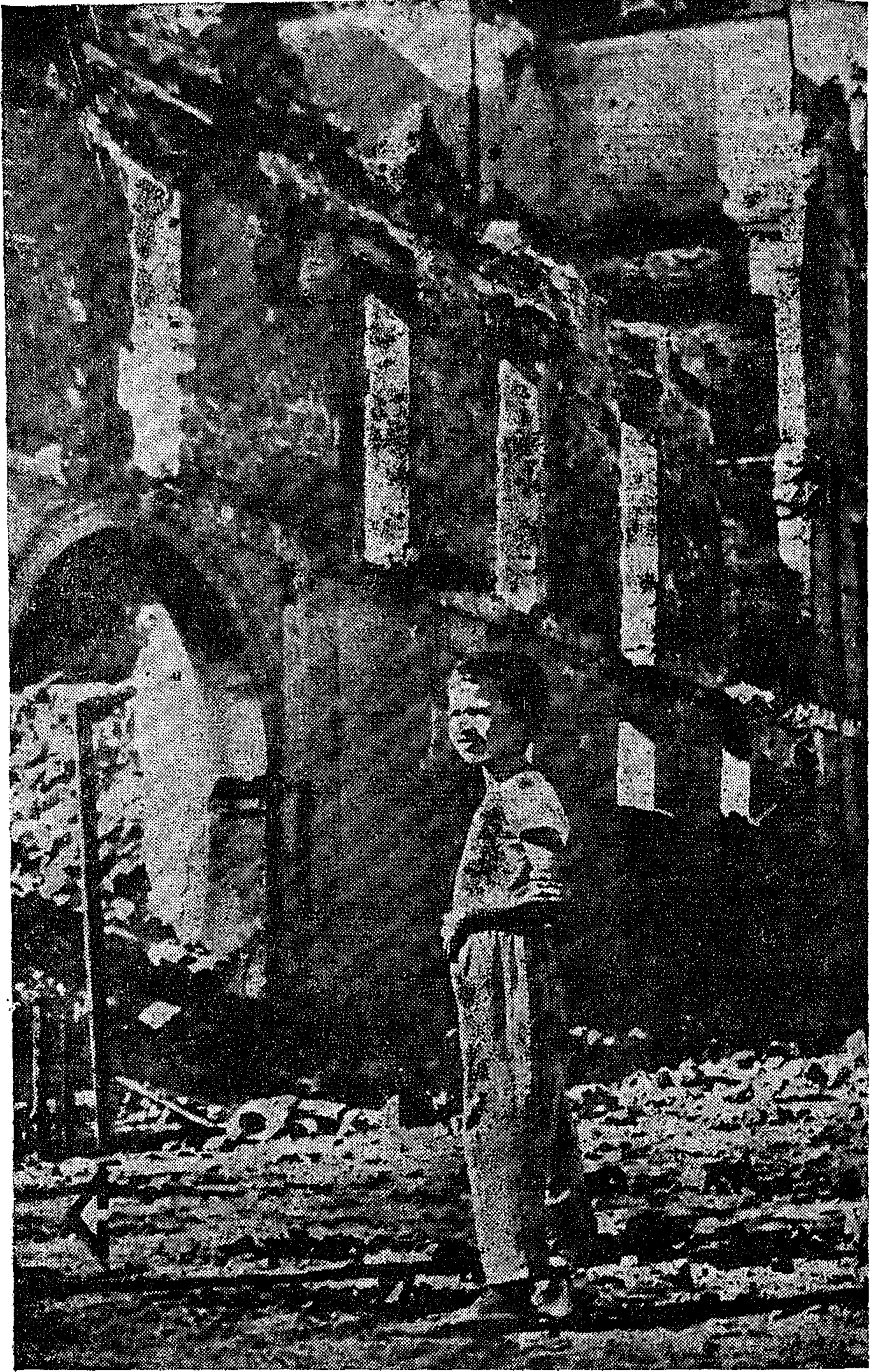
أما في الخارج ، فقد كان كل مصري يكافح كفاحاً مستميتاً ليعود إلى الوطن
ويساهم في معركة الشرف والفداء . . وحتى تتاح لهم العودة كان مصريون من الإذاعة
في ليبيا (سيد الغضبان وإخوانه) يركبون على ظهر السيارات ويخطبون في الجماهير
العربية ، وآخرون في عمان والقدس ، أداروا الإذاعة الأردنية على أنها إذاعة
القاهرة ، حتى يظل اسم القاهرة يملأ الهواء . وصحفيون في بيروت (محمود السعدني
 وإخوانه) يصدرن جريدة عن يوميات المعركة .

وهناك في أقصى الأرض . . في الصين كانت توجد بعثة فنية برياسة الفنان المصري
الكبير عبد السلام الشريف ، تقيم معرضاً فنياً ، ثم حدث العدوان ، وانقلبت مدن
الصين الكبرى إلى ساحات هائلة ممتلئة بأنباء هذا الشعب المجيد . وكان العدد القليل
من المصريين (السفير حسن رجب والبعثة الفنية) يظهرون لهذا الطوفان البشري
محيين شاكرين باسم مصر . . فقد أحسوا أنهم في مصر فعلاً . . وسندكر فيما بعد
ما دار بينهم وبين ماوتسي تونج .

النزول في بور سعيد

مضت الأيام السبعة . . وفي أثنائها توجه جمال عبد الناصر إلى الأزهر يوم ٢ نوفمبر
سنة ١٩٥٦ . . وفي الطريق لمح أفراد من الشعب ، فأخذوا يلاحقون سيارته وهم
يصيحون : خنارب . . خنارب . . وما أن وصل إلى شارع الأزهر ، حتى قطع
المسافة القصيرة في أقل من نصف ساعة لكثرة تزامم الجماهير حوله ، وإعرابها عن
شيء أكثر من الثقة به ، وبالمعركة ، وهو الإيمان بحتمية النصر .

وعلى المنبر الشهير . . وفي ساحة الأزهر ، التي شهدت أحداث ألف سنة ، وكانت
هي الإشعاع الوضاء لمعاني العزة والإباء . . وسجل تاريخ غزاة أقبلا ، يجلجلون في
عدة الحرب وضوضائها ، فإذا روح المقاومة المنبعثة من الأزهر ، وكل ما يمثله من
علوم الدين والدنيا ، ومن وجدان الحضارة المستقر في أعماق هذا الشعب . . إذا هذه
الروح تؤدي عملها ، وتكر على البغاة ، فتكتسبهم ، وتردهم خائبين .



بور سعيدى صغير بين أنقاض مدينته ، ولعله كان يسأل نفسه :
لماذا فعل الانجليز بنا هذا ؟ • لابد من التآمر

من على منبر الأزهر ، وقف جمال عبد الناصر ، يعبر عن ضمير هذه الأمة ، ويقول : « سنقاتل في كل مكان . . ولن نسلم . . وسيكون شعار كل فرد منا في القوات المسلحة والشعب : سنقاتل ، ولن نسلم » .

وفي بورسعيد ، كانت « الارامادا » البحرية المكونة من سفن إنجليزية وفرنسية ، قد وصلت ، وبدأ قذف مركز على مناطق النزول ، وهي الجبسة ، وبور فؤاد ومطار الجبل ، قامت به الطائرات ، حتى إذا حسبت أن المقاومة توقفت في هذه الأماكن بدأ المظليون يهبطون . .

كان اسم الكتيبة الأولى التي كلفت باحتلال المطار : الشياطين الحمر ، وكان قائدها البريجادير بتلر . . وما كادت الدفعات الأولى من جنوده تهبط ، وهي مكونة من ٢٥٠ جندياً ، حتى اندلعت من تحتها ألسنة الجحيم ، وأيدت عن آخرها . . فتوالى ضرب شديد مركز مرة أخرى ، ثم أنزلت دفعة ثانية ، وكان هدفها مطار الجبل . . ووصف « بيتر وودز » مراسل الديلي ميرور العسكري وكان مرافقاً لقائد الحملة ، ما حدث بقوله :

« ما كاد جنودنا يشرعون في الهبوط ، حتى تحولت السماء إلى جحيم من الرصاص ، بفعل المدافع المضادة للطائرات والمدافع الأوتوماتيكية ، والدبابات والأسلحة الصغيرة . وكان المصريون في انتظارنا في كل مكان . وكنا كلما تقدمنا نحو برج المطار ، ازداد عدد القتلى والجرحى من رجالنا . وفي خلال نصف ساعة ، امتلأت المحطة بالجرحى ، من الهابطين ، وشرع الجراحون في العمليات الجراحية . وشظايا القنابل تتخترق نوافذ صالة العمليات . وأنا أكتب الآن من الصالة الدامية ، وفي مواجهتها الدبابات المصرية تضرب جنود المظلات . وقال لي البريجادير بتلر ، قائد العمليات ، إن هناك دبابات أكثر مما كنا نظن . ولا يمكننا عمل شيء بسبب المقاومة التي يلقاها الهابطون . »

حدث ذلك في صباح يوم ٥ نوفمبر ، وصدر في الساعة العاشرة والنصف صباحاً ، البلاغ الحربي المصري رقم ٣٤ يقول : إن قوات مصر سيطرت على الموقف تماماً . وقضى تماماً على قوات النزول . والشعب كله يشترك في المقاومة . وسقطت ٧ طائرات عند ما حاولت أن تسقط أسلحة وذخيرة لجنود المظلات . العدو يحاول ضرب بورسعيد من الجو لفشل هجومه ويحاول إنقاذ قواته .



أم مع جثة ابنها الذي صرعه العلوان على بور سعيد ، وإخوانه ينقلونه
بعربة يد إلى متواه الأخير . . ظروف المعركة لم تسمح بغير هذه الوسيلة

وواصل العدو هجومه الجوى بأمواج متلاحقة لإقلال المقاومة . . وأخيراً اضطر إلى الاستعانة بمدفعية الأسطول ، وضرب المدينة كيفما اتفق ، وذلك علاوة على ضرب الطائرات . . ولما تأكد للجنرال ستوكويل ألا فائدة من كل عملياته يوم ٥ نوفمبر ، لجأ إلى الحيلة ، إذ أسقط من الطائرات دى ، وعرائس على شكل الجنود ، تهبط بالمظلات ، فأخذت النيران المصرية تحصدتها ، ومن وراء قوات المقاومة أنزلت جنود حقيقية بأعداد ضخمة جداً ، حتى أخذت لنفسها موقع قدم ، أشبث به ، ثم توالى النزول جواً وبحراً ، فى منطقة الجليل ، وفى بورقواد (للقوات الفرنسية) ، وذلك تحت حماية مدفعية الأسطول .

ظروف القتال بالنسبة للإنجليز

وكان مقدر سلفاً ، أن بور سعيد هى نقطة مقاومة ، يطلب منها اثخان العدو بالجراح ، أما موقع الالتقاء مع العدو فجنوب بور سعيد ، حيث يبتعد الإنجليز والفرنسيون عن حماية مدافع الأسطول .

وكانت القيادة العامة للقوات المعتدية تقدر المخاطر الجمة للخطوة التالية ، بعد أن تتخذ لها مواقع أقدام فى بور سعيد ، فقد اندمج الجيش المصرى مع الشعب وأطلقت قيادتهم السرية على نفسها اسم « قوات المقاومة الشعبية » وتأهبت لحرب شوارع ومنازل مريرة . . ولا نستطيع أن نقدر عدد قوات المقاومة . ولكن أهل بور سعيد ، مع كتيبة من الجنود والضباط ، كانت هى القوات . .

أما الخطوة التالية — التى لم تحدث — فقد تحدث عنها الجنرال ستوكويل قائدهم ، فقال فى مذكراته .

« لم تكن بور سعيد مكاناً مرضياً بالنسبة لمهمتنا . إن أقرب مطار مناسب يوجد فى أبو صوير على بعد نحو ٥٠ ميلاً إلى الجنوب ، وقريب من إحدى المناطق التى يحتمل أن يحشد فيها المصريون قواتهم المدرعة . . . وكانت المدينة أشبه بسدادة زجاجة ذات عنق طويل جداً . وكان علينا أن ننزع السدادة ونحشر أنفسنا فى العنق . وتقدم فيه . . . وكانت عمليات النسف فى طريق تقدمنا من بور سعيد ، كفيلة بأن تسبب لنا مضايقات لا نهاية لها .

« وكانت بور سعيد تتصل في طرفها الجنوبي بالممر الذي يربطها ببقية أنحاء البلاد عن طريق جسرين يمران فوق قنال تؤدي إلى بحيرة المنزلة ، وكان واحد من الجسرين فقط قوياً ، بدرجة يتحمل معها الدبابات الستريون . . . وكان في استطاعة المصريين تدمير الجسرين . وعندئذ يكون علينا أن نرسل معدات لإقامة جسور في مقدمة قواتنا ، إذا لم نستطع أن نحتل الجسرين سليمين .

« كذلك كان يمكن تدمير القنال التي تنقل المياه العذبة إلى بور سعيد (ترعة الإسماعيلية) وكان هذا كفيلاً بأن يسبب لنا مشكلة الحصول على المياه العذبة بالنسبة للبدنيين (كذا) ، وأيضاً للقوات .

والواقع إن الصراحة التي تحدث بها الجنرال ستوكويل ، ترد على خرافة الادعاءات الفرنسية التي انطلقت تزعم أنه لولا توقف القتال لكانت قواتهم وصلت إلى الإسماعيلية والسويس . . . وإن الأمر كان محتاجاً إلى ٤٨ ساعة فقط . . . وقاحة لا أكثر !

إن إلقاء نظرة على حالة الجنود المعتدية ومعداتها تضيف جديداً إلى هذه الدراسة . . . ومرة أخرى نستطيع الاستعانة بصراحة الجنرال ستوكويل . . . فقد قال :

« إن المدة الطويلة التي أجلت فيها الحرب ، تسببت عنها مشكلات كثيرة . فقد ظلت السفن مشحونة بالعربات والمؤن لأكثر من شهر . وبدأت بطارياتها في الهبوط . وكانت في حاجة إلى صيانة مستمرة . وكان من الضروري تفريغ بعض السفن دون أن تتحقق من الموعد الذي يتحتم الإبحار فيه . . . ولم تكن لدينا فكرة عما إذا كانت خطة « موسكتير ، سيكتب لها النجاح أو الفشل الفوري . ولكننا جاهدنا في مقر القيادة السري لنخرج بنظام معقول للمعركة . »

ورطة اينن . . . وقتال بور سعيد

قال ت . روبرتسون في كتاب « الأزمة السرية » ، ما يلي :

« امتلات منطقة القنال من السويس إلى بور سعيد بالآرتال المنسحبة من المشاة والمدرعات المتجهة إلى الغرب قادمة من الصحراء . وفشلت الخطة الثلاثية في جذب



بقايا طائرة انجليزية سقطت في هذا الحقل وهذا الفلاح يحمل غنيمة ..

ملك الجيش المصرى إلى سيناء ، كما تمت بريطانيا وفرنسا . ووجدت الدولتان أن أربعين ألف جندي قد جاءوا من الشرق إلى خط الهجوم المشترك . وكانت النتيجة أن اكتشف وزير دفاع فرنسا (بورجيز — مانورى) أن محاولاته للاستعجال العمليات تلقى مقاومة عنيدة من الجنرال البريطانى كيتلى المعروف بتأنيبه وحذره . لاسيما وقد ازداد هذا الحذر من جراء توافر الأدلة على أن خطوط الدفاع المصرية القوية فى بور سعيد ، قد تعززت الآن بالقوات المتدققة من شرق منطقة القتال (سيناء) .

وهكذا أوقعت الخطة المصرية بتوحيد جهة القتال ، ارتباطاً تاماً فى تحركات العدو . . . فقد وضع قدمه تحت حماية مدفعية الأساطيل الضخمة على شريط ضيق من أرض بور سعيد ، وواجهته المقاومة الشعبية بعناد ضخم ، وتحفز كامل . . . وراح عنق الزجاجة بعد بور سعيد ، يتحول فى نظر كيتلى وستوكويل إلى منطقة مظلمة محفوفة بأعظم المخاطر .

وهنا وقع حادث من الحوادث التى يدبرها القدر ، ولم تكن فى حساب المدافعين أو المهاجمين . . . فقد فهم إيدن خطأ ، بعد إنزال الجنود الأولى فى بور سعيد ، أن المدينة استسلمت . وكان مجلس العموم فى لندن منعقداً وسلوين لويد وزير الخارجية مشتبك فى مناقشة حامية مع المعارضة ، وإذا بإيدن يقف ويعلم استسلام بور سعيد .

يقول إيدن فى مذكراته . « تجلى الأثر على الفور ، إذ نهض مؤيدو الحكومة على أقدامهم يهتفون ، ويلوحون بأوراقهم ، بينما سكنت المعارضة مؤقتاً مغلوطة على أمرها . وبهذا الإعلان أنبأت العالم بوقف إطلاق النار ، .

يستمر إيدن فى روايته : « وفى الساعة السابعة مساءً جاءتنا إشارة أخرى تقول إن القتال مستمر ١١ ،

« ماذا حدث ؟ (إيدن يكتب) إن من الصعب الاعتقاد بأن محافظ بور سعيد كان يتفاوض لوقف إطلاق النار ، ثم إلى التسليم فعلاً بدون علم الحكومة . ولا بد أن ناصر كان يعلم خلال هذه الساعات الخمس ماذا يجرى فى بور سعيد . . . لائق واثق أن هذا التغيير كان بناء على رأى جهة بعيدة . . . »

وروى إيدن تخريفات عن إشاعات نزول الروس إلى المعركة ، في الوقت الذى كان آخر خبر من المهندسين الروس في السد العالى، قد وصل إلى الخرطوم فعلا ، أى كان على مسافة ثلاثة آلاف كيلومتراً عن مكان المعارك !

ثم استطرد إيدن : « وعندما استؤنف القتال ، اتخذ شكل الاقتناص ، وأساليب حرب العصابات في المناطق المزدهجة بالمباني ، وفي خلال هذه الفترة الأخيرة ضربت المدينة بالقنابل . . . وكان القتال الذى دار في الشوارع معقداً ، إذ أن معظم القوات النظامية المصرية ، اختلطت بالمدينين الذين كان أكثرهم مسلحاً أيضاً . . وصمدت مراكز المقاومة ، .

واضطر إيدن أن يعود إلى مجلس العموم ، ويعلم أنه أدلى ببيان غير صحيح للمجلس ، وأن الحرب مستمرة .

وكما أدى رجوع القوات المصرية من فتح سيناء سالمة ، إلى ارتباك في خطط الجنرال كيتلى العسكرية . كذلك أدى إعلان بيان كاذب في مجلس العموم ، إلى ارتباك أكبر في خطط إيدن السياسية .

وإذا كان إيدن قد حار في مذكراته عن الجهة التى كانت تعطى التعليمات لبور سعيد ، فيمكن أن تفسر له اللغز الآن .. فالاتصال اللاسلكى ، كان ممكناً . . وهذا أمر بديهي . : وإذا كان المعتدون قد قطعوا المواصلات التليفونية ، فإنهم لم يهبطوا إلى وجود كابل بحرى تحت الماء يربط بور سعيد بالإسكندرية وبهذا كان الاتصال بالمدينة الباسلة ممكناً جداً . . . وكانت القيادة المصرية تعطى تعليماتها ، وهى تعلم تفاصيل ما يحدث دقيقة بدقيقة .

وقد روى العميد الموجى قائد القوات المدافعة عن بور سعيد ، قصة الساعات الثمينة التى كسبها من العدو ، لتنظيم قتال الشوارع ، بعد يومين من مواجهة معركة الشاطئ والمطار .. قال :

بعد أن استولى المظليون الفرنسيون يوم الإثنين ٥ نوفمبر على وابور المياه في الرسوة وقطعوا اتصال بور سعيد البرى بالإسماعيلية ، طلبوا من المهندس المصرى

هناك أن يساعدكم في الاتصال بالسلطات المصرية ، للاتفاق على تجنب المدنيين ويلات القتال . فساعدهم في الاتصال تليفونيا بالقائمقام حسن رشدي الضابط المصري بالبوليس ، الذى أبلغ ذلك إلى الحكمدار اللواء حسن البنا ، فأبلغه بدوره إلى السيد المحافظ محمد رياض . . واتصل بي مساعده القائمقام أنور حسين الذى كان حاكماً المدينة العسكرية حينئذ ، ورفضت الطلب بإشارة من يدي ، وكان ذلك حوالى الظهر .

وحوالى الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ، ساء موقف المدينة المدنى بسبب قطع المياه عن بور سعيد ، حتى أن المستشفيات لم تكن تجد المياه اللازمة ، وتعرض المهاجرون المدنيون ، عن طريق المنزلة ، للعدوان الذى كلف مئات الأرواح من الضحايا .

وقبلت مقابلة مندوبى المتعدين . وتم بالفعل وقف مؤقت لاطلاق النيران ، كان بلاشك كسباً للمدنيين . وقد وجدت فى أنظارى البريجادير بتلر البريطانى والكولونيل ساتو جيبير الفرنسى . وقد بادرتهما بقولى : أنا جئت لسببين هما قطع المياه عن البلد ، وقتل المدنيين المهاجرين .

وكان كلامى واضحاً ، فقد درست العلوم العسكرية فى انجلترا مدة خمس سنوات . . قلت :

— يا بريجادير إني أحملك شخصياً مسؤولية عدم التفرة بين المدنيين والعسكريين خصوصاً وأن القتال القاسى وسفك الدماء لم يبدأ بعد . . فصاح بتلر مندهشاً :

— قتال قاسى ! لقد حدث ما فيه الكفاية من القتال وإراقة الدماء . قلت :

— أريد أن أعرف لماذا طلبتم الاتصال بنا فى الصباح . . فقال :

— للبحث فى إمكان حقن الدماء . . فقلت :

— ما دتم على أرض مصرية ، فإراقة الدماء ستستمر . . فقال :

— ولكنك كنت تتكلم عن ٦٠٠ مدنى قتلوا حتى الآن . . فقلت فى تصميم :

— أن الحرب ستستمر . . ولكنى أحب أن يكون الثمن الذى يدفعه المدنيون فى أضيق الحدود .

وقدم البزيجادير بترورقة عليها عنوان : شروط الاستسلام . فرفض الاميرلاى
الموجى النظر فيها وأعادها قائلاً :

— هل تعتقد أنه يمكن لضابط أن ينظر فى هذه الورقة .

فشطب بتر العنوان ، وجعله : شروط مؤقتة لإيقاف إطلاق النيران .

فنظر الموجى فى الشروط ، وقال : هذا كلام لا يمكن بحته فطلب الجانب
البريطانى إعداد شروط مقابلة ، وقال أنه سيرفعها لرياسته .

وتم الاتفاق على إيقاف النار حتى الساعة التاسعة والنصف مساء . وتبدأ
العمليات بعدها .. وكانت لهذه الساعات كل قيمتها فى تجميع القوات المدافعة وتنظيم
قتال الشوارع على خير وجه . وكان واپور المياه قد أصلح ، وعادت بور سعيد
تشرب .. وكل ما حدث أن الإنجليز طلبوا مهلة نصف ساعة أخرى فأعطاهم
القائد المصرى ، ثم بدأت الحرب ولم تتوقف إلا بخروج آخر جندي بريطانى
من المدينة إلى البحر .

وترك بور سعيد مؤقتاً ، لنلقى نظرة على معركة من أروع معارك الحرب
حدثت على خليج العقبة ، عند موقع شرم الشيخ .

معارك أخرى

عرضنا من قبل لمعارك الجو ، وساحل بور سعيد ، ورأينا كيف أفسدت خطط القيادة المصرية ، جانبين هامين من العدوان . أولهما محاولة العدو تدمير قسم كبير من القوات المصرية في سيناء . والثاني الوصول إلى الاسماعيلية والسويس في يومين أو ثلاثة . . فإن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وقد حدثت في غضون الأسبوع الأول من الحرب معارك أخرى هامة في الموانئ، وعلى الشواطئ ، نذكر منها :

معركة شرم الشيخ

كانت السفينة المصرية « رشيد » مكلفة بالعمل في خليج العقبة ، وهي سفينة تموين حربية ، وكان من واجباتها حماية موقع شرم الشيخ بجزراً ، وهو يقع على مدخل الخليج من ناحية سيناء وحماية بعض الجزر الصغيرة ، أهمها جزر تيران . وكانت مهمة « رشيد » تنتهى في أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، لتحل محلها سفينة التدريب دمياط التي أبحرت من ميناء السويس ليلة ٣٠ / ٣١ لهذا الغرض .

وكانت القوة المصرية البرية المدافعة عن الموقع ، وهي الكتيبة ٢١ مشاة ومعها مدفعان عيار ٦ بوصة .

كان من خطط القيادة الاسرائيلية الاستيلاء على شرم الشيخ ، لتأمين منفذها الجنوبي عن طريق خليج العقبة إلى البحر الأحمر . فأعدت لهذا الغرض لواء كاملاً في بير سبع ، وعدداً من الدبابات الاسرائيلية حشدت في ميناء إيلات اليهودي ، زودها الانجليز بعد ذلك بدبابات أخرى من معسكرهم في الأردن . . ونقلت هذه الأسلحة الثقيلة إلى نقطة ذهب قرب شرم الشيخ ، لتشارك في مباغته الموقع المصري . عند وصول اللواء التاسع اليهودي من بير سبع إلى موقع التجمع في ذهب . كما كلفت

سريتان من المظليين ، بالسقوط عند الطور شمال غرب شرم الشيخ لتطويق الموقع من الخلف . .

ولم يكتف الاسرائيليون بهذه القوة الضخمة ، ولكنهم طلبوا معونة القوات الجوية البريطانية والفرنسية وبحرية هاتين الدولتين بمساعدة الهجوم . . أملا في القضاء بحرب خاطفة على الكتيبة المصرية والمدافعين في ملح البصر ، وفتح الطريق عبر خليج العقبة إلى إيلات .

بدأت عملية شرم الشيخ بتحريك الوحدات المهاجمة ليلة ٢٩ أكتوبر . وكانت وحدات هذا الزحف من بير سبع ، معرضة للطيران المصرى ، فهاجمها هجوماً عنيفاً . جمعها تتفرق ، وتضل الطريق . فلما عاد التثام جمعها ، وصلت إلى نقطة التجمع في اليوم الرابع من زحفها .

وكان قائد الموقع المصرى فى شرم الشيخ يرقب العملية كلها ، وقد أعد كيناً فى وادى كبير فاجأ التحرك الاسرائيلى من ذهب ، وأوقع به خسائر كبيرة وبدأت غارة الطيران الإنجليزى والفرنسى على شرم الشيخ ليلة ٣ نوفمبر وصباحها، واستهدفت الباخرة رشيد للهجوم الجوى ، وشاركت فى عمليات الدفاع .

وحاول القائد الاسرائيلى أن يستدرج القائد المصرى إلى التسليم بعد أن انسحبت القوات المصرية من سيناء كلها . واستحالة إمداده بأى قوة . . فرفض ، واستعمل بعض سفن الصيادين الصغيرة لنقل المدنيين والإداريين والجرحى فى اتجاه الطور ، ولكن قائد هذه السفن ، تمكن من النجاة بها رغم المجازفة الشديدة التى قام بها ، وذلك بعد أن قامت الطائرات المصرية بمهاجمة السفن الحربية البريطانية فى المنطقة . وقد أبرق هذا الضابط إلى القيادة باللاسلكى البرقية التالية :

دارت معركة بحرية جوية قبل آخر ضوء بين طائراتنا الجوية وأسطول الأعداء (الانجليز) فى منتصف المسافة بين رأس محمد ومدخل الخليج . واشتعلت النيران فى إحدى البوارج نصف ساعة ، وحجب الظلام معرفتنا تفاصيل النتائج . ولاذت البارجتان الباقيتان بالفرار جنوباً . . قوات العقبة تشكركم ، وتحيا مصر . .

وتحدثت القيادة العامة في القاهرة تليفونياً مع قائد شرم الشيخ ، وطلبت منه التسليم . . فوصف في الرد موقفه بالضبط ، وكل ما طالب به هو بيان عن حالة الحرب في القاهرة والاسكندرية والقنال . . كان هو وجنوده مشغولين بالوطن ، لا بسلامتهم . . وهذه هي الروح المصرية الأصيلة .

ولإزاء غناد هذه القوة (٨٠٠ عسكري وضباطهم) أطبق عدد كبير من الطائرات على شرم الشيخ ، وظل ضربها مستمراً حتى دمروا المعدات الحربية بما في ذلك مدفعية السواحل ، والمدفعية المضادة ومرشحات المياه . . ولكن إشارة قائد الموقع للقيادة العامة كانت تختم بعبارة « سنظل ندافع إلى النهاية » .

وتلقى قائد شرم الشيخ من القيادة في القاهرة البرقية التالية :

« أقدر فيك وجنودك البطولة والاقدام . ستكونون دائماً مثالا للوطنية والتضحية في سبيل الواجب ، إذا لم يمكنك الاستمرار حتى أول ضوء ، فإني آمرك أن تسلم . تخلص من جميع الأسلحة ، حتى البنادق والطبنجات ولو بإلقائها في البحر . تدمر جميع المنشآت إذا أمكن . تحياتي . »

استمرت عملية شرم الشيخ تسعة أيام ، عندما صدر أمر القاهرة بإنهاء هذه الحرب الانتحارية .

وقد ورد في التقرير الرسمي اليهودي عن الحرب فصل طويل عن قتال شرم الشيخ وصفت مراحله ثم قالت :

« ظهر لنا أن المصريين لن يستسلموا إلا أمام شيء آخر ، فأرسلناه إليهم وهو طائرات نفائة منقضة ، كانت تهبط فوق رؤوسهم ، وتقذفهم بكل شيء حتى بالنشرات التي كتبت باللغة العربية ، وفيها أن مصر كلها استسلمت (كذب طبعاً) وقد ضربوهم بالصواريخ والقنابل على اختلاف أنواعها ، ثم اشتركت مدفعيتنا الثقيلة ومدافع الهاون ، ومع ذلك ، فإن المصريين لم يجدوا في كل هذا عذراً للاستسلام . لقد كنا نطبق عليهم بقوات هائلة من الأرض ومن الجو والبحر . ولكنهم رفضوا الاستسلام . وعند ذلك وجدنا أنه لا مناص لنا من هجوم المشاة عليهم بكثرة هائلة للتغلب على المقاومة . وحارب المصريون بعناد من دشمة إلى دشمة . ومن حفرة إلى حفرة . ومن خندق إلى خندق ، واستمرت هذه المقاومة من الساعة الثانية ليلاً إلى ما بعد الظهر . »

قال التقرير :

« وأخيراً وجدنا أن الذين قاومناهم ٨٠٠ (ثمانمائة) عسكري مصري منهم ٤٥ ضابطاً بقيادة الكولونيل رؤوف . »

أما مجموع قوة العدو المهاجمة برآ فكانت ١٢,٠٠٠ (اثني عشر ألف) رجل . .

وقد نشرت المجلة « باحنة » الاسرائيلية العسكرية حديثاً عن الكولونيل رؤوف قالت فيه : « هو شاب متين قصير القامة . . كان طول المعركة في موقعه يقاتل مع رجاله . وقد قال في النهاية إننا لم نستسلم لكم ، بل بسبب هذه الطائرات (الفرنسية والانجليزية) . »

وتحدثت المجلة مع ضابط برتبة ليفتنانت كولونيل هو حنا نجيب ، حارب مع عبد الناصر في الفالوجة . ولما سألته المجلة لماذا لم تنسحبوا بعد أن تبين لكم أن القوات الاسرائيلية متفوقة في العدد تفوقاً هائلاً قال : أن الحرب عندي لعبة . . مباراة . وأنا أحب أن ألعب إلى النهاية سواء ربحت أم خسرت .

وفي بيان ابن جوريون في الكنيسة اليهودي يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ قال :

« إننا احتلنا في ٣ نوفمبر المواقع التي انسحب منها الجيش المصري عدا منطقة شرم الشيخ . وهو موقع محصن بمدافع قوية ومجهزة بمطار جيد . وقد أبدى المصريون شجاعة قوية عجيبة ، حتى كان من الصعب علينا أن نتصور أو نصدق أنه في إمكاننا القضاء عليها . ولكن سقطت منا في هذه المعركة الرهبة ضحايا غالية جداً علينا ، ومن الصعب أن نعوضها . »

« وأبدت قواتنا بطولة ، وبذلنا أعظم مجهود في التاريخ اليهودي . وكانت أياماً في هذه المعركة أيام فزع وذعر أمام هول القوة المصرية . وكان المطلوب من الشعب الاسرائيلي كله أن يصبر ويظهر الشجاعة أمام جيش مصر ، عدونا القدير . »

السفيتان رشيد . . ودمياط

أشرنا من قبل إلى أن السفينة رشيد شاركت في صد الهجوم الجوي الأول على

شرم الشيخ . وكان وقود السفينة لا يكفيها إلا ليومين . وقد أقبلت قطع الاسطول البريطاني بقيادة الطراد نيوفوندلند وسدت مدخل خليج العقبة ، ووصلنا بعد ٨ أميال من شرم الشيخ ، ثم بدأت تأخذ وضع الاستعداد لحصار السفينة رشيد وإغراقها . .

وهنا تدخل القدر ، فقد وصلت أسراب من الطائرات الفرنسية والبريطانية وكانت على ارتفاع كبير لتفادي المدفعية المضادة ، وحسبت أن قطع الاسطول الانجليزي ، من بين السفن المصرية ، فاشتبكت معها في معركة رهيبية ، وتصاعد دخان القنابل صاعدة هابطة ، وانتهزت السفينة رشيد الفرصة ، وأنسحبت بحجبتها الدخان واتجهت شرقا إلى الساحل السعودي ، ورست عند شرم الوجه ، وكان ذلك في صباح ٢ نوفمبر . . . ولما انتهت الغارة ، وطلع الفجر ، لم تجد السفن البريطانية فريستها ، وحسبت أنها غرقت ، وأذاعت هذا النباء فرددته محطات لندن وباريس وقبرص وتل أبيب . . وسمع بحارة رشيد نبأ غرقهم في الراديو ، وأبرقوا باللاسلكي إلى القاهرة أنهم سمعوا النباء ، لكنهم وصلوا سالمين إلى شرم الوجه ، وهم يتناولون الخراف المشوية ! !

وذكرنا من قبل أن السفينة « دمياط » ، كانت قد أمرت بأن تقلع من السويس لتحل محل رشيد . وقد أبحرت من ميناء الأدبية يوم ٣١ أكتوبر . وبعد منتصف الليل بعشر دقائق ، ظهر الطراد نيوفوندلند ومعه مدمرتان ، إحداهما تحمل اسم ديانا . وكانت المسافة بين دمياط والطراد البريطاني نحو ٤٠٠ متر عندما تلقى القومندان حسين شاكر إشارة ليكشف عن جنسية سفينته واسمها . . وبدلا من أن يرد ، أصدر أمره بإدارة آلات سفينته كلها ، والاندفاع بأقصى سرعة إلى الأمام ، وقد أمسك دقة السفينة بنفسه . . وكان قصده أن ينطح الطراد بسفينته ويغرقه ، ويغرق معه ، إذ لا سبيل لمبارزة بالمدفعية لاختلاف الأحجام البين .

وأدركت سفن الاسطول البريطاني ، ماسوف يحدث فركزت نيرانا ، كأنها ستار من اللحم ، ساط على السفينة المصرية ، فتعطل مدفعها الوحيد ، وقتل طاقمه واعتمدت على مدفع خفيف وأسلحة صغيرة في لحظة الاندفاع ، وقد وصلت إحدى القذائف المصرية إلى قاعة السينما في الطراد البريطاني ، فقتلت ٣ من رجاله وأصاب ١٣

فرداً ، وعلى مسافة قصيرة جداً من الهدف ، كانت وطأة الإصابات في دمياط قد فتحت فيها فجوات تسرب منها الماء بكميات ضخمة ، فأمر رجاله بالنزول ، وبينما كان ينزل سمع أننا خلفه فعاد لإنتقاذ صاحبه ، ولكن السفينة غرقت به في خليج السويس . وبهذا كانت خسائر دمياط ٦ ضباط وخمسين من رجالها .

وجاء في تقرير البحرية البريطانية عن هذا الحادث :

د إما أن قائد دمياط ، كان بطلاً خارقاً في شجاعته ، أو أنه كان مجنوناً في وطنيته ، لما أقدم عليه من عمل يندر أن تشهده معارك البحر .

وقد التقطت سفن العدو بعض رجال السفينة دمياط ، وسبح آخرون مفضلين أهوال الماء ، وأسمك القرش على الأسر .. وقد وصل كثيرون منهم إلى الشاطئ بعد عشرين ساعة من السباحة . أما الجرحى الذين التقطتهم السفن البريطانية فقد نقلوا إلى عدن على ظهر الطراد البريطاني ، وقد أبحر إلى هناك لإصلاح ما أصابه من عطب .

الهجوم البحري على السويس

كنا نريد أن نفرّد فصلاً خاصاً ، للهجوم البريطاني على السويس ، محاولة من العدو الوصول إلى القاهرة من هذا الطريق .. وهو الطريق الذي سلكته القوات الهندية ، عام ١٨٨٢ ، لاختضاع مصر .. على نحو ما فصلناه في عرض الحرب العراقية (١) ولكننا فضلنا أن نوجز أنباء المعركة هنا ، حتى نختم قصة الحرب في البحر الأحمر .

كان درس ثلاثة أرباع قرن مضت ، قد استقر في نفس المصريين ، وأولت قيادتهم اهتماماً خاصاً لهذا المنفذ الرئيسي إلى بلادنا .

تمت عمليات تحصين خليج السويس وشواطئنا على البحر الأحمر ، بطريقة هادئة جداً ، وسرية جداً ، بحيث لم تستطع مخبرات العدو اكتشاف شيء عنها ولم يتجه نظر طائرات التجسس إلى هذه المنطقة ، وتصويرها ، إذ كان في تقديرهم أن مصر تولي اهتمامها كله لسيناء والقاهرة وبور سعيد والاسكندرية .

(١) كتاب أيام وأيام للمؤلف .

وقد اعتمد الدفاع المصرى فى البحر الأحمر على سلاحين : المدفعية ، وزوارق الطوربيد . . . ووصف اللواء أ . ح محمد كمال عبد الحميد العملية بقوله : أنشئت مواقع « تبادلية » ، للمدفعية ، ساعدت على تضليل العدو ، وخداعه . وتحريك المدافع بين مواقعها الأصلية ، وهذه المواقع التبادلية . . كما أنشئت « مبايت » ، أو حظائر لزوارق الطوربيد ، حسب نظام حديث ، وضع خصيصاً لها ، بحيث يخفى وجودها تماماً على العدو ، إلا حين تفاجئه بغاراتها .

وبحكم الوجود البريطانى السابق فى منطقة القنال ، كان يعلم الكثير عن تحصين ميناء الأدبية ، ومواقع المدفعية فى السويس ، ولكن هذه التعديلات فاجأته . فما أن بدأ تركيز غاراته على المنطقة حسب معلوماته ، حتى تعرض لنيران مدفعية مضادة لم تكن فى حسابه . وسقطت خمس طائرات مهاجمة فى يوم واحد .

وأذاعت قيادة القاعدة البحرية بالسويس ، أنها بثت ألغاماً فى الخليج ، وأن على جميع السفن أن تحذر منها ، والواقع أن هذه الألغام لم تكن قد وضعت بعد ، لتسهيل العمليات البحرية المصرية ، ولكن العدو فى هجومه البحرى الذى استعد له كان حذراً مرتبكا ، خشية أن يقع فى فخ من الألغام ، مما ساعد على سهولة اصطياده .

وكانت حملة إنزال الجنود إلى البر فى جنوب السويس ، مكونة من عدد من ناقلات الجنود ، وسفن تموين ، وسفن حربية للحراسة والتمهيد ، تقودها الطرادة نيوفوندلند .

وفى يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، بدأت عملية السويس ، واقتحمت هذه المجموعة خليج السويس ، وإذا بالفخ الذى وقعت فيه لم يكن من الألغام ، ولكن من مدفعية لا يعرف شيئاً عن وجودها على الشاطئ ، ومن زوارق طوربيد برزت له ، وكأنها عقاريك من الجان ، وما لبثت هذه القوة البحرية المهاجمة ، أن تعرضت لنيران مركزة ، غرقت على أثرها سفينتان ، وأصيبت ثلاثة ، فأمر القائد البريطانى ، بالعودة فوراً ، إذ وجد أن استمرار تقدمه سوف يصل به إلى قاع الخليج ، لا إلى ميناء السويس .

وفى مساء السبت ٣ نوفمبر صدر البلاغ الحربى رقم ١٧ ، وظهر فيه أن سفناً فرنسية كانت مشتركة فى عملية السويس إلى جانب السفن البريطانية ، وورد فى البلاغ أن قطع الأسطول المصرى ظلت تطارد العدو ، وهو يحاول الإفلات منها ، حتى قنار

أبو درك ، وإلى جانب القطع التي ذكرنا إصابتها ثبت غرق مدمرة بريطانية أصابتها المدفعية الساحلية ..

وفي الأيام الأربعة التالية ، ظلت طائرات العدو تستطلع منطقة الخليج عسى أن تجد وسيلة للنزول إلى البر وكان ذلك في أيام ٤ و ٥ و ٦ نوفمبر ، وفي هذه الأثناء بدأت عمليات لغم الخليج ، حتى لا تعود الحملة مرة أخرى ...

أما اليهود الذين كانوا موجودين في سيناء ، بعد انسحاب الجيش المصري منها ، وفي مناطق سدر وعسل بالذات ، فقد اكتفوا بنهب المعدات البترولية في المنطقة ، وكانت قواتهم بأعداد كبيرة ، ولكنهم رفضوا أن يقدموا أى معونة لشركائهم في العدوان للنزول إلى البر المقابل ...

وقد حاول الانجليز البحث عن كاسحات ألغام ، لإزالة العقبات من طريقهم وأقرب كاسحات كانت في المحيط الهندي .. وذلك لأنهم لم يضعوا في حسابهم أن الوقت من أيام عرابي قد تغير .. ولم يستعدوا لمقاومة أى مقاومة في خليج السويس .

إن كلاماً كثيراً قيل عن المعارك في البحر المتوسط وسيناء . ولكن معارك البحر الأحمر حجبست السويس في غمار الحوادث الضخمة التي جرت من حولها ، ولعل خير ما نذكره عنها ، أن مزيداً من الوعي بهذا الطريق المائي العظيم [البحر الأحمر] ، وعناية من الله وجهت خطأ القومية العربية ، فاذا هي في اليمن ، وإذا هي في عدن . وإذا هي في السودان والحجاز مواقف حراسة ضد غارات القرصنة الاستعمارية في البحر الأحمر .

الدمرة ابراهيم

والآن ننتقل إلى المعارك البحرية في البحر المتوسط ، فما أن عرف أن إسرائيل هاجمت سيناء ، حتى صدر الأمر للدمرة ابراهيم بالإسراع إلى ميناء حيفا ، وضربها رغبة في تعطيل عمليات البترول ، حيث يوجد مصنع التكرير الذي استولى عليه اليهود بعد انسحاب الانجليز .

وكان ظهور المدمرة المصرية في ميناء حيفا مفاجأة تامة للعدو ، وقد استمرت عمليات إطلاق القنابل من البحر من الساعة ٤,١٨ فجر يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ إلى الساعة ٥,٣٥ ..

وما أن أتمت المدمرة ابراهيم مهمتها حتى أسرع إليها ثلاث مدمرات فرنسية ،
كان قد وكل إليها حراسة الموانئ الإسرائيلية ، كما سارعت الطائرات المستير
وهاجت السفينة المصرية .

واتصل قائد المدمرة بقيادته في الاسكندرية ، فصدر له الأمر بالتالي : « غادروا
السفينة بعد التيقن من إغراقها » .

وفي الساعة ٧,٢٩ صباحاً رد قائد المدمرة ابراهيم حسين رشدي طمازين بأنه شرع
في عملية الإغراق ، وبعد ١٤ دقيقة أرسل إشارة قال فيها ، « فتحت بلوف التخليق .. »
وكان العدو قد أطبق على السفينة ، وقبل إغراقها كان العدو قد سحبها إلى الشاطئ ،
وأعلن في ضجة كبيرة أنه أسر السفينة .

وقد علقت القيادة الإسرائيلية على مهمة « ابراهيم » وما حدث من حصارها
بالبطائرات والاسطول الفرنسي واليهودي بقولهم : يعتبر إرسال المدمرة للقيام بهذه
العملية مظهراً للكبرياء غير العادي ، والاستخفاف بقوات اسرائيل والاستهانة
بأمرها !!

وكان من تأثير الدمار الذي جاق بمراق حيفا ومينائها نتيجة هجوم المدمرة
ابراهيم ، أن استعانت إسرائيل بعد الحرب بحلفائها جميعاً كي يقيموا لها نظاماً للدفاع
البحري ، لا يسمح — في تقديرهم — بمثل المفاجأة المؤلمة التي حدثت لهم .

وما يستحق الذكر أن البوارج الفرنسية ، حين ضربت المدمرة ابراهيم ، لم تكن
متأكدة أنها سفينة مصرية . ولهذا أرسل الفليس أدميرال بارجو الفرنسي إلى باريس
إشارة يقول فيها :

« لقد أصبنا مدمرة مصرية بأضرار جسيمة ، ولستنا لسنا متأكدين من جنسيتها ..
إذا ثبت أننا أخطأنا فليس ذلك هجوماً متعمداً على الاسطول السادس الأمريكي » .

وكانت أسماء هذه البوارج الفرنسية : « جورج ليجهيه ، وسيركون ، وكيرسان ،
والأخيرة هي التي ضربت المدمرة المصرية بمدافعها الضخمة بعيدة المدى . والأولى هي
التي اتجهت إلى رفح ، وضربتها من البحر مساعدة للهجوم اليهودي الذي توقف تماماً » .

أمام مقاومة القوة المصرية ، الموجودة هناك . . . سنذكر أسماء هذه السفن الفرنسية ،
ولا ننساها !

معركة البرلس

ومن معارك البحر المتوسط ، بعد ورود الإنذار البريطاني ورفضه ، أن مجموعة
من زوارق الطورييد بقيادة الصاغ جلال الدسوقي ، كلفت بعمل دوريات مستمرة
على شاطئ البحر المتوسط ، وفي صباح ٤ نوفمبر ظهرت سفن العدو أمام البرلس .

وعلى الفور أمر جلال بمهاجمة الأسطول ، وقذف طوربيداته عليه ، فأصاب
طرادة فرنسية إصابة مميتة ، اشتعلت فيها النار وغرقت ، وأصاب مدمرة إنجليزية
إصابة بالغة . وكان العدو في اقترابه من الشواطئ المصرية يسير تحت مظلة من
الطائرات ، لم يعبأ بها قائد الزوارق حتى يتم مهمته ، وقد باشرت هذه الطائرات عملها
وهي موجات متتالية حتى أغرقت الزوارق .

وحاولت المدمرة المصابة أن تتجه إلى طبرق . ولكنها غرقت في الطريق وقذفت
الأمواج بجثث بعض قتلى هذه السفينة والأعلام والقنابل البريطانية . . . ومن عجب
أن الذين قتلوا من انفجار الطورييد ربطت جثثهم في قنابل عيار ١٢ بوصة حتى
تغوص في الماء . . . ولكنها لم تفعل ! !

وكانت حولة الطرادة الفرنسية ٧ آلاف طن ، وطاقتها مكون من ٦٠٠ فرد .
وكانت تحمل وحدات من الفدائيين البحريين .

الناصر والظافر . . وطارق

كانت المدمرات المصرية الثلاثة المذكورة ، قد كلفت بدورية حراسة خارج ميناء
الاسكندرية ، وذلك في أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ . وعند الخروج للهمة وصلت
طائرات العدو فوق الميناء ، وركزت هجوماً خطراً على السفن الثلاثة ، التي اشتبكت
معهما على الفور بمدفعيتها المضادة . وكانت قيادة البحرية تراقب العملية ، فأشارت
إلى السفن بالاقتراب من الشاطئ لتقع الطائرات في مدى المدفعية الساحلية .

ونفذ قواد السفن العملية في هدوء تام ، لم تفتن له الطائرات المهاجمة ، التي
عززت بأسراب جديدة ، بما مكن من إصابة أربع طائرات وإسقاطها الواحدة بعد
الأخرى ، ونجت سفتنا تحت ستار من الدخان الكثيف أطلقته .

وقد دهش لبراءة هذه المناورات ربابنة السفن الأجنبية في الميناء . وتصادف أن كانت سفينة أمريكية حربية قادمة لحل الرعايا الأمريكان ، وشاهد قائدها ما حدث ، فسجل بخط يده شهادة للبراءة المصرية الفائقة التي أدبرت بها المعركة من البر والبحر .

ومن عجب أن أهل الاسكندرية كانوا يتبعون هذه العمليات من السكورنيش ومن نوافذ وأسطح العمارات الماطلة على الميناء ، وقد استقبلوا المدمرات الثلاثة بعواصف من الهتاف والتهليل ، كما أطلقت السفن الراسية في الميناء صفارات الترحيب .

وكم ضحك هؤلاء جميعاً ، عندما سمعوا إذاعة قبرص البريطانية ، وإذاعة تل أبيب تعلن عن نجاح الغارة الجوية ، وغرق المدمرات المصرية ، وأدرك الجميع ، مدى دلالة ، وكذب إذاعات العدو .

”سمحنى“ و”مورهاوسن“

مذكرات سمحنى :

كان الهجوم الإنجليزى الفرنسى على مصر ، وكأنه انفجار وقع فى كل بيت على ظهر هذا الكوكب . . الناس كلها تتحدث . . الإذاعة تتناوله وكأنه الحرب العالمية أعلنت . . الصحف تحتشد بالعناوين الضخمة . . الشارع . . المتجر . . المدرسة . . المصنع . . المزرعة . . الغابة . . كل مكان يعيش فيه ناس متحذرون ، كانوا يتحدثون عن شيء واحد هو العدوان على مصر ؟ !

لماذا كل هذا الاهتمام ، مع أن معركة شديدة جرت فى المجر ، بين الشعب المجرى ، والقوات السوفياتية لم تترك هذا الاهتمام ، حتى أن متحدثين فى هيئة الأمم صاحوا : هل ما يسيل فى مصر دماء ، وما يسيل فى المجر ماء !!

وحدثت قبل حرب السويس حروب أخرى ، لها أهميتها ، مثل الحرب الكورية ، التى راح ضحيتها عشرات الألوف من الأرواح ومنهم أمريكيان كثيرون^(١) ، هذا فى الحقيقة سر إلهى ، أودعه الله فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ البشرية ، ولا شيء أكثر أو أقل . . ولكننا مع هذا نحاول التحليل :

أولا — مصر بحكم تاريخها الحضارى الطويل ، ومركزها الجغرافى فى وسط العالم ، وملتقى قاراته ، نقطة حساسة جداً بالنسبة للأسرة البشرية .

ثانياً — حصول مصر على استقلالها الكامل بعد جهاد طويل مرير استمر عشرات السنين ، وجلاء الإنجليز عنها فى يونيو سنة ١٩٥٦ ، ثم محاولتهم العودة فى صليل سلاح ضخيم ، وجلبية وضوضاء ، بعد أربعة أشهر فقط من جلائهم ، كل ذلك أفزع العالم ، وحرك ضميره ، وأظهر العدوان بصورة مزرية فادحة الدمامة .

(١) كان ضحايا الحرب الكورية ستون ألف أمريكى قبل محادثات الهدنة و ٨٠ ألف أمريكى أثناء محادثات الهدنة حسب تقدير مجلة تيم الأمريكية .

ثالثاً — كانت فترة الشهور الثلاثة ، بين تأميم القنال وابتداء العدوان ، فرصة ثمينة جداً أمام مصر ، لتظهر للعالم أجمع أن مصر قادرة على إدارة القنال حتى بعد سحب المرشدين الأجانب منها . . . وبهذا سقطت حجة أن القنال في خطر .

رابعاً — الطريقة السهلة التي أدارت بها مصر المعركة السياسية العالمية وقبولها المستمر للمفاوضة ، جعلها في مركز الرجل الواسع الأفق ، الواصل من حجته وموقفه ، الذي لا يريد شراً بأحد ، ولكن يريد تعايشاً سلمياً مع الجميع .

خامساً — وجود أتتوني إيدن على رأس الوزارة الإنجليزية ، ملأ الدنيا عطفاً على مصر وزعامتها . . فبعد الناصر في نظر الشعوب كلها رجل بسيط ، ظهر من أوساط الشعب ، ترك قصور الحكام الذين سبقوه ، وأقام في مسكن صغير . . رجل قام بثورة ، وحرص على أن تكون ثورة بيضاء . . أما خصمه في لندن فرجل متعال ، متعجرف ، يحاول أن ينفخ ناراً في رماد القرن التاسع عشر الاستعماري . . ومتى ؟ بعد مضي نصف القرن العشرين بست سنين ! وقد انتشرت كلمات السخرية بإيدن حتى في وسط حزبه ، وبين صحف المحافظين . . ومن ذلك :

— قال عنه نائب محافظ : على إيدن أن يثبت لنا أن له شارباً حقيقياً ؟

— وقال آخر : إن إيدن رجل من قش !

— وقال إيدن عن نفسه : أنا رجل يعيش على دواء البنزدرين !

سادساً — حول إيدن بلسانه ، وقصر نظره معركة السويس إلى معركة شخصية بينه وبين ناصر عند ما ذهب إلى الإذاعة وقال :

* « إن نزاعنا ليس مع مصر ، ولكن مع ناصر ، . . وقال أيضاً :

* « العالم لا يمكن أن يسعني ، ويسع ناصر ، .

ولا يوجد أي إنسان عاقل يقبل فكرة حرب تراق فيها قطرة دم واحدة لأن إيدن يكره ناصر !

سابعاً — عندما ظهرت هيئة الأمم ، ونشأت دول كثيرة مستقلة في العالم تستطيع أن ترفع صوتها ، ورأسها لم يكن الناس في كل مكان مستعدين لقبول فكرة الإمبراطوريات ، وإعادة بعثها ، أو المحافظة عليها ، بل لعل كثرة شعوب أفريقية

وآسيا وأمريكا ، كانت تنظر بارتياح بالغ إلى أن يظهر الأسد البريطاني سابقاً ، بغير أنياب على الإطلاق . .

ولهذا كانت حجة منهارة ، أن يكتب إيدن لايزنهاور :

« ستكون أبشع نهاية لتاريخنا الطويل ، أن نقبل على أنفسنا أن نهلك بالتدريج .

أو يقول ماكيلان لهربرت مورفي الأمريكي :

« إن قبول ماعمله ناصر ، سوف يحول إنجلترا إلى هولنده أخرى فما من أحد في أمريكا أو غيرها ، مستعد لأن ينظر إلى تاريخ إنجلترا الطويل ، أن يعطيها وزناً أكثر من هولندا .. فهذا أمر يعيش في بطون الكتب فقط .

هذه بعض عوامل جعلت مصر في مركز أقوى ، وساعدها على كسب الحرب النفسية . في كل مكان وفي داخل إنجلترا نفسها .

ولكن العامل الأقوى والأهم هو بسالة الدفاع المصري في كل المواقع التي حدث فيها اصطدام . ووقوف كل المواطنين المصريين صفاً واحداً مع قيادتهم وجيشهم في وجه العدوان . ولهذا ذكر إيدن عندما لم يتحقق شرطان كان يعول عليها كثيراً وهما :

١ — عدم قيام ثورة في الشعب المصري ضد ناصر .. هكذا قال في مذكراته بما دل على الخطأ الفادح الذي وقعت فيه مخبراته .

٢ — عدم تأثر الشعب المصري ، وعدم خوفه وانزعاجه من غارات الأيام الستة التي قامت بها حوالى ألف طائرة انجليزية وفرنسية ، مملوءة بالحقد والقنابل .

* * *

ولعل أول وثيقة تثبت حقيقة الحالة التي وجد العدو الإسرائيلي نفسه فيها مذكرات القائد سمحوني : وفيما يلي : ترجمتها عن العبرية .

— اللواء يتقدم إلى تمذ ونخل . اللواء (٢٠٢) يطلب طلب طائرات لنقل الجرحى .

— القوات معرضة لضرب شديد من الجو .

— نشاط العدو (مصر) مستمر طول اليوم ، ولم نستطيع نقل الجرحى .
وكتب سمحوني عن عمليات المجموعة ٣٨ التي تولت الهجوم على أبو عجيلة ما ترجمته عن العبرية :

— اللواء السابع المدرع يتقدم تجاه أبو عجيلة . وبعد احتلال أبو عجيلة سيكون هدفنا الحسنة .

— اللواء السابع المدرع جنوب عجيلة ...

ثم دون الملاحظات التالية :

- ١ — لم تكن هناك أوامر ثابتة للعمليات .
- ٢ — لم يكن هناك أى تنسيق من الرئيس الأعلى .
- ٣ — غرفة العمليات لم تكن تخدم الفروع المختلفة .
- ٤ — لم يكن القائد ، ولا أركان حربه في مقر القيادة في بعض الأوقات .
- ٥ — لم تكن هناك اتصالات مستمرة مع الوحدات . ولم تكن هناك تقارير من القواد الكبار .
- ٦ — الأوامر التي كانت تصدر من القائد ، ولكن فرع العمليات لم يكن يتولى تنسيق النشاط .

٧ — ضابط فرع العمليات لم يقم بإدارة فرع العمليات .

٨ — كل الضباط في فرع العمليات هجروا أعمالهم ، ولم تكن لهم مهمة إلا أنهم أصبحوا ضباط اتصال .

٩ — غرفة ضباط العمليات الحربية تأخرت في العمل . ويجب أن تكون ملاصقة لغرفة الحرب .

١٠ — لم تكن هناك فائدة حقيقة من فرع المخابرات .

١١ — جرت محاولة للسيطرة على الوحدات بواسطة جهاز لاسلكي .. نجح اتصال واحد ، ثم عطب الجهاز ولم يواصل الإرسال .

١٢ — . . . (لم يكتبها سمحوني ولكن كان في ذهنه شيء يقوله قبل أن يموت ، ولم يفعل) ملاحظة : لم يكن في الوحدات سجائر ولا ترفيه .

ولاجدال في أن موسى ديان وابن جوريون شعرا بالغبطة لمقتل القائد سمحوني ، لما تضمنته ملاحظاته من هجوم بالغ على إدارة الحرب . وإن كانا قد تمنيا لو لم تسقط هذه الوثيقة في يد مصر ، لتكشف عن عجز اليهود وارتباكهم وقدره جيشنا على سحقهم والوصول إلى تل أبيب على جثثهم ..

ويشبه هذه الحالة النفسية ، ما ورد بعد عشر سنوات في مذكرات الجنرال ستوكويل ، وهو يصف عنق الزجاجة الخفيف الممتد جنوب بورسعيد ، ويصف الحملة كلها بأنها مغامرة جلبت الكثير من الفشل والخيبة . وهو الرجل الذي كان هادئ البال في ألمانيا يقود أربع فرق ، ثم استدعى إلى عمل حربي ، ففكس رأس بلاده في الوحل .

بور سعيد الباسلة

يقابل هذا الارتباك ، وهذا التردد في مركز العدو ، المثل الذي ضربته بورسعيد الباسلة . . وكان المثل واضحاً أمام الشعب المصري ، وأهل بورسعيد بصفة خاصة .. لقد استطاعت ستالينجراد (فولجا جراد الآن) أن تقاوم الغزو الهتلري ١٦٨ يوماً ، حتى استنفد كل طاقته وارتد إلى خذلان ..

وقد شاهدت شخصياً المواقع التي دافع فيها أبطال المدينة الروسية ، وكان خروشوفي قائدهم السياسي في هذه المعركة ، وقد دامت المعركة من أغسطس سنة ١٩٤٢ إلى فبراير سنة ١٩٤٣ . وكان الجيش المهاجم بقيادة المارشال فون باولوس

مكوناً من ٢٠ فرقة — ربع مليون جندي ألماني — وعلى الرغم من أن العدو كان قد وضع قدمه في المدينة ، إلا أن حرب الشوارع أجلته عنها المرة بعد المرة . . . وكلمة الشوارع تعبير غير دقيق ، إذ أن مظم مباني المدينة هدمه ، وكذلك مصانعها . ومن الصواب أن نقول حرب الانقاض . . . وقد استطاع الروس بحركة بارعة أن يطوقوا جيش العدو . وعلى الرغم من أن أقدر قواد الألمان — جنرال فون مانشتين — حاول بجيوش متجددة إنقاذ الألمان المطوقين في ستالينجراد ، إلا أنه فشل . . . وكانت هذه فاتحة الهزيمة الهتيرية الكبرى ، التي جاءت في وقت مقارب لهزيمة العلبين . وقد رأينا بأنفسنا المكان الذي اعتقل فيه المارشال باولوس ، وشرح لنا أبطال الدفاع البواسل كيف استسلم باولوس مع كل جيشه !

وإذن فالدفاع من داخل المدن يمكن . . . وفي استطاعة الشجاعة ، مع التنظيم الدقيق ، أن تكبد العدو خسائر ضخمة ، وتحول عدوانه إلى هزيمة منكرة .

وهذا الاعتبار ، وضعه المصريون نصب أعينهم . وكنت تجد في المنصورة عشرات من الجماعات تدرس طرق الوصول إلى بور سعيد عبر بحيرة المنزلة وكانت ملابس الصيادين من أعز أدوات التنكر في ذلك الوقت . . . حتى سجناء الليانات أعربوا عن رغبتهم في أداء ضريبة الموت مع إخوانهم البواسل على مدخل القنال .

وقد احتفظت قيادة الجيش بطرق سرية يجتازها رجالها في ملابس مدنية ، ومعهم معدات الحرب ، التي تتطلبها معارك الشوارع ، غير ما هو موجود في بور سعيد أصلاً . . . وعلى الرغم من خلفة الفولاذ التي حاول الإنجليز أن يضربوها حول بور سعيد ، إلا أن جهودهم قصرت عن أن تحيط بهذا الشاطئ الطويل المليء بالأعشاب النامية ، والأوحال الكثيرة ، والذي يمتد عشرات الكيلومترات .

وبدأ أهل بور سعيد كفاحهم ، بأن أغلقوا متاجرهم ، ورفضوا التعامل نهائياً مع جنود العدو ، كما أبي العمال عروضاً مغرية جداً للعمل مع العدو — ولقد وصل الإغراء إلى حد عرض أربعة جنيهات عن ست ساعات من العمل . . . ولا فائدة . . .

واستولى العدو على ٤٠٠ مسكن في المدينة لإقامة قواته ، وطرد منها سكانها . كما اتخذت مدرسة الظاهر بشارع ٢٣ يوليو ومدرسة المعتمدية في شارع صفية زغلول لاعتقال رجال بور سعيد . . . وكان الفرنسيون يرحلون المصريين الذين يشتبهون فيهم إلى قبرص .

وحول العدو بمسجد العباسي في بور سعيد إلى مركز من مراكز قيادته . .
وفتحوا أبواب الجمارك ، وحملوا جميع البضائع والصناديق التي وجدوها في المخازن
إلى سفنهم .

وفي وسط هذه المظاهر ، كان الرصاص دائم الانطلاق ، والقنابل اليدوية
والآلغام لا تنفك تصطاد رجالهم ، وتدمر معداتهم . واضطر المعتدون إلى حظر
التجول من الساعة الخامسة مساءً إلى السادسة صباحاً . . ومع هذا واصلت
بور سعيد كفاحها .

ولابد من مثل نضربه لجو الحياة في هذه الأسابيع الحافلة بكل ما هو مثير .
وهذا المثل هو قصة الضابط الإنجليزي ، مور هاوس ، الذي كان مكلفاً مع جنوده
بإخماد أنفاس المقاومة ، وكان شديد الشراسة ، يطلق مسدسه لدى أول بادرة .
وقد لاحظ في مروره شاباً يركب دراجة ، فترك جنوده ، وأسرع وراءه إلى شارع
جانبي ، وأغواه باستمرار المطاردة ، أن الشاب وقع بجوار سيارة واقفة في الطريق .
فأسرع يحاول القبض عليه ، وما أن وصل إليه ، حتى قفز من السيارة عدد من رجال
المقاومة كموا فم الضابط وجردوه من سلاحه في لمح البصر ، وقذفوا به في السيارة
التي أسرعت بصيدها . . وفي عيادة طبيب ، كانت مقراً لإحدى قيادات المقاومة ،
وجدوا « أم علي » ، الحكيمة في انتظارهم ، ومعها صندوق من صناديق الموتى ،
وضعوا فيه مور هاوس بعد أن أوثقوه جيداً . . ونقل الصندوق بحمولته إلى منزل
الميكانيكي أحمد هلال .

وجن جنون الإنجليز لاختفاء هذا الضابط ، وبدأوا يشطون المنطقة التي اختفى
فيها على حد تعبيرهم . . وكان كل بيت يفتشونه يضعون عليه علامة X بالطباشير .
ولم تحتاج حماية بيت أحمد هلال من التفتيش لأكثر من وضع نفس العلامة
على بابه . . . إلا أن إخفاق الإنجليز في العثور عليه ، جعلهم يعاودون التفتيش
والغيط يملأ نفوسهم ، وأجلوا عن المنطقة كل سكانها . بما جعل رجال المقاومة يتركون
صيدهم ، وكان لهم معه برنامج ، وهو شراء حياة عدد من الأسرى من رجال المقاومة ،
مقابل هذا الضابط . . . وبعد أيام مات مور هاوس في مخبئه ، نتيجة عدم التمكن
من الوصول إلى مكانه .

ولقراية مور هاوس مع الاسرة المالكة في بريطانيا ، قامت ضجة كبيرة حول اختفائه ومصرعه ، مع أن عشرات من أمثاله لقوا مصيراً مثل مصيره . . .

أما د أم علي ، التي أشرنا إليها ، فهي حكيمة في عياده طبيب ، لجأ إليها بعض ضباط المقاومة أثناء حصار إحدى المناطق ، فألبستهم ملابس المرضى وأرقدتهم على أسرة المستشفى الملحق بالعيادة . ومنذ ذلك الوقت ، اتخذ هذا المكان مقراً لنشاط كبير :

وفي الوسع أن تمضي في سرد عشرات ومئات من قصص البطولة للشعب البور سعيدى ، ولقيادة المقاومة الشعبية ، ولكوكبة الصحفيين التي واجهت كل الأخطار ، وتسربت إلى بور سعيد تحمل إلى الوطن أروع أنباء الفداء . . . وكان يمكن أن نشر قائمة شرف لأسماء رجال المقاومة ، وقد عرفنا بعضهم ، ولكن عدم وجود بيان كامل بأسمائهم ، قد يبعث الضيق في نفوس من أغفلت أسماءهم . . . كما أن شهداء هذه المعركة الخالدة ، هم أحياء في ذاكرة هذا الوطن ، ولقد ذكرتنا رسالة الشاب الشهيد جواد حسنى ، التي كتبها بدمه على حائط السجن الذى عذبه فيه الفرنسيون حتى الموت . . . ذكرتنا هذه الرسالة ، برسالة عبد الحكيم الجراحى التي كتبها بدمه وهو يحتضر في ثورة الشباب ضد الإنجليز عام ١٩٣٦ . . . فكلا الرسالتين ، وكلا الشابين هم أمثلة لمشاعل المجد ، أخذت زيتها من عصارة الحياة لآلاف وآلاف من أبناء وبنات هذه الأمة .

وقد اعترف الجنرال ستوكويل بأن المقاومة السليبية في بور سعيد نجحت تماماً ، ولم تحصل قوات الإنجليز والفرنسيين على أية مساعدة من أية جهة من الجهات .

وفي تقرير الجنرال كتلى : « لقد قاتلنا ضد شعب جهز قواته المسلحة بأحدث الأسلحة والطائرات ، واستمات أفرادهم في الدفاع عن بور سعيد بإصرار وعناد وحنكة . »

وقال أيضاً هذا التقرير : « أن السلطات المصرية وزعت الأسلحة على المدنيين في بور سعيد ، قراحوا يستخدمونها بطريقة واسعة النطاق . وكانوا يلقون القنابل على السيارات العسكرية ، ويجهدون لإيقاع الدوريات في كائنات أثناء الليل ، وكان القتال الذى دار في شوارع بور سعيد معقداً : لأن الجنود المصريين نزعوا ملابسهم العسكرية ، واختلطوا مع المدنيين ، وكان كثير منهم مسلحين . »

سد القنال . .

ذكرنا من قبل أن الأوامر صدرت للوحدات المصرية المدرعة التي عبرت كوبرى الفردان ، فى طريقها لا إلى مواقع المعارك فى سيناء ، ولكن إلى قلب إسرائيل مباشرة . . هذه الأوامر صدرت بعودتها إلى غرب القنال بأسرع ما يمكن .

ودلت طائرات الاستطلاع قيادة العدو فى قبرص على ما يحدث ، وأدركت أن جيش مصر نجح من الفخ الذى نصب له ، فأصدرت أمراً لطائراتها بضرب الوحدات المدرعة العائدة ، ونشأ من شدة الضرب ، وتركيزه على كوبرى الفردان ، أن انهار هذا الكوبرى ، كما غرقت بعض سفن فى مداخل القنال نتيجة الضرب . . ثم ما لبثت السفن التى كانت بالآحاد ، أن أصبحت بالعشرات ، ومنها سفن كانت محملة بالأسمنت ، فأصبحت عقبة خراسنية فى مجرى القنال . .

وضرب الانجليز بأيديهم عن صدورهم هلعاً ورعباً . . فإن كثرة العوائق التى سدت مدخل القنال تحتاج إلى أسابيع وأسابيع لرفعها ، وإعادة المرور الطبيعى إلى مجرى الماء . . وإذن فسيوقف البترول عن المرور — هذا بفرض أن حالة الحرب فى المنطقة انتهت .

وزاد ذهول الانجليز من هذه النتائج التى لم يتوقعوها ، أن الجيش السورى نسف خط أنابيب البترول العراقى فى ثلاثة مواضع ، وأصبح من المستحيل الحصول على قطرة واحدة من هذا المورد .

الانجليز أشعلوا هذه الحرب بحجة تأمين المرور فى قنال السويس لبترولهم . وهؤلاء هم بحماقتهم تسببوا فى انقطاع البترول عنهم لوقت لا يعرف مداه . . واضطرت حكومتهم إلى أن توزع البترول بالبطاقات ، وكذلك عدة مواد تموينية ذكرتهم بأيام الحرب العالمية وما تلاها من ضيق شديد . وما زاد فى هلع العارفين ببواطن الأمور أن يخرجون كل من الانجليز والفرنسيين من البترول كان لا يكفيهم لأكثر من أسبوعين أو ثلاثة .

والغريب أن الذين حسبوا ضرب مصر بالطائرات ، وضرب بور سعيد واحتلال شاطئها ، سوف ينهى المعركة مع شعبها وحكومتها فى أيام ، هم جماعة من قصار النظر .

. إن السيارات بدأت تتوقف في مدن فرنسا وإنجلترا . . والقطارات عدلت مواعيدها ، ولم يسر في فرنسا إلا نصف القطارات التي تعود الناس عليها . .

لماذا كل هذا ؟ حماقة حقة من الرجال . . هذا هو رد الفعل الطبيعي الذي أحس به معظم أفراد الشعبين . . ومن ورائهم أوروبا الغربية كلها .

الموقف في إنجلترا

ومهما قيل عن صبر الشعب الانجليزي ، وقوة احتماله في الأزمات ، فإن الحرب التي دفعه إليها إيدن وعصابة السويس ، كانت من نوع جديد عليهم . . فلا هي بالحرب الصغيرة في مستعمرة من المستعمرات تكفي فيها قوة محدودة ، مثل ثورة قبرص . . ولا هي حرب كبيرة تحشد لها إنجلترا جنود الكومنولث وتحارب فيها إلى آخر جندي أمريكي كما حدث في الحرب العالمية الثانية . .

ثم إنها حرب غير مبررة ، وقد يتطأر منها شرار يشعل انفجاراً عالمياً لا يبق ولا يذر .

كل هذه العوامل حركت في داخل إنجلترا عناصر واعية ، واعطت حزب العمال فرصته الكبيرة ، لكي يضرب حلف حزب المحافظين ونزقه ضربة قاضية .

وقد تحرك الحزب ببطء في أول الأمر ثم اندفع في موقف شعبي ، وكان أنورين بيفان ، صاحب الصوت العالي . . وهو الرجل صاحب المبادئ الذي ألف كتاب « بديل من الخوف » ، ينادي بنزع أسباب الخوف التي تسيطر على البشرية . .

وفي البرلمان ، وفي المظاهرات التي حضرها عشرات الآلاف تجلى هذا الرأي المستنكر ، وتحدث الخطباء ، ورآها إيدن في ذهابه وإيابه ، ووقفت زوجة كلاريسا في ميدان الطرف الأغر عندما خطب فيه بيفان خطبة مدوية قوبلت بأعظم مظاهر الحماسة .

« كتب برتراند راسل ، أكبر فلاسفة إنجلترا في العصر الحاضر : « إن العمل الإجرامي والاجراء الجنوني اللذين أقدمت عليهما حكومة بريطانيا وفرنسا ضد مصر ، يشعراني بشديد الخجل نحو وطني ، . . »

نشد وقالت مجلة الايكونوميست المستقلة (بريطانية) : أن الطريقة التي عولجت بها هذه الأزمة تدل على مزيج غريب من الاجرام والهستيريا .

— وقالت الأوبزرفر (بريطانية) : من المهم أن يعرف العالم أن وزارة إيدن لا تتمتع بتأييد الشعب ، ونحن إن لم نتمكن من توضيح ذلك على الملأ ، فسوف نتهم كلنا بالجنون وعدم المسؤولية كما تتهم حكومتنا الحالية .

— وقالت الديلي ميل المحافظة (بريطانية) : لقد تصرفنا من تلقاء أنفسنا دون الحصول على تأييد رسمي سوى حماية مصالحنا ، ودون توضيح الأسباب الدالة على صحته .

— وقالت الديلي ميرور اليومية المعارضة (بريطانية) : هذه حرب أعلنها إيدن وحده .

— وقالت المانشستر جارديان المستقلة (بريطانية) : أن قرار انجلترا وفرنسا ضد مصر ، كان عملاً جنونياً ، مبنيًا على التهور والاندفاع ، دون الاستناد إلى أي مبرر . ونحن لا نستطيع التنبؤ بطبيعة الانفجارات التي قد تقع .

— أما جريدة التيمز البريطانية ، فعلى الرغم من أنها كانت في صف معاد لمصر ، إلا أنها عندما تبينت هزيمة إيدن السياسية استدارت له وقالت . أن التهور يكلف كثيراً ، ويجب أن تتوقع تماماً ما سوف يحدث من الآن . . أن المجازفات الواضحة في الطريقة ، والوقت التي اتخذها الانجليز والفرنسيون في تنفيذ أعمالها العدوانية ، أمران لا يمكن تجاهلهما .

وقالت في أول نوفمبر أن القائد الأعلى للجيش المتحالفة على حافة الهاوية

وعند النزول في بور سعيد ، ووصول أنباء المقاومة المصرية الباسلة . قالت الجريدة : على الحكومة أن تبرهن أن القوات الانجليزية والفرنسية تستطيع السيطرة بسرعة على مجرى القتال . . وما زالت تساورنا الشكوك الآن في أن تصرفاتنا كانت سليمة وعند ما استقال إيدن ودعته التميز بقولها التهور يكلف كثيراً جداً .

• أما الكاتب البريطاني ادموند إيرل فقال : أن انجلترا باعت عرضها .

— وقارن الزعيم العالى ينورين ييفان فى مناقشة مجلس العموم يوم ١٩ ديسمبر موقوف حكومة المحافظين فى بدء العدوان ، وفى انهزامه قائلاً : كانوا يعتقدون أنهم وصلوا إلى قمة مجدهم . ويقولون الآن أن انجلترا أصبحت أمة من الدرجة الثانية ، وقد أظهرنا للعالم بسبب إخفاق تصرفنا فى مصر ، وأن الشعلة قد أفلتت من أيدينا ، وانتقلت إلى دولة أخرى ، ويجب علينا الآن أن نعد أنفسنا أمة من الدرجة الثانية ، وأن نلتمس لأنفسنا ملجأ وراء حائط يفوق حائطنا الخاص فى الارتفاع (يقصد الولايات المتحدة) . . . ويبدى ييفان اعتراضه على هذا الرأى ويقول : أن تصفية الامبراطورية البريطانية لا يعقبه قيام امبراطورية أخرى ، . . . إذ لا توجد الآن دول عظيمة ، ولكن توجد دول منهارة . . . واستطرد قائلاً . أننا لاشك نستعمل لغة غير صحيحة لا تتفق وطبيعة العصر ، وهناك وسائل جديدة لتحقيق العظمة ، عن طريق إشعاعات حديثة للفكر ، والعمل على إلهام الناس وإنارة عقول البشر ، ولا يمكن أن نتوقع فى المستقبل أملاً أعرض إلا إذا اتعظنا بعبرة السويس وعواقبها الآلية (١) .

وفى مجال دراسة العقلية البريطانية أثناء الغزو ، نشير إلى النقد اللاذع الذى وجه إلى تكوين العملية نفسها ، فإن طول المسافات بين قواعد التموين والإمداد ، ومكان المعارك كان أمراً بالغ الخطورة . .

كانت السفن التى قامت من مألظة مجموعة ضخمة مكونة من مائة سفينة تحمل الرجال والعتا ، وكان علينا أن نلتقى فى مكان ووقت متفق عليهما بالسفن القادمة من قبرص .

وعند ما علم تشرشل بهذه التفاصيل ، قال منتقداً رئيس وزراء حزبه . ووزارة حربه : لن أركب البحر مدة خمسة أيام ، إذا كانت معدتى مضطربة ١١

(١) جمع هذه المقتطفات المؤلفان ميكائيل فوت ومرفين جونس فى كتاب (الآثمون) لعام ١٩٥٧ ترجمة محمد عطا .

واضطراب المعدة هذا لم يكن من نصيب الجنود وحدهم ولكن من نصيب إيدن وجهازه الحربي والسياسي كله . . . ولعل أبلغ مثل على هذا الاضطراب ، الحوار الذي دار بعد إحدى جلسات مجلس الوزراء البريطاني في أواخر أكتوبر سنة ١٩٥٦ فقد وجه السير ديفيد إيكلز وزير التعليم الحديث لإيدن قائلاً :

— كان يجب أن نأخذ وقتاً للتفكير ، فرد عليه إيدن في صلف .

— أنك لم تخدم ، أنت وبعض زملائك في وزارة حرب .

وسمع الحوار وزير العدل والخدمات المدنية — واسمه ريان ماكلويد فعلق قائلاً :

— لم نكن نعلم أننا في حرب . .

فأشاح إيدن بوجهه عنه !!

ولم تكن معارضة عملية السويس في داخل الجهاز الحكومي البريطاني ، قاصرة على بعض الوزراء الذي ذكرنا استقالاتهم ، فقد قال عنها توماس المؤرخ الانجليزي لهذه الحرب :

« في بريطانيا أيضاً صادفت عملية موسكتير معارضة متزايدة خلال نهاية ذلك الأسبوع ، ففي يوم ٤ نوفمبر أعلنت استقالة ناتنج . ونظم . ٤ نائباً محافظاً حركة احتجاج بزعماء اليكسي سبيرمان وولتر اليوت وهيلد المدعى العام السابق . ويبدو أن هؤلاء المحتجين أكرهوا على الامتناع من تقديم مذكرة يضمونها سحب تأييدهم للحكومة ، وذلك استناداً إلى تعهد من هيث زعيم المعارضة ذي الابتسامة الدائمة (هكذا وصفه إيدن) بأن ينتهي القتال في خلال بضعة أيام ، وكان هفلتون فوستر قد كتب خطاب استقالة ولكنه لم يرسله وفي وزارة الخارجية البريطانية وقع عدد من وكلاء الوزارة وثيقة تنطوي على نقد للعمليات ، ووقع فيتز موريس ، المستشار القانوني لوزارة الخارجية مذكرة انتقد فيها الأساس القانوني للعمل المقترح القيام به ، ولقد أثار العداء الواضح الذي أظهرته محطة الاذاعة البريطانية (بي . بي . سي) لعملية السويس كلها مسألة العلاقات التي تربط الحكومة بوسائل الاعلام بصورة خطيرة : فلقد حاول الاقطاب المحافظون منع جيتسكيل من الرد على حديث لإيدن أذيع يوم ٤ نوفمبر ، وأوقدت وزارة الخارجية أحد مستشاريها إلى دار الإذاعة ليتأكد من أن محتويات النشرات الاخبارية متفقة مع سياسة الحكومة .

بل حدث ما هو أكثر من هذا فإن تعليمات صدرت بعدم توزيع محاضر الاجتماعات الخاصة بعملية السويس ، على عدد كبير من موظفي وزارة الخارجية البريطانية ، ومثل هذا حدث في فرنسا أيضاً ، حتى أن جريدة الأوبزرفر البريطانية قالت إن هؤلاء المسؤولين الكبار (ومنهم وزراء) ذهلوا لحذف أسمائهم من قوائم توزيع المحاضر والمذكرات السرية .

وكانت هذه الحالة سبباً في ثورة نفسية عارمة داخل الأجهزة الرسمية للحكومتين المعتديتين .

إلا أن الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية ، الذى يمثل فكرة السياسة المستمرة رغم تغير الوزارات ، وهو السير إيفون كير كباتريك ، فكان فى وسعه ، كما روى سفير كندا فى لندن — نورمان روبرتسون — أن يقيم عبدالناصر تقييماً دقيقاً من وجهة نظره ، وأن يتبين ما يمثله من خطر على عالم الشرق الأوسط بأسره .

وقد شرح كير كباتريك للسفير هذا الخطر بقوله : إن المعلومات السرية المتوافرة لدى مخابرات وزارة الخارجية ، تشير إلى أن عبد الناصر قد شرع فى العمل على الإطاحة ببعض أنظمة الحكم فى البلاد العربية ، كالعربية السعودية ، وليبيا ، وسوريا والعراق ، عن طريق ثورات يقوم بها الضباط الأحرار فى تلك البلاد . وقال إن المخطط الذى وضعه يقضى بحدوث الثورة فى العراق فى غضون أربع سنوات .

وطبعاً لم تصح مواقيت ولا معلومات هذا السياسى الاستعمارى العتيد ، فإن ثورة قامت فى العراق فعلاً ، ولكن بعد عامين لا أربعة أعوام من أحداث السويس . . . وليس ذلك لأن عبد الناصر خطط ونظم ، ولكن لأن الشعب العراقى أحس بوجوب التغيير ، فاندفعت طلائعه الثورية فى الجيش للعمل . . .

ولا يسعنا إلا أن نقر وزارة الخارجية البريطانية ، على أن أفكار عبد الناصر ، خطيرة فعلاً ، لا على الشرق الأوسط وحده ، ولكن على أفريقية وآسيا ، وأمريكا اللاتينية ، فهى تمثل التحرك ضد الاستعمار أينما كان . . . والشعوب كائنات حية ، تحس بجوعها للحرية إذا ضاعت منها ، دون حاجة لمن ينهبها إلى جوعها وإن كانت أحياناً فى حاجة إلى من ينهبها إلى كيف تحصل على ما هو حق لها .

ويعا يرويه المؤرخ الإنجليزى هيو توماس ، أن هارولد ماكيلان وزير المالية ، قال لزوج ابنته امرى ، أن ليدن سوف يفقد مقعده بعد أسابيع قليلة من هذه الحرب .

ونحن نعلم أن ماكيلان كان متحمساً للعدوان ، ولكن يبدو أن الحماسه هدفاً خاصاً وهو إسقاط رئيس وزرائه ، بعد أن يتورط في حرب خائبة غير مضمونة النتائج ، فتتاح له فرصة الوثوب إلى مقعد الرئاسة ... وهو ما حدث فعلاً .

وروى نفس المصدر — ه . توماس — أن ماكيلان كان يقول أن نسبة النجاح العسكري لهذه الحملة تزيد قليلاً عن ٥٠ ٪ . ومع هذا لم يعرف أنه صرح القواد ورئيس الوزراء بهذا الرأي . . وهو يحمل كل عناصر الشك في الحملة . . فإن المتجه إلى المعركة لا بد وأن يضمن نتائجها ١٠٠ ٪ ، لسبب بسيط ، وهو أنه يخاطر بأرواح بشر ، ولكن السياسة كانت وما تزال لعبة مفضلة عند الإنجليز على الآدميين وحياتهم .

وقد وصف ماكيلان بحق ، بأنه صاحب شخصية زئبقية ، وعل الرئيس جمال عبد الناصر تذكر هذا كله ، عند ما تقدم له في قاعة هيئة الأمم بنيويورك ، إنجليزى طويل القامة ، يعلو رأسه شعر أشيب متطاير ، وتعلو شفتيه ابتسامة مهذبة ، وانحنى قائلاً :

— سيدى . . أنا هارولد ماكيلان !

فتبسم عبد الناصر وقال :

— . . . تشرفنا .

وربما كان من الآراء في سياسة الإنجليز ، التى تبعث على الابتسام ما قاله عنهم موسى ديان القائد اليهودى ، الذى رأى الإنجليز يوقعون أمامه على معاهدة سيفر متضمنة تنظيم عملية الاعتداء على مصر . . .

فقد دعر الملك حسين من الهجوم اليهودى على حدوده ، قبيل العدوان ، فأبرق إلى الجنرال كيتلى مباشرة ، فى مقر قيادته بقبرص ، طالباً نجدة من الطائرات البريطانية .

وعلم اليهود أن طائرات الإنجليز تستعد لنجدة حسين فصاح موسى ديان :

لا يوجد أحد من دون الرب نفسه ، يعقد المسائل على النحو الذى يجرى الآن ، غير الإنجليز أنفسهم .

والرب في مفهوم اليهود ، يعقد المسائل ، ومن بعده الإنجليز . . ولكنه ليس كذلك في مفهوم بقية البشر !

والواقع أنه ليس هناك أحد أبرع من الإنجليز في النفاق ، وتسمية الأشياء بغير أسمائها . . ففي ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٦ وقفتْ أُنحد زعماء حزب المحافظين يدعون إلى تأييد إيدن . ووصفوا حربهم المقبلة ضد مصر كما يلي : نحن لا يمكن أن نتخنى أمام القومية التي تقادم عهدها (أما الاستعمار فلم يتقادم عهده !!) ، وعلى المحافظين أن يتبعوا إيدن الشجاع ، من أجل الحرية والتقدم وسيادة القانون وكل هذه الأوصاف كانت تطلق على حربهم المنتظرة ضد مصر .

ومن غرائب المفارقات البريطانية ، أن أسطول الغزو الذي تحرك من مالطة ، وجد في طريقه بوارج الأسطول السادس الأمريكي ، وكانت إحدى سفنه مكلفة بحمل الرعايا الأمريكيان من الإسكندرية على نحو ما ذكرناه من قبل . .

وكانت السفن البريطانية مطفئة أنوارها ، وبعث قائدها الأميرال وركفورسارتر ، بأشارة للسفن الأمريكية بأن يتبعد عن طريقه ، فلم يعبأ به القائد الأمريكي ، فإكان من القائد الإنجليزي إلا أن أمر سفنه المائة بأن تضيء أنوارها ، وتمنى أن تجيء الطائرات المصرية في هذا الوقت وتلقى قذاتها فتصيب — أيضاً — الأسطول السادس ، وبذا تدخل الولايات المتحدة الحرب ضد مصر :

ولم يعرف بعد رأى المارشال بارنيت قائد الطيران الإنجليزي في هذه العملية ، وهل كان سيتصدى للطائرات المصرية ، أم يتركها تؤدي دورها في هدوء ، اتماماً للبنائرية ، أو المؤامرة . . .

المهم أن الطائرات المصرية كانت مشغولة بأعباء أخرى ، ولم تظهر في هذا الوقت .

وكل ما حدث أن قائد الأسطول السادس الأمريكي أبرق لحكومته في واشنطن يسأل :

في أي جانب أنا ١١٩

وحتى الآن لم يتلق رداً على برقيته !

وكان موقف تشرشل ، بوصفه أكبر زعماء انجلترا الأحياء موقفاً متناقضاً . . ولا جدال في أنه شجع العدوان في أول الأمر ، وكان يزوره قواد الحملة ، وكبار السياسيين . ولم يبد منه اعتراض ، إلا على أن يبدأ النزول في الاسكندرية لا بورسعيد .

فلما أخفقت الحملة ، تنكر لكل الذي حدث ، ولاعجب في ذلك ، فالخذلان يقيم الأبوين . . في حين أن النجاح تجدد له الكثير يتمنون أن يكونوا أباءه وأمهاته أيضاً .

قال تشرشل عندما علم بقرار إيقاف القتال .

— « رباه لو أنني كنت في مكانه (أي مكان إيدن) لما واثقتي الشجاعة لكي أبدأ المغامرة التي بدأها في السويس ... ولما واثقتي الشجاعة لكي أتوقف في منتصف الطريق كما توقف إيدن بعد انهياره أمام الكارثة ! » .

وكتب تشرشل لجي موليه رئيس وزراء فرنسا يقول : لو كان الأمر في يدي ، لتابعت . ولمضيت قدماً .

وقد حاول الكاتب الصهيوني ، ميشيل زوهار ، أن يجعل انجلترا مسؤولة قبل فرنسا عن اشتراك إسرائيل في العدوان على مصر . . قال :

« تردد اسم إسرائيل في لندن قبل أن يقرر الفرنسيون اشتراكها معهم بأسابيع طويلة . ففي خلال الجو الحاقق ، المشحون بالتوتر ، وبدخان السجائر الذي يتصاعد في اجتماعات كبار الضباط من هيئة أركان الحرب الإنجليزية والفرنسية ، كان بعض

القواد يفكرون في مشكلة عويصة ، وهي عدم وجود قواعد كافية قريبة من مصر يشنون منها هجومهم المرتقب . وقال قائد فرنسي بصراحة :

— لماذا لا تكون هذه القواعد في إسرائيل ؟

وبعد أيام قليلة أثار هذا القائد سؤاله مرة أخرى أمام رؤسائه . وكم كانت دهشته عندما طلبوا منه أن يلزم الصمت . وقد اتهمه البريطانيون فيما بعد ، بأنه كان يلعب لعبة مكشوفة . وقالوا له معاتبين :

— أنك تعرف منذ البداية أن الإسرائيليين مشتركون في العملية . . .

وإذا صحت هذه الرواية ، فإن وقتها كان قبل معاهدة سيفر بأسابيع ، عندما بدأ العسكريون الإنجليز والفرنسيون ، يجتمعون في مخبأ القيادة العليا الذي أرادت منه الحرب العالمية الثانية ، وكان موقعه تحت مياه نهر التيمز . . . وكانت خرائط النزول في نورماندى أمامهم .. وقد استعانوا بنفس خطط أيزنهاور في تحطيم حصون حائط الاطلنطى التى أقامتها ألمانيا شمال فرنسا .

وقد وصف هذا الكاتب الصهيونى إيدن بقوله . كانت الحكومة البريطانية تواجه ضغطاً شديداً من الأمم المتحدة ، والولايات المتحدة ، ومن دول الكومنولث وقد هزت هذه العوامل شخصية ضعيفة ، مريضة معدومة الإرادة ، غنية ، ولكنها مفتقرة إلى الهبة وقوة النفوذ ، هي شخصية أنطونى إيدن . . .

ولو لم يكن هذا الكاتب من هو ، لجعل فى مقدمة العوامل الضاغطة على إيدن حتى انهارت المقاومة المصرية والصلابة التى لا تنتهى ولا تقتضى ، والتهديد الخفيف الذى وجهه الاتحاد السوفياتى ، حتى خيم على العالم شبح الحرب الذرية .

دور الولايات المتحدة

عرضنا فى مناسبات سابقة إلى دور الولايات المتحدة فى حرب السويس . وذكرنا الأدلة التى عرفت بعد العدوان ، والاعترافات الصريحة من الفرنسيين ،

بأن الأجهزة العسكرية والمخابرات والأجهزة الدبلوماسية الأمريكية كانت على علم تام بكل التفاصيل من انقراض الأول . والدليل المسمى — أقوى دليل — على المساهمة في تسليح الحملة ، وقد ذكر الفرنسيون عدد المواد الحربية التي قدمت ، وكان من أهمها المدافع المضادة للدبابات ، وأجهزة الأوكسجين السائل للتفاثات ومن غيرها لا تظير طائراتهم . . .

وقد أجمعت المصادر المطلعة ، على أن هيئة أركان الحرب الأمريكية بحلف الأطلنطى ، ساعدت الفرنسيين ، إذ أمدتهم قاعدة « شاتورو » الأمريكية بقطع الغيار اللازمة لهم ، وأكملت باقى ما طلبوا من الولايات المتحدة . وسلم الأمريكان ثلاثة أسراب من الطائرات الأمريكية ، من طراز « ف - ٨٦ » ، لقيادة العدوان فى قبرص ، وكان عليها شارات حلف الأطلنطى . وقد احتاجت هذه الأسراب لخزانات إضافية للبنزين . فطلبت القيادة الأمريكية هذه الخزانات من قواعدها فى ألمانيا واكملت العدد الباقى من الولايات المتحدة ، الذى نقلته طائرات النقل العسكرية الأمريكية .

وحدث ليلة العدوان الإسرائيلى على سينا ، أن كان الملاحق العسكرى الأمريكى فى مطار اللد يشرف على ترحيل الأسرا الأمريكية حسب تعليمات حكومته . وكان المطار غاصاً بالطائرات الفرنسية ، التى يضع عليها اليهود شاراتهم . . . وقد وقد التقط الملاحق العسكرى — وكان برتبة الكولونيل العديد من الصور للطائرات الجائئة فى المطار ، ولم يعترضه أحد ، وأرسل طبعاً صورة إلى قيادته . . . وبدأ كأنه لم يضيف جديداً إلى معلومات رؤسائه .

ولعل ما نقل عن سفير الهند فى القاهرة فى كتاب أزمة السويس^(١) يعبر عن رأى الرئيس عبد الناصر أصدق تعبير . فقد قال الرئيس للسفير :

« لانتى لأوثر موقف العداء الصريح الذى تقفه الحكومتان البريطانية والفرنسية

(١) ص ١٦٧ من كتاب (أزمة السويس) .

لأننى أفهمه ، على موقف الأمريكيين الذين يحتدون حيناً ، ويهدأون حيناً آخر . مما
يؤدى إلى المزيد من تعقد الموقف .

وقد كتب أيزنهاور رداً على رسالة من رسائل إيدن له ، هذا نصها :

« عزيزى أنطونى

عندما أجد نفسى على خلاف ، ولو بسيط ، معك ، حول أية
مشكلة دولية فاتى أشعر من أعماق نفسى بما يرغبنى على إعادة النظر فى
موقفى بسرعة وبدقة . ولكن اسمح لى أن أقول بأنك عندما تستخدم
عبارات تتعلق بعملية السويس مثل (أبشع نهاية لتاريخنا الطويل)
فإنك تغالى . أننا نواجه مشكلة خطيرة تتعلق بمغامرة ناصر الطائشة
الخاصة بقناة السويس وأنتى لا أختلف معك فى تقديرى لنواياه
وأغراضه . النقطة التى لا يبدو أننا لا نتفق فيها هى التأثيرات المحتملة
فى العالم العربى لردود الفعل المتنوعة الممكنة من جانب العالم العربى .
ويبدو أنك تعتقد أن أى جدل طويل لابد أنه سيجعل من عبد الناصر
بطلاً عربياً . . وهذه ، فيما أعتقد ، صورة قائمة للغاية . . وأعتقد
أننا يمكن أن نتوقع أن يلتفت العرب بحزم لتأييد عبد الناصر (إذا)
كان هناك لجوء إلى استخدام القوة بدون اكتشاف دقيق واستفاد
لسكل وسائل سلمية ممكنة لنسوية المشكلة . أن عبد الناصر ينجح فى
هذه الدراما . . فإذا تركنا جزء من هذه الدراما يفلت من الموقف
وقفنا بالتركيز على أن نجعله « ينكش » من خلال عمليات أكثر
بطشاً ولكنها أكثر ثباتاً (مثل الضغوط الاقتصادية ، المنافسين
العرب . أنابيب بترول جديدة إلى تركيا مزيد من البترول من فنزويلا
إلى أوروبا) . .

أؤكد لك أننا لا نجهل حقيقة أنه قد لا يكون هناك مفر
فى نهاية الأمر من استخدام القوة . . أما اللجوء إلى العمل العسكرى
فى الوقت الذى يؤمن فيه العالم بأن هناك وسائل أخرى ممكنة . .

فإنه سيحرك قوى قد تؤدي إلى أواخر النتائج . . مع أحر التحيات . .
صديقك على الدوام . .
« أيزنهاور »

وقد علق إيدن بسخط على هذه الرسالة قائلاً إن دلاس هو كاتبها . : وأضاف
أن : « الشيء الوحيد الذي ينتمى إلى (أيك) في هذه الرسالة هو توقيعها الذي يمكن
قراءته بصعوبة ١١ » .

ولا يهم كثيراً إذا كانت هذه الرسالة تعبر عن رأى دلاس وحده ، أو
رأيه مع رئيس جمهوريته أيزنهاور ، فإن علاقات الولايات المتحدة مع
مصر ، منذ عقد صفقة الأسلحة الروسية ، كانت غير مستقرة على حال ،
ويمكن أن نقول إن طابعها من جانب مصر عدم الثقة . . وطابعها من جانب
الولايات المتحدة ، محاولة الضغط بكل ثقل الدبلوماسية والمناورة السياسية . . ولم
تكن مصر وحدها هدف هذه السياسة ، ولكن دول عدم الانحياز . التي أثبتت
وجودها في باندونج ، كانت الهدف .

ويكفي دليلاً على ما نغنيه ، أن نذكر ما نقل عن دالاس في مذكراته غير
المنشورة ، أنه اختار يوم ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ ، موعداً لإعلان انسحاب بلاده من
عملية تمويل السد العالي ، وتوجيه الكلمات اللاذعة لمصر بهذه المناسبة . . وذلك
لأن هذا اليوم ، كان نفس الموعد الذي صدرت فيه قرارات مؤتمر بريوني الذي
اشترك فيه ناصر ونهرو وتيتو . . وذلك « لكي يتقلص حجم هؤلاء الذين يتشدقون
بالكلام عن عدم الانحياز ، ١١ »

ولم يكن دالاس يهتم بمفاوضات كانت تدور سرّاً بين الأطراف المعنية ، لكي
تحصل مصر في ذلك الوقت على نصف دخل القناة ، بوصفها جهازاً ينقل البترول ،
الذي تحصل دولة على نصف الدخل . .

وكان الرئيس جمال عبد الناصر يزن هذه الفكرة ، ويقبلها على وجوها ، حين
فاجأته بيانات واشنطن ولندن والبنك الدولي عن السد العالي ومالية مصر . وعندها
تبين له ألا فائدة من هذا البحث ، إزاء هذه الموجة من العداء ، لأن الجهد الذي
سيبذل في الحصول على النصف ، هو نفس الجهد الذي سيبذل في الحصول على الكل . .

ولكننا مع هذا لا نستطيع أن نتكرر على أيّتهاور رغبته الملحة في منع الحرب ،
التي كابد أهوالها من قبل . . . وقد جعل موقفه أكثر صراحة وصراحة ، أنه داخل في
معركة انتخابات الرئاسة ، وما أن وصلتته أبناء العدوان على مصر ، وأن القنابل تلقى
على القاهرة والاسكندرية والقنال حتى صاح :

— قنابل . . . لماذا فعل بي أنطوني ذلك ؟

ثم أمر بإيقاف الحملة الانتخابية ، التي كان يطوف فيها خطيباً في أكثر من مكان .
واكتفى أنصاره ، بأن وصفوه بأسلوب عملي ، لا كلامي بأنه رجل السلام . . . وأنه
صادق كل الصدق في هذا الاتجاه . وله في هذا سابقة . إذ أنه هو الذي أنهى
الحرب الكورية . . .

وكان السيناتور وليام نولاند ، وهو عضو بارز في لجنة العلاقات الخارجية ، في
مجلس الشيوخ الأمريكي ، هو الذي بادر وزير الخارجية بقوله :

— اسمع يا فوستر . . عليك ألا تقحمنا في حرب أخرى من هذه الحروب
الأوربية . ولو فعلت ذلك ، فسوف يسلم الكونجرس جلدك !

* * *

وهناك سؤال كان حائراً ، ولكنه استقر الآن على جواب . . . وهو :
— أي قدر من المعلومات كان لدى الولايات المتحدة عن استعدادات إسرائيل
بمعونة الأسلحة الفرنسية — للهجوم على سينا ؟

لقد ظهر أخيراً ، أن المخابرات الأمريكية ، كانت تلتقط سيل الإشارات
اللاسلكية المتبادلة بين إسرائيل وباريس ، من بعد تأميم القنال حتى بداية العدوان . .
وتملك المخابرات الأمريكية مفتاح الشفرة الإسرائيلية . . ورئيس المخابرات الأمريكية
هو أخو وزير الخارجية ، فوستر . . وآلن ، كلاهما أبناء دلاس . . وفي هذه
البرقيات أيضاً ما يقطع بأن إنجلترا كانت عضواً في المؤامرة .

ومن هذه المجموعة برقية بتاريخ ١٦ أكتوبر موجهة من الفرنسيين لبن نجوريون ،
يقولون له فيها : « تستطيع أن تعتمد اعتماداً تاماً على الانجليز ، وهي واضحة الدلالة

على طبيعة، ومهمة الحلف الدنس . . حلف العدوان الثلاثي . . وقد التقط الأمريكان هذه الرسالة ، وفكوا رموزها ، وكانت تحت أنظارهم من هذا التاريخ .

أما إلى أين وقفت المعلومات في مسائل الحكومة الأمريكية ، فقد أصبح مقطوعاً به أنها وقفت في البنتاجون مقر وزارة الحربية ، الـ C.I.A. أو جهاز المخابرات ووزارة الخارجية . . ولكنها لم تدخل البيت الأبيض . فإن تصريحات أيزنهاور وانفعالاته الكبرى ضد العدوان ، لم تكن تمثيلاً ، ولكنها كانت تدل على واقع في داخل نفسه .

وفي الوقت الحاضر أفرج عن هذه الوثائق ، ولم تعد بدسراً محجوباً .
وفي التحليل الصهيوني لهذه الحرب أن القواد الانجليز كانوا على أتم اتصال بالقواد الأمريكان — بالمعلومات طبعاً — حتى أن الجنرال تمبلر رئيس هيئة أركان حرب القوات الامبراطورية في وزارة الحرب البريطانية يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ ، صرح بأنه : « ليست هناك أية مشكلة . . ان الولايات المتحدة معنا ، وكان كلامه هذا موجهاً لكل من الجنرال جازان الفرنسي والجنرال كيتلي الانجليزى .

* * *

وإذا كان أيزنهاور قد اعتمد على دلاس في التعبير عن رأيه ، فقد مرض دلاس ودخل المستشفى . وبرزت على الفور شخصية كابوت لودج رئيس وفد الولايات المتحدة في هيئة الأمم . فقد كان واضحاً ، وصريحاً ، وقاطعاً . حتى أن دول العدوان انزعجت منه . . وبلغ من وضوحه أنه وزملاءه تفادوا حتى تحية تمثلي انجلترا وفرنسا في أروقة مبنى الأمانة العامة .

موقف الهند

الهند إحدى دول الكومنولث البريطانى ، وأكبر دولة . . وكان ينبغي ، لى يسير إيدن حملة كبرى إلى مصر ، أن يستشير الهند وغيرها من هذه المجموعة . ولكن إيدن كان يعلم سلفاً ، أن جميع الأعضاء الأفريقيين والآسيويين لن يوافقوه حتى كندا ، وهى من هذه المجموعة ، كانت تعارضه صراحة . ولم يبق معه إلا استراليا ونيوزيلنده كما ذكرنا . . ولهذا لم يعبأ إيدن بالكومنولث ، كما كان يقضى عليه واجبه أن يفعل .

وكان رأى نهرو واضحاً ، فهو قطب عظيم فى دول عدم الإنحياز . وكان مع عبد الناصر يوم ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ عندما أعلن دلاس امتناعه عن تمويل السد العالى ، وقد قال معلقاً : يا لهؤلاء القوم ورعوتهم ..

فلما حدث التأميم ، ساور الانجليز شك مريب فى أن نهرو كان يعلم سلفاً بما يحدث ، ولهذا عدوه خصماً لموقفهم ، وقد لجأ نهرو إلى أكثر من أسلوب ، لمحاولة الخروج بالعالم من أكبر أزماته بعد الحرب العالمية الثانية . . فقد كتب لأيزنهاور ، زعيم المعسكر الغربى كله يناشده أن يتخذ موقفاً واضحاً يردع دعاة الحرب ، فرد عليه أيزنهاور فى رسالة رسمية يقول :

أؤكد لك شخصياً ، أن حكومة الولايات المتحدة ، لا تعترم استعمال القوة فى موضوع قتال السويس . فقد استبعدنا استعمالها منذ البداية (١) . .

وصدر تحذير رسمى من وزارة الخارجية الهندية يقول : أن بريطانيا إذا حاولت أن تخسر مركزها الأدبى العظيم فى العالم ، فستجد الهند من العسير عليها أن تظل ضمن جامعة الشعوب البريطانية (الكومنولث) . . .

وعندما وصل مدير المخابرات الأمريكية لمقابلة نهرو بتعليمات من رئيس جمهوريته ، راح ينسب لعبد الناصر أنه وجه حملات عنيفة لا تنسى للولايات المتحدة (إشارة إلى الرد على سحب تمويل السد العالى) .. وقد أجابه نهرو بأن إيدن صاحب الأعصاب البريطانى ، قد فقد اتزانه وهو يرد على تأميم القتال .

ومن غرائب المصادفات أن موسى شاريت رئيس وزراء إسرائيل الذى خلفه « بن جوريون » فى الحكم ، كى يدبر هذا العدوان . . . موسى شاريت هذا كان فى زيارة الرئيس الهندى ساعة وصول الأنباء بالعدوان الاسرائيلى على سيناء . وما أن علم الزائر اليهودى بالتبأ حتى أبدى دهشته وعجبه من أنه لم يعلم ولم يسمع شيئاً عن هذا ، مع أنه قادم من إسرائيل . . وهنا يصدق قول القائل : « إن كنت لا تدرى قتلك مصيبة . . وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم » .

(١) تاريخ هذه الرسالة ١٧ سبتمبر سنة ١٩٥٦ كما ورد فى كتاب (أزمة

السويس) .

وفي أحاديث لنهرو مع بعض رجال السلك السياسى الأجنبى فى نيودلهى ، قال إنه يحمل إيدن شخصياً مسؤولية العدوان على مصر ، ولا يحملها للشعب البريطانى ، أو الشعب الفرنسى ، وأكد أن « إيدن » إذا استمر رئيساً لوزراء انجلترا ، فإن الهند ستخرج قطعاً من الكومنولث البريطانى .

موقف الصين . . وجاراتها

روى لى صديق الفنان عبد السلام الشريف ، الذى أشرنا إلى أنه كان فى الصين وقت العدوان بمناسبة معرض فنى فى بكين ، تفاصيل مذهلة عن حماسة الشعب الصينى ضد العدوان والمعتدين . والصين بلد الأرقام الضخمة . . وإذا قيل أن مظاهرات سارت أو اجتمعت فإنما تعنى مئات الألوف ، وربما يصل الإحصاء إلى المليون . . وهذا يتناسب تماماً مع أكبر أمم الأرض تعداداً . .

ولعل ما أثار عاطفة كل مصرى حباً وتقديراً لعاطفة الصين نحو مصر ما رواه الفنان عبد السلام الشريف عن السيل الذى لم يتقطع من أطفال المدارس ، وهم يأتون إلى السفارة المصرية ببكين ومعهم حصالتهم ليفرغوها بين أيدي موظفى السفارة ، تبرعاً منهم لشعب مصر .

وقصة المتطوعين الصينيين الذين قيدوا أسماهم ، راغبين فى مشاركة أبناء النيل كفاحهم الباسل ضد العدوان ، هى قصة لا تنسى ، وبجوارها الأرقام الكبيرة على الطريقة الصينية .

وكميات اللوحات المرسومة المعبرة عن رأى الشعب الصينى فى العدوان ، كانت من الاتساع والضخامة ، بحيث خيل للبصريين أنها تكفى لتغطية الصين كلها . . وقد أحيطت سفارات العدوان بكميات منها غطت المباني كلها ، فلم يظهر منها شيء .

ولكن كان أهم ما علينا أن الزعيم « ماوتسى تونج » ، أخطر البعثة المصرية فى بكين ، أنه إذا استمر العدوان أسبوعاً واحداً فإنه سيأمر بالهجوم على قاعدة « هونج كونج » ، البريطانية فى الصين . وعلى الرغم من أن قواته تستطيع أن تستولى عليها فى لحظات ، إلا أنه وضع مع القواد خطة الاستزاف البطيئ لدماء البريطانيين فى القاعدة ، حتى يجتذب أكبر عدد ممكن من قواتهم وسفنهم فيخفف الضغط عن مصر .

ونستطيع أن نقول مثل هذا الكلام عن بقية المجموعة الآسيوية ، وعلى رأسها أندونيسيا الصديقة المحبة لمصر وماليزيا المسلمة المتحمسة ، وفيتنام التي ذاعت حلو الكفاح ومره حتى انتصرت على الفرنسيين وتكافح الآن الأمريكان كفاحها الصلب المشهور ، والفلبين ، وتايلاند ، وبورما ، وسيلان ، والافغان ، والباكستان . . . كان لها صوت مسموع في داخلها وفي هيئة الأمم . .

وبناء على اقتراح أندونيسيا عقد مؤتمر كولمبو على مستوى رؤساء الوزارات في نيودلهي واستمر منعقداً من ١٢ إلى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦ وحضرته مع الدولتين الكبيرتين : الهند وأندونيسيا ، وبورما وسيلان وأصدر قرارات تؤكد موقف مندوبيها في الأمم المتحدة .

موقف فرنسا

أشرنا من قبل إلى أن كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية ، كانوا مبعدين عن الاطلاع على سير عملية العدوان . .

وقد علمت وزارة الخارجية الأمريكية في وقت مبكر من شهر سبتمبر أن أعداداً كبيرة من طائرات حلف الأطلنطي د ضاعت ، من أماكنها التي وضعتها فيها القيادة (قائد عام الحلف أمريكي) . وقد كلف سفير الولايات المتحدة في باريس بالاستفسار رسمياً ، فذهب إلى المدير العام لوزارة الخارجية الفرنسية ، يسأله عن حقيقة الأمر فأجاب :

— لا أعرف شيئاً يا صديقي ، فالموظفون أمثالي ، ليسوا أطرافاً في اللعبة . . فرد السفير .

— نحن نعلم أن إسرائيل حصلت د فجأة ، على مائتين أو ثلاثمائة من طائرات المستير الفرنسية . . فرد الفرنسي بهز كتفيه قائلاً :

— حسناً . . ولكني لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع وليس فينا من يعرف عنه شيئاً . .

وما حدث فعلاً أن وزير الدفاع الفرنسي ، وهيئة القيادة كانوا هم الذين يقومون

بتنظيم عملية العدوان ، دون تدخل الجانب الفنى السياسى فى وزارة الخارجية .

وكنا قد ذكرنا — أيضاً — أن موليه عندما تولى رئاسة الوزارة فى يناير سنة ١٩٥٦ وعد بلاده بالسلام فى الجزائر ، وقد وصل بعد شهر من تسلمه الحكم إلى الجزائر ، فإذا ثورة الشعب هناك تصدده صدمة عنيفة ، وغطيت سيارته بأكوام من الفاكهة العفنة التى ألقيت عليه ، فعاد مغيضاً محققاً بعد هذه الرحلة الخائبة ، ليزيد نشاط فرنسا فى قمع الثورة ، وليبحث عن وسيلة أخرى توقف مدد مصر الروحى والمادى الذى يذكى نار هذه الثورة الغنيعة العنيدة .

قال كتاب « الآثمون لعام ١٩٥٧ » : أمطرت حكومة موليه الجزائر بالقوات . ورابط هناك نصف مليون جندى . ولكن الأمور لم تسر فى المجرى الطبيعى ، فقد شهد صيف عام ١٩٥٦ موجات من الاضطرابات . . . أوقف الجنود وهم فى طريقهم إلى الموانئ الجنوبية ، القطارات التى تقلهم . ولبثوا وقتاً طويلاً يجلسون على القضبان احتجاجاً . ولم يخرج آخرون من ثكناتهم . وانضم إليهم المدنيون فى مظاهرات تناهض الحرب عمت مدناً فرنسية كثيرة . . . وفى شهر يونيو من هذا العام ، رفض موليه (الاشتراكي ١١) أن يكون لأبناء الجزائر حق المساواة فى بلادهم مع الأجانب المقيمين فيها . وراح موليه يلقي تبعة فشله فى الجزائر على عبد الناصر ، قائلاً : إن جبهة التحرير الجزائرية ما هى إلا النقطة الأمامية الذى يريد أن يقيم منها امبراطورية اسلامية تحكم من القاهرة .

وكانت العلاقة بين فرنسا وإسرائيل ، فقد نشأت منذ عام ١٩٤٨ . . فعلى الرغم من عدم اعترافها رسمياً بإسرائيل ، رعاية لمواطنيها امبراطوريتها الإسلامية فى ذلك الوقت . فإن فترات الهدنة اثناء القتال بين العرب واليهود ، شهدت السفينة « أتالينا » تغادر سراً ميناء لوبوك الفرنسى ، وهى محملة بالذخائر والأسلحة ، ويروى كتاب الاسرار العليا لحرب السويس^{١١} أنه كان من بين المتطوعين الذين هرعوا من فرنسا إلى إسرائيل أول عمدة يهودى لبري سبع وهو الضابط الفرنسى فى قوات فرنسا الحرة المسيو دوفر . . وعند ما كانت الحرب على أشدها فى فلسطين . طار مسيو

بلومول إلى براغ للمفاوضة في شراء أسلحة لإسرائيل وواصل رحلته للاجتماع مع جوريون في فلسطين ، وكانت رحلته على طائرة قدمتها له الحكومة الفرنسية ١١

وحتى تعترف فرنسا بإسرائيل حصلت على رشوة سرية وهي معاهدة عقدتها مع العصاة الصهيونية ، تعترف فيها بمركز فرنسا الخاص بوصفها حامية للأماكن المقدسة المسيحية في إسرائيل ! .

إن روح لويس التاسع وحروب الصليبيين تتحرك مرة أخرى . وما الذي يهم إسرائيل . إنها تعطى ما لا تملكه ، وترضى بهذا البابا وعالم الكاثوليكية الذي وقعت فرنسا باسمه هذه المعاهدة . . وهي تعتقد أنها بعد أن طردت من المشرق العربي — سوريا ولبنان — تعود من الباب الخلفي عن طريق إسرائيل ، التي اعترفت بها بعد ذلك . ولم تهتم بامبراطوريتها الإسلامية ، ما دام الثمن مدفوعاً .

وقد مدت إسرائيل جسر التعامل مع فرنسا ، إذ باغت لها اختراعاً توصل إليه وستروفسكي الكيماوي اليهودي ، وهو إنتاج الماء الثقيل اللازم لصنع القنبلة الذرية بنققات زهيدة . . وكان ذلك عام ١٩٥٣ وسارعت فرنسا بدورها بعد معوتها في الأبحاث الذرية للقرصانة الصغيرة في الشرق الأوسط . ثم امتد هذا التعاون إلى صفقة طائرات نفائة قدمتها فرنسا لإسرائيل ، وذلك في عام ١٩٥٤ . . وبتشجيع من مندس فرانس رئيس وزراء فرنسا تتابعت صفقات الأسلحة الفرنسية من كل نوع وكان مندوب إسرائيل يقابل في وزارة الدفاع الفرنسية بموسيقى عسكرية وحرس شرف ! ! (١) . وكان الجنرال كوينج وزير الدفاع الفرنسي . قد قاد أثناء الحرب العالمية الثانية معركة بير حكيم ، وتراجع منها إلى الاسكندرية ، وهناك وجد الانجليز يدربون الفيلق اليهودي (الهاجناه) فأعجب به !! وفي شهر مايو كانت مائة دبابة فرنسية قد وصلت إلى إسرائيل ، وهذه الدبابات ماركة شيرمان سلبها الانجليز للفرنسيين .

(١) كان مبعوث إسرائيل الى فرنسا لعقد هذه الصفقات شيمون بيرنز (٣١ سنة) مدير وزارة الدفاع وجوزيف نحيماس . وقد وصلا الى ما يريدان عن طريق الاتصال المباشر بالحكومة الفرنسية السرية ، وهم جماعة الجنرالات الذين خابوا في الهند الصينية ، وأرادوا أن يحاربوا مصر الى آخر جندي اسرائيلي !! والسبب معروف . . واسمه الجزائر .

وقد كشفت خطب الرئيس عبد الناصر عن هذه العمليات ، ولم تثر ضجة لدى أحد ، وما أن أعلن في شهر أكتوبر سنة ١٩٥٥ عن صفقة الأسلحة الروسية لمصر حتى قامت الدنيا ، ولم تقعد .

ويعترف الكتاب الصهيونيون صراحة ، بأن إسرائيل تدخلت في الانتخابات البرلمانية التي سلمت الاشتراكيين رئاسة الوزارة ، فقد كان « لبيرنز » مدير وزارة الدفاع الإسرائيلية مكتب في مقر رئاسة الوزارة ، حيث أخذ يتحدث بالتليفون بالتليفون ويرسل تعليماته إلى رجاله وأعوانه في جميع أنحاء فرنسا .

ويقول ميشيل زوهار صراحة ، شن الإسرائيليون حملة انتخابية في جميع دوائر فرنسا للحصول على تأييد رجال الحكومة القادمة . . . وسافر بيرنز إلى شمال فرنسا حيث قابل موليه في دائرته الانتخابية ، وقد رحب به موليه ، ووعدته بالمساعدة ، وفي شهر يناير ١٩٥٦ شكلت « الحكومة الفرنسية الجديدة » برئاسة موليه وكانت تضم بين أعضائها عدداً كبيراً من أصدقاء إسرائيل .

ولا عجب في أن تتدخل الصهيونية في انتخابات فرنسا ، ويذكر الكتاب هذا بكل صفاقة ، دون خشية من نقمة الرأي العام الفرنسي .

وهل ننسى أن روتشلد اليهودي الفرنسي ، هو الذي تسلم من الانجليز في عام ١٩١٧ نص وعد بلفور ، ليبلغه إلى شيعته . . . بل هل ننسى أن أموال روتشلد — اليهودي الفرنسي — هي التي ساعدت على تكبيل مصر بالديون أيام حكم إسماعيل الحديو ، وكانت المنفذ الذي تسرب منه النفوذ الأجنبي ، ثم الاحتلال . . .

أبدأ . . . لا ننسى . . . ولن ننسى !

ولقد دهش الجنود الفرنسيون غاية الدهشة ، عندما وجدوا أنفسهم بعد فترة طويلة من الانتظار في قبرص ، وفترة قصيرة من الوجود الدامي في بور سعيد ، يعودون مرة أخرى إلى قبرص . . . وقد بلغ بهم الغيظ مبلغه ، حتى أن كثيرين منهم بحثوا عن يونانيين من المنضمين إلى حركة « أيوكا » القبرصية التي أعلنت الثورة على الانجليز الذين يحتلون بلادهم ، لكي يسلبوهم أسلحتهم حتى يقتلوا بها عدداً من جنود الامبراطورية العجوز ، مادام لم يصرح بعد للفرنسيين بقتل الانجليز ! !

وكان من المقترحات الفكاهية لقواد فرنسا ، أن ينضموا بجنودهم إلى الجيش الاسرائيلي ، ويلبسوا ملابسهم ، ويتابعوا قتال المصريين تحت راية بن جوريون .

وليتم فعلوا . . فما صنع في لويس التاسع بالمنصورة كان حرياً أن يتجدد ، فالقيد باق ، ودار ابن لقمان على حالها . . ولكن بن جوريون نفسه رغم العبارات الجوفاء التي أطلقها ، كان يود الفرار بجلده من الأرض المصرية ، قبل أن يجد نفسه وحيداً ، ولا شيء يدافع عنه أمام جيش النيل .

وزار راندولف تشرشل ابن ونستون تشرشل تل أبيب أثناء العدوان ، ووصف الأعداد الضخمة من القواد والضباط الفرنسيين الذين كانوا في فندقه وفي الفنادق الأخرى ، ولكنه لاحظ أيضاً أعداداً أكبر من الفتيات الاسرائيليات أقبلن — كما قال راندولف — لتأكيد العلاقات الفرنسية الاسرائيلية

وكل ما حصل عليه الفرنسيون من هذه الحملة الخائبة التي شاركوا فيها : تجمع أسطولهم حول المدمرة ابراهيم ، وضربها ، قبل أن يعلنوا حرباً ، أو يخوضوا معركة ، مما شرحناه من قبل .

واحتفالاً بهذه البطولة النادرة ، والفروسية الهائلة ، أقامت البحرية الفرنسية بعد حوالي عام من العدوان — وفي ١٠ أغسطس سنة ١٩٥٧ — حفلاً في ميناء طولون ، رأسه وزير البحرية الفرنسية ، فرانك أرنال ، ومنح قائد هذه المجموعة البحرية رسماً ١١

وراح هذا الوزير يخطب في جنود البحرية الفرنسية وقوادها ، مؤكداً أن هجوم الأسطول الفرنسي على المدمرة ابراهيم ، هو الذي حقق لاسرائيل نجاحاً مذهلاً ١١ وقد عرفت أسماء القواد الفرنسيين الذين عملوا في داخل اسرائيل أيام العدوان . فقد تولى القيادة الجنرال « بروهوه » ، وكان رئيس أركان حربه الكولونيل « برديزيه » ، الذي تولى الاشراف على الطيران الفرنسي في المطارات الاسرائيلية . وهؤلاء طبعاً غير قواد حملة الهجوم على بور سعيد نفسها .

وعلى الرغم من هذا التحالف الوثيق بين الفرنسيين واليهود في حملة سيناء ، ومعهم الانجليز طبعاً ، فعندما أصدر مجلس الأمن قراراً في ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦ يطلب فيه وقف إطلاق النار ، وقف أبا إيبان الاسرائيلي ، وقال إنه باسم بلاده يوافق على القرار .

وجن جنون الفرنسيين والانجليز لما قاله أبا إيمان . فإن إيقاف إطلاق النار ، يفقد الانجليز والفرنسيين المبرر الذي يتذرعان به لضرب مصر بالقنابل من طائراتهم ، ولتزول قواتهم في بور سعيد . فقد زعموا أنهم بمثابة رجال المطافيء الذين يهرعون لإطفاء حريق أشعلته إسرائيل ومصر ، والقول بأن القتال توقف ، يمزق الستار الذي تحركت وراءه الأساطيل وهي في طريقها إلى الشواطئ المصرية . .

وهكذا اليهود ، عندما انسحبت القوات المصرية من سيناء لتواجه العدو الأهم القادم على بور سعيد ، ود برطعوا ، فيها بغير مقاومة ، حسبوا أنهم فازوا بالغنيمة فلماذا الحرب ، ولماذا العناء ، ولماذا استمرار التحالف وبقاء الارتباط بالشركاء ؟

وهرع جى موليه رئيس وزراء فرنسا إلى التليفون ، واتصل بين جوربون وصاح فيه :

— أريد أن أعرف بالضبط ما قاله أبا إيمان في الأمم المتحدة ؟

فتلثم بن جوربون . وزعم أن أبا إيمان لم يقل إنه قبل توقف إطلاق النار . ولكنه قال انه لا توجد مقاومة في سيناء

ثم أخذ أبا إيمان بناء على تعليمات رئيسه ، يتراجع عن تصريحه . . ولكن عرفت فرنسا ، ومعها انجلترا ، قيمة حلفهم مع هؤلاء اليهود . وعندما حدث التصويت في ١٧ يناير سنة ١٩٥٧ على انسحاب إسرائيل وراء خطوط الهدنة ، ردت انجلترا الصفعة لإسرائيل ووافقت على انسحابها مع بقية أعضاء الهيئة باستثناء صوت واحد هو صوت فرنسا ١١ .

موقف بلجيكا . . واخواتها

من بين الدول الأوروبية الصغيرة ، بلجيكا . والمعروف أن هنرى سباك ، وزير خارجيتها هو أكبر السياسيين فيها ، وقد كان له صوت بارز في أزمة العدوان ضد مصر لعدة أسباب :

أولا — توجد للإنجليز مصالح كبيرة في دول بحر الشمال ، ثم هولندا وبلجيكا والدول الاسكندنافية . . ورخاء بعضها كان يقوم على الاستثمارات البريطانية ، وعلى

نهب ما كان يرد لها من المستعمرات ، وحسبنا أن نذكر أن نسبة كبيرة (حوالى الثلث) من ناقلات البترول ترفع العلم النرويجي ، وهولندا تشارك انجلترا في شركة شل للبترول . وبلجيكا تريد موازنة قوية من انجلترا وأمريكا لتعزيز قبضتها الاقتصادية على الكونجو ، عن طريق شركة المعادن البلجيكية هناك . وإذا كانت الكونجو قد تحررت عسكريا ، فكان يجب أن تظل خاضعة اقتصاديا لبلجيكا عن طريق بعض العملاء من أمثال تشومبي [مسجون حالياً في أحد سجون الجزائر] .

واستيلاء عبد الناصر على قناة السويس سوف يكون مثلاً يحتذى لبقية الدول الأفريقية المتحررة حديثاً ، بعد أن تفيق من سيطرة مواطنيها من العملاء . وفي سبيل استبقاء هذه السيطرة ، كانت تتبع مؤامرات القتل ، وتدير الانقلابات (عزل مصدق ، ومقتل لومومبا مثلاً) . وإقامة الأحلاف من كل صنف ولون ، حتى الأحلاف الدينية الإسلامية التي تباركها أمريكا المسيحية اليهودية !

ثانياً — توجد رواسب التعصب ، التي تحرك عقول الأوربيين ، وتدفعهم إلى العمل ضد الشرق . تحقيقاً لما عبر عنه الشاعر الانجليزي كبلنج ، من أن الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولا يلتقيان !

وهنري سباك ليس متعصباً من الطراز الأول فقط ، ولكن ابنه متزوج من يهودية وهو متأثر إلى حد كبير بالمال الصهيوني ، إذ ما يكاد يترك منصبه الوزاري ، حتى يجد عملاً بأجر ضخم جداً في السوق المشتركة ، أو غيرها من المؤسسات الأوربية الكبرى الخاضعة للنفوذ الصهيوني .

وقد عبر أنتوني إيدن في مذكراته عن مخاوف هذه الدول الأوربية الصغيرة بوضوح واضح ، إذ قال :

« أما سباك وزير الخارجية البلجيكية الذي كان في زيارة للكونجرس الأمريكي ، فقد عاد إلى أوروبا وهو مدرك تمام الإدراك للخطر الناجم عن حركة عبد الناصر . إن هذه الحركة سيكون لها تأثيرها في أفريقيا كلها ، لا في الشمال وحسب ، وإنما في أعماق أفريقيا الاستوائية . وكان موقف سباك حازماً فيما يختص بأهمية إعادة الإشراف الدولي على قناة السويس . ولكنه كان مقتنعاً بأن المسألة أكبر من ذلك .

وكان يرى أن دول الغرب ستواجه — إن تراخت — سلسلة من الهزائم في أفريقية والشرق الأوسط . وكان يؤيد بشدة ضرورة الحصول على تأييد دول حلف الاطلنطي . .

وبعد أن يؤكد إيدن أنه يشارك سباك رأيه يستطرد قائلاً : « وقد اتفقت المعلومات التي حصلنا عليها مع معلومات سباك ، فقد تلقينا تقارير من شرقي إفريقيا وغربها ، وكذلك من الصومال وعدن ، وهذه التقارير — لو أخذ كل منها على حدة — لما كانت له درجة كبيرة من الخطر . ولكنها مجتمعة ، كانت تشير إلى الشعور بالقلق ، وعدم الاستقرار في العالم الاسلامي . . . فقد كنا نعلم أن الحكومة المصرية تضع الخطط لحركة ثورية في العراق . وكان هناك كذلك خطر كامن يهدد حكومة إيران . .

ويبدو أن ما توقعه بسمارك السياسي الألماني الداهية في أواخر القرن الماضي — بمناسبة العدوان الغربي عام ١٨٨٢ على مصر — تحقق بعد ثلاثة أرباع قرن . فقد كان من رأيه وقت التداخل المسلح في الثورة العراقية أن استعمار مصر سوف يؤدي إلى قلق عميق في العالم الاسلامي . . وقد حال دون ظهور بوادر هذا القلق ، أن نفوذ الاستعمار الغربي وقتها كان في عنفوانه . . أما وقت العدوان الثلاثي فكانت حربان عالميتان قد سلفتا ، واستفاق من كان نائماً بين أمم الشرق ، وبدأ القلق بهذه الصورة التي تحدث عنها إيدن ، بل بما هو أكثر منها ، بما نراه الآن بعد عدة سنوات فقط من وقوع العدوان ، فإن عدن الصغيرة جلدت الاستعمار البريطاني صباح مساء ، مستخفة بأي تضحية في سبيل استقلالها من الاستعمار وعملائه واستقلت فعلاً . . وأبناء فيتنام الحفاة العراة ، يصفعون الاستعمار الأمريكي على وجهه وقفاه من تحت الأسلحة الهائلة التي دجج بها نفسه .

هذه هي روح النصر ، وهذا نداء الحرية .

ولما لندكر تصريحاً ألقاه سباك البلجيكي ، قال فيه منادياً شعوب الغرب : إذا خلق نسر في السماء ، فماذا تصنع الفراخ الصغيرة ؟ . . إنها تنضم بعضها مع بعض طالبة الحماية . . وما كان النسر في تقديره إلا فصر والقومية العربية ، بل الشرق كله . . والفراخ الصغيره هي دول أوروبا الشمالية . .



آخر جندی بریطانی یغادر أرض مصر ...

هذا هو إحساس القوم . . إحساس التعصب ، والكراهية للتعايش السلمي .
دون أن يكون في العلاقات الدولية ، سيد ومسود .

وفيما يتعلق بهولندا ، التي كانت تستعمر أندونيسيا قبل الحرب العالمية الثانية ،
ولفترة قصيرة بعد انتهائها ، ثم أخذت الثورة الوطنية تكتسحها (رغم تأييد إنجلترا
 وأمريكا) من هذه الجزر الهائلة في مواردها وعدد سكانها . . هولندا ، جاءت
كشل آخر على لسان إيدن المعبّر عن روح الشر الاستعماري قبل عشر سنوات
قال عنها :

« بعد مضي عام واحد (على حرب السويس) قامت أندونيسيا بمحاولة وقحة
(كذا !) لإجبار هولندا على التخلي عن سيادتها على غينيا الجديدة ، واستولت على
السفن التي تنتقل بين الجزر ، وصادرت كل الممتلكات الهولندية ، وأجبرت آلافاً
من المواطنين الهولنديين الذين لم يعرفوا لهم وطناً آخر غير أندونيسيا على الهرب
كأى لاجئين ، ولم يدفع أى نوع من التعويض . ولم تتخذ الأمم المتحدة أى إجراء
حيال ذلك . فلم تكن هولندا في نظرها سوى دولة استعمارية . ولعل من السخرية
أن الحكومة الأندونيسية أعلنت أنها إن تدفع أى تعويض ، إلا إذا تخلت هولندا
عن غرب غينيا الجديدة . . . »

ويقول إيدن بعد ذلك :

« وهكذا ساد أسلوب النهب » .

ولسنا نعرف لماذا يكون نهياً عند إيدن أن تسترد مصر قتال السويس ، وأن
تسترد أندونيسيا إحدى جزرها وهي غينيا الجديدة ، وتسترد الكونغو شركة المعادن ،
وتسترد كوبا مصانع الدخان والسكر . . . لماذا يكون هذا نهياً ، ولا يكون سوق
مليونين من اليهود إلى فلسطين وطرد أصحابها العرب منها نهياً وسلباً ، وما هو أكثر من
ذلك في باب الأوصاف . مع الفارق الهائل بين ما فعله الإنجليز واليهود في فلسطين ،
وبين ما فعله أهل أندونيسيا ومصر وكوبا والكونغو . . فلسطين أرض العرب
من آلاف السنين ، لا يمار في هذه الحقيقة أحد . .

ولم تكن هذه الدول التي تحقق كامل سيادتها على مواردها موعزاً لها من ناصر ،

ولكن الصحة تعدى ، كما يعدى المرض . . والمثل الناجح يحتمليه الناس في كل مكان .
ولو أن ثورة مصر على العدوان أخفقت لهدمت قلاع الحرية الجديدة في
أماكن كثيرة .



وإذا كنا قد تحدثنا عن تداخل المصالح البريطانية مع هذه الدول ، وتأثيرها
عليها ، إلا أن من الانصاف للنرويج ، أن نذكر أن رئيس وزرائها في ذلك الوقت
— جيرهارديسن — زار لندن ، وأنباء العدوان الاسرائيلي تملأ الدنيا ، وأكد له
إيدن كذباً ، أنه لا توجد لانجلترا علاقة ولا علم بما يحدث ، حتى أنه قال : ليس في
إمكان جميع السلطات البريطانية ، أن تدعى البراءة كما ادعاها إيدن .

ويروى كتاب أزمة السويس ، أن وزير خارجية النرويج عندما سمع عن الإنذار
البريطاني لمصر ، بعث باستنكار عنيف اللهجة جداً ، إلى العواصم المستولة ، وقال
إن ما يحدث ، يجعل حلف الاطلنطي مهزلة ما بعدها مهزلة ويسخر من مبدأ التشاور
الصريح مع الحلفاء .

موقف الاتحاد السوفياتي

كان الاتحاد السوفياتي صادق النية في محاربة الاستعمار ، وتأييد حرية الشعوب ،
عندما أبرم صفقة السلاح مع مصر . . وكان كذلك عندما أعرب مندوبوه عن
استعداد حكومتهم لتقديم قرض يساعد على إقامة السد العالي .

لم يكن لروسيا أطماع توسعية على حساب مصر . وما كانت مصر تقبل هذه
الأطماع ، وهي التي تقاتل بكل هذا العناد ، استكمالاً لسيادتها على أرضها ومائها وسماؤها ،
وبهذا المنطق الواضح ، نشأ تعاون سليم بين البلدين كسبت فيه مصر تحقيق
مشروعاتها ، وكسب فيه الاتحاد السوفياتي سمعة طيبة ، إنه بدأ عهداً جديداً من
العلاقات الدولية غير المشروطة ، وظهر للشعوب كافة بوجه ودود ، غير الوجه
العابس الذي طالما قدمته صحافة الغرب ودعايتها ، وساعد على تأكيده عصر ستالين .
وما كان يمكن أن تقوم هذه العلاقة الودية بين مصر والملكية الرأسمالية الخاضعة
للفوزالبريطاني ، ولكن ثورة ١٩٥٢ غيرت كل شيء .

وإذا كانت مصر قد كسبت بهذا كله تحطيم احتكار السلاح ، وتزويدها بأحدث
مبتكرات العلم فيه ، فإن الستار الحديدي حول روسيا قد صهر وحده وتحطم ،
ولم يعد له وجود في ذهن معظم شعوب — ربما باستثناء شعب الولايات المتحدة .

وفي أزمة القنال كانت مصر تحتاج إلى :

- ١ — مزيد من السلاح .
- ٢ — مزيد من المعلومات والخبرات .
- ٣ — تأييد دولي على نطاق واسع ولا سيما في هيئة الأمم .
- ٤ — مواجهة صريحة لدول العدوان منذ وقع عدوان .

وقد قدم الاتحاد السوفياتي هذه المعونات جميعاً ، بدون قيد أو شرط ، استمراراً لسياسته التي بدأها في سنة ١٩٥٥ .

ولقد صاح الغرب بعد فشل العدوان ، ينسب هزيمته إلى محور موسكو القاهرة ، وهي صيحات حاول أن يستر بها خفي حنين اللتين ارتد بهما عن شواطئ مصر .

وكانت لموسكو محاور أخرى معترف بها من الجميع ، مثل محور موسكو بكين ، ومحور موسكو وارسو . ولكنها لم تثر ذعراً على الرغم مما كان للغرب من مصالح كبرى في الصين ، وما كان له من علاقات ببولندا التي قامت الحرب الثانية من أجل إنقاذها .

إلا أن مصر تمثل في نظر الغرب شيئاً أهم من الصين وبولندا . . تمثل هذه الطاقة الروحية ، والأصالة الحضارية ، القادرة على تحريك الفكر والقلب ، لمجموعة كبرى من الشعوب الإسلامية والمسيحية على السواء . إنها طاقة أهم بكثير من قنال السويس وآبار البترول . . .

وهذا المعنى الكامن وراء كلمات العتاة من فلاسفة السياسة الغربية ، أمثال تشرشل وسباك وكيركباتريك وموليه وبورجيز — مونزيه وفوستر دلاس ، وأخوه آلان وأمثالهم . . إنه شيء أكثر من الحق قد كان يحركهم . . ربما كان نفس الشيء الذي يحرك بن جوريون وقومه : إنه التعصب ضد كل ما هو شرقي يمكن لمصر أن تمثله أحسن تمثيل . . إنها روح ريتشارد قلب الأسد ، ولويس التاسع من جانبهم ، تقابلها روح صلاح الدين من جانبنا .

ولم يكن هذا الإحساس يساور الحكم السوفياتى فى روسيا .. وإن كان أساساً من أسس الحكم القيصرى السابق ، الذى سمح للقيصر اسكندر الثالث أن يتنازل للسلطان عبد الحميد عن ٣٠٠ ألف جنيه ليسلح بها حملة تشترك مع سبع دول أوروبية فى إخماد الثورة العرباية ، على بعد ما بين موسكو والقاهرة من مسافة .

وسوف نتناول تفصيل الموقف السوفياتى ، وتأثيره الحاسم فى المراحل التالية .
ولكننا نثبت هنا صورة من الإنذار الروسى لكل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ..
وهو الموجه من المارشال بولجانين .

سيدى رئيس الوزراء المحترم .

تعتقد الحكومة السوفياتية أنه من الضرورى لفت انتباهكم إلى أن الحرب العدوانية التى شنتها فرنسا وإنجلترا وإسرائيل على مصر ، هذه الحرب التى تقوم فيها إسرائيل بدور المبادرة مشحونة بالعواقب البالغة الخطورة على قضية السلم العالمى .

« ولقد قررت جمعية الأمم المتحدة فى دورتها الاستثنائية وقف الأعمال الحربية دون إبطاء وسحب القوات الأجنبية من الأراضى المصرية ، ورغم ذلك فإن إنجلترا وفرنسا وإسرائيل تتابع أعمالها الحربية وتواصل الغارات الجوية البربرية على المدن والقرى المصرية وقد أنزلت قواتها إلى الأراضى المصرية ، محاولة الأماكن المأهولة إلى خرائب ، وقاتلت السكان الآمنين ، إن حكومة إنجلترا بالتعاون مع حكومتى فرنسا وإسرائيل سلكت إذن ، سبيل العدوان غير المسبب على مصر . ولا تستند الأسباب التى آثارتها الحكومة الإنجليزية لتبرير هذا العدوان إلى أى أساس من الصحة . فقد أعلنت بادية ذى بدء أنها تتدخل بين مصر وإسرائيل ، كي لا تتحول قنال السويس إلى منطقة حربية . على أنها تحولت بعد التدخل الإنجليزى الفرنسى إلى منطقة عمليات حربية كاملة فتعطلت الملاحة عبر القنال مما يلحق ضرراً بليغاً بمصالح الدول التى تستخدم القنال ، .

موقف الدول العربية

أما الشعوب العربية فمصر أختها . والكل يكون أمة واحدة . وما وقع عليها من عدوان ، كأنما وقع على أى بلد عربى آخر .. لقد عبرت شعوبنا عن عواطفها ومشاركتها ، بالمال والاستعداد للقتال ، ونسف أنابيب البترول ومنع تدفقه

واستفادة المعتدين منه . كما حدثت محاولات في ليبيا لنسف مستودعات الذخيرة والبتترول للقوات البريطانية فيها .

وفي ١٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ عقد مؤتمر حضره الملوك والرؤساء العرب . وكان انعقاده في بيروت ، وناب فيه عن مصر سفيرها عبد الحميد غالب وأصدر قرارات علنية مؤيدة لمصر .

وطرد السوريون الموظفين الإنجليز في خط الأنابيب بعد نسفها في ثلاثة مواضع . وأوفدت سورية بعثة طبية للإسعاف اعتمدت لها ٢٠٠ ألف ليرة .

وتوالت برقيات الملك سعود رحمه الله على أيزنهاور ، وأعلنت شركة أرامكو أنها توقفت عن إمداد إنجلترا وفرنسا بالبتترول طبقاً لتعليمات الحكومة السعودية . وتبرع سعود بمليون ريال لجمعية الهلال الأحمر المصري .

أما عراق نوري السعيد ، فقد رد على برقية من الملك سعود بخصوص العدوان ، يندد بالعدوان الإسرائيلي على مصر ، ولم يأت بذكر للعدوان الإنجليزى الفرنسى ، مع أنه كان قد مضى على ابتدائه ثلاثة أيام .. وقامت مظاهرات عنيفة شملت العراق كله ، فمطلت المدارس والمعاهد كلها . وبناء على طلب الأردن ، سحبت الحكومة العراقية قواتها من الأردن خشية أن يفلت الزمام من قوادها .

وكان الملك حسين متجاوباً مع الشعور الوطنى العام ، وأعرب عن استعداد قواته للقتال بمجرد طلب مصر ذلك . وكان كميل شمعون — مثل نوري السعيد — يمثلان يهوداً في وسط الحوارين .

أما السودان ، فكان مثله كمثل الإسكندرية أو أسبوط : حماسة .. تبرعات .. متطوعين .

وهكذا ثبت أن القومية العربية ظهرت كعملاق جبار في وسط هذه الأحداث ، وثبت كذب إيدن الذى زعم أن أخداً من العرب لم يتحرك لمساعدة مصر .. فقد غلبته ولا شك الحمى ، وهو يكتب هذا الكلام .

موقف كندا

تحتاج منا كندا إلى وقفة خاصة بها . فهي الدولة الغربية ، التي ينتمى جزء من سكانها إلى أصل إنجليزي ، والجزء الآخر إلى أصل فرنسي ، وتستعمل فيها اللغتان :

ولقد كان لها موقف واضح صريح ضد العدوان على مصر ، تزعمه رئيس وزرائها زعيم حزب الأحرار ، وهو لويس ستيفن سانت لوران ، وقد تولى الحكم لمدة ثماني سنوات متعاقبة قبل العدوان ، وكان وزير خارجيته ليستر بيرسون .

ما أن عرض أحد السكرتيرين على سان لوران أنباء الإنذار البريطاني ، حتى خرج المسكين مذعوراً ، وهو يقول : إن رئيس الوزراء يحترق غضباً ، ويكاد يصاب بالجنون . وأمر على الفور بإيقاف شحنات السلاح لإسرائيل .

ولقد عنيت كندا بإصدار كتاب « أزمة السويس » تشرح الجهود الضخمة التي بذلتها ، بوصفها أغنى دول الكومنولث البريطاني ، كما تحول دون تدهور الموقف . . فلما حدث ما كانت تحذره ، بعث رئيس الوزراء برسالة لايدن قال له فيها ن كندا لا تستطيع إقرار وجهة النظر البريطانية بتبرير هجوم إسرائيل على مصر ، أو أن مقاومة مصر الطبيعية والمنتظرة تبرر التدخل البريطاني والفرنسي . وندد في رده بعدوان إنجلترا وفرنسا في الوقت الذي كان فيه مجلس الأمن يناقش القضية بصورة رسمية . وأشار إلى الخطر الذي يهدد جامعة الشعوب البريطانية من هذا التصرف والتباين المؤسف في وجهة النظر بين إنجلترا والولايات المتحدة .

وقد كان موقف كندا الحازم ، شديد التأثير على سياسة بريطانيا ، ووصف السفير الكندي في لندن هذا التأثير بأنه أروع إيدن ، وأثار الذعر في وزارة الخارجية .

وطار ليستر بيرسون ، وزير الخارجية القدير إلى نيويورك ، ليبدأ هناك عملاً ضخماً ، يحاول أن ينقذ به العالم من حرب لا تبقى ولا تذر . . وقد انتهت جهوده إلى تقديم مشروع القوة الدولية التابعة لهيئة الأمم ، لكي تراقب إيقاف القتال ، وانسحاب المعتدين إلى ما وراء الحدود المصرية ، برية كانت أو بحرية .

وحاول إيدن — بعد موافقته مضطراً — على قرارات هيئة الأمم أن يستعين بكندا ونفوذها الطيب ، كي توافق مصر على أن تقوم أجهزة فنية انجليزية وفرنسية بمباشرة تطهير القنال فوراً ، وجس « استر بيرسون » النبض فإذا رد القاهرة : لا . بل حدث أن رفضت مصر اشتراك كندا في قوات هيئة الأمم ، بعد أن استعدت كندا ، وأعدت الطائرات والجنود ، وسافر بعضهم فعلا يعبر الاطلنطي ليصلوا إلى بور سعيد في أقرب وقت .

لقد قدرت مصر فعلا جهود كندا في سبيل إيقاف العدوان ، وانسحاب المعتدين . ولكن أليست كندا عضواً في الكومنولث ، وهي تنتمي إلى أصل الدولتين المعتديتين؟ إن وجودها ، والعلم الكندي يحمل الشارة البريطانية ، فوق أرض مصرية ، فيه مساس بكل المعاني التي تقاتل من أجلها مصر ، مهما كانت النوايا طيبة ..

وسنرى فيما بعد — ونحن نستعرض الجهود الدبلوماسية في هيئة الأمم تطورات هذه المسألة .

الكفاح في هيئة الأمم

في مساء ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، أبلغت مصر رئيس مجلس الأمن ، بضرورة عقد المجلس فوراً للأسباب التي أبدتها . واجتمع المجلس ، لينظر في طلب مصر وقف العدوان صوناً للسلام . . . وعجز المجلس عن اتخاذ قرار لأن فرنسا وانجلترا — بكل تبجح استخدمتا حق الفيتو ، وذلك تأييداً لما تم الاتفاق عليه في سيفر . .

وحدثت أزمة أخرى ، وهي تقديم داج همرشولد استقالته احتجاجاً على هذه التصرفات . فقد كانت مبادئ الأمم المتحدة في نظره أهم من سياسة أى دولة ، ولكن مجلس الأمن لم يقبل استقالته .

وهنا تقدم مندوب يوجوسلافيا ، لدعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى اجتماع عاجل . . . حيث لا يستخدم في اجتماعها حق الفيتو الذي تكون له فاعلية في مجلس الأمن وحده .

وأخذت الأصوات على هذا الاقتراح ، فعارضته أربع دول ، وأقرته باقي الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة وروسيا . . أما الدول المعارضة فكانت فرنسا وانجلترا

وبلجيكا ، واستراليا ، وعند منتصف ليلة ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ تقرر دعوة الجمعية العمومية للانعقاد في اليوم التالي ، وهو أول نوفمبر . وبهذا شهدت هيئة الأمم أخطر اجتماعات في تاريخها كله حتى الآن .

حضر هذا الاجتماع ثلاثة آلاف شخص ، هم أعضاء الوفود ومستشاروهم وموظفو الهيئة ورجال الصحافة وكبار الشخصيات ، مما لم يحدث له نظير من قبل .

وكانت الولايات المتحدة شديدة الاهتمام باتخاذ قرار سريع من الهيئة وخشيت أن يعتمد ممثلو انجلترا وفرنسا ، إلى إغراق الجلسات في مناقشات قانونية حول شرعية الاجتماع ، فوزع « كابوت لودج » رئيس الوفد الأمريكي على رؤساء خمسين دولة ، سؤالاً عن موافقتهم على عقد هذه الجلسة الاستثنائية لبحث الموقف . . . وتسليم الاجابة لمرشولد الأمين العام . . . وقد أجاب جميع من وزع عليهم السؤال بالإيجاب حتى يقطع السبيل على المناقشات البيزنطية .

وبدأت الجلسة بخطاب من الدكتور محمود فوزي رئيس وفد مصر ، وصفه مؤلف كتاب أزمة السويس بأنه « ألقى خطاباً شاعرياً مليئاً بالاستعارات ، حافلاً بالحديث عن الجرائم الفرنسية والبريطانية ضد الإنسانية وكان هذا الخطاب كافياً لتعبئة جهود الدول الأفريقية — الآسيوية كي تبذل أقصى وسعها في وصف المعتدين بكل ما يستحقونه من نعوت مقذعة ، وبهذا ارتفعت حرارة الاجتماع ، ومعنوية المجتمعين إلى حد لا يمكن التكهن بما سيحدث بعده » .

وقد رفعت الجلسة لبضع ساعات ، حتى تتشاور الوفود في القرار الذي يتخذ بإيقاف القتال . ودارت المناقشة بين دلاس وزير خارجية الولايات المتحدة ، وبيرسون وزير خارجية كندا على النحو الآتي :

دلاس — علينا أن نحصل على القرار في أسرع وقت ممكن ، فالأحداث تسير بسرعة البرق الخاطف هناك ، إلى الحد الذي لا يدري فيه المرء ما قد يحدث لو أننا لم نفعل شيئاً لإيقافها ، ونحن نعتقد أن هناك احتمالاً قوياً في أن يقوم البريطانيون والفرنسيون بخطوات سريعة لتنفيذ عملياتهم العسكرية ولو حدث هذا لوجب علينا أن نواجه الحقيقة الواقعة ، وهي أن الخطر الذي يهدد سلام العالم سيصبح من التوع الذي لا يحتمل ونحن نشعر بالقلق من الأفريقيين . والآسيويين ، فهم

لا يميلون إلى قرار ناعم . . . ولكن لو تقاعسنا وتباطأنا في اتخاذ القرار ، فقد يخرجون علينا بشيء جديد يزيد الوضع حرجاً وتعقيداً .

بيرسون — قد يكون رأيك صحيحاً ، ولكن من الضروري الحصول على قرار يضمن شكلاً من أشكال التفاوض ووسيلة ، وتكون هذه الوسيلة في صورة لجنة استثنائية تقوم بالتحريات اللازمة ، وتوصي بشروط التسوية التي تقترحها .
دلاس — لم يعد الوقت كافياً .

بيرسون — أمامنا ثلاث أو أربع ساعات ويهمننا أن نساعد بريطانيا وفرنسا وإني لأود أن أمكنهما من التراجع بأقل ما يمكن من المذلة ، وأن أحاول إعادتهما إلى حظيرة التحالف مع الولايات المتحدة .

دلاس — لم يعد هذا ممكناً الآن ، فقد حطمتنا قضية الحرية كلها ، بوضعنا في مركز متخلف عن مركز الشيوعيين .

وهنا ظهرت على لسان المندوب الكندي فكرة الاستعانة بقوة دولية . .

وعادت الجلسة إلى الاجتماع وتابعت الكلمات من رؤساء الوفود ، تكيل لبريطانيا وفرنسا ما تستحقانه من عبارات التحقير . . ولكن مندوب استراليا حاول أن يلفت النظر إلى أن الجيش الروسي يحتاج بودابست عاصمة المجر في هذه اللحظة . .

ووقف مندوب روسيا ومندوب الولايات المتحدة كل منهما بإزاء الآخر في صرامة وعنف . . وهكذا بدت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي كالوحشين الجريحين يكتمان غيظهما من بعضهما البعض في الوقت الذي واصلت فيه الأحداث الخارجية عن إرادتهما التقريب بينهما باستمرار (١) .

وقد وافقت أغلبية هيئة الأمم على القرار الكندي بأن يقدم الأمين العام خطة لإنشاء قوة طوارئ دولية خلال ٤٨ ساعة ، تضمن وقف العمليات العدائية . . وتمت الموافقة على هذا القرار في الساعة الثانية من صباح ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، وامتنعت ١٩ دولة عن الاقتراع حتى تتلقى تعليمات حكوماتها .

(١) أزمة السويس ص ٢٦٩ .

وكان من رأى همرشولد أن هذا القرار غير قابل للتنفيذ ، إذ يتعذر حشد قوة بسرعة توقف بريطانيا وفرنسا عن مهاجمة بور سعيد . ورد وزير خارجية كندا بأن كندا والاسطول السادس الأمريكى والنرويج وكولومبيا تستطيع تأليف قوة دولية فوراً . . . وهنا رد همرشولد وكان محققاً :

— ولكن كيف يمكن لنا أن نتقل جنوداً من هذه الجهات إلى مصر ، إذا كان عبد الناصر يرفض دخولهم ١ ١ ؟

وكان همرشولد بعيد النظر ، نافذ الفكر . . فإن عبد الناصر رفض اشتراك كثير من الدول « المشبوهة » ، فى قوة الطوارئ الدولية التى تشرف على اجلاء الأعداء من أرض مصر . ومنها كندا نفسها ، لأنها عضو فى الكومنولث البريطانى ، رغم أنه يعرف جيداً موقفها ضد العدوان .

وفى نفس الوقت تقدمت الكتلة الآسيوية الأفريقية بمشروع القرار التالى :

١ — دعوة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل للتقيد بقرار الهيئة العامة للأمم المتحدة بوقف إطلاق النار فوراً .

٢ — تخويل الأمين العام للأمم المتحدة حق اتخاذ التدابير اللازمة مع الدول المعنية ، لتنفيذ قرار وقف إطلاق النار فوراً ، وفى مدة لا تتجاوز ١٢ ساعة اعتباراً من ساعة إقرار هذا المشروع .

٣ — سحب القوات المعتدية من الأراضى المصرية إلى ما وراء خطوط الهدنة تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة .

٤ — دعوة الهيئة العامة إلى الاجتماع فور تقديم تقرير الأمين العام عن تنفيذ هذا القرار .

وقد وافقت الجمعية العامة على هذا القرار بأغلبية ٥٩ صوتاً . وعارضته استراليا ونيوزيلاندة وفرنسا وانجلترا وإسرائيل . وامتنعت عن الاقتراع : بلجيكا والدانمرك والدومنيك (أمريكا اللاتينية) وفنلندة وإيسلندة ولاوس ولكسمبورج وهولندا والنرويج والبرتغال والسويد وجنوب أفريقيا .

وأبلغ همرشولد القرار إلى الدول المعتدية .

وطلبت روسيا يوم ٥ نوفمبر وقف إطلاق النار في خلال ١٢ ساعة .

وطلبت الولايات المتحدة تنفيذ قرار الأمم المتحدة فوراً وهددت بقطع البترول .

وهكذا اضطرت فرنسا وإنجلترا إلى إبلاغ همرشولد أن القتال سوف يتوقف اعتباراً من منتصف ليلة ٦ نوفمبر . وإن كان إطلاق النار استمر بعد ذلك ٥ ساعات أملاً في الوصول إلى مكاسب أكثر دون جدوى .

ولم يكن وقف إطلاق النار هو ما تريده مصر ، ولكن انسحاب الدول المعتدية من أراضيها هو تصميمها . . ولهذا وقف مندوب مصر في الهيئة العامة يعلن أن بلاده عازمة على مواصلة القتال ، ما لم تنسحب القوات المعتدية من أراضيها فوراً . . وأن العمليات العسكرية لا تزال مستمرة . كما أن مصر لا توافق على إشراك الدول المعتدية في أي عمل من أعمال الملاحة في القنال ، وهاجم إسرائيل هجوماً عنيفاً ، لإعلانها أنها ستبقى في سيناء . . وأكد أن تطهير القنال لن يبدأ قبل خروج آخر جندي أجنبي من أرض مصر .

* * *

ترك نيويورك مقر هيئة الأمم لحظة ، لتلقى نظرة على رد الفعل في لندن عاصمة الاعتداء . .

ففي صباح الأحد ٤ نوفمبر اتصل إيدن بمولية في باريس ، وأبلغه قرارات هيئة الأمم ، وطلب عمل مشاورات عاجلة . فطار إليه بينو وزير الخارجية ، وبورجيز - مانورى وزير الدفاع وفي نية فرنسا عدم تنفيذ قرار هيئة الأمم .

وكانت لندن عند وصولهما هاتجة ماثجة ، ومظاهرة ميدان الطرف الأغر الكبرى ضد إيدن ، تملأ الاسماع طينياً . . بل دويًا . ومقر رئاسة الوزارة محاصر بألاف المتظاهرين .

وفكر المجتمعون ، بل المتآمرون في حيلة . . فلماذا لا تكون قواتهم في بور سعيد ،



تمثال من القش لا يبدن رفعة أبناء بور سعيد مشتموقا
وهم يودعون آخر جنود العدوان

هى قوات الأمم المتحدة ، وكل ما سيحدث هو أن ترفع عليها الراية الزرقاء المشهورة .
ولكن همرشولد ، ما أن علم بهذا حتى جاءت منه برقية عاجلة ، قالت :
« رفضت الجمعية العامة ، أن تجعل قيام القوة الدولية شرطاً لوقف إطلاق النار .
والرأى السائد هو عدم اشراك الدول المتورطة فى العمليات الحالية فى المنطقة ،
من بين عناصر القوة الدولية . . . »

يوم الاثنين الخطير

وحتى تم المداولات ، تمكن همرشولد من مد فترة الرد على قرار هيئة الأمم
إلى الساعة التاسعة من صباح الاثنين ٥ نوفمبر .

وجاء الرد على همرشولد ، بأن قوات المظلات الفرنسية والانجليزية بدأت تلقى
على بور سعيد وبور فؤاد . وكان وقتها جالساً يتحدث مع مندوبى كندا والنرويج ،
ولذا بهذا النبأ ، يصيبهم جميعاً بالوجوم ، وقد بدا لهم أن حريقاً هائلاً اشتعل فى
الكرة الأرضية كلها ، يوشك أن يأكل الأخضر واليابس .

قوات مظلات انجليزية وفرنسية . . وقوة الطوارىء توشك أن تتكون
ورئيسها الجنرال بيرنز عين فعلاً !!

إذن هى الحرب العالمية الثالثة . . هكذا همس عديد من الرجال المسؤولين فى
هيئة الأمم ، بمجرد سماعهم بأنباء هذا الصباح العابس . وما أن أذاع إيدن ظهراً
أن بور سعيد استسلمت ، حتى تغير موضوع الحديث ، وما أن ابتلع إيدن تصريحه
فى المساء ، وقال إن بور سعيد تحارب ، حتى عاد مرة أخرى .

وسمع همرشولد صوت الدكتور محمود فوزى يتكلم تليفونياً من القاهرة ، أثناء
تناوله طعام الغداء مع صديقيه الكندى والنرويجى ، وهو يقول : سنواصل القتال
طالما أن المعتدين موجودون على أرض مصر .

وفى مساء الاثنين الخامس من نوفمبر ، اجتمع مجلس الأمن لدراسة طلب من
المندوب الروسى بأن قوات بلاده مستعدة ، بالتعاون مع الولايات المتحدة ، أن
يخرجوا الانجليز والفرنسيين من مصر بقواتهما البحرية والجوية .

وقد رفضت أمريكا هذا العرض . . . ولكن صحبته تفسيرات ملأت أروقة الأمم المتحدة أن روسيا مستعدة للعمل بمفردها .

وهنا حدثت ثلاثة حوادث هامة :

١ — وجه بولجانين الإنذار المشهور الذى أشار فيه إلى امكان ضرب باريس ولندن بالقنابل الذرية ، وكان وقته مساء هذا الاثنين نفسه .

٢ — أبلغت قيادة حلف الأطلنطى ، أن أجهزة الرادار ومراكز المراقبة الجوية فى شرق البحر المتوسط ، سجلت مرور أعداد من الطائرات على ارتفاع كبير ، فوق تركيا متجهة إلى الجنوب ، لم يتيسر إحصاؤها .

٣ — سجلت طائرات التصوير صور أعداد كبيرة من طائرات الميج فى جميع المطارات السورية ، لم يعرف من أين جاءت ، وأن سوريا لم تكن تملك هذا القدر من الطائرات .

٤ — بعثت وزارة الحربية الانجليزية إلى قيادة الجنرال كيتلى بالبرقية الشفوية التالية : « قد تتدخل روسيا بالقوة فى الشرق الأوسط » .

٥ — أرسلت الحكومة التركية لقيادة حلف الأطلنطى برقية تقول فيها إن الاتحاد السوفياتى طلب من حكومة أنقرة السماح بمرور خمس سفن حربية سوفياتية من مضيق الدردنيل ، وتشمل طراداً ، وأربع مدمرات ، أو طرادين وثلاث مدمرات .

٦ — أرسلت وزارة الحربية البريطانية إلى قيادة حلف الأطلنطى مذكرة سرية للغاية ، تقول إن روسيا قد ترسل قوات إلى الشرق الأوسط ، تشترك فى العمليات العسكرية هناك . .

ولم يعرف إذا كانت تعنى هذه البرقية المذعورة ، المتطوعين أو إنها تخيلت إمكان وصول جيوش روسية إلى المنطقة .

... وجلاء الثلاثاء ٦ نوفمبر

عاش العالم الغربى ليل الاثنين ، وصباح الثلاثاء تحت وطأة الإنذار الروسى ، وأنظارهم كلها معلقة على ما يحدث فى بور سعيد .

وكانت مصر تقاوم في بورسعيد ، وحال خط الكاب الفولاذى جنوب بورسعيد دون تسرب أى جندى أجنبى جنوب هذا الخط .

وقد تلقى بولجانين رداً غريباً من إيزنهاور . فقد قال له إن حكومة الولايات المتحدة ، سوف تحترم التزاماتها بموجب حلف الاطلنطى ، وميثاق هذا الحلف يقضى بالدفاع الأمريكى عن فرنسا وانجلترا إذا هوجمت أرضهما . . . أما منطقة قنال السويس فلم يأت ذكرها — طبعاً — فى ميثاق الاطلنطى . ومعنى هذا أن الولايات المتحدة لن تدافع عن فرنسا وانجلترا إذا هاجمت روسيا قواتها فى شرق البحر المتوسط ، وعند مداخل قنال السويس .

وفى نفس الوقت بعث إيزنهاور لكل من إيدن وموليه ، برسائل قال فيها : « إن العلاقات بين الشعوب يجب أن تخضع لميثاق الأمم المتحدة . ونحن نستنكر التجاه أعدائنا للقوة ، ولهذا لا يمكن أن يسمح لأصدقائنا ، بما تنعيه على أعدائنا . . والموضوع لا يعدو أن يكون قضية ضمير أمام الله والناس » .

وفى هذا اليوم — الثلاثاء — حاول إيدن أن يتصل بإيزنهاور تليفونياً ، ولكن رئيس الولايات المتحدة رفض الاتصال به . فبعث بسفيره فى واشنطن ليسأل إذا كانت الولايات المتحدة ستحمى انجلترا وفرنسا فى حالة ضربهما بالقنابل الذرية الروسية . . ولم يتلق السفير أيضاً رداً .

وظل إيدن ساهراً إلى صباح اليوم التالى ينتظر نبأين : أولها أن قواته وصلت على الأقل للاسماعيلية . . وثانيهما أن تخرج حكومة الولايات المتحدة عن صمتها .

وانقضى الليل كله دون الحصول على أى من النبأين . . . وكل ما حدث ، أنه تحت ثقل الهزيمة الدولية ، راح الجنرال كيتلى يأمر أسطوله بقذف بورسعيد بقنابل الأساطيل الضخمة ، فقد كاد صمودها يحبس الهواء فى حلقه وحلق بلادته فيموتوا محتقنين من الغيظ .

وأخيراً . . . وأخيراً قابل أيرنهاور السفير الانجليزى فى واشنطن وقال له ،
رداً على سؤاله عن موقف أمريكا إذا انطلقت الصواريخ الروسية الذرية تدمر لندن
وباريس . .

« عليكم أن توقفوا هذه الحرب ، وأن تنسحبوا من مصر ، فنحن
مع ميثاق الأمم المتحدة . ونحن نستنكر أن يتحدى الميثاق أحد من الناس
أو من الدول . .

« دعنى أقول لك ياسيدى السفير : لقد اقتربت حياتى من نهايتها .
وأنى لأرغب فى أن ألقى خالى بأيد نظيفة ، .

ولم يستطع السفير أن يقول شيئاً ، وخرج يبلغ حكومته ماسمعه . .

الاسترليني ٠٠ أين هو ٠٠ لقد ضاع !

وفى غمرة هذه الأحداث أخذت دوائر وزارة الخارجية الأمريكية تتحدث عن
الاسترليني ومركزه . . إن شيئاً ما حدث لأرصده . . إن سعره يهوى . . إن كارثة
مالية إلى جانب الكارثة الحربية تواجه بريطانيا . .

ماذا حدث ؟ . . لقد كان تقدير ماكيلان وزير مالية إنجلترا لتفقات حربه
ضد مصر ، هو خمسة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ، اعتمدت فعلاً . . ولكن
عملة بلاده كشفت فجأة ، واحتاجت إلى غطاء ، إن لم يتوفر لها ، فهو الإفلاس
ولا شك .

لقد بدأت أسواق نيويورك المالية تعرض كميات ضخمة من الاسترليني للبيع
فى مجموعات كل منها تتراوح بين مليون وخمسة ملايين جنيه ، وأخذ بنك الاحتياطى
الأمريكى الاتحادى يتخلص من ودائعه الاسترلينية بسعر أقل . وتحمل بنك إنجلترا
فى يوم واحد ٣٩٠ مليون دولار - وهو يوم الاثنين الذى هوجمت فيه بورسعيد -
وذلك ليحافظ على سعر القطع .

وشاور ماكيلان محافظ بنك إنجلترا ، ثم هرع إلى إيدن ، ومجلس الوزراء ، وطلب قرضاً عاجلاً قدره ٢٠٠٠ (ألف) مليون دولار من حكومة الولايات المتحدة وصندوق النقد الدولي . . وكلمة «عاجلاً» تعني اليوم قبل الغد . واتصل ماكيلان تليفونياً يطلب السماح بسحب حصة إنجلترا في صندوق النقد . فقيل له إن وزارة الخارجية الأمريكية لا توافق . . .

هذا المبلغ الهائل ، المطلوب لدعم الاسترليني ، كان مسببه الضغط المالي الأمريكي ، الذي أظهر أن إنجلترا تعيش على صدقة الدولار . . مثلها كمثل إسرائيل تماماً .

ولقد قال إيدن في مذكراته ، إن هذه الحرب ضد مصر تكلفت ١٠٠ مليون جنيه استرليني ، أى ما يوازي دخلهم من القنال حتى نهاية امتيازها ١١ ولكن هذا التقدير المتواضع ، صاحبته تقديرات أخرى تزيد المبلغ الضائع على الإنجليز إلى أضعاف هذا الرقم ، ولا سيما إذا حسبت المعدات التي صادرتها مصر من مخازن الإنجليز في قاعدة القنال ، وتعويضات العدوان التي خصمت بعد ذلك من الأموال البريطانية المصادرة .

بل إن خسارة إنجلترا في هذا العدوان كانت تكفي لبناء السد العالي مرتين على الأقل . . وهو الذي بدأوا محاربة مصر ، بمنع بنائه .

إنجلترا وفرنسا . . تركهان

وفي صباح هذا اليوم — الثلاثاء — جمع إيدن مجلس وزرائه ، بعد يومين كاملين ، لم ينم فيهما ، وقد شحب وجهه ، واحمرت عيناه ، وارتعش صوته ، فلم يعد يبين . ولذا لازم الصمت معظم هذه الجلسة .

وأثناء الاجتماع أدخل له أحد الموظفين نداء من الحكومة السويسرية ، التي تلتزم الحياد المطلق ، ولكنها تحس بالأمور بغير تحيز . وهذا النداء يقول :

« إن شبح الحرب العالمية الثالثة يخيم على الإنسانية كلها ، وفي الإمكان انقاذ السلام . بل يجب إنقاذه ، .

واتخذ القرار ، وهو الانصياع لأوامر هيئة الأمم ، وإيقاف القتال .

كان وصول الإنذار الروسى إلى لندن يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، وحاول إيدن — بعد وصوله — أن يحصل من واشنطن على وعد بحماية أوروبا إذا هاجمها الروس ، فلم يظفر بأى رد ، على الرغم من وجود خط تليفونى مباشر .

وذهب اللورد مونتباتن ، وهو أكبر الشخصيات العسكرية فى إنجلترا ، إلى قريبته الملكة ، وعرض عليها الهاوية المهلكة التى دفع إيدن بلاده إلى حاقها . فاستدعت الملكة رئيس وزرائها على الفور ، لكي يعرض عليها الموقف . ولما كان التاج البريطانى لا يتدخل فى إدارة الحكم ، لهذا لجأت الملكة إلى أسلوب غير مباشر لتعبر عن قلقها . فقد طلبت من رئيس الوزراء أن يستشير زعيم المعارضة ، وهو الأمر الذى تجاهله إيدن من أول الأمر . وفى إطار هذا الحق الدستورى ، علم مهندسو هذه الحرب أن الملكة ليست فى صفهم ، وخصوصاً بعد الإنذار الروسى .

ولهذا لم يكن بد من اتخاذ هذا القرار ، بإيقاف القتال البرى الذى دام مع الإنجليز والفرنسيين ٤٢ ساعة ، من الناحية الرسمية ، ولكنه ظل بعد ذلك من الناحية العملية ، حتى خرج آخر جندى من البلاد .

الدكتور فوزى فى ميلاده

وعلى الرغم من أن الدكتور محمود فوزى لم يتحدث ، ولم يكشف عن أوراقه ، حتى بعدمضى كل هذه المدة على العدوان ، فإن الكاتب الكندى الذى أرخ هذه الفترة كشف عن صحائف تستحق أن تروى . .

روى السفير الكندى فى القاهرة ، المستر نورمان ، أن الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية المصرية ، استدعاه وقال له :

— أريد منك أن تنقل إلى المستر بيرسون (وزير خارجية كندا) تقدير مصر العميق لما تميزت به كندا من استقلال . ولستنى أود فى الوقت نفسه أن أبلغك

أنا نرى من الحكمة والمصلحة كل من مصر وكندا ، أن لا تضم القوة الدولية المقترحة ، قوات كندية . فـكندا دولة عضو في جامعة الشعوب البريطانية كما أنها عضو في حلف الأطلسي . ونحن نعرض على اشتراك الدول التي تمت إلى المجموعات والأحلاف والارتباطات الإقليمية ، مهما كان شكلها ، في القوة الدولية .

ولما حاول السفير أن يناقش هذا الموقف بحججه قال له وزير خارجية مصر :

— القوات الكندية تدين بولائها للملكة إنجلترا . وهي ترتدى الزي العسكري البريطاني . ولا أشك لخطوة واحدة في الدوافع الكريمة التي حفزت كندا على عرض إرسال قواتها . وإن هذه القوات لن تأتي إلى هنا كقوات احتلال . ولكننا نحس بعقولنا الواعية ، ومشاعرنا ، بأن كندا عضو في جامعة الشعوب البريطانية . فرد السفير :

— ولكن ألا تنظرون إلى القوات المختلفة في تأليف القوة الدولية بنفس المنظار ؟ فرد الدكتور فوزي .

— لا . . ففي وسع الفرد أن يكون موظفاً دولياً . أما الجيش فيظل خاصاً بالامة التي ينتمي إليها . وعلى البلاد التي تود إرسال قواتها إلى هنا بموافقتنا ، أن تكون متحررة من كافة الالتزامات والارتباطات التكتيكية .

وكانت مصر في هذا القرار ، تستند إلى ما جاء في نص قرار هيئة الأمم من أن تأليف القوة الدولية ، يتم « بموافقة جميع الفرقاء المعنيين » .

وأبلغ السفير الكندي وزير خارجيته بما حدث ، وقال إن الجنرال بيرنز قائد القوة الدولية مُصِر على حضور قوة كندية ، وإلا فإنه يستقيل من مهمته .

واتصل وزير الخارجية الكندية بأتابرة عاصمة بلاده ، ودار الحديث التالي بينه وبين وزير الدفاع الكندي . . قال وزير الدفاع :

— اهتم الناس هنا اهتماماً بالغاً بمشروعك ، ولا ريب في أن العملية جهد عسكري من الدرجة الأولى ، وقد أعددتنا كتيبة ممتازة لإرسالها على وجه السرعة . فسأل بيرسون .

— أية كتيبة ياترى ؟ . . فرد وزير الدفاع .

— كتيبة حلة بنادق الملكة ١١ فصاح بيرسون .

— يا لله يابروك (كلاكستون وزير الدفاع) . . إن المصريين لا يريدون وحدات تحمل مثل هذه الأسماء في بلادهم ، ترى كيف يكون موقفهم عند ما يبلغهم أننا سنرسل لهم كتيبة الملكة . . لم لا تغير اسمها ؟

فصاح وزير الدفاع هاتجاً مائجاً ، عند سماعه ضرورة اختيار اسم آخر وقال :

— إذا كنتم هناك في نيويورك (مقر الأمم المتحدة) تعتقدون أن في وسعنا هنا ، ترضية للأمم المتحدة ، أو لرجل القاهرة (ناصر) الهزم بوحدة عسكرية مشهورة ، كذلك الوحدة ، بتغيير اسمها ، فأنتم مخطئون . . .

ورد عليه بيرسون :

— حسناً يابروك . أليست لديك وحدة أخرى ، تستطيع إرسالها ، ولا تحمل اسماً يدل على السيادة البريطانية ؟

فرد صاحبه :

— أجل . . . هناك كتيبة « الحراسة السوداء » !

فصاح بيرسون :

— انه أسوأ اسم عند العرب ، . على كل حال اترك الأمر لي وسأرى ما يمكن عمله . .

وكان الشيء الوحيد الذى يستطيع بيرسون الكندى عمله . هو أن يطلب عودة حاملة الطائرات « ماجنيفسنت » ، من عرض المحيط ، فقد أبحرت على ظهرها كتيبة بنادق الملكة بمعدات ١١

ويروى ليستر بيرسون ذكرياته عن هذه المواقف الحرجة بقوله :

« كان الأمر يكيون يقودون حملة المطالبة بإيقاف إطلاق النار ، والهنود يقودون حملة انسحاب القوات المتحاربة فوراً ، وأى تردد من جانب الانجليز والفرنسيين يعرضهما لقرار إجماعى بفرض عقوبات ، منها العقوبات الاقتصادية . . والوفد

الكندى لم يكن يسمح بوصول الدولتين إلى هذا الموقف المهيمن ، وكان القصد من صورة القوة الدولية هو تجنب هذا الازلال .

« وقد اصطدمنا مع المصريين لأن الجمعية العامة ، سجلت على نفسها اعترافها بسيادة مصر غير المحدودة على أراضيها (طبعاً ١١) كما وافقت على أن يكون وصول القوة الدولية إلى المنطقة مقروناً بموافقة الأطراف المعنية كلها وتبادل الأمين العام — همرشولد — نحواً عن عشرين برقية في ثلاثة أيام مع القاهرة حول هذا الموضوع وكانت النتيجة أنه لا يمكن عمل شيء دون رضا مصر وموافقتها ، .

وعند ما اجتمعت اللجنة الاستشارية التي كلفت بمعاونة همرشولد في مهمته ، قال مندوب الهند في مواجهة اعتراضات كندا والترويج :

— إننى لا أستطيع أن أرى كيف يمكن للأمم المتحدة أن ترغب في فرض شروطها على بلاد تعرضت للعدوان من الآخرين . .

فرد بيرسون الكندى :

— أننا لانفرض شروطاً . . أننا نحاول مساعدة مصر .

وحلا لهذا الاشكال حزم همرشولد حقائبه وطار إلى القاهرة .

وكان كريشنا مينون لا يترك تليفونه في نيويورك ، وهو متصل بالديكتور فوزى وأخيراً توصل إلى حل . قد يرضى كندا بعض الرضا ، وهو أن مصر قد تقبل سيارات كندية ، أو طائرات نقل . .

وكما منعت مصر كندا من الاشتراك في القوة الدولية ، كذلك اعتذرت عن إشراك قوة باكستانية ، لأنها عضو في الأحلاف . . ووافقت على إشراك البرازيل وكولومبيا أو الدول الاسكندنافية وفنلندة :

وأخذت طلائع القوات تصل ، وعين ضابط اتصال مصرى ليشرف على تحركاتهم . .

وتأزمت الأمور فجأة ، فقد أعلنت مصر أن الأعداء لم يبدأوا الانسحاب ، وأنها ستواصل القتال ، وأعلنت وكالة تاس في موسكو أن أعداداً كبيرة من المواطنين

السوفيات تضم أفراد القوات الاحتياطية والطيارين وسائقى الدبابات ورجال المدفعية ، أصبحوا متأهبين للسفر متطوعين فى صفوف القوات المسلحة المصرية . . وأن الحكومة السوفياتية لا تستطيع منعهم .

وذعرت الأمم المتحدة ، وصاح أقطابها يطلبون من الولايات المتحدة التدخل .. وصاحت قيادة حلف الاطمانطى بضرورة عمل شئ . يسمح بتدفق البترول مرة أخرى من الشرق الأوسط ، لأن طائرات الحلف توقفت . . لا وقود .

وكان مطلوباً من أيزنهاور أن يتدخل لدى مصر لإقناعها بأن تسمح لوحدات من البحرية الانجليزية والفرنسية بتطهير القنال لأنها أقدر من غيرها على هذا العمل ، فعلق إيزنهاور ساخراً :

— هذا كلام فارغ . فالإيطاليون أكثر خبرة من غيرهم فى عمليات التطهير . وقد خبرت هذا بنفسى أيام خدمتى العسكرية فى افريقية الشمالية .

وطار سلوين لويد الإنجليزى وبينو الفرنسى إلى أمريكا لمحاولة مقابلة إيزنهاور . ولكنه رفض هذه المقابلة ، حتى يتم تنفيذ قرار هيئة الأمم بالانسحاب .

وفى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ بدأ انسحاب المعتدين ، تحت ضغط المقاومة فى بورسعيد ، وضغط الحاجة إلى البترول ، لا فى فرنسا وإنجلترا فقط . ولكن فى أوروبا الغربية كلها ولا سيما إيطاليا وألمانيا ، وضغط المعارضة فى بريطانيا ، ومرض إيدن الذى اضطره إلى أخذ اجازة والسفر إلى جمايكا للاستشفاء ١١

ومن فكاهات تلك الساعات الحرجة ما دار فى مجلس العموم البريطانى . عند ما وقف أحد الأعضاء ، وسأل : متى تسمح أمريكا لرئيس وزرائنا (إيدن) بالعودة من جمايكا ١١ وصاح عضو آخر يقترح هازناً ترشيح إيدن لجائزة نوبل للسلام ١١ وفى يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٥٦ تم انسحاب آخر جندى أجنبى من بورسعيد .

وعلى الفور وافقت الولايات المتحدة على دفع قرض فوري لإنجلترا ، ووافق صندوق النقد الدولى على تقديم ١٣٠٠ مليون دولار على قسطين .

وكان اللجنة الاسترلىنى قد انهار انهياراً خطيراً ، برر هذا الدعم . وكان إيدن قد عاد من جمايكا فى منتصف ديسمبر ، ولم يرض من الغنيمة بالإياب الذليل ، بل حاول أن يلعب بذيله كما يقولون ، فى انتفاضة يأس ، فطلب من لندن

الأمين العام لهيئة الأمم ودار بينهما الحديث التليفوني التالي^(١) :

إيدن : أنا إيدن . أحدثك من مكنتى هنا فى لندن ، ومعى اللورد مونتباين قائد الأسطول البريطانى . إننا نبحث معاً موضوع السفينة البريطانية الموجودة فى بور سعيد .

همرشولد : أية سفينة ؟ ؟ ؟

إيدن : سفينة التطير التى تعرفها ، إنها سفينة ممتازة . لكن هناك مشكلة واحدة.. مونتباين يقول إنها تحمل أحد المدافع على ظهرها .

همرشولد : إذن لا يمكن استخدامها . إذ لا يسمح لأية سفينة عسكرية بالمضى إلى القتال . فقرار وقف إطلاق النار ، يحول دون وجود أية أسلحة .

إيدن : أجل أعرف هذا . ولكن المدفع يكون تابعاً للأمم المتحدة .

همرشولد : ماذا تقول . . . مدفع ، وللأمم المتحدة ؟

إيدن : أنا أعنى أن المدفع للأمم المتحدة . بل لنفترض أنه سويدي . إنه من طراز بوفرز .

همرشولد : . . . آه . . . فهمت . ولكنى آسف على كل حال . . لا يمكن استعمال السفينة حتى لو كان المدفع لدولة محايدة .

إيدن : ظننت أن هذه السفينة قد تكون نافعة لكم .. كنت أتحدث مع مونتباين كما قلت لك ، وشعرت أن واجبى أن أحدثك تليفونياً . وأن أنقل لك ما يتعلق بها . . هل لى أن آمل منك إعادة النظر فى هذا الموضوع . .

همرشولد : لا أستطيع إعادة النظر فى موضوع كهذا . .

إيدن : . . . إذن وداعاً ؟

ولقد ملأت هذه المواقف قلب المعتدين بالحقد على همرشولد . وكانوا يسمونه همرشولد المصرى . . . ولهذا لم تدهش دوائر القاهرة ، عند ما علمت ، أن حادثاً « غامضاً » وقع بعد سنين لهمرشولد ، وهو يطير من الكونجوقضى على حياته . . .

(١) نص الحديث كما ورد فى كتاب (أزمة السويس) ص ٣٨٣ .

لقد دفع ثمن استقامته وصراحته ، وعدم انسياقه في طريق الآثمين . . وهو نفس الثمن الذى دفعه برنادوت في فلسطين . إننا لا نملك الدليل على أن الصهيونيين قتلوا همرشولد . ولكننا نملك الدليل على أن الاغتيال هو أحد أساليب الصهيونية .

المصير . . .

اندحر العدوان ، وارتد عن الشواطئ والحدود المصرية ، وتجرع منظموه والقائمون به كؤوس الخذلان . . وارتدوا لبحثوا عن وسيلة أخرى لضرب القومية العربية ضربة أكثر إحكاماً وهو ما حدث عام ١٩٦٧ ، أى بعد عشر سنوات من اندحار العدوان الحالى الذى ندرسه الآن .

وفي تقييم هذه المعركة نذكر أنه لم يحدث أن تجمع هذا الحشد العسكرى ، ولا هذه الأساطيل ، ولا هذه الطائرات لغزو أمة خارج القارة الاوربية . .

لم يحتج استعمار الهند ، أو الملايو ، أو الهند للصينية في آسيا ، ولم تحتج حرب البوير أو حروب السودان إلى هذه القوى أو ما يقاربها . وعندما استولت فرنسا على شمال أفريقية ، لم تجمع هذه القوة في مرة واحدة . .

وكانت معركة السويس أول معركة من نوعها في التاريخ يكون من معداتها السلاح بأحدث أنواعه في جانب ، والسلاح والرأى العام العالمى في جانب ، ثم ينتصر الجانب الذى معه عطف الأمة الإنسانية . . . هذا العطف الذى تحول إلى عمل في مناطق كثيرة . . تحول إلى منزع البترول من التدفق على المعتدين ، وعلى معظم أوروبا . . وتحول إلى خلل واضطراب كامل في سير الملاحة العالمية . . وتحول إلى تهديد جاء من موسكو بأن تزيل قنابلها الذرية لندن وباريس من الوجود . وتهديد جاء كذلك من بكين بأن تستنزف الدم البريطانى في هونغ كونج حتى آخر قطرة منه يمكن أن تصل إلى المحيط الهادى ، وتهديد ، بل تدمير لمركز الجنيه الإسترلينى ، حتى احتاج دعمه في أسابيع قليلة إلى ما يقرب من مليار من الجنيهات ، وتفكيك لعرى جامعة الشعوب البريطانية (الكومنولث) حتى كادت تتساقط . فلا تقوم لها قائمة .

وكانت مقاومة مصر ، والتصميم الذى استقبلت به العدوان ، مثلاً عظيماً ضرب

لجميع الشعوب التي تخوض معارك الحرية ، مثلاً سارت على أثره الجزائر ، فلم يقو نصف مليون جندي فرنسي على إخضاعها وما لبثت الجزائر أن فازت وانتصرت ، ومثلاً احتذته فيتنام ، وها نحن أولاء نرى ما يقرب من نصف مليون جندي أمريكي ومتحالف معها عاجزين عن إخضاع الحنأة العراة من أبناء هذا الشعب الباسل ، ومثلاً سار على هديه أبناء الجنوب العربي ، وهم يلهبون الاستعمار البريطاني ومعاونيه بسياط ثورة نبيلة رائعة . .

إسرائيل . . هذه

إن المتتبع للنشاط الدولي الضخم خلال معركة العدوان عام ١٩٦٥ ، يجد مصر قد ركزت كل حربيها ، وكل ضغطها على دولتي العدوان : إنجلترا وفرنسا . . أما إسرائيل فقد ظلت في كل هذا النشاط كما مهملاً ، أو شيئاً ليس في الحساب على الإطلاق . . ذلك أن إسرائيل ، كانت في عملية السويس بمثابة الظل ، فتى زال الأصل ، اختفى الظل على الفور .

ولقد بعث هذا الموقف المتعالي من مصر ، المشوب بالاحتقار والازدراء ، دماء الغضب المجنون في عروق بن جويون ، فراح يزعم أن عملياته العسكرية ، في سيناء ، ما هي إلا درس يلقى في المعاهد العسكرية ١١ .

ولكن قائده مرشي ديان ، أحس بأن مذكرات سمحوني القائد القليل تلهب وجهه وقفاه ، فلم يلجأ إلى الصراخ والصياح ، ليقول : نحن هنا . . وإنما ذكر فيما ذكر ، أنه لولا أن فرنسا وإنجلترا شجعتنا على مهاجمة مصر ، لما تحركت جنودنا عبر حدود سيناء . ثم راح يدرس كيف يحسن وسائل بلاده العسكرية ، لكي تستطيع أن تخوض معركة منفردة ، واحتاج هذا الإعداد إلى عشر سنوات كاملة .

ومعركتنا مع إسرائيل في عام ١٩٥٦ ، انتهت بانسحابهم ، بعد أن صاححت فيهم هيئة الأمم صيحة منكرة ، وبعد أن زارت أوروبا وأمريكا تأمرهم بالانسحاب فوراً : حتى تسمح مصر بتطهير القنال ، والسماح للبترول الثمين بالمرور . أن مصر كانت تضغط على عنق الغرب كله ، فلم تتعجل تحريك جندي لشرق القنال ، قبل الأوان . .

ولقد كان انسحاب اليهود من سيناء ، يدل على طبيعتهم . . فقد نهبوا كل شيء كان في وسعهم حمله معهم . . جميع منشآت البترول ، وموجودات محجر الطور ، ومعدات مناجم المنجنيز ، وأعمدة التليفون وأسلاكها . . كل هذا حملوه معهم . .

حتى دير سانت كاترين ، أغاروا عليه ، وحملوا نفائسه ومقتنياته القديمة المقدسة لدى العالم المسيحي كله . . وكان الضباط الذين قاموا بهذه العملية القذرة ، غاية في الصلف وسوء الخلق مع رجال الدين المسيحي هناك .

وفي طريق عودتهم الذليلة أحضروا محاريث أزالوا بها الأسفلت من الطرق المرصوفة ، وحطموها ، ولغموها وراءهم ، خشية أن تسكر عليهم القوات المصرية .

وقد قاموا بنفس هذه الفظائع ، في منطقة غزة وشرم الشيخ ، مضافاً إليه النكال الذي أوقعوه بالسكان . . وهي أمور تذكر مرة أخرى بدير ياسين ، وتضاف إلى القائمة السوداء ، التي لن ينسى العرب أنها ستكون مما يحاسب عليه مجرمو هذه الحرب .

وكان جلاؤهم عن العريش في ١٤ يناير عام ١٩٥٧ . . وانسحابهم النهائي من قطاع غزة وشرم الشيخ في ٦ و ٧ مارس . .

وقد بذلوا أقصى ما يمكن من جهد ، لكي تتسلم القوة الدولية التابعة لهيئة الأمم الإدارة في قطاع غزة . .

وبعد صلاة الجمعة يوم ٨ مارس عام ١٩٥٧ خرجت من الجامع العمري الكبير في غزة مظاهرة كبرى ترفع صور الرئيس عبد الناصر ، وتطالب بعودة الإدارة المصرية فوراً . . واستمرت المظاهرة ، في الأيام التالية ، وصعد شاب من أبناء يافا اللاجئين ، هو محمد المشرف ، إلى سطح دار القيادة في غزة ، وأنزل علم الأمم المتحدة ، ورفع علم مصر ، فأطلقت عليه رصاصة من أحد جنود الأمم المتحدة ، فقتل . . وكانت دماء هذا الشهيد ، تعبيراً صارخاً عن رغبة الرأي العام في القطاع ، وأصدر الرئيس عبد الناصر قراراً بتعيين اللواء محمد حسن عبد اللطيف بأن يكون حاكماً لغزة ، وقد وصل إلى غزة يوم ١٤ مارس . . وبذا هدأت الحالة واطمأن الشعب الفلسطيني .

...وانجلترا

كان الجنرال الكسندر ، هو القائد العام الذى أشرف على معركة العلبين عام ١٩٤٢ وقد ظل بعد تركه الخدمة على اتصال بالسياسى العجوز تشرشل ، وعدم من بطانته المقربة .. وعندما سئل فى عام ١٩٥٦ ، عن القوة والوقت الذى يحتاجه إخضاع مصر ، قال : — إخضاع مصر يحتاج إلى فرقتين على الأكثر وعشرة أيام ١١

ويبدو أن تشرشل تأثر بآراء هذا القائد ، حتى وافق على الحملة أول الامر بحماسة .. ولكن كلا الرجلين كانا يعيشان بمعلومات يرجع تاريخها إلى ١٤ سنة ماضية ، عندما أدارا معركة العلبين ..

والغريب أن هذا الوهم ، ساور أيضاً قواد الحملة . فقد كان من رأى الجنرال ماسو الفرنسى أن من الممكن الوصول إلى احتلال قنال السويس كلها فى ٤٨ ساعة .. وقال سلوين لويڤ للصحفيين الأمريكين وهو موجود فى نيويورك : إن كل ما كانت قوات العدوان فى حاجة إليه هو ٤٨ ساعة ، إن الوصول إلى السويس من بور سعيد يحتاج إلى سبعة أيام ١١

والذى أثبتته الواقع ، دل على أن مصر رتبت نفسها على حرب طويلة الأمد ، وهذا هو السبب فى توحيد جهة القتال ، وعدم خوض المعارك الكبيرة إلا بعد أن تخرج قوات العدو من تحت حماية الأسطول ، وتنظيم حرب الشوارع جعل الاستيلاء على بور سعيد يتطلب هدمها حجراً بعد حجر . . وكان هذا باعثاً لقيادة العدو ، كي تعيد تقدير موقفها ، وخططها . وهذا الاختلاف الكبير فى تقدير قوة مصر المحاربة ، وقوتها السياسية فى نفس الوقت ، هو الذى دعا إلى إدخال ١٧ (سبعة عشر) تعديلاً على خطط الغزو ، بما لم يحدث له مثيل فى أى حرب من الحروب .

وقد قال الصحفي راندولف تشرشل (ابن ونستون تشرشل) فى كتابه عن سقوط ليدن ما نصه :

« إن القادة العسكريين البريطانيين كانوا لا يعرفون بالضبط كفاية القوات المصرية ، ضباطاً وجنوداً ونظاماً وتسليحاً ، .

ويرى هذا الكاتب أنه لو عمد ليدن إلى فرض نظام البطاقات لتوزيع البترول ومواد التموين الرئيسية ، بعد تأمين القنال مباشرة لتمكنت بريطانيا من مواجهة

الآزمة وحالة الطوارئ، وهي تملك مخزونات ضخمة من المؤن، ولكان احتياطها من الدولار كبيراً. هذا بالإضافة إلى أن اتباع سياسة كهذه، من الناحية النفسية، يشعر الشعب البريطاني بما هو مقدم عليه.

وهذا رأى لا يجد ما يسنده. إذ كيف تعتمد حكومة في إنجلترا إلى تقييد استعمال البترول، في وقت تسير فيه الملاحاة في القتال بآتم نظام، ويتدفق البترول كالمعتاد من موانئه !! إن اتباع سياسة كهذه كان يكون مدعاة لسخرية الرأى العام البريطاني، لا لتعبئته للمعركة.

والذى يمكن أن نقوله، كخطأ أساسى في إدارة هذه العملية العسكرية ضد مصر، والذى أكسبنا المعركة فعلا، هو :

أولا : الخطأ الفادح في اعتماد إيدن على آراء بعض الحاقدين على ثورتنا، وزعمهم أن ضرب المدن بالطائرات، سوف يكفى وحده، لإنقلاب الرأى العام المصرى عليها، وإسقاط حكومة عبد الناصر..

والرأى العام المصرى، يعلم أن عبد الناصر خاض معركة الجلاء وإزاحة الملكية والأحزاب والإصلاح الزراعى، وخاض معركة تسليح الجيش من الاتحاد السوفياتى، ومعركة تمويل السد العالى، ومعركة تأمين القنال، والتأهب لمنازلة إسرائيل، لا لى يستمر حاكماً، ولكن لى يخدم مواطنيه.. كل مواطنيه.. فكيف ينقلب عليه شعبه ١٩..

لقد زعم كتابهم إنه كان فى الإمكان تأليف حكومة أخرى، تحت أزيز الطائرات وانفجار القنابل.. ولكن هذا كان أمراً مستحيلاً بالنسبة لخلق هذا الشعب الذى لم يسبروا أغواره بعد، وبالنسبة لطبيعة المعركة.

ولهذا عجب إيدن فى مذكراته، لأن الثورة ضد الحكومة لم تقم فى مصر !!

ثانياً : والغلطة الكبرى الثانية التى ارتكبها إيدن، هو أنه سمح لإسرائيل بأن تشترك فى المعركة، وإسرائيل بالنسبة للعالم العربى، مثار اشمئزاز كل عربى.. وقد حرك وجودهم فى المؤامرة، ضمير كل مسلم من ٥٠٠ مليون مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها، وهذا فضلا عن أعداء الصهيونية فى أنحاء العالم، وهم عدد كبير جداً فى كل دولة، ومن بينها أمريكا نفسها.. وألمانيا التى يستقر فى أعماق معظم أفراد شعبها ما ذاقوه من ذل على أيدي اليهود بعد هتلر..

وكانت نتيجة الهزيمة التي منى بها العدوان ، أن تحقق ما تحدث به ماكيلان إلى روبرت فور في المبعوث الخاص لاينهاور ، من أن إنجلترا ستصبح مثل هولندا . . . أى دولة صغيرة . . . والذي حدث هو أكبر مما تخيل ماكيلان ، فإن إنجلترا تحولت إلى بلد مسلوب الإرادة بالنسبة للولايات المتحدة . . . ولهذا نحن نراها تستجدي وجودها في السوق الأوروبية المشتركة ، وفرنسا ترفض بكبرياء . . . وعلى الرغم مما هو معروف من أن حكومة العمال ضد العدوان الأمريكي على فيتنام ، إلا أن رئيسها ويلسون ، كان كلما أراد مناقشة هذا الموضوع مع جونسون رئيس الولايات المتحدة ، أقفل السماع في وجهه ، تليفونيا . . . وكاد يرفض مقابله ، عند زيارته لأمريكا . . .

لقد تضائل شأن إنجلترا ، بعد عدوان السويس ، إلى حد أننا قطعنا العلاقات معها مرتين بعد الجلاء ، مرة بمناسبة العدوان ، ومرة بمناسبة قرار الدول الأفريقية بخصوص روديسيا ، وقد حمل سفيرها حقائبه مع موظفيه في المرتين ، ورحل عن بلادنا ، وذكريات الماضي تطوف بخياله . . . الماضي الذي كانت إشارة من أسلافه تقيم دنيا الحكم في مصر وتعقد لها ١١ وسبحان مغير الأحوال . . .

أما لايدن . . . شبح الماضي ، الذي أراد أن يعيش بعد النصف الثاني من القرن العشرين ، فقد اعتزل الحكم ، واعتزل السياسة ، وسافر بعد استقالته من رئاسة وزارة المحافظين وحزبهم ، إلى نيوزيلندة ، أقصى بلاد الدنيا ، يجتر آلامه ، ويدون مذكراته ، التي بدت مليئة بالكذب والتلفيق ضد مصر ، والحملة المرة ضد الولايات المتحدة . . .

... وفرنسا

لم يتحقق لفرنسا ما أرادته من إخضاع الروح العربية ، بضرب مصر حتى الهزيمة ، وكانت النتيجة ، أن انهارت الجمهورية الرابعة ، وقام على أنقاضها ديغول وعهده ، الذي استطاع في شجاعة أن يسحب بلاده من الجزائر ، وأن يقيم سياسة جديدة في أوروبا ، تحارب السيطرة الأمريكية . . .

وقد دارت إسرائيل حول السياسة الديبلوماسية . . . ولكن ديغول منع هذه الصلات المريبة المشبوهة التي كانت تبثها إسرائيل عن طريق بعثاتها وعملاتها في جميع أجهزة الحكم

الفرنسية . ولا سيما إدارات الجيش . وجعل علاقتها قاصرة على وزارة الخارجية ،
شأنها شأن الدول الأخرى . . .

وما أن أحست إسرائيل ، أنها غير قادرة على امتصاص ما تريده من عصارة الليمونة
الفرنسية ، أخذت تتجه تدريجياً ، إلى الولايات المتحدة . . وهو وضع لا يرتضيه
ديجول ، الذى يواجه السياسة الأمريكية فى موقف صلب لا يلين ، وقد فضلت إسرائيل
أن تبيع علاقتها بفرنسا ، وما اغترفته من ترساناتها ومصانعها ، لتشتري مرة أخرى
ود أمريكا . . وإذا بحكومة جونسون تفتح بدورها ترساناتها لإسرائيل لكي تغترف
ما تشاء من السلاح . .

وعندما امتنعت شركة رينو الفرنسية للسيارات عن تجديد عقدها مع
إسرائيل استجابة للمقاطعة العربية ، اتجهت إسرائيل إلى توجيه نداء لليهود فى جميع
أنحاء العالم ، كي لا يشتروا السيارات الفرنسية . . وبجهد بالغ لم يصدر هذا النداء
بطريقة علنية ١١

وهكذا اتضح لفرنسا أن إسرائيل سلعة لمن يشتري ، ويدفع أكثر . . . وهكذا
ينتظر للعلاقات الفرنسية العربية أن تنمو وتزدهر مرة أخرى ، وقد بدأ هذا التحسن
فى العلاقات منذ اتفاق التعويضات عن أسهم قناة السويس الذى قبلت فيه مصر أن
تدفع ٢٨٣٠٠ و ٠٠٠ جنيه للمساهمين القدامى على ست سنوات أى أقل من دخل عام
عند التأميم ، وأقل من ثلث دخل عام بعد عشر سنين من العدوان . وكان توقيع هذا
الاتفاق فى ١٢ يوليو سنة ١٩٥٨ .

وبعد مضي هذه الأحداث ، رأينا باريس تستقبل آثار الفرعون المصرى « توت
عنخ آمون » بحفاوة كبرى ، وتفتح صدرها وذراعيها لنفحة من نفحات المجد المصرى
القديم ، وذلك على أثر زيارة وزير الثقافة الفرنسى مارلو للقاهرة ، الذى أبدى تقديراً
كبيراً لتقدم مصر ونهضتها .

كما رأينا فرنسا تقف بزعامة ديغول موقف حزم ووفاء لكلمتها ضد العدوان
الإسرائيلى على مصر فى عام ١٩٦٧ ، وتوقف صفقة طائرات حربية لإسرائيل ،
ثم توقف قطع الغيار والذخيرة . .

وتحاول إسرائيل جاهدة أن تعوض هذا النقص من سبع مصانع أخرى لقطع غيار
الطائرات الفرنسية خارج فرنسا منها مصنعان فى جنوب أفريقية وأستراليا وهما بلدان
معاديان لنا . .

إسرائيل

من ١٩٥٧ إلى ١٩٦٧

إنتهت حرب العدوان الثلاثي ، بانسحاب القوات المعتدية من مصر ، وتصفية هذه المعركة الخائبة في أوائل عام ١٩٥٧ . وفي خلال الأعوام العشرة التالية تمكنت إسرائيل من دراسة بنيتها الداخلية ، والتعرف على الأسباب التي أدت إلى سقوطها في امتحان القوة الذي خاضته مع مصر في صحراء سيناء لقد صاح بن جوريون صيحات الفخر بأن قواته تمكنت من الوصول إلى قنال السويس . ولكن كان هذا الكلام للتصدير إلى يهود العالم خارج إسرائيل . أما في الداخل ، فقد تصارع القوم بينهم وبين أنفسهم بالحقيقة حتى أن أحدهم قال إن إسرائيل كانت في هذه المعركة أشبه براكب الدراجة ، الذي تشبث بسيارة منطلقة ، تسحبه إلى أمام دون أن يبذل جهداً في تحريكها . . . ويعني بالسيارة المنطلقة جيوش إنجلترا وفرنسا ، ويعني بالدراجة جيش إسرائيل .

نظام التعبئة اليهودي

ونظام التعبئة اليهودي كان أول ما اتجه إليه النظر فقد وضع على الورق ، بطريقة تبدو فيها الدقة والأحكام ، وهذا بيان له ، يجب أن نعرفه ، وأن نؤمن النظر فيه إذ أن معرفة العدو على حقيقته أول خطوة في سبيل التغلب عليه .

وصف بن جريون التنظيم العسكري الإسرائيلي بأنه أشبه بجبل الجليد العائم في الماء لا يبدو منه إلا قمته ، أما كتلته الكبرى فتظل محتبئة تحت الماء . . . وهو يعني بقمة هذا الجبل ، الجيش النظامي . أما كتلته الأساسية ، فهي جيش الاحتياط .

وتقوم التعبئة العسكرية في إسرائيل على قاعدة تجنيد الفتيات والشبان دون تفرقة بين الجنسين ، في التدريب ، وإن كان هناك شيء من التفرقة في توزيع الأعباء بعد ذلك . .

وتبدأ صلة الفرد الإسرائيلي بالعمل العسكري على النحو الآتي :

١ — من سن ١٦ إلى سن ١٨ سنة يلتحق جميع الشباب من الجنسين بكتائب الشباب التي تسمى «الجدناع» بالعبرية . وهي تضم طلبة وطالبات المدارس العادية وتختار منهم قنات تحول إلى معاهد عسكرية فنية للتخصص في المهارات التي يحتاج إليها الجيش ، من قيادة سيارات وصيانة ، وطيران وهندسة طيران وصيانة جوية ، وأعمال البحرية بكافة فروعها ، وعلوم الالكترون ولا سيما الرادار والإشارة ، والتدريب على الأسلحة المختلفة وصيانتها والذخيرة وإنتاجها ، وبعض أعمال الهندسة المدنية من إنشاء وخرسانة ، وقياس أحمال وما إلى ذلك .

ويختار فريق آخر من هذا الشباب ، للتدريب على عمليات التجسس في مدارس خاصة ، وتشمل هذه الدراسة تعلم اللغات المطلوبة ، وعمليات التسمع والتصوير النهاري والليلي ، والأخبار السرية ، والإرسال اللاسلكي والاستقبال . كما تشمل عمليات التخريب والنسف ، وقراءة الخرائط ، والإغارات الليلية وأعمال الاستطلاع ، والهبوط بالمظلات ، والتسكّر . . . وهذا الفريق من الشباب ، وإسمه «الناحال» يتدرج أفرادهم إلى مستويات أعلى من التعليم حسب قدراتهم ليكونوا ضباطاً دائمين في الأقسام الفنية بالقوات المسلحة .

٢ — التجنيد الإجباري الذي يكون الجيش النظامي يبدأ من سن ١٨ إلى ٢٠ سنة ، وكانت فترة التجنيد تمتد إلى عامين ونصف (٣٠ شهراً) ثم انقصت ستة أشهر لزيادة تعزيز الجانب الأهم من القوات المسلحة ، وهو جيش الاحتياط .

ويضم الجيش النظامي الضباط الدائمين بمختلف رتبهم ، الذين يتولون مسؤولية العمل العسكري كله إلى جانب المجندين .

٣ — ويأتي بعد هذا جيش الاحتياط ، وهو يتكون من جميع الذين أدوا الخدمة الإجبارية ، ويستمررون أعضاء في جيش الاحتياط حتى سن ٤٩ سنة . أي أن صلتهم بالقوات المسلحة تستمر حوالي ثلاثين سنة .

وحدات جيش الإحتياط ، وحدات إقليمية مرتبطة بأماكن السكن والعمل . فالإسرائيليون في بلدة أشدود مثلاً أو الفالوجة ، يكونون قوة الإحتياط في أشدود أو الفالوجة موزعة إلى كتائب وألوية بحسب عددهم ، وتخصصاتهم العسكرية . وبهذا يسهل استدعاؤهم بمعرفة رؤسائهم العسكريين المحليين ، وعسودتهم إلى أعمالهم بعد ذلك . . .

ويكلف جندي الاحتياط ، بأن يذهب لمدة يوم كل شهر إلى مقر قيادته ليثبت وجوده ، ويصحح ظروف معيشته إن كان طراً عليها أى تعديل . وعليه أن يلتحق بوحدة لمدة شهر كل عام ، يقوم خلالها مع زملائه بالتدريب على السلاح الذى يعمل به . أو آخر تطور وصل إليه هذا السلاح وأصبح فى حوزة إسرائيل .

وتجرى فى إسرائيل مناورات سنوية تستمر من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع يشترك فيها الجيش النظامى ، وجيش الاحتياط ، وكتائب الشباب ، ووحدات الناحال ، وحرس قرى الحدود التى سنتكلم عنها فيما بعد . وفى هذه المناورات يتم التنسيق بين كافة عناصر الجيش ، وكافة أسلحته ، وتظهر هذه المناورات السنوية مدى الاستفادة من كافة الطاقات البشرية ، ووجه النقص فيها ، ومدى المرونة فى تحركاتها ، فتسد الثغرات ، لتختبر مرة أخرى فى المناورات القادمة .

وأهم ما تعنى به القيادة الاسرائيلية إلى جانب التدريب النهارى والليلي ، سهولة استدعاء المجندين للإلتحاق بوحدهاتهم ، فى سرية تامة ، وبإشارات شفرية فى الراديو ، وبالتلغراف ، وبالاتصال الشخصى حسب ظروف الأحوال .

كما أن حسن توزيع الأسلحة ، وصيانتها من الأمور التى تلقى عناية كبيرة . فالأسلحة الصغيرة تترك لدى الجنود النظاميين والاحتياط مع كميات مناسبة من الذخيرة . والأسلحة المتوسطة والثقيلة ومعدات النقل توجد تحت تصرف القيادة المحلية فى مراكز التجمع .

٤ — وهناك تشكيل أخير ، لا يقل أهمية عن سابقه ، وهو حرس القرى والمزارع على الحدود . وإذا عرفنا أن إسرائيل كلها تكاد تتكون من حدود ، وإنها قرى مغتصبة من أصحابها الذين يقيمون على مرمى حجر منهم ، تبينت أهمية تكوين دروع واقية فى هذه القرى من الغارات العربية المفاجئة .

وتسمى هذه القوات «بالحامار» أى القوات الأقليمية . وقد أنشئت مستعمراتها بحيث تكون حصوناً ، ومخاضاً قادرة على الصمود ، ولها مسالك خروج غير مرئية ، حتى إذا دومت ، تمكن الأهالى من التسرب من مسالك أرضية ، وتطويق المهاجمين ، إذا تغذر وصول النجديات ، وتيسر اقتحام المستعمرة .

ولا يشترط أن يكون تسليح هذه القرى بأحدث الأسلحة ، إذ أنها فقط عوامل تعويق ، وتكفى فيها الأسلحة المستغنى عنها ، مع كميات كبيرة من ذخيرتها .

تجربة ١٩٥٦

ويبدو هذا الكلام على الورق منمقاً ودقيقاً . ولكن تجربة « زاهال »^(١) ، — وهو اسم الجيش اليهودى بالعبرية — عام ١٩٥٦ أثبتت أن التخطيط على الورق شيء ، والتجربة على الطبيعة شيء آخر .

ومذكرات القائد « آصاف سمحوني » ، التى تحدثنا عنها قبل ، ليست الدليل الوحيد على هزال هذا التكوين ، ولكن العجز الكبير عن مواجهة واقترحام المراكز المصرية فى سيناء كان دليلاً واضحاً على أن الأمر لا يسير كما قدر اليهود .

يبلغ تعداد الجيش النظامى اليهودى من ٦٠ إلى ٨٠ ألف فرد ، ولكن جيش التعبئة الكاملة وصل إلى ٢٦٤ ألف فرد ، أى حوالى ١١ ٪ من عدد السكان .

وقد كلف موسى ديان — بعد حرب ١٩٥٦ — بأن يتولى دراسة ظروف جيش الاحتياط ، ومظاهر الضعف فيه . . . وتبين من هذه الدراسة أن نقص الاعتمادات المالية ، جعلت التدريب السنوى شكلياً تقريباً ، فألح فى طاب اعتمادات كافية ، وأن يكون التدريب بالذخيرة الحية ، وفى مدى عشر سنوات ، أى بتدريب هذه الكتلة الكبيرة حوالى عشرة أشهر مستمرة . غير فترة المناورات ، أمكن سد الثغرات فى هذا التنظيم ، وكفالة فاعليته .

وفى الدراسة العميقة الممتعة التى قام بها القائد العراقى اللواء الركن محمود شيت خطاب ، وألقاها محاضرات فى معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، فى هذه الدراسة نظرات نافذة على الموقف العسكرى فى إسرائيل قال^(٢) :

« لى لا تتضاعف نفقات إسرائيل العسكرية . ولستى تحصل على الفائدة الكاملة المرجوة من المبالغ التى تنفقها على قواتها المسلحة ، فإنها تعتمد على العسكرىين الاحتياط . والذين لا تدفع لهم الدولة رواتب معينة ، هم العسكرىون النظاميون فقط .

(١) هذه الكلمة اختصار لكلمات : زهاها — هاجاناه — لى — إسرائيل .

(٢) صفحة ٦٧ وما بعدها من كتاب الوجيز فى العسكرية الاسرائيلية —

وهؤلاء يكونون العمود الفقري لجيش الدفاع الإسرائيلي في وحدات هيكلية [أى تضم الأشخاص المهمين فقط من ضباط وضباط صف دون الجنود عدا عدداً قليلاً منهم] . وتكمل أثناء التدريب السنوى أو الحرب بالعسكريين الاحتياط من ضباط ، وضباط صف وجنود .

« وبما أن مساحة إسرائيل صغيرة نسبياً ، وبما أن أعداءها يطوقونها ، فمن الضروري أن يكون تغيرها فعالاً وفورياً . لذلك يقتضى أن يكون جنودها الاحتياط ، وضباطها ، وضباط صفها الاحتياط قادرين خلال ساعات قلائل من دعوتهم ، أن يكونوا تحت السلاح فعلاً .

« وبالإضافة إلى ذلك ، فإن سكان إسرائيل قليلون نسبياً . لذلك فهى لا تتحمل أعباء جيش نظامى ثابت كبير يكفى للدفاع عنها ، ولصد هجوم مفاجئ . لذا عاجلت هذه المشكلة بالعسكريين الاحتياط ، رجالاً ونساء ، المدربين على واجباتهم العسكرية ، ومنها الالتحاق بوحداتهم بأقصى سرعة ممكنة بعد دعوتهم للخدمة العسكرية . وهؤلاء يقضون أوقاتهم عندما يكونون خارج الخدمة العسكرية فى أعمالهم الإنتاجية فى مجال الاقتصاد الوطنى .

« وخطة نفير [تعبئة كاملة] لإسرائيل مقتبسة من خطة حربية وضعها الملك سليمان قبل ثلاثة آلاف سنة ، وهذه الخطة الحربية — كما تنص عليها الكتب المقدسة لليهود — تتلخص فى أن الملك سليمان كانت له قلعة هى قلعة مجدو ، وهى تحفة أثرية لا تزال قائمة فى غرب مدينة (جنين) العربية ، وبالقرب منها ، تحتوى على مخازن للطعام والشراب ، تكفى لخسة الاف ، وأماكن لتجميع ٣٠٠ عجلة حربية . وفيها اصطبل يتسع لثلاثين حصاناً فقط . وقد دلت البحوث التى أجريت على هذه القلعة ، بأنها تحتوى على حامية سلمية لا تزيد على مائة رجل . فإذا ما ظهرت بوادر الحرب ، امتطى ثلاثون رجلاً من حاميتها السلمية الثلاثين جواداً الموجودة فى القلعة ، وأسرعوا فى البرية إلى الفلاحين لدعوتهم إلى الخدمة العسكرية ، وجمعهم فى القلعة ، حتى يتسلحون أسلحتهم الجاهزة للقتال من مستودعات القلعة .

« هذه الخطة — خطة نفير سليمان — يطبقها الجيش الاسرائيلى اليوم ، نصاً وروحاً .

تعبئة عام ١٩٦٧

وبتطبيق الأنظمة المعدلة للتعبئة الإسرائيلية في حرب سنة ١٩٦٧ ، نجدها على النحو الآتي .

١ — في منتصف مايو سنة ١٩٦٧ كان الجيش الإسرائيلي معبأً تعبئة جزئية ، وتسمح هذه المرحلة الأولى بتكوين سبعة ألوية مشاة مدرعة ومظلات ، وعدد خمسة من الكتائب غير المنضمة إلى ألوية . وكانت الحجة المعلنة للتعبئة الجزئية ، هي الاستعداد للعرض العسكري الذي أقاموه في القدس المحتلة وسط احتجاجات عربية ودولية قوية . وذلك لأن اتفاقية الهدنة تمنع مثل هذا العمل .

٢ — وفي ١٩ مايو تم تعبئة الجزء الأكبر من احتياط الخط الأول ، وهم الذين ذكرنا قبل أنهم أتموا الخدمة العسكرية في الجيش النظامي ، ولم يتجاوزوا ٣٩ سنة من أعمارهم ويقول اللواء محمود شيت خطاب عن قيادات هذه الوحدات إنها مؤلفة من الضباط وضباط الصف الذين يشغلون مناصب رئيسية ، ومن الفنيين . وكل هؤلاء هم من العسكريين النظاميين المتطوعين في الجيش ، والمتخذين العسكرية مهنة لهم . أما باقي قوات هذه الوحدات ، فهم من الضباط وضباط الصف ومراتب الاحتياط . [وقد صعدت هذه المرحلة بعدد القوات المقاتلة عندهم إلى ١٤ لواء مشاة وميكانيكي ومظلات . و ٤ ألوية مدرعة ، وعدد من الكتائب المستقلة .

٣ — ما بين ٢٤ مايو و ٢٦ مايو كانت إسرائيل قد أتمت تعبئة الخط الثاني من جيش الاحتياط ، وهم الذين يزيد سنهم عن ٣٩ سنة ويقل عن خمسين سنة (اللواء خطاب يهبط بالحد الأدنى للسنة إلى ٤٥ سنة) . وكذلك استدعت كل الشباب الاسرائيلي في البعثات التعليمية في الخارج ، لينضم إلى وحداته العسكرية وباتمام هذه العملية وصل تعداد الجيش الاسرائيلي كله إلى حوالي ٢٦٤ ألف رجل وأمرأة .

الحرب النفسية

في حروب اليهود القديمة ، التي وصفها التوراه ، كان اليهود يعتمدون على أمرين :

- ١ — تضليل عدوهم ، وعدم إشعاره بتحركاتهم . مع استطلاع قوة خصومهم .
- ٢ — الاعتماد على قوة الرب .. إله الجنود ، كي يقود معاركهم . فإذا تخلى عنهم كفوا عن الحرب وحافت بهم الهزائم .

وفي العصر الحديث لجأ اليهود إلى نفس الأسلوب ، ولكن بمسميات جديدة .
ويتلخص أسلوبهم الآن في نقطتين :

- ١ — الحرب النفسية ، وإطلاق الإشاعات ، وحجب تصرفاتهم ، والاعتماد على جهاز مخابرات يتكون من كل يهودي ، وكل عميل يشتريه المال ، خارج أرضهم .
- ٢ — الاعتماد على قوة خارج جماعتهم تقودهم ، وتحارب معظم حريهم .. ومنذ قرروا في أواخر القرن الماضي ، العودة إلى فلسطين ، بعد أن تكامل لهم المال ، والتسرب إلى أجهزة الحكم في كثير من الدول ، بدأوا فاعتمدوا على إنجلترا في حرب ١٩٤٨ ، ثم استعانوا بإنجلترا وفرنسا في حرب ١٩٥٦ ، ثم كانت الولايات المتحدة هي سندهم وموجهة خططهم في حرب يونيو سنة ١٩٦٧ .

* * *

والحرب النفسية ، سلاح خطير يمهد للحرب المسلحة ، وضعت قواعده ، واستعانت به الدول على نطاق واسع في الحرب العالمية الثانية .. وكان الألمان يطلقون على أعوانهم الذين يبثون الإشاعات ، ويقومون بالتخريب :
الطابور الخامس .

ثم تحولت الحرب النفسية ، إلى ما يطلق عليه الآن بالحرب الباردة ، ومؤداها أن كل أساليب المارك تتبع ما عدا إطلاق النار ، وزاد في تعقيد هذا الأسلوب من أساليب

التنافس الدولي ما أدخل على وسائل الإعلام من أساليب حديثة ، وسريعة وناجزة ، سواء في الكلمة المطبوعة أو المنطوقة أو المصورة .

كما أن أجهزة استراق السمع ، وإرسال المعلومات السرية تطورت تطوراً خطيراً ، أمكن معها انتهاك كل حرمة ، والوصول إلى أخفى همسات الناس ، وتصويرهم في ظلام الليل بالأشعة تحت الحمراء . وقد اضطرت مناطق الأسرار التابعة للدول ، أن تكون مداولاتها وراء جدران مزودة بجوائظ من المعادن المعاملة معاملة خاصة تمنع استراق السمع ، أو اختراق الأشعة ..

وفي تجربتنا الخاصة مع اليهود خلال السنوات العشرين الماضية ، استعمل اليهود ضدنا من وسائل الحرب النفسية وأساليب التجسس ، ما وصلوا إليه بأنفسهم ، وما زودهم به حلفاؤهم ، وما سرقوه هم من كل مكان لهم فيه أذن أو عين أو يد ...

ولكن أهم ما رصدناه من أساليب اليهود ، هو الطاقة الكبرى لهم على الكذب ، وتمويه المعلومات ، وإخفائها . . فأظهر الأسماء فيهم ، وأبرزها ، لا يتورع عن الإدلاء ببيان رسمي في الصباح ، يغيره بنفس العلانية ظهراً ، وينقضه عسراً . . .

فقد أكد د بن جوريون ، عقب هزيمة العدوان الثلاثي في نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، أن الجيش الاسرائيلي لن يجلو عن سيناء ، ولن يجلو عن غزة . ثم ما لبث بعد أيام قليلة جداً ، أن سحب جنوده ، حتى بغير كلفة اعتذار عن تصريحاته السابقة .

وفي حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، كانت كمية الأكاذيب التي أطلقها الرسميون اليهود بحيث لا يمكن حصرها .

فقد صدروا إلى مخابرات دول كثيرة صديقة ومحايدة ، أنهم استعدوا للزحف على دمشق بـ ١٥ لواء ، جهزت للعمل ، حتى أن الاتحاد السوفيتي اقتنع بهذا الاتجاه ، وبعث به تحذيراً إلى القاهرة مع السيد أنور السادات الذي كان وقتها في موسكو .

وراح د ليفي أشكول ، وغيره من المتحدثين الرسميين يؤكد أن اليهود مصممون على غزو سوريا والاستيلاء على عاصمتها بحجة أن سوريا هي قاعدة الفدائيين الذين يعملون في أرض فلسطين لتحرير وطنهم .

والحقيقة أن عين اليهود لم تكن في عام ١٩٦٧ على جيش سوريا، ولا على دمشق، كما أنها لم تكن على جيش الأردن، عندما هاجمت قرية السموع الأردنية بقوة كبيرة، وقتلت بعض سكانها، وهدمت مساكنها . . . وإنما كانت عين اليهود على جيش مصر . . . ومن وراء اليهود جهاز المخابرات المركزية الأمريكي . وكل ما حدث هو إطلاق دخان في سوريا، ودخان في الأردن، يحجب الرؤية عن حقيقة نواياهم، التي يبتوا عليها الأمر في عدوان ١٩٥٦، والتي أرادوا تكرارها في عام ١٩٦٧ . . . إنها مصر، ولا شيء إلا مصر عدوهم الأكبر اليوم . وعدوهم، من فجر التاريخ كما تحدثت توراتهم، ونقلت عن أنبيائهم . وعدوهم غداً إذا بقيت لهم في الشرق الأوسط باقية .

أمريكا . . . ودورها في الحرب النفسية

الولايات المتحدة، هي مهندسة هذه المعركة، وراسمة خطوطها وأبعادها، وقد قررت أن تخوض معركتها المستترة ضدنا من عام ١٩٥٧ عندما حسبت أن معاونتها السياسية لنا في دحر العدوان الثلاثي، سوف توقعنا في دائرة نفوذهم . فلما تبين لهم أن مصر لا ترضى أن تتخلص من استعمار الإنجليز، لتسلم سيادتها — ولو من وراء ستار — للإستعمار الأمريكي . وثبت موقف مصر، عند ما قاومت مشروع ليزنهاور الذي قصد منه « ملأ الفراغ، في الشرق الأوسط بعد انسحاب الإنجليز من المنطقة . . . ثم كانت الوحدة مع سوريا، وثورة العراق التي حطمت حلف بغداد . . . ثم كانت مساندتنا لثورة اليمن، وذلك بعد معاونتنا الصادقة لثورة الجزائر حتى نالت استقلالها . . . كل هذه المواقف أقنعت الولايات المتحدة ألا سبيل لفرض سلطانها على الشرق الأوسط إلا بعملية حاسمة ضد مصر، تكون لإسرائيل رأس الرمح فيها .

وفي أوائل عام ١٩٦٧ نشرت مجلة « النيوز ويك »، وهي مجلة وثيقة الصلة بالمخابرات الأمريكية والدوائر اليهودية، بحثاً عن المخطط الأمريكي الجديد للعمل في البحر المتوسط والبحر الأحمر . . . قالت المجلة بصراحة صريحة إن العمل سوف يشمل اليونان وسوريا والعراق ومصر واليمن والجزائر، للتخلص من الحكم المتحرر والاتجاهات التقدمية التي تندفع إليها هذه البلدان . . .

وقد شهد عام ١٩٦٧ تحركات الاستعمار الجديد في معظم بلدان هذه المنطقة ، بادئة باليونان ، والانقلاب العسكرى الذى حدث فيها ، وما لبث التخطيط ضد مصر أن ظهر فى حرب اليهود ، وقد رأينا جمهورية اليمن تدخل أيضاً فى نطاق حرب زودت بالمرتزقة . وشهدنا قلاقل فى الجزائر ، وسمعنا عن الأصابع التى تحرك منطقة الأكراد فى العراق ، ويبدو أن تعديلاً حدث على الخطة ، بإضافة قبرص إلى دائرة النشاط الذى تباشره المخابرات المركزية ، وذلك لأن حكومة الرئيس مكاريوس كانت واضحة التعاون مع مصر فى أزمة يونيو سنة ١٩٦٧ .

لماذا ... ؟

وهنا سؤال يخطر على ذهن كثيرين وهو : لماذا قررت الولايات المتحدة التحرك ضد مصر وضد حركة القومية العربية ، وضد حركات التحرير بصفة عامة ؟

يوجد سبب مباشر لمعركتها ضدنا ، وهو إيجاد ميدان لو انتصرت فيه ، فإنه يغطى موقفها فى حرب فيتنام ، الذى تجد العداء له يتصاعد ، فى أنحاء العالم ، وفى بلادها هى بالذات . كما أن خسائر الولايات المتحدة فى هذه الحرب — الخسائر التى تعترف بها — تبلغ درجة من الضخامة لم يسبق لها مثيل^(١) . وتبلغ نفقات هذه الحرب ٣٨ و ٥٢ دولاراً فى الدقيقة وجملة نفقاتها فى عامين اثنين أكثر من ٢٥ ملياراً من الدولارات ... وتقول مجلة نيوزويك الأمريكية : إنه لم يحدث أن كانت الولايات المتحدة مستوفقة بهذه الدرجة الهائلة فى الرجال والمال خلال تاريخها كله . وقد تضاعفت بجانب هذه الحرب معارك الحرب الكورية ، وبيزل هاربور ، ومعارك الصين .

وفى نفس الوقت الذى أذيعت فيه هذه البيانات ، وهى بيانات صيغت بحرص وعنايه لسكى لاتزيد من قلق الرأى العام الأمريكى ، راحت الصحف تتحدث عن نصر الشرق الأوسط (بعد حرب يونيو) الذى رفع من مغنويات جونسون المنهارة وتقول نفس المجلة السابق الإشارة إليها مانصه : إن جونسون خرج من أزمة الشرق الأوسط ، ومن اجتماعه بكوسوجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى فى جلاسبرو ، وكأنه سيد الموقف !!

(١) الاعتراف الأمريكى فى أوائل عام ١٩٦٩ صعد بقتلى الحرب الفيتنامية من الأمريكان الى ٣٣ ألف قتيل وأربعة أمثال هذا العدد من الجرحى .

وعقدة الثراء هي التي تحرك ساسة أمريكا ، في الوقت الحاضر ، وتملأ نفوس حكامهم إحساساً بأن فرصة السيطرة على مقدرات العالم أصبحت متاحة .

إن انهيار الامبراطورية البريطانية لم يكن درساً كافياً . . . واندحار النازية ، وأسطورة الجنس السيد لم تعلمهم شيئاً . . .

يقول جونسون في مؤتمر صحفي له في أوائل يوليو سنة ١٩٦٧ ، وقد ملأت رأسه روح التعالي والتشاخ :

نحن — أي الأمريكان — نملك ثلث طرق العالم الحديثة ، وثلث سيارات العالم ، ونصف سيارات النقل ، ونصف أجهزة الراديو ، وثلث كهرباء العالم ، وربيع الصلب . وبالإجمال نصف ثروة العالم . . .

أخلاق . . هؤلاء السادة

هؤلاء الأمريكان الذين يساورهم كل هذا الاحساس بالسيادة على العالم ، لم يتورعوا عن قتل رئيسهم كينيدي ، لأنه آثر ألا يستجيب للملوك الصلب في مطالبتهم برفع الأسعار ، وصمم على المعاشة السلية مع المعسكر الشرقي ، ولم يأمر الجنود والطائرات بإسقاط كاسترو في كوبا ، ونبذ طريق الحرب بين بلاده والاتحاد السوفياتي .

وكان يمكن في النصف الثاني من القرن العشرين أن يكون مدعى السيادة على العالم بعض الأخلاقيات ، فلا ينزلون إلى مستوى الكذب العلني الصريح ، ولا الدخول — برئيس جمهوريتهم — في مناورة تشييت القوات المصرية على الحدود ، وإعطائها كل تأكيد بأن إسرائيل لن تهاجم ، والتهديد بالدخول ضدنا في حرب ، إذا نحن تحركنا وذلك لكي تتمكن إسرائيل من مهاجمتنا في جناح الظلام ، وتحت مظلة واقية صنعتها هذه التصريحات :

إن جونسون — تنفيذاً منه لخطة مفاجأة مصر — استعان بالخط التليفوني المباشر بينه وبين الكرملين ، لكي يقول المسؤولين هناك ، إن العالم مهدد بخطر حرب عالمية ، إذا تحركت القوات المصرية وهاجمت إسرائيل ، وطلب التدخل ، فاقترعت موسكو ، وتدخلت لدى الرئيس عبدالناصر ، لكي لا يأمر الجيش بالهجوم . . . فقد ضمنت الولايات المتحدة ألا تتحرك إسرائيل ، وكان ضمانها لنا أولاً ، ثم الحكومة

موسكو ثانياً ، واحتراماً من الاتحاد السوفياتى لهذا الوعد ، قدمت لنا بدورها ضمانها بأن إسرائيل لن تهاجمنا . .

وفي الوقت الذى آثرت فيه مصر ألا تكون هى الدولة التى تشمل حريق الحرب العالمية الثالثة ، وقد تكون حرباً ذرية ، قررت أن ترسل نائب رئيس جمهوريتها إلى واشنطن ، ليجتبط بطريق مباشر مع جونسون وسائل إقرار السلام فى المنطقة ، وفى الوقت الذى جاء يوثانت إلى القاهرة نائباً عن الأمم المتحدة ، ليحمل معه وهو عائد قرارنا بالأنهاجم إسرائيل بادئين . . فى هذا الوقت ، كان جونسون يعطى تعليماته لإسرائيل ، بأن تفاجئنا بالهجوم . . .

هذه هى أخلاقيات الدولة التى تملك نصف ثروة العالم كما تقول !!

وفيما يلى النص الرسمى للرسالتين الهامتين اللتين تبادلهما الرئيس المصرى ، والرئيس الأمريكى خلال الأيام العشرة السابقة للحرب .

وسنرى من نصوص الخطابين ، ومن المذكرة الشفوية التى أعدتها السفارة الأمريكية شرحاً لوجهة نظر بلادها . إن الرئيس جونسون ردد ما تقوله إسرائيل بالحرف الواحد وطلب لها من الضمانات والحقوق ، ما لم يكن لها منذ عام ١٩٤٩ على ضوء اتفاقيات الهدنة ، وإن كان قد غلف هذه المطالب بشدة حرصه على السلام وبتقديره لما تبذله حكومة الرئيس عبد الناصر من جهود لتنمية اقتصاد بلادها ، مما سيكون موضوع اهتمام خاص من أمريكا . . وهذا هو أسلوب من الرشوة ، أودفع الثمن مقابل التنازل عن المبادئ .

وكان رد الرئيس عبد الناصر وافياً جداً ، فى إبراز نقطة النزاع الأساسية ، وهى ليست المضايق ، ولكن فلسطين نفسها سكاناً وأرضاً ، وما حل بهم على يد اليهود .

رسائل بين جونسون وعبد الناصر

في الفترة بين ٢٣ مايو سنة ١٩٦٧ و ٣ يونيو أى على مدار تسعة أيام تبادل رئيس الولايات المتحدة ورئيس الجمهورية العربية المتحدة الرسائل التالية :

رسالة جونسون لعبد الناصر :

٢٣ مايو ١٩٦٧

سرى

صاحب الفخامة الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة .

عزيزى الرئيس ناصر :

لقد أمضيت معظم هذه الايام الماضية أفكر فى الشرق الأوسط ، وفى المشاكل التى تواجهونها ، والمشاكل التى نواجهها فى المنطقة وقد فكر لى عدد من أصدقائنا المشتركين بما فيهم السفير باتل ، أنكم قلقون لأن الولايات المتحدة قد أبدت اتجاهات غير ودية تجاه الجمهورية العربية المتحدة ، وأود أن تعلوا بصورة مباشرة أن هذا أبعد ما يكون عن نوايانا . .

ولقد راقبت من بعد جهودكم لتنمية بلادكم والنهوض بها ، وأظننى أفهم كبرياء شعبكم وأمانيه — وتصميمه على أن يدخل العالم العصرى ويشارك بدوره الكامل فيه بأسرع وقت ممكن ، وآمل أن تتمكن من إيجاد الوسائل العامة والخاصة على السواء للعمل معاً بطريقة أوثق .

كذلك فإننى أفهم القوى السياسية التى تعمل فى منطقتكم . . أفهم المطامح وأسباب التوتر ، وكذلك الذكريات والآمال .

وبطبيعة الحال ، فإن من واجبكم وواجبى فى الوقت نفسه ألا ننظر إلى الوراء ، وإنما أن ننقد الشرق الأوسط — والمجتمع الإنسانى كله — من حرب أعتقد أنه ليس هناك من يريد لها : ولست أعرف الخطوات التى سيقترحها عليكم السكرتير العام للأمم المتحدة يوثانت ، ولكننى أحثكم على أن يكون واجبكم الأول تجاه أمتكم وتجاه منطقتكم وتجاه المجتمع العالمى كله ، هذا الهدف السامى : وهو تجنب أعمال القتال .

إن المنازعات الكبرى فى عصرنا هذا ، يجب ألا تحل باجتياز غير المشروع للحدود

بالسلاح والرجال — لا في آسيا — ولا في الشرق الأوسط أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية ، فذلك اللون من النشاط قد أدى إلى نشوب الحرب بالفعل في آسيا ، وهو يهدد السلام في مناطق أخرى . وكنت أتوقع أن أطلب إلى نائب الرئيس — هيوبرت همفري — أن يتوجه إلى الشرق الأوسط لإجراء محادثات معكم ومع غيركم من الزعماء العرب . وكذلك الزعماء الإسرائيليين . وإذا ماخرجنا من هذه الأيام بدون أعمال القتال فإنني سأظل آمل أن تتم على الفور هذه الزيارة التي يقوم بها الصديق الذي يحظى بأوفى قدر من ثقتي .

إن كلا منا من يحملون مسئولية قيادة أمة ، يواجه مشكلات متباينة صاغها التاريخ ، والموقع الجغرافي ، وأعمق المشاعر لدى شعوبنا ، ومهما كانت الخلافات في نظرتنا واهتماماتنا بالنسبة لبلادكم وبلادى ، فإننا كلينا نشترك في الاهتمام باستقلال وتقدم الجمهورية العربية المتحدة وبالسلام في الشرق الأوسط .

إنى أتوجه إليكم بهذا الخطاب في هذه اللحظة الحرجة آملاً أن تشاركوا في هذا التقييم ، وأن يكون في إمكانكم التصرف وفقه في الساعات والأيام المقبلة .

المخلص

ليندون ب . جونسون

* * *

وقد ألحقت بهذه الرسالة مذكرة شفوية توضيحية هذا نصها :
مذكرة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية إلى حكومة الجمهورية العربية المتحدة .
سرى :

في الأيام الأخيرة ، ساد التوتر مرة أخرى على طول خطوط الهدنة بين إسرائيل والدول العربية . وإننا نتفق مع وجهة نظر السكرتير العام للأمم المتحدة أن الموقف في هذه المنطقة موضع اهتمام المجتمع الدولي بأكمله ، وأنها لرغبتنا الصادقة أن تعاون الجهود التي تضطلعون فيها بدور قيادى لتخفيف حدة التوترات ، واستعادة أحوال الاستقرار والثقة .

وليس لدينا أى سبب للاعتقاد ، في هذا الموقف الحالى ، بأن أحداً من أطراف اتفاقات الهدنة بين الدول العربية وإسرائيل لديه النية في ارتكاب عدوان . والواقع

أن الخطر — وهو خطر جسيم فعلاً — يكمن في المغامرة الخاطئة وسوء التقدير فهناك احتمال بأن يقع أولئك الذين يتولون السلطة في المنطقة في أساءة فهم أو أساءة تفسير نوايا الآخرين وأفعالهم .

وهناك ثلاثة وجوه للوقوف تسبب لنا قلقاً خاصاً .

أولها : أعمال الإرهاب المستمرة التي تجرى ضد إسرائيل بموافقة سوريا ، التي تقوم في بعض الحالات على الأقل من الأراضي السورية ، وهذا يتنافى مباشرة مع اتفاقات الهدنة العامة التي تنادي الدول الموقعة عليها أن تضمن ألا يرتكب عمل شبيه بأعمال الحرب ، أو من أعمال العدوان ، من أرض إحدى هذه الدول ضد الطرف الآخر . أو ضد المدنيين في أرض يسيطر عليها هذا الطرف الآخر . ونحن نعتقد أن اتفاقات الهدنة العامة مازالت تشكل القاعدة المثلى لأن تسود الأحوال السلمية على امتداد الحدود ، ونحن نأمل أن تشاركنا الجمهورية العربية المتحدة ، هي والحكومات الأخرى ، في مناشدة كل أطراف اتفاقات الهدنة أن تحترم مواد هذه الاتفاقات بمخداها .

وثانياً : فإننا قلقون من أن يؤدي الانسحاب السريع لقوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة ، إلى جعل مشكلة المحافظة على السلام على طول حدود الجمهورية العربية المتحدة مع إسرائيل أكثر صعوبة ، وفي رأينا فإن وجود قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة يشكل عاملاً مساعداً هاماً في المحافظة على الأمن الأساسي على امتداد هذه الحدود . وتؤيد حكومة الولايات المتحدة مهمة السكرتير العام يوثانت في القاهرة وكلها ثقة صادقة في أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة ستبحث معه ، على نطاق شامل ، إمكانيات استمرار المحافظة على السلام بشكل من الأشكال ، على الحدود بين الجمهورية العربية المتحدة وإسرائيل .

وثالثاً : تعتقد حكومة الولايات المتحدة أنه من الضرورة بصفة خاصة أن يتوقف الاتجاه الحالي لتعبئة القوات وحشدتها على الجانبين وأن يقاب هذا الاتجاه . ولقد أخذنا بعين الاعتبار أن بيانات الجمهورية العربية المتحدة وإسرائيل تشير إلى أن تحركات قواتها المسلحة ذات غرض دفاعي ، ولعلنا نأمل في أن يبدأ الطرفان ، هما وغيرهما من الدول الأخرى التي اتخذت احتياطات عسكرية ، في إعادة قواتهم إلى

قواعدها الطبيعية ، فإنهم إذا قاموا بذلك يصبح في إمكانهم أن يؤدوا خدمة هامة في سبيل تخفيف حدة الموقف الحالى المتوتر .

ونحن نفتخر هذه الفرصة لنعيد تأكيدنا بالتزامنا المستمر لمبدأ حرية المرور إلى خليج العقبة لسفن جميع الدول ، فإن حق المرور الحر والبرى إلى هذه المياه ، يعد جزءاً من المصلحة الحيوية للمجتمع الدولى . ونحن موقنون بأن التدخل فى هذه الحقوق الدولية قد تكون له عواقب دولية خطيرة .

وفى الموقف الحالى فإن حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، والحكومات العربية الأخرى ، تستطيع أن تتأكد بيقين ، وأن تعتمد على أن حكومة الولايات المتحدة تعارض معارضة صارمة أى عدوان فى المنطقة من أى نوع — سواء كان مكشوفاً أو فى الخفاء ، وسواء أقامت به القوات المسلحة النظامية أو قوات غير نظامية ، ولقد كانت هذه سياسة هذه الحكومة تحت قيادة أربعة عهود أو حكومات مختلفة ، وسجل أعمالنا العقدان الماضيان — سواء داخل الأمم المتحدة أو خارجها — يوضح هذه النقطة بجملاء .

وختاماً ، فإن حكومة الولايات المتحدة تعبر عن أملها الصادق فى أن تشترك الجمهورية العربية المتحدة معها فى ودول متعددة أخرى فى جهودهم داخل الأمم المتحدة ، وخارج نطاق هذه الهيئة ، للوصول إلى تخفيف التوتر وإعادة الاستقرار إلى المنطقة .

سفارة الولايات المتحدة الأمريكية

القاهرة فى ٢٣ مايو ١٩٦٧

وقد أجاب الرئيس جمال عبد الناصر على جونسون بالرد التالى :

عزيزى الرئيس ليندون ب . جونسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية :
لأننى أرحب بمبادأتكم فى الكتابة إلى حول الموضوع الراهن فى الوطن العربى ، اعتقاداً منى بأنه مهما بدت نقطة الالتقاء بيننا خارج نطاق رؤيتنا فى هذه المرحلة ،

فإن أية محاولة مشتركة من جانبنا ، لإيجاد حوار مباشر ، قد يساهم على الأقل في تبديد جزء من السحابات المصطنعة التي يراد لها أن تصور ممارسة الحق وكأنه أمر حرام ، وأن تصور حق الدفاع وكأنه عدوان ولقد يكون من المفيد — في مجال الحكم على أحداث الساعة — أن نراها في ترابطها الزمني والمنطقي المتكامل ، حتى تتجنب سوء الفهم ، وحتى نصل إلى تقييم سليم ومعقول وعادل لواقع الأمور التي نعيش في وسطها . ومن أجل ذلك فسأحاول أن أشير إلى عدة حقائق أود أن أصفها بأنها حقائق مبدئية :

أولاً : علينا أن نعود بذاكرتنا إلى الأيام القليلة السابقة على الإجراءات التي اتخذتها الجمهورية العربية المتحدة مؤخراً ، وأن نتذكر الموقف العدواني الخطير الذي خلقته السلطات الإسرائيلية إزاء الجمهورية العربية السورية ، والتهديدات العدوانية التي أعلنتها عدد من المسؤولين الإسرائيليين ، وما اقترن به ذلك من حشد قوات ضخمة على الحدود السورية ، تدبيراً لعدوان أكيد على سوريا . لقد كان طبيعياً عندئذ أن تقوم الجمهورية العربية المتحدة بمسؤولياتها وأن تتخذ كافة الإجراءات التي يتطلبها العمل دفاعاً عن الوطن العربي ضد العدوان المدبر .

ثانياً : تطلبت الإجراءات الدفاعية التي اتخذتها الجمهورية العربية المتحدة أن تتقدم قواتنا المسلحة إلى مواقعها الأمامية على الحدود حتى تكون قادرة على مواجهة تطورات الموقف ولتكون بوجودها قادرة على التدخل ضد الغزو الإسرائيلي المدبر ، وحرصاً منا على سلامة قوات الطوارئ الدولية فقد قررنا ضرورة انسحابها ، وأصبح هذا أمراً منتهياً .

ثالثاً : كان منطقياً بعد انسحاب قوات الطوارئ الدولية أن تتقدم القوات المسلحة العربية لاحتلال مواقعها واحتلت من بين هذه المواقع منطقة شرم الشيخ المطلة على مضيق تيران ، وكان منطقياً أيضاً أن نمارس حقوق سيادتنا الثابتة على المضيق وعلى مياهنا الإقليمية في الخليج .

وهنا أيضاً أود أن أعود بك بضعة سنين إلى الوراء ، إلى العدوان الثلاثي ضد الجمهورية العربية المتحدة ، وهو العدوان الذي مازلنا نذكر بالتقدير الموقف العادل الذي اتخذته بلادكم إزاءه .

لقد مارست الجمهورية العربية المتحدة قبل العدوان ، حقوقها القانونية الثابتة إزاء الملاحة الإسرائيلية في المضيق وفي الخليج — وهي حقوق لا تحتل التشكيك — وبعد رحيل قوات الطوارئ وحلول القوات المسلحة العربية محلها في هذه المنطقة لم يكن من المتصور أن يسمح بمرور السفن الإسرائيلية أو المواد الاستراتيجية المرسلة لها — وموقفنا في ذلك فوق أنه ثابت شرعاً — فهو يستهدف في الواقع إزالة آخر أثر للعدوان الثلاثي ، إعمالاً لهذا المبدأ الأخلاقي الذي يقضى بعدم مكافأة المعتدى على عدوانه .

وفي كل ما اتخذناه من إجراءات دفاعاً عن أراضينا وحقوقنا أوضحنا أمرين : أولهما : أننا سندافع ضد أي عدوان يقع علينا بكافة ما نملك من قدرات وإمكانات .

وثانيهما : أننا سنظل نسمح بالمرور البريء للسفن الأجنبية في مياهنا الإقليمية .

هذه حقائق تتصل بالموقف المباشر الذي أعلنته الجمهورية العربية المتحدة والتي لا نرى فيها أي مدعاة لكي يتخذها البعض مبرراً لفرض جو من الازمة أو لشن هذه الحملة النفسية الموجهة ضدنا ..

وفي الوقت الذي تأخذ فيه هذه الحملة أبعاداً وأشكالا متزايدة ، نرى تجاهلاً كاملاً ومؤسفاً ، لعدد من الحقائق الأخرى التي أود أن أصفها بأنها حقائق أساسية ، فهذه الحقائق هي التي تفرض في الواقع حكمها على مجرى أحداث اليوم ، وستظل تفرض حكمها في المستقبل إلى أن يصل الجميع إلى تقدير كامل لها ولأبعادها ولجذورها ، وسأشير هنا إلى حقيقتين :

أولاهما : هي حقوق شعب فلسطين وهي في نظرنا أهم حقيقة ينبغي الاعتراف بها . لقد استطاعت القوة المسلحة المعتدية أن تطرد هذا الشعب من وطنه وتحوله إلى لاجئين على حدود هذا الوطن ، وتقف قوى السيطرة والعدوان اليوم حائلاً دون حقهم الثابت في العودة إليه والعيش فيه . رغم قرارات الأمم المتحدة التي كان آخرها في العام الماضي .

وثانيتهما : تتصل بموقف إسرائيل إزاء اتفاقات الهدنة ، وهو موقف لا يتمثل في مجرد انتهاك مستمر لأحكام هذه الاتفاقيات ، بل وصل إلى حد إنكار وجودها

أو الالتزام بها . بل وإلى احتلال المناطق المجردة من السلاح وطرده مراقبي الأمم المتحدة منها ، وإهانة المنظمة الدولية والاعتداء على عليها . هاتان هما حقيقةتان أساسيتان لا بد من تقدير لهما للحكم على مجرى أحداث اليوم وتطوراتها . .

ولقد أشرتم في رسالتكم إلى نقطتين :

أولاهما : ما أشرتم إليه من أننا ينبغي أن ننسى الماضي جانباً وأن نعمل على إنقاذ الشرق الأوسط بل والعالم كله بتجنب الأعمال العسكرية ، وبالنسبة لهذه النقطة أود أن أشير إلى أن سياسة الجمهورية العربية المتحدة لا تكتمل باتخاذ السلام العالمي هدفاً بل إننا في سبيل هذا الهدف نأخذ دوراً إيجابياً لا أرى الاستطراد في بيانه تجنباً للوقوع في دائرة التمجيد الذاتي ، أما بالنسبة للقيام بتجنب الأعمال العسكرية فيمكنني هنا أن ما سبق أن أعلنت من أن كافة ما قننا به من إجراءات فرضتها قوى العدوان . ومع ذلك فإن قواتنا لم تبدأ بأى عدوان ، ولكننا بلا شك سندافع ضد أى عدوان يقع علينا أو على أى بلد عربى بكل ما نملك من قدرات وإمكانات .

وثانيتهما : هو ما أشرتم إليه من أن مشاكل العصر لا يمكن حلها عن طريق اختراق الحدود بين الدول بواسطة الرجال والسلاح ، وأنا اتفق معك في هذا الرأي ، ومع ذلك فينبغى أن ننظر في كيفية تطبيق هذا المبدأ على كل حالة ، فإذا كان قصدكم هو عبور بعض أفراد شعب فلسطين خطوط الهدنة فإننى أود هنا أشير إلى ضرورة بحث هذا الجانب في نطاق النظرة الشاملة لقضية شعب فلسطين ، وهنا أيضاً أتساءل عن مدى قدرة أية حكومة في أن تسيطر على مشاعر أكثر من مليون فلسطينى ، فات ما يقرب من العشرين عاماً دون أن تهتم العائلة الدولية — ومسئوليتها هنا مسئولية لا يمكن الفرار منها — بإعادتهم إلى وطنهم . وتكتفى الجمعية العامة للأمم المتحدة في كل دور من أدوار انعقادها بتأكيد هذا الحق . أن ما يقوم به بعض أفراد الشعب الفلسطينى من عبور خطوط الهدنة إن هو في الواقع إلا مظهر من مظاهر الغضب الذى أصبح — عن حق — يملك هذا الشعب إزاء الإنكار الكامل لحقوقه من جانب العائلة الدولية ومن جانب القوى التى تقف مع إسرائيل وتعاونها مادياً وأديباً .

وفي الواقع أننا حاولنا أن نفصل بين جوانب المشكلة فلا بد أن نعود في

النهاية إلى جوهرها وأصلها الذى يتمثل فى حق شعب فلسطين فى أن يعود إلى بلاده ومسئولية العائلة الدولية فى أن تسكفل له ممارسة هذا الحق .

وختاماً فلقد يبدو هذا الخطاب مطولاً بعض الشيء ولكنى حاولت به أن أوضح فى اختصار بعض الملامح الأساسية للموقف الذى نواجهه اليوم فى الوطن العربى .

وفى الختام فإننى أود أن أؤكد لكم أننا سنرحب بالاستماع إلى مستر هيوبرت همفرى نائب رئيس الولايات المتحدة فى أى وقت يرى فيه زيارة الجمهورية العربية المتحدة ، كما سنعمل على إعطائه صورة الموقف كما نراه وسط الأحداث المصرية التى تعيشها الأمة العربية فى هذه الأيام . كما إننى على استعداد لإرسال السيد زكريا محيى الدين نائب رئيس الجمهورية فى الحال إلى واشنطن للالتقاء بكم وشرح وجهة نظرنا .
وتقبلوا تحياتى وتقديرى . .

إمضاء

(جمال عبد الناصر)

القاهرة فى ٢ يونية سنة ١٩٦٧

* * *

وإذا كان هناك شك يخامر أحداً فى أن الولايات المتحدة صاحبة هذه الحرب ، ومهندسة تفاصيلها ، فهذه مجلة « لايف » كبرى مجلات أمريكا والعالم ، تقول : (١) فى عدد ١٠ يوليو سنة ١٩٦٧ [طبعة آسيا] إن الرئيس جونسون طلب من الجنرال إيرل هويلر رئيس هيئة أركان الحرب الأمريكى تقديراً للموقف بين الجيشين المصرى والإسرائيلى . . . ثم طلب نفس التقرير من ريتشارد هيلز رئيس المخابرات المركزية . وعاد فأمر الجهتين : رئاسة أركان الحرب والمخابرات ، بعمل اجتماع مشترك عن احتمالات الحرب ، إذا نشبت . وعلى ضوء هذا التقدير المشترك ، أذن جونسون لإسرائيل بمباشرة عملياتها العسكرية ضد مصر . . ويقول كاتب هذا البحث ، إن المخابرات الأمريكية وجهت للمخابرات الروسية ضربة قاصمة فى هذه المعركة ،

(١) أشار الرئيس ناصر الى هذا البحث فى أحاديثه بعد ذلك .

لأنها أخفت عنها حقيقة نوايا أمريكا . . ووجهت نظرها إلى الجبهة السورية في حين أن المقصود هو مصر بالذات . وقد كسبت المخابرات الأمريكية هذه الجولة بما مسح عنها التهم التي ألصقت بها بتدخلها في اتحادات الطلبة الأمريكيين وغيرها من النشاط الداخلي . .

وتضيف مجلة لايف إن حماسة جونسون ، وهو يتنعم كوسيجين على خط التليفون المباشر ، بأن يتدخل لمنع مصر من الهجوم ، كأنه كان هو إسرائيل نفسها ، وكأنه صاحب ملفات التوراة القديمة التي وجدت بجوار البحر الميت . . وتقول المجلة إن أنجح دور لعبه جونسون في حياته ، هو دوره في حرب إسرائيل ضدنا ، ولقد أحب منصب الرئاسة ، من أجل ما قام به في هذه الحرب كما لم يحبه في أى وقت آخر !

قالوا عن هذه الحرب

تحدث الرئيس جمال عبد الناصر مرتين عن الحرب ، مرة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ ،
والمرة الثانية أمام مجلس الأمة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٦٧ .

الحديث الأول

عبد الناصر يتحدث عن الحرب

تحدث الرئيس جمال عبد الناصر في ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ عن الظروف التي أدت
إلى معارك ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وعن سير هذه المعارك ، وأجل الموقف في عدة
مسائل هذا نصها :

لم نكن البادئين في الازمة :

المسألة الأولى : التي يجب أن تكون واضحة أمامنا جميعاً أننا لم نكن البادئين
بتأزيم الموقف في الشرق الاوسط . كلنا نعرف أن هذه الازمة بدأت بمحاولة
إسرائيل غزو سوريا . من المؤكد لنا أن إسرائيل في هذه المحاولة ما كانت
تعمل لحسابها . وإنما كانت تعمل ، أيضاً ، لحساب القوى التي ضاقت ذرعاً بحركة
الثورة العربية . .

المعلومات التي جت لنا عن غزو سوريا كانت مصادرها متعددة . كانت هناك
معلومات إخواننا السوريين أن إسرائيل قد حشدت أمامهم ١٨ لواء قنا إحنا
بتحقيق هذه المعلومات وتأكد لنا أن إسرائيل تحشد أمام سوريا ما لا يقل عن
١٣ لواء . . والوفد البرلماني بتاعنا كان في زيارة لموسكو برئاسة السيد أنور السادات
وقام الأصدقاء السوفيت في هذا الوقت بإبلاغ السيد أنور السادات بأن غزو سوريا

وشيك . . كنا نعمل إليه . . كنا نستطيع أن نسكت . . وكنا نستطيع أن ننتظر . .
وكنا نستطيع أن نكتفي بإصدار البيانات الإنشائية والتأييد بالبرقيات ، ولكن هذا
الوطن إذا قبل التصرف على هذا النحو كان يتخلى عن رسالته وعن دوره بل وعن
شخصيته . كانت بيننا وبين سوريا اتفاقية للدفاع المشترك ونحن لاعتبر اتفاقاتنا مع
شعوب أممنا العربية أو مع غيرها حبراً على ورق ولكننا نقدر هذه الاتفاقيات
ونعتبرها شرفاً والتزاماً . . وكان بيننا وبين سوريا كما كان بيننا وبين أى شعب
عربي وكما سيكون بيننا وبين كل شعب عربي ما هو أبقي وأكبر من الاتفاقيات
والمعاهدات . . كان هناك وسوف يكون هناك دائماً إيمان بالنضال المشترك وبالمصير
المشترك . .

ولذلك فقد كان محتملاً علينا أن نتحرك عملياً لمواجهة الخطر على سوريا خصوصاً
وأن تصرّجات القادة السياسيين والعسكريين لإسرائيل في هذا الوقت وتهديداتهم
العنيفة لسوريا ، قد أشارت إليها الصحافة وأشير إليها صراحة في الأمم المتحدة ، لم
ترك لأحد فرصة الشك في أية معلومات وبهذا أيضاً لم تترك لأحد فرصة الانتظار
أو التردد . .

المسألة الثانية : أننا عندما قررنا التحرك نتجت عن تحركنا آثار عملية . . أول
حاجة إتينا طلبنا سحب قوة الطوارئ الدولية . بعدن أعدنا تطبيق حقوق السيادة
المصرية على خليج العقبة . وكان ذلك من الأمور التي ألح عليها إخواننا العرب دائماً
وطالبونا بها . ومن الطبيعي كانت لهذه الآثار نتائج كبيرة في المنطقة وفي العالم .

لماذا لم نبدأ الضربة الأولى ؟

المسألة الثالثة : أننا بتحركنا وأخذنا المبادأة لدفع الخطر عن سوريا ، كنا ندرك
أننا خصوصاً من وجهة نظر دولية لن نبدأ الضربة الأولى في معركة مسلحة ، ولو كنا
فعلنا ذلك لكننا عرضنا أنفسنا لمواقب وخيمة تزيد عما كان في مقدورنا احتمالها ، ولقد
كان ما سوف نواجهه هو عمل عسكري أمريكي مباشر ضدنا يجد الحجة والعذر من أننا
أطلقنا الرصاصة الأولى في المعركة . .

وأريد في هذا الصدد أن ألفت نظركم إلى نقاط هامة :

أول نقطة : التحذيرات الأمريكية ويمكن قراءتها عن هذه التحذيرات الأمريكية

وكان مستشار الرئيس الأمريكي لندون جونسون طلب سفيرنا في وقت متأخر من الليل في واشنطن ، وقال له إن فيه معلومات عند إسرائيل أنكم هتهجموا . وقال انده يعرضنا نوضع خطير وناشدنا ضبط النفس ، وقال لانهم أيضاً يعملوا نفس الشيء مع إسرائيل من أجل ضبط النفس ، والرسائل اللي جاءت لنا من الرئيس الأمريكي جونسون اللي بيتسكلم فيها عن الأمم المتحدة ويناشدنا فيها ضبط النفس .

النقطة الثانية أيضاً يمكن اتكلمت عليها قبل كده أن السفير الروسي أيضاً في اليوم التالي طلب مقابلي وبلغني رسالة من رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي يطلب منا فيها ضبط النفس ، وبلغني رسالة بعثها لرئيس وزراء إسرائيل ، ويقول في رسالته إن أي عمل من ناحيتنا بيعرض العالم لأخطار كبيرة .

النقطة الثالثة المجتمع الدولي كله كان يعارض البدء بالحرب وكان حديث الرئيس الفرنسي الجنرال ديغول واضح في أن فرنسا سوف تبني موقفها على أساس من يبدأ بإطلاق الرصاصة الأولى .

الخديعة الأمريكية :

المسألة الرابعة : إننا تعرضنا لخديعة دبلوماسية . . لعملية تضليل سياسي خطيرة لم نتصور أن تقدم عليها دولة كبرى أو قوة كبرى . . الخديعة السياسية كانت من أمريكا . خطابات الرئيس الأمريكي ومناشدات الرئيس الأمريكي . وطلبه منا أن احنا نتعاون مع السكرتير العام للأمم المتحدة . . وكلامه إنه مستعد يبعث نائب الرئيس وأنه مستعد يبحث معنا كل الأمور والوسائل التي تخرج العالم كله من الأزمة . . جه الأمين العام للأمم المتحدة . . تعاوننا مع الأمين العام للأمم المتحدة إلى أقصى حد . . وطلب منا مهلة واحنا وافقنا بالنسبة لخليج العقبة . . وقال أنه عايز هذه المهلة لكل الناس علشان تستطيع أن تتنفس وأن تتدبر أمورها . . النقطة الأولى إن مافيش سفن إسرائيلية تمر في الخليج ومافيش شحنات استراتيجية أيضاً لإسرائيل تمر في الخليج وفي نفس الوقت احنا مانمارسش عملية التفتيش . . قبلنا هذا الموضوع واعتبرناه حل من السكرتير العام للأمم المتحدة بحيث يدي مهلة ووقت للجميع ليعتبروا الموضوع .

بعد كده وصل مبعوث للرئيس الأمريكي هنا وقال . . اتكلم المبعوث على أساس

أن أحد نواب الرئيس يسافر إلى أمريكا وأنا وافقت على الفكرة على أساس أنه يقابل الرئيس جونسون وأن يشرح له الموقف . وبعث بعد كده للرئيس الأمريكي وقلت له أن إحنا بمرحب بسفر نائب الرئيس زكريا محي الدين إلى واشنطن علشان يقابلك ويشرح لك وجهة النظر العربية . . طبعاً في اليوم التالي جالي الرد إنهم يرجبوا بسفر زكريا محي الدين إلى واشنطن لمقابلة الرئيس الأمريكي وطلبوا منا تحديد الموعد وحددنا الموعد يوم الثلاثاء ٦ يونيه . كلنا نعرف أن العدوان بدأ يوم الاثنين ٥ يونيه معني ده . . إن معناه فيه نشاط سياسي ودبلوماسي واسع المدى وكان يحق لنا معه أن نصور أن الانفجار لن ينجى سريعاً .

المسألة الخامسة : مع ذلك وبرغم ذلك كنا غير مطمئنين لهذا كله وكنا ندرك أن شيئاً يدبر وأنه لن يتأخر . . وكان باين أن فيه حاجة تدبر منذ زمن . . والحقيقة أنا في إحساسي كنت أشعر دائماً من سنتين أن فيه شيء بيدبر ضدنا من أيام قطع المعونة ومن أيام التهديدات اللي وجهتها لنا أمريكا بأن إحنا ما نسلحش جيشنا ولا نكبره ولا نسير في التطوير الفنى أو التطوير العسكرى . . ولما حشدت القوات في تقديري كان احتمال الحرب بالنسبة لى ٢٠ في الميه .

اجتماعات اللجنة التنفيذية العليا :

وقبل غلق خليج العقبة عملنا اجتماع للجنة التنفيذية العليا كان أول اجتماع عندي في البيت وبحثنا موضوع غلق خليج العقبة . . الاجتماع ده كان يوم ٢٢ مايو وقلت لهم في هذا الاجتماع إن احتمالات الحرب ٥٠ في الميه وفي اجتماع آخر قلت أن احتمالات الحرب ٨٠ في الميه . . واجتمعنا في اللجنة التنفيذية العليا كلنا . . كان من الواضح إن عملنا عمل دفاعي ، وإننا لن نقوم بالهجوم إلا إذا حصل عدوان على سوريا وإننا نكون على وضع الاستعداد .

في هذا الاجتماع ما حدثش أبداً اتكلم عن الهجوم على إسرائيل ، وما كنش فيه أبداً أى فكرة إن إحنا حانقوم بعمل هجومى على إسرائيل . وزى ما وضحت من الأول اللي كان باين من كل تحليلاتنا أن أى عمل هجومى على إسرائيل حا يعرضنا لمخاطر كبيرة . .

أول هذه المخاطر هجوم أمريكا علينا نظراً للتصريحات اللي أعلنتها أمريكا ،

وقالت فيها إنها تضمن حدود الدول في هذه المنطقة . . . وكان باين لنا إن أمريكا لما بنقول أنها تضمن حدود الدول في هذه المنطقة ، ولا تسمح بأي تغييرات في هذه المنطقة ، ما كنتش أمريكا تقصد بهذا أبدأ الدول العربية ولكن أمريكا كانت تقصد بهذا ، إسرائيل ، كانت تقصد إنه إذا كان حصل عدوان على إسرائيل أن أمريكا حتنفذ التصريح اللي قاله الرئيس كيندى قبل كده إن أمريكا تضمن جميع الحدود في هذه المنطقة .

على هذا الأساس ما كنتش فيه أبدأ أى بحث عن موضوع البدء بالهجوم على إسرائيل . . . ولكن عمليتنا كلها في القيادة المشتركة كانت عملية دفاعية . . . وكان حشدنا في تقديرنا في هذا الوقت ، هو عملية ردع حتى لا تقوم إسرائيل بالعدوان على سوريا . . .

في يوم ٢٣ مايو ، أعلننا إغلاق خليج العقبة بالنسبة للسفن الإسرائيلية بعد كده بالتغيرات السياسية التي تمت في إسرائيل في بداية شهر يونيو ومع متابعتنا لما يجرى هناك أصبح احتمال الحرب ١٠٠ في المية . معنى هذا إيه . . . معناه إننا ما كناش أبدأ مطمئنين لكل العمليات الدبلوماسية والسياسية اللي بتعملها أمريكا وكنا أيضاً ندرك أن فيه شيء يدبر وأن هذا الشيء لن يتأخر .

توقع العدوان في يوم حدوثه :

يوم الجمعة ٢ يونيو ذهبت بنفسى إلى القيادة العليا للقوات المسلحة وحضرت اجتماع حضره كل المسؤولين العسكريين الكبار في القوات المسلحة وأيديت في هذا الاجتماع وجهة نظرى قبل ما اسمع شرحهم للموقف ، وقلت في هذا اجتماع يوم الجمعة ٢ يونيو أنه لا بد لنا أن نتوقع من العدو ضربة في خلال ٤٨ ساعة إلى ٧٢ ساعة لا تتأخر عنها أبدأ . . . على أساس ما كانت تشير به دلائل الحوادث والتطورات ، وقلت أيضاً في هذا الاجتماع إننى أتوقع أن يكون العدوان يوم الاثنين ٥ يونيو وأن الضربة الأولى ستوجه إلى قواتنا الجوية . . . وكان موجود في هذا الاجتماع قائد القوات الجوية . . .

معنى هذا إيه . . . معناه أن إحنا ما كناش مستهينين بالموقف نتيجة كل العمليات الدبلوماسية والاتصالات ، وإرسال الأمين العام للأمم المتحدة ، ومواقفة جونسون

على أن ذكر يا محيي الدين يروح . . . ولكن كان من الواضح جداً بأى حجة سياسية أن إسرائيل لا بد أن تقوم بعمل عسكري خصوصاً بعد تحرك القوات العراقية وأيضاً بعد ما دخلت الأردن ضمن اتفاقيات الدفاع المشترك .

أنا راضى بأى حكم :

وبعدين المسألة السادسة : بعد ما حدث ، إنه من الضروري أن نسلم بأمانة وكرامة أن المعركة المسلحة لم تسر كما كنا نتوقع . . . وكما كنا نتمنى ولقد جاءت مصداقاً للحكمة القائلة . . . لا يغنى حذر من قدر ، ، لست أريد الآن أن أتحدث عن الأسباب ولا أَرْضَى لنفسى ولا لهذا الشعب أن نقوم والمعركة ما زالت مستمرة بتوزيع المسؤوليات . . . هذا موضوع يملكه تاريخ شعبنا ونضاله ، ولكنى أستطيع أن أقول راضياً وبطيّب خاطر وبضمير مستعد للحساب فى أى وقت ، أنه مهما كان ويكون ، فإن المسؤولية أولاً وأخيراً يجب أن تقع على . . . وقلت هذا الكلام فى خطابى . ؟ فقد قلت ذلك فى خطابى إلى الأمة يوم ٩ يونيو الماضى ، وأقوله الآن وسوف أظل أقوله متحملاً لجميع نتائجه راضياً بأى حكم يترتب على ذلك .

ولقد كان هذا دافعى فى حقيقة الأمر إلى قرار التنحى فى ٩ يونيو . . . كنت أريد أن يعرف أعداء الشعب المصرى وأعداء الأمة العربية أن المسألة ليست عبد الناصر ولا مطامع عبد الناصر كما يقولون . . . إن نضال الشعب المصرى بدأ قبل عبد الناصر وسوف يمتد بعد عبد الناصر ، والأمة العربية سمعت إلى وحدتها قبل عبد الناصر وستسعى بعد عبد الناصر . ولقد كنت أقول دائماً وما زلت أقول لى لست قائد هذا الشعب ، وقصارى ما يمكن أن أتمناه لنفسى من شرف أن أكون تلميذاً عنه فى مرحلة معينة من نضاله المستمر قبل أى فرد وبعد أى فرد .

أمريكا لعبت دوراً فى العدوان :

المسألة السابعة : تتعلق بالدور الأمريكى — الكثير من الدور الذى لعبته أمريكا ما زال غامضاً ، والقبيل منه هو الذى نعرفه — حرب سنة ١٩٥٦ أسرارها كلها ما اتعرفت حتى إلا السنة التى فاتت ، اتفشت السنة التى فاتت بعد عشرينين ، حرب سنة ١٩٦٧ مش هاتقدر نعرف أسرارها كلها دلوقت ، هاتعرف أسرارها بعد

سنوياً، ولكن أمريكا لعبت دوراً في هذا العدوان ، الكثير من هذا الدور مازال غامضاً ولكن عرفنا منه بعض حاجات .

فيه أسئلة كثيرة في اللي عرفناه . . . إيه معنى الدور السياسى الدبلوماسى الذى قامت به الولايات المتحدة الأمريكية . . . قبل المعركة . . . الجوابات وطلب ضبط النفس وتهديدنا بأن أى عمل منا قد يعرض المنطقة كلها لمخاطر . . . وعرض إرسال نائب الرئيس الأمريكى إلينا للكلام فى الموضوع ، والموافقة على سفر زكريا محيى الدين إلى واشنطن لمقابلة جونسون للكلام فى الموضوع ، ومحاولة الوصول إلى حل . . . كل ده حصل قبل العدوان قبل المعركة ، فالخديعة لحساب مين ؟ . . . طبعا علينا أن نتساءل . . . طبعا خديعة لحساب العدوان الإسرائيلى الاستعمارى . . . الخديعة لحساب خطة أمريكية وضعت ودبرت لنا ، بأقول من سنتين الغرض منها القضاء على الانظمة الثورية الحرة اللي ما بتسمش كلام الدول الكبرى ، واللى ما ترشاش تقعد فى مناطق النفوذ . . . إيه معنى الدور اللي قام به الاسطول السادس فى الأيام القليلة السابقة للمعركة قرب شواطئنا وقرب حدودنا ؟ . . . إيه هى الاسلحة اللي شخت لإسرائيل فى فترة ما بين الأزمة إلى يوم العدوان ؟ إيه عدد الطائرات اللي وصلتها ؟ إيه هو عدد المتطوعين من الطيارين ؟ ما هو التفسير لقوة الطيران الضخمة التى عمل بها العدو على الجبهات العربية جميعاً ؟ — كانوا يهاجمونا فى مصر ويهاجموا الأردن وفى نفس الوقت يهاجموا سوريا وفى نفس الوقت يبعثوا طائرات تهاجم مطارات العراق .

.. ٤ طائرة تهاجم الأردن :

ليلة ٧ يونيو اتصل بى الملك حسين بالتليفون الصبح قرب الفجر ، وقال لى إن فيه . . . ٤ طائرة بتهاجم فى الجبهة الأردنية ، وأن أجهزة الرادار اللي عنده تبين هذا العدد الكبير من الطائرات — منين جاءت هذه الطائرات ؟ ؟ — ما هو التفسير لدور باخرة التجسس الأمريكية ليبرتى ؟ . . . كلكم قرأتم فى الجرايد إن كان فيه قرب ميا هنا الإقليمية ، أو حتى داخل ميا هنا الإقليمية مركب أمريكى اسمها ليبرتى ، وأن الإسرائيليين افتكروها مركب مصرى وبعثوا لها قوارب طوربيد ضربتها وقتل فى هذا الهجوم ٣٤ ضابطاً وبحار من رجال الباخرة الأمريكية ليبرتى . . . لحساب مين

المركب دى كانت بتشغل بما عليها من الأجهزة العلمية . اتقال إن المركب دى بتحل شفرات العمليات ، واتقال إنها بتتبعت لأمريكا ، واتقال إنها بعد كده بتتبعت لإسرائيل . . طبعاً الإرسال باللاسلكى عملية سريعة أو بتتبعت لسفارات أمريكية فى المنطقة — طب وإيه اللي كان حصل لو كانت قوارب الطوربيد بتاعتنا هى اللي ضربت الباخرة الأمريكية ليبرتى ؟ . . كانوا عملوا إيه الأمريكان . لما ضربوهم الإسرائيليين للموا أنفسهم وغطوا الحكاية ، وطلعوا على مالطة عاشان يصلحوا المركب . لو كنا احنا اللي ضربنا المركب الأمريكانى فالأمريكان كانوا ادونا انذار ، لأن احنا مش مستعمرة أمريكية ولا راس جسر للاستعمار — ولا داخل مناطق النفوذ الأمريكى .

طائرات أمريكية فوق جبهتنا :

هناك سؤال آخر ليه كانت هناك طائرات أمريكية فوق جبهتنا ؟ . . يوم الأربعاء ٧ يونيو شوهدت طائرتان بالعلامات الأمريكية فوق خطوطنا — فى أول الأمر لم أصدق ، ولكن المعلومات كانت مؤكدة بعدين أذعنا بيان ، وقلنا إن فيه طيارات أمريكية طارت فوق خطوطنا وفوق الجبهة وقلنا ان احنا بنعتقد بهذا أن الأمريكان مشتركين فى العملية — وقلنا على الطيارات اللي كانت بتهاجم الأردن ، وقلنا إن هناك هجوم بالطيران غير إسرائيلى على الأردن — وأذعنا بيان وذكرنا فى البيان تفاصيل الطائرتين اللي شفناهم مارين . . بالليل جاءتنى رسالة من الرئيس جونسون . . اتصل هو بالرئيس السوفيتى ، وطلب منه انهم يبعثوا لنا رسالة لأن احنا ما كناش لنا علاقات فى هذا الوقت معاه ، وقال إن حقيقى كان فيه طيارتين أمريكياتى فوق خطوطنا ولكن الطيارتين دول كانوا رايمين لنجدة الباخرة ليبرتى باخرة التجسس .

السؤال الأول هل كانت هناك طائرات أمريكية أخرى ؟ — السؤال الثانى هل كان ممكن يعترفوا لو ما كناش أذعنا البيان — أسئلة الحقيقة الواحد يسألها لنفسه بالنسبة للحاجات اللي يعرفها .

ما هو تفسير الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة وبعد انتهاء العملية ؟؟ إيه الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة وبعد انتهاء العملية ؟ . . الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة وبعد انتهاء العمليات يتبنى كلية وجهة نظر إسرائيل . . الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة معناه استسلام العرب بلا قيد ولا شرط — ده الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة بعد انتهاء العمليات يعنى إيه هذا الموقف ؟

فارق مخيف بين موقفين أمريكيين :

فيه فارق مخيف بين موقفين أمريكيين موقف سنة ١٩٥٦ حين فوجئت أمريكا بالعدوان الثلاثي ضدنا ، وموقف سنة ١٩٦٧ حين لم تفاجأ — أمريكا سنة ١٩٥٦ فوجئت بالعدوان الثلاثي ضدنا — أمريكا سنة ٦٧ رغم الرسائل ورغم المواقفة على إرسال زكريا محي الدين ، ثم تفاجأ بالعدوان الإسرائيلي ضدنا .. حين فوجئت أمريكا وقفت موقفاً حازماً من العدوان وطالبت بوقف وبانسحاب القوات المعتدية — وحين لم تفاجأ أمريكا كانت مع العدوان وأيدت العدوان وضغطت على كل دولة تملك عليها أى نوع من التأثير ، حتى كانت النتيجة ما رأيناه من فشل الجمعية العامة للأمم المتحدة .. من الاكيد أن أمريكا لم تفاجأ ، والقصاص ابتدت تنقل والصحف الأمريكية هذه الأيام مليانة بأنباء تقول إن الموضوع كان مشار مناقشات على أعلى المستويات في أمريكا — اتقال في الصحف الأمريكية واتقال في مقال في مجلة لايف الأمريكية أن إسرائيل عرضت على الرئيس الأمريكى رأياً في أن تقوم بالهجوم ، وقالت إنها تشعر بالتفوق ، واتقال أيضاً في الصحف الأمريكية إن الرئيس الأمريكى أخذ رأى رئيس الأركان الأمريكى ، وأخذ رأى رئيس المخابرات الأمريكى ، وأنهم وافقوا وبهذا صرح لإسرائيل وسمح لإسرائيل أنها تقوم بالهجوم وتقوم بالعدوان — في نفس الوقت أخذت إسرائيل ضمانات من أمريكا بأن إذا العرب دخلوا إسرائيل يتصدى لهم الأسطول السادس .. إذا إسرائيل هاجمت البلاد العربية أمريكا ستساند إسرائيل — نشر هذا الكلام في الجرايد ونشر هذا الكلام في الصحف .. وأشكول رئيس وزراء إسرائيل قال أنه يشكر الرئيس الأمريكى ، الذى قال له إن الأسطول السادس موجود علشانكم وموجود علشان يساعدكم ، وأن رده عليه بدلال على الرئيس الأمريكى . وقال له إتنى أخاف في الوقت إلهى إحنا قد نكون فيه معرضين للخطر تكون مشغول بمشاكل فيتنام أو تكون في أجازة نهاية الأسبوع في المزرعة بتاعتك في تكساس .. ولكن الرئيس الأمريكى أكد له وطمأنه على أن الأسطول السادس هاتخميمهم إذا دخل العرب داخل الحدود الإسرائيلية — المقالات دى ، الكلام ده كله طلع في الجرايد .. الحكايات دى كلها طلعت في الصحف . إذن أمريكا لم تفاجأ بالعدوان . إذن كان هناك تواطؤ بين أمريكا وإسرائيل ..

أمريكا تواطأت :

دى كلها الحقيقة موضوعات الواحد يسأل نفسه فيها قطعاً مفيش جواب مقنع إلا أن أمريكا تواطأت مع إسرائيل وأمريكا إالى أعلنت قبل الحرب أنها متمسكة بالتصريح اللى يضمن الحدود فى كل هذه المنطقة لم تكن تعنى بهذا الحدود العربية .. ولكنها كانت تعنى بهذا حدود إسرائيل .. وأمريكا طمنت إسرائيل على حدودها .. ولكن أباحت لإسرائيل أن تنتهك حرمة الأراضى العربية . وأمريكا طلبت منا إن إحنا نضبط نفسنا وإن إحنا ندى فرصة للتنفس وفى نفس الوقت سمحت لإسرائيل بالعدوان .

أنا قلت قبل بدء القتال نحن لانريد أن نكون فى حرب مع أمريكا ، فيه بعض الناس يمكن أخذوا فى مؤتمرى الصحفى إالى قلته قبل المعركة ، قبل القتال، إنى كررت أكثر من مرة أن أمريكا أقوى وأغنى دولة فى العالم ، هذا أمر صحيح لا يجدى إنكاره .

التصميم على الحرية :

المواقف السياسية لا يمكن أن تبني على الأوهام أو على خداع النفس ، وإنما تبني على الحقائق . . وحين أقول أننا لانريد ولا نقدر على حرب مع أمريكا فأنا مش شايف أن فى هذا عيب ولا فيه ضرر . . لانريد ولا نقدر أن نحارب أمريكا ، ولكن ذلك لا يمكن أن ينزع منا تصميمنا على الحرية ، ولا يمكن أن ينزع إرادة الثورة فىنا ، ولا يمكن أن ينزع آمالنا فى مستقبل نفيه وفق مشيئتنا ومصالح شعبنا مهما كانت الظروف ومهما كانت الضغوط ومهما بلغت أمريكا فى طغيانها ضد حركة التحرر الوطنى والثورة الوطنية .

التهديد بعد رفض التفتيش :

من سنتين قابلى وكيل الخارجية الأمريكية ومعه رسالة من جونسون وقاللى بما أنكم ما قبلتوش الحاجات اللى إحنا طلبناها منكم قبل كده ، حق التفتيش ، وأنا قلت لكم القصة دى قبل كده ، كانوا طلبوا حق التفتيش عندنا بالنسبة للأعمال الذرية وحق التفتيش بالنسبة للصواريخ وتحديد الجيش المصرى بحد معين . واحنا كنا رفضنا هذا ، وقلنا لا يحق لأمريكا أن يكون لها حق التفتيش . جالى تلبوت وكيل وزارة

الخارجية الأمريكية وقاللى بما أنكم رفضتم هذا، فاحنا شايفين أننا فى حل ندى إسرائيل ما طلبته من السلاح، وإنكم إذا شهرتوا بينا، واتكلمتوا، إن إحنا بندى إسرائيل سلاح وحنديها سلاح أكتر، فأنا قلت له وإنتوا إذا ادبتوا إسرائيل سلاح احنا أيضاً حنشترى سلاح ولا يمكن إن إحنا نترك العملية بهذا الشكل.

فى الوقت ده قرروا يدروا إسرائيل أعداداً من الدبابات وأعداداً من الطائرات يمكن أعلنوا همه فى الأعداد اللى أعلنوها شىء، والشىء اللى إدوه لإسرائيل شىء آخر. ده كان تهديد من أمريكا وكان تهديد واضح، إنهم حيدوا إسرائيل ويساعدوا إسرائيل ويعاونوا إسرائيل، إذا لم نقبل نحن حق التفتيش، ونقبل طلباتهم فى تحديد الجيش المصرى، بعدد معين وسلاح معين.

الحديث الثانى

الحديث الثانى عن الحرب :

وفى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٦٧ تحدث الرئيس جمال عبد الناصر عن الحرب للمرة الثانية فقال :

الشعور بالصدمة :

فى يوم ٨ قررت التنحى لسبب واضح وهو المسئولية، وأنا كنت أعتقد أنه لن يكون هناك رد فعل لخطاب التنحى، لأن أنا كنت أشعر بالصدمة وكنت أشعر أن كل واحد فيكم، وكل واحد من أبناء هذا الوطن يشعر بالصدمة، وكان لابد أن يكون هناك مسئول عما حدث، ولابد أن يكون هناك مسئول يتحمل مسئولية الآمال والوعود، والتطلعات الكبيرة اللى كانت بتتقال واللى كنا بنحس بها كلنا.. وكنت أعتقد أن الشعب بعد ما هزمت قواته هزيمة عسكرية سريعة بهذا الشكل سيفقد الأمل إلى حد كبير فى قدرتنا على الصمود وعلى المقاومة... وكنت أعتقد نتيجة لهذا أن الشعب سيرحب بالحلول السلمية، سواء مع الولايات المتحدة الأمريكية أو مع الدول الغربية المعادية لنا، فكنت أعتقد أن الشعب سيرى فى جمال عبد الناصر عقبة ضد هذا... وعلى هذا الأساس يوم ٨ بالليل قررت هذا القرار، ويوم ٩ أعلن هذا القرار فى حديثى إليكم... وكانت ثقة الواحد إتهزت تقريباً فى كل شىء، زى

ما قلت لكم لم أكن أتصور رد فعل لا بالشكل الذى حصل ولا أقل من الذى حصل لآنى كنت باعتبار أن الهزيمة والصدمة تكون أثرت فىنا كلنا إلى درجة الانهيار . . كنت غلطان يمكن فى هذا الاعتقاد . . وأعتقد أيضاً أن أعداءنا كلهم كانوا متوقعين أن نهار تحت وطأة الصدمة ، فى هذا الوقت الذى كان أعداؤنا فيه معتقدين إن إحنا سننهار تحت وطأة الصدمة . . خرج الشعب ليؤكد قوة إرادته ، وأن هذه الإرادة لا تقهر ، وأنه لا يكفى لقهرها أى خسارة فى المعدات أو فى الأرض . .

لم يكن عندنا دفاع :

بدى أقول لكم يوم ٩ و ١٠ يوم الناس ما خرجت فى الشوارع بالآلاف أوبالملايين ما كنش عندنا دفاع عن الضفة الغربية لقنال السويس ، النهاردة الظروف ؛ اختلفت وباقدر أقول هذا الكلام . . كان العدو موجود فى الضفة الشرقية للسويس وكان الطريق الذى بين السويس والقاهرة مفيش فيه ولا عسكرى . .

كانت الطريق إلى القاهرة مفتوحة دون أدنى مقاومة ، نتيجة الشلل الكامل الذى حصل فى قواتنا المسلحة . . فى بور فؤاد كانت المقاومة الشعبية هى التى احتلت بور فؤاد ، فى بورسعيد كانت المقاومة الشعبية هى التى احتلت بورسعيد . .

ذكرى تولى المسئولية :

فى الحقيقة كان بدى أقول إن ذكرى محي الدين باعتباره قائد المقاومة الشعبية تولى المسئولية يوم ٨ يونيه بالليل ، حوالى الساعة عشرة بعد الحال الذى وصلت إليه قواتنا نتيجة المعارك إلى حصلت لإبتداء من يوم ٥ وبرغم هذه الظروف ، وبرغم الحالة التى كنا وصلنا إليها ، وأعتقد أن الشعب كان يعلم إيه هى الحالة التى وصلنا إليها لأن بلاغاتنا كانت واضحة . . بل البلاغ الذى طلع يوم ٩ الصبح عن تحرك العدو وعبوره قنال السويس إلى غرب القنال فى بعض المناطق كان يبين الحالة التى وصلنا إليها فى هذا اليوم . .

فعلا . . كل واحد كان يبض لحالتنا مكانش من الصعب عليه أن يشعر أو يحس أننا وصلنا إلى نجاة انهيار كاملة ، ولكن خروج الشعب لتأكيد قوة إرادته

ولتأكيد أن هذه الإرادة لا تقهر وأن هذه الإرادة لا يكفي لقمعها خسارة معركة عسكرية أو خسارة نسبة من المعدات ، أو خسارة جزء من الأرض ، خرج الشعب وأكد هذا . .

تغيير الموقف :

بتأكيد الإرادة الشعبية تغيير الموقف . . تغيير الموقف كلية . . تغيير الموقف كلية بدون أن يطرأ عليه أى تغيير جديد عاوى ، بتأكيد الإرادة الشعبية أصبح الموقف البالغ السوء ، أصبح على الفور وليس فى ذلك أدنى قدر من المبالغة ، أقل سوءاً . . وبالتحقق اليومى من صلابة هذه الإرادة الشعبية ، أصبح الموقف قابلاً للتحسن وأصبح قابلاً للتحويل ، وذلك ما نستطيع أن نلحظه الآن ، وقد مرت بعد النكسة ، شهور أصبح بعدها ممكناً للتراكمات الكيفية أن تحدث أثراً كبيراً نستطيع أن نضعه فى الحساب ، هذا التغيير الذى أحدثته الإرادة الشعبية بدأ فى يوم كانت الحقائق المادية وحدها من الناحية العسكرية — وهى التعبير الظاهر للصراع المسلح — تقول بأننا خسرنا ما يقرب من ٨٠ ٪ من معدّاتنا الحربية فى معارك الأيام الستة ، كما أن قواتنا كانت بتأثير الصدمة مبعثرة وشبه تائهة . وكان معنى ذلك فى هذا الوقت أننا لم نعد قادرين لا على الهجوم ولا على الدفاع .

أصبحت قواتنا قادرة :

واليوم إذا أخذنا نفس القاعدة وأجرينا على أساسها الحساب لمجرد القياس فإننا نستطيع أن نقول باطمئنان إن قواتنا المسلحة قد استعادت جزءاً لا يستهان به من قوتها الحربية . كما أنها الآن تقف على جبهة قوية تقدر فيها على العمل المؤثر والفعال . ولست أريد الآن أن أخوض فى أية تفصيلات عسكرية تفيد العدو ولا تفيدنا .

ولكننى أكتفى بالقول بأن المقدرة الحقيقية لقواتنا المسلحة الآن تفوق مقدرتها الحقيقية قبل بدء المعارك . وذلك تغيير ضخم وهائل لم نكن نحلم بالوصول إليه فى هذا المدى القصير من الزمن .

خطوات التغيير :

الذى أحدث هذا التغيير الضخم أو الذى أتاح له أن يحدث ، هو الإرادة الشعبية التى تركزت فى جبهة الصمود ، هذه هى الحقيقة التى سمحت لخطوات العمل الوطنى أن تتقدم ، وأن تتحرك ، وأن تحدث التغييرات المادية اللازمة والضرورية ، وقد رفضت رفضاً كاملاً أن تخضع أو تلين . .

إن خطوات التغيير تلاحقت . وكان بعضها فى تلاحقه يبدو وكأنه غير مرئى ولكن ونحن نستعرض الآن ما حدث ، ونعبر عنه بنظرة شاملة ، فإننا نستطيع أن نرى وأن نربط الخطوات ببعضها . نستعرض معاً :

أولاً : أول حاجة ، مواجهة الحقيقة فى النكسة والمقدرة على استيعاب هذه الحقيقة ، والمقدرة على تماسك النفس ، واستبقاء الإيمان ، بالمقدرة على تجاوزها .
ده أول تغيير حل بيننا بعد الهزيمة والنكسة .

كانت إنجلترا فى الحرب العالمية الثانية مهزومة فى دنكرك ، وسحبت قواتها من دنكرك ، ورجعتها ما قلتش أنها نكسة ، ولكن اعتبروا العملية عملية أساسية لرفع المعنويات . . وصمموا على القتال وقال القادة إن احنا ما عندناش غير العرق والدموع . . ما سموش هذه الهزيمة نكسة . . لاشمغنى احنا الللى سميناها نكسة !! . .

إحنا سميناها نكسة . . وأنا قبل ما أكتب النقاط الخاصة بهذا الخطاب كنت باراجع جوابات جت لى فى آخر وقت . . فيه واحد بيقول إحنا ليه سمينا الللى حصل نكسة ، ما إنجلترا فى الحرب العالمية الثانية طلعت مهزومة فى دانكرك وسحبت قواتها من دانكرك ورجعت ما قلتش إنها نكسة . . ولكن اعتبروا العملية أساسية لرفع المعنويات وصمموا على القتال وقال القادة هناك إن احنا ما عندناش غير العرق والدموع . . ما سموش هذه الهزيمة نكسة .

واشمغنى احنا الللى سميناها نكسة .

الحقيقة الراجل الللى كتب الجواب ده ليه حق . . ليه إحنا سميناها نكسة ؟ . .
يقول إن احنا سميناها نكسة . . يمكن أنا أول واحد قال هذا التعبير . . نتيجة

لما كنا نشعر بيه في هذا الوقت يوم ٨ ويوم ٩ يونية .. الحقيقة أنا أيضاً كنت أشعر إن احنا حصلت لنا مصيبة كبيرة . وحالنا زى حال الراجل اللي طلع في الشارع خبطته عربية .. خبطه ترمى .. أصبح عاجز عن أنه يتحرك .. إترى على الأرض ... مش عارف يعمل إيه .. الحقيقة ده كان حالنا يوم ٨ وكان حالنا يوم ٩ ولكن حصل تغيير كبير قوى بعد ٨ وبعد ٩ ..

والسبب في هذا التغيير ، الصمود .. لولا الصمود اللي وقفه هذا الشعب .. والشعب العربي أيضاً في كل بلد عربي .. مكش ممكن إن احنا نقف على رجلينا .. مكش ممكن إن احنا نعلن للعالم كله إن احنا رغم فقدانا قطعة من الأرض .. ورغم فقدانا لمعركة عسكرية .. لم نفقد إرادتنا .. ولم نستسلم في إرادتنا .

.. بعد هذا ، خطوات التغيير تلاحت بسرعة وأهم حاجة هي قدرة هذا الشعب بالتاريخ الطويل في النضال أنه يواجه الحقيقة .. من أول يوم واجه الحقيقة .. واستطاع أن يستوعب هذه الحقيقة ولم ينهار .. بل تمالك نفسه .. وآمن بنفسه .. آمن بقدرته على أنه يستطيع أن يتجاوز هذه الهزيمة وأن يتجاوز هذه النكسة .. ما هو معنى إن احنا نفقد ٨٠٪ من معداتنا .. ونحن ما زلنا نواجه العدو ، والعدو ما زال يحتل أرضنا ..

.. ما هو معنى إن احنا نفقد العدد الكبير من القتلى ؟ ؟ ..

العدد الكبير من القتلى عشرة آلاف جندي قتلى و ١٥٠٠ ضابط قتلى في هذه المعارك من يوم ٥ إن يوم ٨ ، غير الأسرى ٥ آلاف جندي أسير ، ٥٠٠ ضابط أسير .. فقدنا أيضاً جزء كبير من أبناء قواتنا المسلحة وفقدنا عدد كبير من أولادنا ، الضباط والعساكر ، إالى ماتوا في ميدان القتال ..

نحن بعد هذا .. بعد يوم ٨ كنا مكشوفين زى ما قلت لكم قدام العدو جهة القتال مكشوفة .. والمدن أيضاً مكشوفة .. زى ما قلت لكم ما كانش عندنا خط دفاعي غرب القتال والمدن مكشوفة ما كانش عندنا طيارات خالص علشان نجابه بها طيران العدو إذا أراد أن يعتدى على مدتنا .. رغم الكارثة إالى حصلت بالطيران يوم ٥ ، فإن ضباطنا الطيارين رغم تفوق العدو طلعوا بالطيارات اللي فضلت

وكانت المعركة بالنسبة لهم معركة إنتخارية جابهوا طائرات العدو ، وأسقطوا من طائرات العدو . . وإحنا فقدنا في هذه الفترة أربعين ضابط طيار ما بين قتيل ومفقود . ناس أدوا الواجب على قد القدرة إالى كانت موجودة في أيدين قيادتهم . . قيادة الطيران لم تقدر الموقف تقدير صحيح ، وتسببت في الكارثة إالى حصلت الطيران صباح يوم ٥ ، وبالتالي تسببت في أن تنتهى المعركة بالطريقة إالى انتهت بها .

إستطعنا إن إحنا نواجه الحقيقة رغم كل إالى حصل لنا . . إستطعنا أن نواجه الحقيقة بعد هذا بأيام . .

صممنا على أن نقاتل :

طبعاً من أول يوم بدأنا نلم أنفسنا . . ننظم دفاعنا وصممنا على أن نقاتل من شهر إلى شهر . . وحينما أراد العدو أن يتقدم إلى بور فؤاد في أواخر شهر يونيو لم نتركه في معركة رأس العش واشتبكتنا معاه . . تصدت قواتنا المسلحة ليه . . قبلنا بالمخاطرة ، والطيران في هذا الوقت ما كنش استعاد وضعه الطبيعي ، والعدو كان قادر على إحداث إنتصار ، ولكننا قبلنا بالمخاطرة ، وده يبين التغير إالى حصل في هذه الأيام . . أن تبين هذا من غير خديعة النفس . .

الخديعة للنفس في ذلك الوقت كان يمكن أن تصبح كارثة كاملة لا أمل بعدها . . لم نخدع أنفسنا وإحنا لم نخدع . . . لم نخدع الشعب ولم نخدعكم . .

إن إحنا نستوعب هذا كله ، والمشاعر إالى تتفرع من كل الامور إالى بأ كلمكم عليها ، إن إحنا نقدر نفوق من الصدمة ونفوق من الجهد النفسى ، والجهد النفسى اللازم ، لىك تفيق بعد أن كان الواحد يشعر أنه عايش في كابوس ولا يصدق أن ما حدث قد حدث . .

* * *

إلى هنا انتهى الحديث الذى عرض لحرب ١٩٦٧ بتفاصيلها السياسية والعسكرية .

الهجوم الجوي

تمت مصدر ، يستحق الإشارة إليه ، وهو كتاب رندولف تشرشل — حرب الأيام الستة — الذى نشر على حلقات فى جريدة الصنداي تلغراف البريطانية .

ويعد هذا الكتاب عن حرب يونيو ١٩٦٧ أوسع الكتب شهرة ، فقد عنى اليهود باستغلال اسم مؤلفه ، وهو ابن ونستون تشرشل بطل الإنجليز المعروف . . . وقد استدعاه اليهود إلى إسرائيل ، واشتركوا معه فى تأليف كتابه ، بإمداده بالبيانات التى تصلح لتصديرها إلى العالم ، وتضمنت معلومات قليلة صحيحة ، ومعها إضافات مضللة يقصد بها التويه والتعمية ، والدعاية ضد مصر ، ثم عمدوا إلى نشر هذا الكتاب على أوسع نطاق ، ولا سيما فى آسيا وأفريقيا .

ولعل أخبث ما ورد فى هذا الكتاب الأسلوب الذى صور به الهجوم اليهودى الجوى على مصر : ومن الواجب أن نفصح ما تضمنه من خبث وخديعة :

التمويه الأول

يركز اليهود طائراتهم ، فى مطارات اختاروها بعناية فى المنطقة الشمالية من إسرائيل ، كما مدوا العديد من الطرق البرية المحفوفة بفروع الشجر التى تصلح لطلوع ونزول الطائرات ، واستعداداً للحرب ، وتوقياً من المفاجآت فإنهم أخرجوا هذه الطائرات من مخابثها ، ووضعوها على امتدادات كبيرة فى هذه الطرق ، بحيث يصعب أن تصور جواً ، وإن كانت الأقمار الصناعية تستطيع التصوير لارتفاع مدارها عن سطح الأرض ، وتزويدها بعدسات التقاط لا توجد حتى فى طائرات التجسس المعروفة .

وهناك سببان حملا اليهود على تركيب طائراتهم فى هذه المنطقة الشمالية ، وهو أن تكون على بعد لا يسمح للمقاتلات المصرية أن تطولها من قواعدا الرئيسية ، إذ أن مدى الطيران لكل طراز من الطائرات معروف ، ومذاع دولياً .

وكان يمكن أن تكون الطائرات الإسرائيلية في متناول الطيران المصرى مهما بعد مكان إيوائها ، أو موه ، لو أن المطارات العربية كانت متاحة لطائراتنا .

ويبدو أن المخابرات الأمريكية واليهودية ، كانت على علم تام بهذا الموقف ، فقد أكد « مردخاي هود » قائد الطيران اليهودى ، أن إسرائيل لن تضرب من مطارات فى الشمال ، أو فى الشرق ، وأعطى تعهداً لمجلس وزرائه بهذا المعنى ، وكان وزراء إسرائيل يملؤهم خوف قاتل من إمكان تعرض منطقة تل أبيب وحيفا وما يليها شرقاً للقصف الجوى ، وفيها ثلثا سكان ومرافق إسرائيل ، وفيها مطاراتهم .

وعلى ذكر هذه المطارات ، نقول إن الإنجليز - فى فترة الحرب العالمية الثانية - أنشأوا اثنى عشر مطاراً غائرة تحت المناطق الجبلية ، حتى لا تتعرض للغارات الجوية الألمانية . . . وعند جلائهم فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ . سلموا هذه المطارات ، بكافة معداتها لليهود .

وكان هناك استعداد فى استغرق مدة طويلة ، نفذته أداة الحرب الإسرائيلية مع أجهزة المخابرات الأمريكية ، وقد تناول هذا الاستعداد أربع نقط حيوية هى : التدريب ، والمدد الخارجى ، ونوع السلاح ، وقدرة الطائرات ومداها .

التدريب

لقد درس اليهود المواقع المصرية كما أولوا اهتماماً خاصاً للطيران الليلي ، والطيران المنخفض ، فى حالة المرور العابر ، وفى حالة القذف الجوى .

وبلغ من شدة اهتمامهم بهذه التدريبات ، وباتفاق مع المخابرات الأمريكية على إرسال حوالى ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) طيار وقى إلى فيتنام ، يلبسون الملابس الأمريكية ، لكي يقوموا بتدريبات عملية على أرض الفيتناميين ، وأملاكهم ، وأرواحهم . وربما كان منهم أمريكيون غير يهود تعاقدوا معهم على العمل عند اللزوم . وقد وقعوا مع هذه الفئة المختارة عقوداً لمدة عامين أجر الشخص فيها عن مدة التعاقد ٧٠ ألف دولار] وقد أيدت دراسة مجلة « دير شديجل » الألمانية الغربية هذه الواقعة [.

وعندما سافر موشى ديان إلى فيتنام ، فى عام ١٩٦٦ ، ولم يكن يشغل منصباً رسمياً ، قيل وقتها إنه سافر لدراسة حرب العصابات ، على الطبيعة . والواقع أنه سافر للتأكد من سير هذه التدريبات على كافة الظروف والاحتمالات .

وهذه الرحلة بالذات ، تعد دليلاً — لمن كان في حاجة إلى دليل — على أن حرب يونيو ، كانت تحت الإعداد التنفيذي من عامين سابقين قبل الهجوم ، بل من أعوام أكثر ، من الإعداد والاختبار ، والدراسة ، وجمع المعلومات . .

يروى القائد اليهودي « هود » ، إنه أنفق ١٦ عاماً في الإعداد لخطة الهجوم الجوي ، وظل خبراء الحرب معه ينامون ويستيقظون ويتغذون بهذه الخطة .

وقد تناول التدريب والإعداد ، القسم الميكانيكي من العملية ، مثل أسرع الوسائل لإصلاح الطائرات المعطوبة أو المصابة ، وأقصر وقت يمكن أن تستغرقه الطائرة ، في شحنها بالوقود والذخيرة ، وإعدادها للتخليق . .

وقد بالغ اليهود كثيراً في ذكر ما توصلوا إليه في هذا المجال ، حتى بدا كلامهم غير عملي على الإطلاق ، مثل قولهم إن الطائرة يمكن أن تزود بالوقود ، والذخيرة ، في سبع دقائق ونصف ، وإنها تستطيع تكرار هذه العملية ثمانى مرات في اليوم بنفس الطيارين بعد أن يحققوا أغراضهم من الهجوم على مراكز العدو . وهذا طبعاً أسلوب صغير من المفاخرة ، يحمل معه دلائل سخفه . أو وسيلة من وسائل التضليل والحرب النفسية التي يقصد بها إعطاء مستوى لا يستطيع تحقيقه لمنافسيهم . . والعيب الوحيد في هذه البيانات أنها غير صحيحة .

الملد الخارجي

ذكر الرئيس جمال عبد الناصر في بياناته عن هذه الحرب أن عدد الطائرات الإسرائيلية ، التي شاركت في هذه الحرب الأخيرة ، يفوق ثلاث مرات قدرة المطارات والمهابط الإسرائيلية على الاستيعاب .

ويعزز هذا البيان أن الطائرات اليهودية كانت تعمل في أربع جهات ، وقد تعرضت الأردن لهجوم قدره العسكريون فيها بـ ٤٠٠ طائرة كاضربت مطار الحبانية في العراق ، وضرب مطاران في سوريا ، وهما الضمير والمزة . وضرب مطاراً عمان والمفرق في الأردن . وهذا غير المطارات المصرية الممتدة على رقعة واسعة من الأرض من شواطئ البحر المتوسط حتى الأقصر [٣٢ مطاراً عربياً في المنطقة المحيطة بإسرائيل] .

وكان الفرض المحتمل ، هو أن حاملة الطائرات الأمريكية في البحر الأحمر كانت مطاراً قريباً للهجوم الشرقي ، وذلك بعد أن أثبتت الدراسات أن قوة اليهود الجوية في هذه الحرب قدرت بـ ٤٠٠ طائرة .

وهناك دراسات ، ومعلومات هامة ، عن هذه النقطة ، تسربت إلى بعض المجلات العسكرية ، ومجلات الطيران بصفة خاصة .

ففي عدد ٢٢ يوليو سنة ١٩٦٧ من مجلة « إير — كوزموس » الفرنسية إشارة صريحة إلى أن معونة الطيران الإسرائيلي قامت من مطارات تركية ، ومعلوم طبعاً أن الولايات المتحدة قواعد في الأراضي التركية لا تخضع للرقابة المحلية ، ومن المستبعد أن تكون الحكومة التركية على علم بما تم ، لأن موقفها بعد ذلك في هيئة الأمم كان موقف استنكار صريح للعدوان الإسرائيلي على البلدان العربية . . كما أن المجلة الفنية التي نشرت هذا النبأ هي مجلة فرنسية وفرنسا جهة حياد في هذا النزاع .

وعلى كل حال فإن هذا الاحتمال موضع دراسة ، ولا سيما أن معركتنا مع إسرائيل مستمرة ، ومن الضروري توضيح كل غموض في هذه المسألة .

وفيما يلي صورة فوتوغرافية لما نشرته المجلة الفرنسية :

Les indices

Il y a eu unanimité pour admettre que les préparatifs israéliens étaient détectables au moins 24 heures avant l'attaque du 5 juin à 9 h 15. Ils l'ont été par d'autres pays. Le repli des Américains de Jordanie était un indice de première valeur. L'USAF avait mis à la disposition de l'aviation jordanienne un détachement d'une centaine de pilotes et spécialistes et quelques avions pour l'entraînement sur F-104. Le départ précipité d'un contingent aussi important par des avions venant de Turquie ne pouvait passer inaperçu. Dans le cas fort improbable où ce trafic aurait pu échapper aux moyens de surveillance de l'espace aérien, les services de renseignements installés en territoire jordanien n'auraient pas manqué de souligner la signification du mouvement

قبرص . . ومطار ليماسول

وهناك منطقة أخرى خارج إسرائيل ، كانت مدداً لهم في الطائرات ، وهي القواعد البريطانية في جزيرة قبرص . .

يوجد في جنوب قبرص مينائها الرئيسى ، وهو دلياسول ، وقد سلّمت حكومة قبرص مساحة كبيرة من الأرض المجاورة للمدينة للإنجليز ، لتكون قاعدة بحرية وجوية لهم ، بمقتضى اتفاقيات خاصة .

وحتى تم دراستنا لحرب يونيو ، على الطبيعة كلما أمكن ، فقد قمت بزيارة قبرص مرتين ^(١) ومرت بقاعدتي د لارنكا ، في الشمال الشرقى للجزيرة ، وقاعدة دلياسول ، في الجنوب . وشاهدت عن قرب مرافق الميناء البحرى ، وشاهدت عن بعد المطار الذى الهائل ، الذى يديره الإنجليز هناك ، ويعد من أكبر المنشآت فى حوض البحر المتوسط .

ووجود هذه القاعدة وأبعادها الضخمة ، هى معلومات متاحة للجميع ، والإنجليز لا يمنعون — بمقتضى المعاهدة — أحدا من أهل قبرص من المرور فيها ، وعدد كبير منهم فيها .. وتنفق القاعدة الجنوبية حوالى ١٦ مليون جنيه سنويا . ولكن ما يعنيننا هو ما سمعناه من عدد من القبارصة الأصدقاء [ومنهم مناضلون فى حركة أيوكا الوطنية] أنهم راقبوا عددا من الطائرات العسكرية ، ظل فيون من الإنجليز ، يضعون عليها علامات اسرائيلية ، وذلك لمدة اسبوع سابق على ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، وأن طيارين كانوا يأتون تباعا لاستلام هذه الطائرات وقيادتها .

وبالطبع لم يعرف عدد هذه الطائرات ، ولكنها فى الغالب طائرات فرنسية قادمة من قواعد تابعة الأطلنطى ، وطائرات انجليزية كذلك . أما الطيارون فكانوا معدين سلفا .

وهكذا يمكن أن نضيف جهد الإنجليز عن طريق قاعدة لياسول ، إلى جهد الأمريكان فى قاعدة أزمير أو غيرها ، فى إعداد وإيواء المدد الجوى الذى يساعد إسرائيل فى هجومها على مصر .

نوع السلاح

أهم الطائرات التى استعملها اليهود أربعة أنواع . ميراج ٣ التى حملت هذه القنبلة د ماترا ، وطائرة د الفوتور ، ، وهى قاذقة قنابل فرنسية الصنع سرعتها ٦٨٦ ميلا ، ومدادها ٢٤٠٠ ميلا .

(١) تمت هذه الزيارات فى مارس ونوفمبر سنة ١٩٦٨ .

وكذلك ثلاثة أنواع أخرى بيانها كما يلي :

- ١ — طائرة « سوبر ميستير » يملكها العدو الإسرائيلي وقد طليت بألوان خاصة للتمويه وتبلغ سرعتها ٧٤٣ ميلا على ارتفاع ٣٦ ألف قدم .
- ٢ — طائرة « نراتس ١٩ » استعملها الفرنسيون في هجوم على مصر سنة ١٩٥٦ صالحة لانزال المظليين ، سرعتها ٢٧٣ ميلا .
- ٣ — طائرة « ميستير ٤ » سرعتها ٦٦٥ ميلا ، وهي مقاتلة للهجوم الأرضي .

مدى الطائرات

والاشكال الكبير يتركز في مدى الطائرات ، أى المسافة التى تستطيع أن تقطعها ذهاباً إلى هدفها ، وإياباً إلى قاعدتها .

والمعروف أن الطيران المنخفض الذى لجأت إليه إسرائيل في عملياتها ضد مصر يستهلك خمسة أمثال الوقود في الطيران المرتفع ، لأنه طيران بطيء . . .

والحكمة في اختيار الطيران المنخفض هو تفادى شبكات الرادار على السواحل المصرية . وكان من وسائل التضليل التى لجأ إليها مؤلف كتاب حرب الأيام الستة ، أنه ذكر أن الطائرات اليهودية كانت تستطيع الوصول إلى أى هدف مصرى في أربعين دقيقة . . فكيف يتأتى هذا والطيران المنخفض يخفض السرعة إلى الحد الذى ذكرناه؟! .

لقد رقت الحكومة الإسرائيلية «مردخاي هود» إلى درجة لواء ، وتسمى باللغة العبرية رتبة «حالف» . ولعله استحق أن يكون حالوفاً ، لأنه خدع المؤلف تشرشل الابن ، وغيره من الكتاب ، وواهمهم أنه أتى بالمعجزات الفنية ، وطور علم الطيران . وليس فيما قام به من شيء جديد أو معجز لا يمكن الرد عليه . وكل الجديد ، هو عنصر المفاجأة ، الذى وفره لإسرائيل الرئيس الأمريكى جونسون ومخابراته . . لا أكثر . . أى أن العامل السياسى هو الذى كسب المعركة .

ذكر لنا صديق فاضل كان في طرابلس الغرب ، عند حدوث الحرب ، وقال أن الأمريكان في قاعدة هويلس ، كانوا يحسبون ألف حساب للطيران المصرى ، وأن كل الجهود التى بذله ساسة بلادهم ، هو منع طائراتنا من التحرك في الوقت المناسب .

وعما قريب سنسترد بالقوة ، ما أخذ منا غدرأ وخديعة ، وعندها ستعلم الدنيا كلها أن نسورنا في الجو ، هم النصور ، وأنهم سادة هذه السماء التي تظلمنا . . ولن تنفع وقتها رسائل ولا اتصالات على أى مستوى كان ، ومهما كان مصدرها .

أما وقد أعطينا لمحة عن الجانب اليهودى من الاستعداد للحركة الجوية ، فن الواجب أن تقدم بياناً عن السلاح الجوى في جانبنا ، وفي جانب أصدقائنا الذين يمدوننا بالطائرات ، وعن التطور الكبير الذى وصلت إليه قدرة السوفيات في إنتاج هذا السلاح ..

وفيما يلي بيان عن سبعة أنواع منها :

- ١ — قاذفة ثقيلة بعيدة المدى من طراز « مياسيشيف ٢٠٠ » ، وهى ذات أربعة محركات سوبرسونيك ومصممة ضد القطع البحرية وخاصة الغواصات وقد أطلق عليها اسم « الثور الوحشى » لضخامتها .
- ٢ — المقاتلة من طراز « ميغ ٢٣ » ، وسرعتها ٣ مرات سرعة الصوت ولها محركان وتستطيع أن تصل إلى ارتفاع ٣٠ كم .
- ٣ — قاذفة من طراز « سوخوى ٧ » ، مطورة وذات أجنحة متحركة تفرد وتطوى عند الإقلاع والهبوط ، وسرعتها ضعف سرعة الصوت .
- ٤ — مقاتلة سوبرسونيك من طراز « ميغ ٢١ » ، موديل « فيشبد- ف » ، ومزودة بصواريخ إضافية من أسفلها لسرعة الإقلاع .
- ٥ — قاذفة مقاتلة من طراز « سوخوى ٧ ب » ، سرعتها مرتان ونصف سرعة الصوت ومزودة بصواريخ إضافية من أسفلها لسرعة الإقلاع .
- ٦ — قاذفة مقاتلة سوبرسونيك من طراز « ياك ٢٨ ب » ، ومزودة بصواريخ من الجو إلى الجو التى توجه بالأشعة تحت الحمراء . ومقدمة الطائرة تحتوى على أجهزة رادار للتتبع وإطلاق النيران .
- ٧ — مقاتلة نفائة ترتفع عمودياً صمماها « ميكويان » ، وسرعتها تقرب من سرعة الصوت .

ونحن إذ نقدم هذه البيانات المتاحة في كل صحف العالم ، وقد نشرت جريدة الأهرام محررها العلني بعضها مشكورة ، نشعر أن من واجب وسائل الإعلام ، والمؤلفين أن يعطوا اهتماماً خاصاً للنشر وعي خاص بالطيران بين شبابنا وفي معاهدنا ، وللبواطنين كافة . . . فإن هذا الوعي — ولا شك — جزء هام من كسب المعركة القادمة إن شاء الله .

من أين جاءوا

ذكر الأستاذ هيكل في جريدة الأهرام أن اليهود نفذوا بطيرانهم المنخفض إلى أراضيها من فوق بحيرة البرلس وهذا صحيح ، إلا أن هناك أكثر من منطقة عبروا منها لكي يصلوا في وقت واحد إلى الأهداف التي قصدوها .

وقد نشرت جريدة « الصنداي تايمز » ، في عدد ١١ يوليو سنة ١٩٦٧ رسماً للهجوم الجوي اليهودي جعلت فيه منطقة العبور إلى الأرض المصرية غرب الإسكندرية قرب سيدى عبد الرحمن . . .

وذكر السيد الرئيس جمال عبد الناصر أننا كنا نتوقع قدوم العدو من الشرق . فإذا هو يجرى من الشمال والغرب أى من وراء مطاراتنا . . .

التمويه والتعمية

بذل العدو مجهوداً ضخماً في عمل طلعات جوية كاذبة من جميع الاتجاهات ، وكان تركيزه في هذه الغارات الوهمية من النقب إلى خليج السويس . . فلما تكررت هذه العمليات ، عرف أن المقصود بها لإجهاد قواتنا ، حتى تظل في حالة الاستعداد الأقصى ، طول الوقت ، فيتسرب إليها الملل ، وحتى تفقد تطلعها وتوقعها للهجوم .

وساعد على هذه التعمية ، أنهم بذلوا مجهودات كبيرة ، لعمل ستار كاذب عن حقيقة نواياهم ، حتى تتفق مع البيانات الرسمية الصادرة من واشنطن ، والتي أبلغتها موسكو لمصر ، والصادرة — أيضاً — من كثير من البلاد الصديقة والمحايدة الأخرى .

فمن ذلك مثلاً :

١ — اجتمع مجلس الوزراء اليهودي الذي تحدد فيه موعد الهجوم على مصر والبلاد

العربية الأخرى : ونشرت في صحف إسرائيل بيانات عن الاجتماع ورد فيها أنهم ناقشوا موضوع إصدار سندات جديدة ، وصدقوا على اتفاقية ثقافية مع بلجيكا ، وغير ذلك من الأمور الروتينية .

٢ — وصل راندولف تشرشل إلى إسرائيل بوصفه صحفياً يمثل جريدتي إيفنج نيوز ، ونيوز أوف ذي وورلد ، وفي يوم الجمعة ٢ يونيو ، ذهب إلى منزل موشى ديان في إحدى ضواحي تل أبيب التي تسمى « زحالا » ، ونشر أن وزير الدفاع الجديد يقضى وقتاً مريحاً ، ونقل عنه تصريحات يفهم منها أن الحرب ليست قريبة ، وأنه لا بد من إفساح مجال للعمل الدبلوماسي . وعلى هذا ركب تشرشل الابن الطائرة ، وعاد إلى لندن ، إذ ليس هناك ما يهم ، وأن مسرح الحوادث لا يجذب النظارة في الوقت الحالي .

وكانت هذه العمليات مقصودة ومحسوبة ... لأن الهجوم تحدد يوم الاثنين . وقد كرر موشى ديان ، وعميله تشرشل الابن نفس اللعبة التي قام بها بن جوريون في أواخر أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، إذا أكد أن الحرب بعيدة الوقوع ، وما لست أن تحرك الهجوم الإسرائيلي .

٣ — وإكالا لسلسلة الأكاذيب اليهودية عقد موشى ديان مؤتمراً صحفياً في مساء السبت ٣ يونيو ، وأكد فيه مذكره يوم الجمعة لتشرشل الابن ، وكان مما قال « إن الوقت قد تأخر كثيراً للقيام برد عسكري مباشر ضد الحصار الذي فرضته مصر على مضائق تيران . وذكر أن الحكومة التي هو عضو فيها تسير في طريق العمل الدبلوماسي ، ولا بد من إعطائها فرصة كافية ،

٤ — وفي يوم الأحد ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ ظهرت صحف الأحد في أنحاء العالم ، وفيها صور التقطت على شواطئ إسرائيل ، وآلاف الجنود الإسرائيليين يقضون أجازات نهاية الأسبوع ، وكان لدى اليهود أمل كبير بأن المخابرات المصرية تتبع هذه الحركة وعلمت منها أن منظر المستحمين والأجازات لا يدل على أن معركة قريبة توشك أن تقع ١١ وقد عرف بعد ذلك أن هؤلاء الجنود كانوا يخفون أسلحتهم وملابسهم العسكرية ، حتى إذا غابت الشمس وتعذر التصوير الجوي ، عادوا إلى ارتدائها ، واسرعوا إلى وحداتهم . .

بدء الهجوم

قرر اليهود أن تكون ساعة الصفر للهجوم الفعلي على مصر الساعة الرابعة والنصف من فجر الاثنين ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ .

وفي هذا الوقت بدأت قواتهم تتحرك .. وكان على القوات الجوية أن تتحرك أيضاً لتصل إلى أهدافها في ساعة — ودقيقة واحدة ، وهي حسب تقرير مدير عملياتهم « وايزمان ، ٥٨ دقيقة من ساعة التحرك لأبعد الأهداف ، وأقل منها للأهداف القريبة . وهذا الوقت سوف يزيد طبعاً بالنسبة للطيران البطيء . وقد حسب حسابه في العملية الجوية .

ولكن قبيل التحرك ، تلقت القيادة الإسرائيلية أن غواصة مصرية توجد شمال الإسكندرية بحوالى ١٤٠ ميلاً ، وأن الغواصة قادرة على كشف حركة الطائرات مهما كانت منخفضة ، ومتفادية لشبكة الرادار الساحلى المصرى .

وارتبك موسى ديان ، وداخله خوف شديد من أن يؤدي تنبه القيادة المصرية للهجوم المفاجئ ، إلى الاشتباك ، وبذا يدمر السلاح الجوى الإسرائيلى بواسطة الاسلحة المصرية وتنتهى إسرائيل !

وأدى به خوفه على طائراته إلى أن يأمر بتأجيل الهجوم ساعة ، مع مراقبة الغواصة المصرية . .

ثم أمر بتأجيل العملية ساعة أخرى ، للتأكد من أن طائراته سوف تؤدي مهمتها الحبيثة غير منظورة . .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هام : وماذا كان مصير الهجوم البرى !

لم يستطيع موسى ديان ومعاونيه — فى ارتباك — أن يأمر بتوقفه ، حتى ينسق حركته مع الهجوم البرى . فقد تحرك فى اتجاه القوات البرية للخطوط المصرية . ولعله رجح إذا كشف أمر قواته الجوية ، وانسحبت من العملية ، أو دمرت ، أن يأمر بسحب قواته البرية ، ويستغيث بأمريكا ، لإيقاف الاشتباك المضاد من جانب مصر .

مهما يكن تفكير المعتدين فى هذه اللحظة ، فقد ساعدتهم الظروف ، وتحركت

القوات الجوية اليهودية ؛ في مخاطرة محسوبة ، ولم تتنبه لها أجهزة الإنذار المصرية .
وقامت بالمهجوم المفاجيء حسب الخطة الموضوعة . . .

أما لماذا لم يصل إخطار في وقت مبكر من جهة القتال في سيناء إلى غرفة العمليات
في القيادة المصرية ، فلهذا أسباب منها .

١ — إن العدو قبيل الهجوم البري أنزل مخربين بطائرة هليكوبتر ، فقطعت
الاتصال التلغرافي من مركز تجمعهم بمنطقة سيناء ، ووضعت ألغاماً تدمر كل من
يحاول إصلاحه . وتم هذا التخريب قبيل المعركة .

٢ — قامت عملية تشويش لاسلكي خطيرة ، ساهمت فيها سفينة التجسس
الأمريكية « ليرتي » .

تعليق الأيكونومست البريطانية

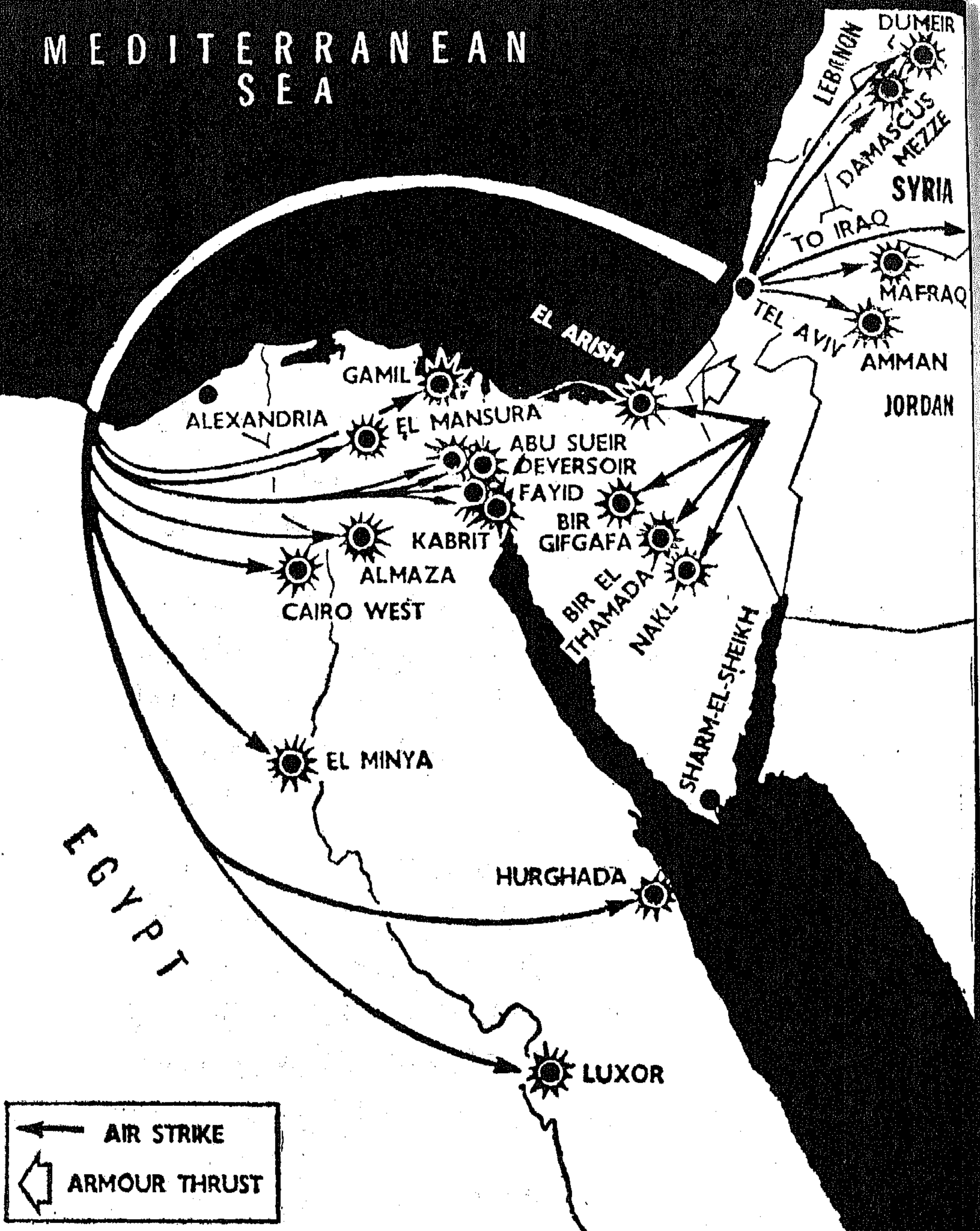
وقد علقت مجلة الأيكونومست البريطانية على العمليات الجوية في حرب يونيو
تعليقاً يستحق أن تثبته هنا : . قالت في عدد ١٧ يونيو ١٩٦٧ :

إنه ليس من الحكمة أن يحتضن الغرب نفسه جذلاً على مظاهر عدم الكفاءة
العسكرية المصرية هذه ، ذلك أنه ليس من الواضح على الإطلاق ما إذا كان
في وسع بريطانيا ، على سبيل المثال ، أن تفعل خيراً بما فعل المصريون ، في نفس
الظروف ، لقد هزم المصريون ، أساساً ، لأنهم لم يتمكنوا من الإقلاع بطائراتهم
من الأرض بالسرعة الكافية . ذلك أنه بدون غطاء جوي لا يمكن لأية قوات
— سواء كانت مصرية أو من أية جنسية أخرى — إلا أن تقاتل في الغابات .

ولأنه لتقليل من قدر الذكاء المصري الفطري أن يعتقد المرء أن الطائرات كانت
على الأرض لأن المصريين لم يفكروا في أن الإسرائيليين سوف يهاجمون .

إن أصعب قرار يواجهه أي قائد جوي يقف على شفا الحرب هو أن يعلم اللحظة
الصحيحة التي يجب عليه فيها أن يحلق بقواته في الجو ، ذلك أن الطائرات لا يمكنها
أن تبقى في الجو مدة طويلة . إن الطائرات المقاتلة ليست كطائرات الركاب العابرة
القارات ، بل طائرات قصيرة المدى ، فإذا صدر لها الأمر بالتحليق بأسرع مما يجب ،

MEDITERRANEAN SEA



تحتّم عليها أن تعود إلى الهبوط للتزود بالوقود . وهنا أيضاً ليس هناك شبه بينها وبين الطائرات التابعة للخطوط الجوية لأن إعادة تزويد الطائرات المقاتلة بالبنزين يعنى أيضاً التفتيش من جديد على جميع أجهزتها الإلكترونية المعقدة ، ومن ثم ، فإذا اختار العدو هذا الوقت بالذات للهجوم كان شأنها كشأن الشخص الذى يفاجأ « وسراويله مدلاة فى ركبتيه » .

إن هجوم إسرائيل لم يحدث عند الفجر ، أى فى نفس الساعة الثالثة صباحاً ، وهو الذى كان منتظراً أن يتم فيه الهجوم ، وإنما تم حوالى الساعة السابعة صباحاً ، الأمر الذى جعل المصريين يواجهون أسوأ الظروف الملائمة .

وعند ما واجه الهجوم ، كانت الطائرات المهاجمة تطير على ارتفاع منخفض دون أى إنذار على الإطلاق .

ولأنه معروف ، على الورق فحسب ، أنه توجد طائرات للإنذار المبكر تحمل معدات للكشف عن هذا النوع من الهجوم ، وتحلق ببطء وكأنها أجهزة رادار حلقة فى الجو . غير أن المصريين لم يكن لديهم طائرات من هذا النوع ، بل إن مثل هذه الطائرات لا توجد — ولن توجد — لدى أية دولة أخرى لفترة قصيرة من الزمن على الأقل .

وعند ما جاءت الطائرات المهاجمة هناك ، كانت الطائرات المصرية مصفوفة فى خطوط منتظمة على المطارات ، بالضبط كما يمكنك أن تراها مصفوفة فى خطوط مستوية ، بنظام عسكري محكم ، وفى أى مطار عسكري آخر فى أى جزء من العالم . ولم تكن هناك أية محاولة لتفريق الطائرات فى أما كن متناثرة أو لإخفائها . غير أن المصريين لم يفعلوا ذلك بدافع من الثقة المتزايدة بالنفس ، بل لأن هذا هو النمط العسكري الغربى السليم والجيد .

* * *

واستطردت هذه المجلة الإنجليزية تقول :

ولقد تصرفوا تماماً مثل الغالبية العظمى من القادة لو كانوا فى مكانهم ، وأبرزوا بوضوح للضعف الكبير فى فنون الدفاع الغربية ، فإن نوع الدفاع الجوى — غير

الندى — الذى يستخدم حالياً بواسطة جميع الدول العسكرية ذات الشأن يمكن أن يكون فعالاً فقط إذ أمكن الحكم على الوقت الذى سيتم فيه الهجوم لأقرب ساعة أو نحو ذلك . وإلا فإن الاحتمال الغالب هو أن تفاجأ الطائرات على الأرض دون أن تكون مبعثرة على مسافات متباعدة ، كما حدث للمصريين . ومن هنا تتبين أهمية ما يفعله الأمريكيون بالنسبة لتصميم الطائرات حيث يقومون بصنع طائرات مقاتلة يمكنها أن تتمكن طويلاً فى الجو مثل الطائرات من طراز ف ١١١ كما أنهم يقومون بصنع مقاتلات وطائرات كبيرة حاملة للجنود يمكنها أن تطير من الحقول المغطاة بالحشائش بدون مدارج للطائرات ، وذلك لكي يتجنبوا نقطتى الضعف الكبيرتين المذكورتين ، ولكنه فى نفس الوقت لا يجب أن نعتقد أنه كان فى وسعنا أن نفعل أفضل بكثير مما فعله المصريون (انتهى التعليق) .

ولسنا هنا نحاول تصيد كلمات عزاء . . أو تبريراً لفقد عدد كبير من طائراتنا بهذه المفاجأة ، ولكننا نريد الإشارة إلى بعض الدول استفادت ، وسوف تستفيد من هذه المعركة ، وأول هذه الدول مصر بالذات ، مما سيكون موضوع دراسة منا بعد قليل .

السفينة ليبرتى

قصة السفينة الأمريكية « ليبرتى » الموصوفة بسفينة التجسس ، معروفة وأصبحت متداولة . . . وقد عرضتها مجلة « نيوزويك » الأمريكية وثيقة الصلات بالخبرات المركزية فى عدد ٣ يوليو سنة ١٩٦٧ كما يلى :

كانت السفينة الأمريكية ليبرتى تقف فى أحد الأحواض الجافة يميناً فالىتا فى مالطة بعد أن تمزق أحد جانبيها بفعل أحد زوارق الطوربيد ، وظهرت على سطحها ثقوب خلفتها طلقات المدافع ، وحول مائدة طويلة داخل غرفة الطعام بالسفينة . جلس أعضاء هيئة المحكمة البحرية الثلاثة ، وقد ظهر من فوقهم أثر قذيفة صاروخية اخترقت جدران الغرفة ، وراحوا يستعرضون بطريقة منظمة الظروف التى أحاطت بهجوم الإسرائيلى الوحشى على سفينة الاتصالات الأمريكية التى كانت تقف بالقرب من ساحل سيناء . ولكن الشخص الذى لوحظ أنه كان متغيباً خلال هذه المداولات هو السيد الحقيقى للسفينة ليبرتى — أى مجلس الأمن القومى الذى خلف نشاطه ستار

كثيف من السرية — والذي يحمل معه المفتاح الأخير لهذا الحادث الذي يعد من أكثر الحوادث مدعاة للحيرة خلال حرب الشرق الأوسط .

ولقد استكملت البحرية ذاتها في الأسبوع الماضي تحقيقاتها الواسعة حول هذا الهجوم . وكانت تستعد لإزاحة جانب من ستار الأمن الذي أحاط بمهمة هذه السفينة حتى تعرضت للهجوم . ولا شك إن التقرير الضخم الذي أعدته محكمة التحقيق سوف يساعد على توضيح سؤال هام ، وذلك بعد أن مر على جهاز الرقابة التابع للبتاجون . وهذا السؤال هو : هل كان الإسرائيليون يعرفون أن السفينة أمريكية ؟ الجواب بالنفي والإيجاب معاً . فاستناداً إلى ما تقوله البحرية الأمريكية قامت الطائرات الإسرائيلية بالتحليق فوق السفينة ليبرتي قبل مهاجمتها بست ساعات وكان واضحاً أنها عرفت أن السفينة أمريكية . ولكن هذه الحقيقة لم تعلن قط للطائرات وزوارق الطوربيد الإسرائيلية التي هاجمت السفينة في منطقة الحرب وهي تقف على بعد ٣٢ ميلاً من ساحل سيناء .

وتقرير البحرية — عند عرضه على الرقابة كان يصف الهجوم الإسرائيلي الذي تسبب في مقتل ٣٤ أمريكياً وإصابة ٧٥ آخرين بأنه عمل متهور وعنيف ، وأنه يمثل خرقاً لقوانين الملاحة الدولية ، ولكن البحرية لم تقدم أى دليل يشير إلى أن الهجوم لم يكن خطأ مؤسفاً .

وقد أعفى التقرير قبطان السفينة — الكوماندر وليام ما بكوناجل — من أية مسئولية في هذا الحادث . والواقع أن المسؤولين في البحرية ألحوا إلى أن ما بكوناجل البالغ من العمر ٤١ عاماً والذي أشرف في هدوء على عمليات الإصلاح العاجلة قد يمنح ميدالية الشرف البحرية .

ومضت المجلة تقول :

وفيما يتعلق بمهمة ليبرتي الغامضة . فإن تقرير البحرية يردد قصة التويه الرسمية التي تقول أن السفينة كانت ترسو بالقرب من الشاطئ لإرسال معلومات تساعد على إجلاء الرعايا الأمريكيين من مناطق الحرب . ولكن الحقيقة التي ترفض وزارة الدفاع الأمريكية الاعتراف بها . هي أن السفينة كانت مشتركة في الجهود الأمريكية

الشامل الذى يستهدف معرفة كل ما يمكن معرفته عن سير المعركة فى حرب الصحراء وعن الاسلحة السوفيتية الحديثة .

وبجزء من شبكة الالتقاط الإلكترونية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم ، والتابعة لمجلس الأمن القومى ، كانت السفينة ليبرتى مليئة بأجهزة بالغة الحساسية وبمقولات الكترونية . وكانت مهمتها ، تحديد مواقع أجهزة الرادار العربية وقواعد الصواريخ ، والتقاط الأوامر التى يصدرها العرب والإسرائيليون من ميدان المعركة . ولما كانت معظم أجهزة اللاسلكى فى الميدان تعمل على موجات قصيرة ، ذات تردد قصير المدى ، كان على السفينة ليبرتى أن تخاطر بالاقتراب من الشاطئ .

ولقد أعلن متحدث باسم الجمهورية العربية المتحدة أن المهمة الحقيقية للسفينة ليبرتى كانت التشويش على أجهزة الرادار المصرية أثناء الغارات الجوية الإسرائيلية .. ومضى المتحدث قائلاً : لقد كان الإسرائيليون صادقين للمرة الأولى عندما قالوا إن ضرب السفينة كان خطأ ..

* * *

وراحت مجلة تيم الأمريكية تلمس عذراً آخر لليهود ، فقد نشرت صورة للسفينة المصرية « القصير » ، إلى جانب صورة « ليبرتى » ، وقالت إن المنظرين متشابهان ، وراحت تبحث عن مبرر فيما صنع اليهود بأخيهم العم سام .

ولكن يبدو أن القصة لم تتم فصولاً ، فقد عرف بعد ذلك أن قائد الأسطول السادس الأمريكى كان يتتبع سير المعارك على أجهزة تليفزيون خاصة ، وكان أحد الأقمار الصناعية يرسل تصويراً تليفزيونياً مفصلاً لما يحدث ، وكانت السفينة « ليبرتى » تساعد عملية التجسس التى تتم على هذا المدى الدقيق ، إلى جانب تداخلها فى عملية الإرسال والاستقبال اللاسلكى العربى بالتشويش وحل الشفرات . . . وقد أذاع راديو لندن ، ذات يوم تقريراً غريباً ، وهو أن التحقيق النهائى فى حادث السفينة « ليبرتى » ، أثبت أن اليهود كانوا يعلنون حقيقة جنسية السفينة ، وأنها أمريكية ، بعد أن ثبت أن السفينة كانت ترفع أعلاماً أمريكية ذات أحجام كبيرة حددت مساحتها ، ووضح أنه يمكن رؤيتها للطائرات فى أى ارتفاع . وعلى هذا يكون

الضرب عمداً ، وقد أوقفت حكومة وشنطن المضي في هذا التحقيق وأعفت اللجنة من عملها . بعد أن سلمت تقريرها المبدئي . . . وإذا صحت هذه الروايات ، فإن تعليلها هو أن اليهود ، بعد أن تأكدوا من نجاح مفاجأتهم للقوات المصرية ، لم يعودوا في حاجة إلى الأمريكان ، وبالتالي لم يعودوا في حاجة إلى أن يكشف « أصدقائهم » كل التفاصيل عن الخطط التي قاموا بها ، ولا سيما خسائرهم الجوية ، والتي زادت عن مائة طائرة [١٠١ طائرة بالضبط] في جميع الجبهات .

الاجوم البىرى

ما حدث فى الايام الستة لمعركة سيناء . كان حرب صحراء . .

الضربة الاولى لك أو عليك ، ثم يكون أروع ما يحدث ، عند تلقى الضربة ، أن يتراجع من تلقاها على عجل إلى خط يصلح للوقوف عنده .

إن حرب الصحراء ، مثل حرب الأساطيل فى الماء ، ليس لها خط ثابت ، وقد دارت عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٢ معارك فى صحرائنا والصحراء الليبية ، وأعطت للأكاديميات العسكرية دروساً ثمينة جداً فى طبيعة هذا النوع من الاصطدام المسلح ، ولا شك فى أن جهد الحرب بيننا وبين اليهود استفاد من هذه الدروس ، وبني عليها خطته . .

وفى أوائل شهر مايو سنة ١٩٦٧ زار المارشال مونتجمرى القائد الإنجليزى لمعركة العالين . مصر ، واجتمع مع كبار العسكريين المصريين ، ودارت مناقشات ممتعة عن طبيعة حرب الصحراء ، وتجاربه فيها ، وكان بما دار عند الحديث ، كيفية سير المعركة فى حالة عدم وجود الغطاء الجوى ، وقد كتب أحد شهود هذه الندوة^(١) بحثاً ذكر فيه ما استقر عليه الرأى خلال المناقشة عن المدرعات التى تتعرض للقصف الجوى ، وهل يحسن تثبيتها فى الرمال حماية لها ، أم تركها حرة الحركة . .

وكان هذه الندوة كانت على موعد مع سير الأحداث . وبمراجعة يوميات المعركة نستخلص منها ما يأتى :

* فى شهرى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٦٦ تكررت عمليات منظمة فتح الفلسطينية ، فرد اليهود بهدم ١٢٤ منزلاً فى قرية السموع الأردنية ، ومدرسة ومستشفى .

(١) الوزير حسين ذوالفقار صبرى فى سلسلة مقالاته بمجلة «المجلة» فى أواخر

• في شهر ابريل سنة ١٩٦٧ هاجمت إسرائيل بالطائرات مراكز المدفعية السورية ، على جبل الشيخ ، وتصدى لها الطيران السوري ، واصيبت ست طائرات ميج ، وفقد لليهود طائرات لم يعان عن عددها .

• في ١٠ مايو سنة ١٩٦٧ أعلن إسحق رابين رئيس أركان حرب الجيش اليهودي ، أن قواته قد تهاجم دمشق في أي وقت ، وتسقط الحكم القائم في سوريا .

• في ١٤ مايو سنة ١٩٦٧ أذاع ليفي أشكول ياناً قال فيه : « إن حكومة اليهود سوف تتخذ إجراءات انتقامية ضد سوريا . وفي نفس اليوم جاءت إشارة للقاهرة من الحكومة السورية بوجود حشد يهودي من ١٥ لواء . وبعد ست ساعات أبلغ الملحق العسكري الروسي القيادة المصرية بوجود هذا الحشد نقلاً عن حكومته في موسكو .

• في ١٤ و ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ سافر الفريق أول محمد فوزي إلى سوريا ، مع بعض مراقبيه العسكريين ، وطاف على الجبهة السورية بالطائرة .

• في ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ بدأ تحرك القوات المصرية لمساعدة سوريا ، وهو اليوم الذي كان اليهود يقومون فيه بعمل عرض عسكري في القدس بمناسبة « عيد » استقلالهم ، وهذا على الرغم من اتفاقية الهدنة التي تحرم دخول قوة مسلحة إليها .

وأخذت القوات المصرية مواقعها على طول ١٤٠ كم .

• في ١٦ مايو سنة ١٩٦٧ طلب سحب قوات الطوارئ الدولية من الحدود ، وذلك استناداً إلى التصريح الرسمي الذي أعلنه الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإرشاد السابق في ١٢ نوفمبر سنة ١٩٧٦ ، من أنه يجب سحب قوات الطوارئ الدولية فوراً بمجرد أن تطلب مصر ذلك .

• في ١٩ مايو سنة ١٩٦٧ أنزل علم القوات الدولية في غزة ، وأعلن انتهاء مهمتها ، بناءً على أوامر من يونس أمين عام هيئة الأمم . وكان لكندا ٨٠٠ جندي بين قوات الطوارئ الدولية ، وقد اعترضت على سحب هذه القوات ، في مجلس الأمن ، وأيدتها الدائمك في احتجاجها .

وكان الاتحاد السوفيتي قد أعلن أن القوات الدولية ، ما هي إلا القناع الذي تستتر وراءه المخابرات الأمريكية ، ولهذا امتنعوا عن دفع حصتهم في نفقاتها ، وإلا أصبحوا بمولين للمخابرات الأمريكية .

* في ٢٠ مايو سنة ١٩٦٧ أعلنت إسرائيل التعبئة التي وصفتها بأنها جزئية ، ولكنها كانت تعبئة عامة ، وتمت قبل هذا الإعلان . وقد اجتهدوا في إحاطة عملية التعبئة بكل طرق السرية الممكنة ، فلم يذع عنها بيان في الراديو ، ولا في الصحف ، ولكن أرسلوا إلى رؤساء وحداتهم في المستعمرات والأحياء برقيات أو رسلا ، حتى يتم كل شيء في هدوء ، واستعملوا في الإبلاغ شفرات رمزية متفق عليها .

* في ٢٣ مايو سنة ١٩٦٧ أعلنت القاهرة إغلاق مضائق تيران ، وذلك لتحطيم آخر بقية من عدوان عام ١٩٥٦ ، وكان تركها مفتوحة ، مثار كثير من الغمز واللزد من بعض الدول العربية . وكانت هذه المضائق مقفلة قبل العدوان الثلاثي من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٦ .

* في يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٦٧ ، وصل الجيش الإسرائيلي إلى الجبهة الجنوبية في حشد كامل من ثلاث فرق كاملة وعدد من الألوية .

* كان إغلاق مضائق تيران أشبه بقنبلة انفجرب في إسرائيل وفي الولايات المتحدة وسارع لينى أشكول يصرح بأن هذا عمل حربي ، وأيده على الفور جونسون الأمريكي يردد نفس المعنى . وانضمت إنجلترا إلى النادي اليهودي الأمريكي ، وأعلنت بدورها أن خليج العقبة يمر دولي !

* في ٢٤ مايو سنة ١٩٦٧ قررت أمريكا وإنجلترا ضرورة فتح خليج العقبة ، مع عدم استبعاد الحل العسكري . وكانت حاملة الطائرات البريطانية «نكتوريوس» عائدة من الشرق الأقصى إلى بلادها عن طريق البحر المتوسط ، فأمرت بالبقاء في مالطة .

* اجتمع مجلس الأمن ، بناء على طلب كندا والدنمرك ، وطلبت روسيا في الاجتماع سحب أساطيل إنجلترا وأمريكا من البحر المتوسط ، وأعلن أن قوات عراقية في طريقها إلى الجبهة الأردنية .

* ناقش الكونجرس الأمريكي الموقف في الشرق الأوسط ، وأعلن فيه أن حرباً واحدة تكفي الولايات المتحدة ، وهي حرب فيتنام .

* دارت تجمعات سريعة على المستوى الدبلوماسي . فذهب وزير خارجية إسرائيل إلى واشنطن لمقابلة جونسون ، ثم هرع إلى باريس ، وسافر هارولد ولسن رئيس

وزراء انجلترا إلى واشنطن كذلك . كما سافر جورج براون وزير خارجية انجلترا إلى روسيا .

* في ٢٦ مايو سنة ١٩٦٧ ، أعلن الرئيس عبد الناصر أنه ثابت على موقفه ، وأن أى اصطدام مع إسرائيل ، سوف يتحول إلى حرب شاملة .

* أرسل جونسون إلى السفير المصرى فى واشنطن رسالة يطلب فيها « ضبط النفس » ، وظهر بعد ذلك أن هذا الطلب كان يقصد منه منع مصر من الحركة ، حتى تعد إسرائيل نفسها للضربة المفاجئة . ودبت الحياة فى الخط التليفونى المباشر بين واشنطن وموسكو ونتيجة للمحادثات بين الطرفين ، تلقى السفير الروسى تعليمات بأن يتصل على الفور بالرئيس عبد الناصر ، ويبلغه بالالحاح رأى حكومته ألا تبدأ مصر الهجوم .

* فى يوم ٢٥ مايو مرت سفينة ألمانية من مضائق تيران ، وأعلن أن المرور غير مباح ولكن هذه الحركة لم تخفف من اندفاع دعاة الحرب الغربيين الذين كانوا يعدون العدة لها ، وكانت حكاية المضائق سبباً ، خشى ألا يصلح وحده للحرب .

* بناء على اتصال يوثانت بالقاهرة ، قدم إلى مجلس الأمن تقريراً فى ٢٧ مايو سنة ١٩٦٧ ، أكد فيه أن مصر لن تكون البادئة بالقتال ، وذلك استناداً إلى وعد صريح من الرئيس عبد الناصر ، ومن السيد محمود رياض وزير الخارجية .

* فى ٢٨ مايو ، أعلن الرئيس عبد الناصر بأن قتال السويس سوف تغلق ، إذا نشبت حرب مع إسرائيل ، وتدخلت دولة أخرى .

* فى ليلة ٢٩ مايو ، اقترح مجلس الأمن فتح مضائق تيران لفترة تلتقط فيها الأنفاس ، ولكن هذا الاقتراح لم يعرض للتصويب .

* فى ٣٠ مايو سنة ١٩٦٧ ، أخطرت روسيا تركيا ، بأن عشر سفن حربية سوفيتية ، سوف تمر من البوسفور والدردنيل إلى البحر المتوسط . وفى نفس اليوم ، ٣٠ مايو — وصل الملك حسين إلى القاهرة وفى ست ساعات قضائها ، وقع اتفاقاً للدفاع المشترك .

* فى آخر مايو سنة ١٩٦٧ ، كانت التعبئة تامة فى إسرائيل ، وترك المزارعون القمح فى المزارع بغير حصاد ، وهبط العمل فى المصانع إلى أقل مستوى ، بسبب التجنيد .

• انتهت الازمة السياسية في إسرائيل ، بتسلم موسى ديان وزارة الدفاع . وهو من مواليد عام ١٩١٥ والتحق بجيش الهاجناه اليهودي في سن ١٤ . واعتقله الإنجليز عام ١٩٣٩ وصدر الحكم ضده بالسجن عشر سنوات . ولكن أفرج عنه بعد عام ، وانضم مع الفيلق اليهودي إلى الجيش البريطاني . وفي أثناء معركة بين الإنجليز ، وقوات حكومة فيشي الفرنسية في سوريا ، فقد عينه اليسرى . وفي حرب ١٩٤٨ التي قامت على أثرها إسرائيل قاتل مع كتيبة من الفدائيين ، وفي سنة ١٩٥٦ كان رئيس أركان حرب الجيش اليهودي . وفي عام ١٩٦٠ عين وزيراً للزراعة ، في حكومة بن جوريون .

• وفي هذا التعديل الوزاري اليهودي الذي تم في مساء الأربعاء أول يونيو سنة ١٩٦٧ ، عين مناحم بيجين أحد رؤساء العصابات الإرهابية ، في إسرائيل ، وزيراً للدولة . وبقى د بيجال ألون ، أكبر منافسي ديان ، وزيراً للعمل ،

• عين الفريق المصري (المرحوم) عبد المنعم رياض قائداً عاماً للجيش الأردني ، تنفيذاً لاتفاقية الدفاع المشترك مع مصر ، وتسلم عمله ، واتخذ مقر قيادته في موقع متقدم بالجبهة .

وواضح أن تجنيد ربع مليون رجل وامرأة من إسرائيل لا يكون جيشاً ذا كفاءة عالية ، وإنما تتركز قوته الضاربة في عدد قليل من الكتائب ، تعد الجيش الثابت لإسرائيل المكون من جنود محترفين . وهي القوة التي تكلف بالإغارة على الحدود كلما مست الحاجة إلى أن تظهر إسرائيل شراستها . . .

وقد تحدث الذين كتبوا عن هذه الحرب الأخيرة ، ووصفوا عربات الخضر ، التي تجرها بغال ، ويقودها رجال عجائز ، وهي تنقل القنابل والتموين . . وقد يكون هذا الوصف صالحاً للدعاية ، وإعطاء فكرة عن حماسة اليهود للحرب ، وإطاعة رؤسائهم في النفير لها . ولكنه بعد ذلك يدل على أن إسرائيل لا تملك الرصيد الكافي من الطاقة البشرية التي تساعد على الصمود في حرب ، وإن عربات الخضر ، إذا ما فوجئت إسرائيل بالغزو ، كما فاجأت جيرانها ، لن تصلح لصد الغزاة ، ولا هي قادرة على الصمود لحظات . . وعدد الجنود المحترفين في جيش إسرائيل ، وتقدره كتب الدعاية لها مثل [كتاب تشرشل] - ١٢ ألف رجل ، تبيدهم هبة واحدة من هجوم مفاجيء .

ومن هنا كانت صيحة إسرائيل الدائمة ، في البحث عن حليف قوى يبسط عليها حمايته ، وكانت انجلترا ، ثم فرنسا ، ثم الولايات المتحدة . . وحجة إسرائيل ، أنها الحارسة للمصالح الغربية في المنطقة ، ولو فكر الغربيون قليلاً — قليلاً جداً — لتبينوا أن هادمة مصالحهم في الشرق الأوسط هي إسرائيل ، لما تبثه من كراهية عميقة ، لها قوة العقيدة الدينية ، في المجتمع الذي يحيط بها . . وتنسحب هذه الكراهية بالتالي إلى حمايتها . فكيف يتأتى أن تفلح هذه الحراسة للمصالح المزعومة ، وهذا القدر من الكراهية موجود ، ويزداد يوماً بعد يوم ! !

لقد كتب باحثون منصفون ، وهم كثيرون الآن في العالم الغربي ، ينتقدون سياسة أمريكا في حرب يونيو نقداً مرأ ، وذكروا أن ما سعت إليه روسيا خلال أربعة قرون من محاولة الوجود في البحار الدافئة ، قدمته لها سياسة جونسون الحقاء في أربعة أيام . . ولكن الوجود الروسي هذه المرة ، لا يسير على أرض الحروب والأحقاد والإكراه لشعوب البلاد الدافئة ، ولكن تحمله أجنحة المودة والتعايش السلمي . . وتحمله — أيضاً — المصالح المشتركة . . .

وإذا كانوا يتحدثون عن منابع الثورة المعمدنية في منطقتنا وأولها البترول والغازات الطبيعية ، ويتحدثون عن طرق المواصلات العالمية التي تمر بالمنطقة ، وهي جوية وبحرية وأرضية ، أفلا يكون من الخير أن تتولى الصداقة وتبادل المنافع بغير استغلال ، ضمان التعامل ، بدلا من الـ ١٢ ألف جندي الذين يكونون القوة الدائمة للجيش اليهودي ! ! ؟

وثمة نقطة لا بد من إيضاح فكرنا فيها ، وهي طبيعة الجندي اليهودي كحارب . اليهودي بطبعه ، ليس جندياً محارباً ، لأن طاقته كلها موجهة إلى اهتمامات أخرى ، ليس منها الحرب ، وأهمها جمع المال .

وما دفع اليهود إلى مغامرتهم الأخيرة ، وما سبقها من مغامرات هو السلاح الكثير الذي سلبه لهم الأمريكان ، ومن قبلهم الفرنسيون ، ومن قبلهم الإنجليز .

اليهودي في دبابته يحارب لأن درع الصلب يحيط به . . ولكنه لا يخرج إلى العراء مطلقاً ، ولهذا كانت ألوية المشاة ، هي أضعف ما في جيش إسرائيل من

قوة ، على الرغم من أن موسى ديان يباهى بأنه لا يوجد لديه من يمشى على قدميه . .
ولا تعنى كلمة المشاة « المشى » ولكنها تعنى الجندى المقتحم الذى يتسلم المواقع بعد
أن تمهد له المدفعية والمدرعات والطيران .

وربما كانت عقدة الخوف من الموت ، هى التى تملكهم — إذ أنهم لا يدخلون
« البعث » فى حساب عقيدتهم الدينية ، ولهذا فالحياة لديهم هى تمتع بكل لحظة من
لحظاتها . . ولهذا كان اهتمامهم البالغ بالحصول على جثث قتلاهم ، حتى تذهب إلى
قبورها فى بيئة يهودية ، ومنها إلى « الهاوية » التى عبرت عنها التوراة .

وقد حدث فى أحد الاشتباكات الجوية فى منطقة السويس أواخر عام ١٩٦٧ ،
أن سقطت طائرة أو طائرتان يهوديتان فى الخليج ، وجن جنون اليهود للعشور على
الطيارين الذين سقطوا أحياء أو أمواتاً ، وقد حشدوا ثمانين طيارة للبحث عن هذه
الجثث خوف التعرض لهم من الجانب المصرى ، حتى بعد أن تعهد مراقبوا الأمم
المتحدة ألا يتعرض لهم الجانب المصرى . . وبلغ ثمن وقود الطائرات التى كلفت
بالبحث والغطاء الجوى فى ليالى متعاقبة حوالى ثلاثة ملايين من الجنيهات .

وربما كان حرص اليهود على العشور على هذه الجثث ، هو نوع من المعالجة النفسية
للأحياء من اليهود ، وهو اهتمام حكاهم فى إسرائيل ، بعقائدهم .

وسوف نتحدث عن التكنولوجيا والطاقة العلية لليهود فيما بعد . وهى حقيقة
لا شك فيها . ولكن سؤالنا هو : هل هذه الطاقة العلية ، من الأمور التى لا نراها ،
ولا نقدر عليها ؟

سوف نبقى هذا السؤال معلقاً لفترة قصيرة من الزمن . . .

الجندى المصرى . . فى هذا الميدان

نشرت جريدة الأهرام يوم ٢٨ يناير سنة ١٩٦٨ البرقية التالية :

باريس فى ٢٧ — ١ . ش . ١ — صرح الجنرال بوثر مدير المركز الفرنسى
للدراسات الاستراتيجية بأنه إذا طالت الأزيمة الراهنة فى الشرق الأوسط يكون ذلك

في المدى الطويل لصالح العرب وعلى حساب إسرائيل . وقال أن إطالة أمد هذه
الآزمة سيشجع الدول العربية على الالتخام معها . والتآزر فيما بينها وإدراكها
ضرورة العمل الموحد .

وقال الجنرال بوفر إن النصر العسكري الذي أحرزته إسرائيل في حرب يونيو
الماضي لم يحقق لها النتائج السياسية التي كانت تنتظرها لأنه قد خلق لإسرائيل مشكلات
سياسية أكثر مما كانت تواجهها إسرائيل في الأراضي المحتلة . وأنه على نقيض
ادعاءات إسرائيل فإن هذه المقاومة ظاهرة لا يمكن التغلب عليها .

وتحدث الجنرال الفرنسي — الذي اشترك في حرب السويس عام ٥٦ — عن
الجنود المصريين فقال إنهم على عكس ما تريد أن تصوره بهم الدعايات المعادية لبلادهم
مقاتلون حقاً ، يصدقون في القتال إذا ما أتاحت لهم الفرصة .

وقال إنه لم يكن في وسع أي جيش آخر مكان الجيش المصري أن يفعل أحسن
بما فعل منذ اللحظة التي فقد فيها سلاح طيرانه . ا . ه .

والجنرال د بوفر ، كان قائد القوات الفرنسية ، التي هاجمت مصر ضمن العدوان
الثلاثي أواخر عام ١٩٥٦ . وإذا تكلم ، فلا ينقل عن كتاب ولكنه كابد الحرب
والمصريون هم أعداؤه .. فإذا جاء اليوم يتحدث ، فإنما يتحدث عن خبرة ومعاناة .

سيناء ... ومواقعها

الحرب البرية التي دارت في رقعة محدودة — هي سيناء — وشبه الجزيرة كما نعرفه
بحكمه ثلاثة طرق برية : الطريق الشمالي الذي يسير في محاذة الساحل ، ويربط القنطرة
والعريش ورفح . والطريق الأوسط الممتد شرقاً من الاسماعيلية . والطريق الجنوبي
الممتد من السويس ، والذي يمر بمر متلا حتى يصل إلى خليج العقبة ثم بساحل
جنوباً إلى مضائق تيران .

وأكبر مطارات سيناء ، مطار المليز ، ثم مطار العريش . وتوجد مواقع
هامة دارت فيها معارك ضارية : هي شرم الشيخ والكونيتيلا والقسيمة والعوجة وأم
بسيس والشيخ زويد ورفح وخان يونس . وبير العبد التي تقع غربي العريش وجنوب
بحيرة البردويل ، وطوقت منها العريش . وفي قلب سيناء توجد مواقع بالغة الأهمية ،

نذكر منها بير تماده ، ونخل ، وجبل لبنى ، والجفجافة ، وأبو عويقة ، والحسنة ،
وخرم والتد .

كما توجد فى جنوب سيناء على خليج العقبة نوبيع ، وذهب ، وجبل صباغ ، ثم
شرم الشيخ . وفى الوسط الجنوبى دير سانت كاترين ، وعلى خليج السويس جنوباً
توجد الطور ، وأبو زنيمة ، وسدر ، وعسل .

وقد وجدت مع اليهود خرائط تفصيلية لهذه المواقع ، وورد ذكرها فى الكتب
الأجنبية التى تحدثت عن هذه الحرب . كما وردت بيانات عن مطارات أخرى من
بور سعيد وما يليها جنوباً على القنال وشاطئ البحر الأحمر ، مثل أبو صوير ،
وديفرسوار ، وفايد ، وكبريت ، والغردقة ، ورأس بناس ... وهذا غير المطارات
الموجودة داخل البلاد ...

ومن الواجب الآن ، أن نشير إلى أن كمية المعلومات المتاحة للعدو ، كثيرة جداً .
وأن من الأوراق التى وجدت مع البعض خرائط تفصيلية لمواقع آبار فى سيناء ،
منها ما تعرفه مراجعنا الزراعية ، ومنها ما لا تعرفه ، وقد تكون آباراً مهجورة ،
ولكنها صالحة للاستغلال بمعالجة يسيرة .

أما وقد أصبحت سيناء جزءاً من نضالنا القومى ، وطريق عبورنا إلى آسيا
العربية ، وما يليها إلى العالم الآسيوى كله ، فمن الواجب أن تتوفر لطلابنا فى مراحل
تعليمهم الأولى كل البيانات عن شبه الجزيرة ، وأن تزداد هذه المعلومات سعة وشمولاً
مع التقدم فى مراحل التعليم . إذ ليس من المستساغ أن يعرف كل يهودى عمر متلاً ،
أو جبل لبنى ، وقد دارت فيها معارك ضاربة بالغة الشدة ، ورويت بدمائنا . واستشهد
من حولها أبطالنا ، وكبدنا العدو على جوانبها خسائر فادحة ما زال يلحق جراحه
منها ... ونحن لا نعرفها .

وهناك مواقع ، تدخل فى دائرة الأسرار العسكرية ، ولكن ما دام العدو قد
عرف هذه المواقع ، وكان الصراع دائراً فيها ، فلا تصبح لكلمة الأسرار العسكرية
الحكمة المقصودة منها .

نقول هذا الكلام لنضع سيناء فى دائرة اهتمامنا العام . فالرأى السائد عنها ، أنها
منطقة صحراوية ، قاحلة جرداء ... والحقيقة أن فيها الصحراء ، وفيها الجبال . ويكفى

أن الله سبحانه وتعالى تجلى على عبده موسى بن عمران في واحد من جبالها الجنوبية . وكانت العناية بسيناء قد بدأت في السنين الأخيرة ، وأنشأت عملية مياه ، تنقل إليها ماء النيل من تحت قنال السويس . . ومن الواجب أن يمتد هذا الماء في مواسير حتى حدودنا الشرقية . كما أن الطرق والمستعمرات الزراعية هي وسيلة التعمير . . وكلما كثر عدد السكان والعاملين المدنيين في هذه البرية ، أصبحت عسيرة المنال على المغامرين . . وفي اعتقادنا أن الاتفاق على تعمير سيناء ، أولى من التوسع في النفقة على الوادى الجديد ، وأن جزءاً مما ينفق على الصحراء الغربية ، لاستثمارها زراعياً ، يؤدي إلى نتائج استغلالية أفضل وأسرع ، لو أنها أنفقت في سيناء ، حيث الجوا أكثر اعتدالاً ، والاستجابة للحياة أقرب منالاً . .

توزيع قواتنا في سيناء

ولو أن الأنباء كانت متاحة من جهة القتال ، لتنبه السلاح الجوى المصرى ، ولصدرت له الأوامر بالتدخل في المعركة في وقت مبكر جداً ، عن الوقت الذى تحركت فيه الطائرات اليهودية . . .

ويقول الخبراء العسكريون ، إن سوء الحظ البالغ الذى صادف مصر في هذه العملية لا يحدث إلا مرة كل مليون مرة . . .

وحتى بعد أن حدث الهجوم الجوى . فإن القيادة العليا لم تتلق التفاصيل الكاملة عما حدث ، في وقت مناسب ، نتيجة للارتباك الخطير . الذى ساد الموقف كله .

فقد النفس

ما حدث في القيادات العسكرية ، وقد تحطم سلاح الطيران ، هو شيء يشبه الدوامة ولا سيما بعد فقد وسائل الاتصال كلية . . . وقد أعطت دراسة المجلة الألمانية التى قدمنا بها هذا البحث ، صورة تقريبية للموقف .

وفي حديث المصارحة الذى ألقاه جمال عبد الناصر عن هذه العمليات قال :
« لقد كانت الأخطاء التى وقعت في إدارة المعركة أكبر من شجاعة هؤلاء الرجال ، ومع ذلك فإنهم أعطوا وبذلوا واستبسلوا ، وبرز من بينهم الأبطال ، وسقط من وسطهم الشهداء . »

وهذا حق عن دور المحاربين في المعركة . . ولا عبرة بالكلام الذى تنثر عن وجود أفراد تخلوا عن واجبهم ، وآثروا النجاة بأنفسهم ، فالفرار من الجيوش أثناء المعارك أمر معروف ، وقد حدث ويحدث على مر التاريخ ، ولكنها أمثلة نادرة وقليلة . . . وما حدث فى سيناء كان أقل من القليل وفى مجال المصارحة قال الرئيس جمال عبد الناصر أيضاً من هذه النقطة :

« هناك أفراد تصرفوا بغير تقدير للمسؤولية ، ولكن ليست هناك وحدة تركت موقعها بغير أوامر .

« كان واضحاً أن جهاز القيادة أصيب بارتباك فور بدء المعركة وفور تلقيه مفاجأة الضربة الأولى فى الطيران ونتائجها . .

ونذكر بعض أمثلة على قدرة وحداتنا على الصمود . بعد زوال التأثير المفاجئ ، لعملية الهجوم الغادرة ، التى تحركت وأمامها ستار الأمان الذى نسج فى واشنطن ، وحملته الرسائل ، والرسائل . . .

من هذه الأمثلة ما حدث فى أبو عجيلة ، فقد التقى لواء مدرع من الفرقة السابعة ، مع لواء يهودى ، وأثر الاصطدام الأول تحطيم ١٧ دبابة يهودية فى لحظات . وتبعها ٨ دبابات أخرى وأزاء هذه الحالة أصدر القائد اليهودى أمره بالانسحاب ، وتوارى عن الأنظار حتى أنجده أربع طائرات « مستير » ، من قاذفات الصواريخ ، وهاجمت دبابات مصر .

وفى معارك الكونتيللا ، كانت خسائر اليهود ثلاثة أمثال الخسائر المصرية . وظهر بوضوح كيف أن القائد المصرى أكثر كفاءة من خصمه اليهودى ، والجندى المصرى أثبت قدماً وأقوى على المواجهة .

وفى معركة العريش الضارية فقد العدو ١٢ طائرة وجمع مقاتلونا بطاقات الطيارين القتلى .

ونتيجة لأوامر الانسحاب السريعة : التى كان سببها الارتباك ، لم يتيسر حتى إتاحة الفرصة لوضع خطة انسحاب منظمة على أصول عسكرية سليمة ، إذ أن القائد كان يرسل أوامره مباشرة مع أفراد دون الرجوع إلى هيئة العمليات .

وترتب على هذه الحالة أن نصف القوات الأرضية التى لم تكن على الحدود ، لم تر العدو ، وأخذت تنسحب دون تنظيم ولا أوامر تفصيلية .

ولكن في وسط هذا الجو ، برزت نقط مضيئة جديدة بكل إجلال .. فإن اللواء العاشر الذي حارب معركة جبل لبنى ظل صامداً مدة يومين ودبابات العدو تحيط به دون أن تجسر على الاقتراب منه . وعلى الرغم من القصف الجوى المستمر الذي لم يتوقف لحظة واحدة ، فإن مدافع هذا اللواء المضادة المركبة في الدبابات ، أفسدت عليه كل خطط الهجوم ، حتى أن بعض مواشير هذه المدافع انصهرت من كثرة الضرب ، ولم يتيسر وجود بديل لها أثناء المعركة .

وقد أصيب قائد هذا اللواء في المعركة ونقله الأطباء إلى خط خلفي ، فأقلت منهم ودماؤه تنزف من صدره ، وعاد عودة بطل وسط جنوده وضباطه ، وظل في موقعه حتى غاب عن وعيه ، وبهذا وحده أمكن نقله لإسعافه .

وعلى الرغم من الجحيم الذي كان يصبه العدو على هؤلاء الجنود البواسل ، فإنه عندما بلغتهم الأوامر في اليوم الثالث بترك موقعهم في القتال ، تحركوا في نظام تام ولم يفقدوا إلا ١٨٪ من مدرعاتهم ، في حين أن العدو فقد أضعاف هذا الرقم . فلما عبروا إلى الضفة الغربية ، طلب منهم متطوعون مع ١٤ دبابة للتوجه في هجوم مضاد إلى العريش تقدم جميع الضباط والجنود لأداء هذه المهمة الانتحارية ، وتم اختار العدد المطلوب بالقرعة .

وقد صاحبت هذا القول ، طائرتان سوخوى ، تمسكتا من طرد طائرات العدو التي هربت من أمامها مذعورة وزحفت القوة سبعين كيلو متراً في اتجاه العريش ، حتى امتلأت السماء من فوقهم بالطائرات المستير والميراج ، وسقطت طائرة سوخوى وعادت الثانية إلى قاعدتها ، واستعمل العدو قنابل النابالم ، التي دمرت دباباتنا ، وأوقفت هذا الزحف الجريء . . .

لم تكن نزهة عسكرية

وما حدث في شرم الشيخ ، تقدم وصفه عن طريق المراسل الألماني لدير شيدجل بتفصيل واف ، وقد ذكر قبل ، كيف أن موشى ديان أوشك أكثر من مرة أن يطلب من أمريكا دعوة مجلس الأمن لإيقاف القتال ، وهو في شك مرعب من إمكان نجاح حربه الخاطفة ، ووصول الاختراق للجهة ، والتطويق في « مرملا » بالسرعة التي تم بها ، ولا سيما بعد أن جاءته أنباء الخسائر الفادحة التي وقعت لعدد من لواءاته .

سأل ونستون تشرشل الإبن ، بن جوريون ، كبير اليهود المعاصرين عما إذا كان سعيداً بنتيجة الحرب ، فأطرق في حزن وصفه الكاتب في كتابه ، وقال :

« دفعنا ثمناً عزيزاً وغالياً جداً . . . »

« قتلت زهرة شبابنا في هذه الحرب .

« . . . الثمن غال كما ترى . »

وفي شهر نوفمبر الماضي ، أى بعد خمسة أشهر من هذه الحرب ، أذاع التلفزيون الفرنسى حديثاً مصوراً لموشى ديان ، قال فيه للفرنسيين بكلمات واضحة صريحة ، إن الجيش المصرى ، قاتل في حرب الأيام الستة بطريقة تثير الدهشة والعجب ، فإن كل جندى لم يتخل عن سلاحه ، حتى بعد أن نفذت ذخيرته ، وأنهم قاتلوا قتالا لم يره اليهود منهم في الحربين الماضيتين . ثم عرض التلفزيون لقطات سينمائية للجنود المصريين في حربهم الأخيرة ، وهم يواجهون اليهود في بسالة عظيمة . . .

وقد دهش المصريون في فرنسا الذين رأوا هذه الإذاعة التلفزيونية ، وعجبوا كيف تحول موشى ديان إلى مدافع عن بسالة المصريين ، مع أنه كان يرفع عقيرته بحديث عكس هذا في شهر يونيو ، وخر النصر ما تزال تدبر رأسه . . .

وتفسير هذا الانقلاب أن القائد اليهودى لم ير داعياً لإنكار حقائق عن الجيش المصرى ظهرت بها أقلام المعلقين المحايدين . . . كما أنه كان يتحدث إلى فرنسا ، ويريد اكتساب عطفها من جديد ، بعد أن وقف رئيسها ديجول موقف شامة ورجولة صادقة من حرب اليهود القذرة ضد العرب .

وقد جرب اليهود « المسكنة » ، ونالوا من خيرات المحسنين الكثير والكثير . . نالوا الطائرات والمدافع والقنابل ، التى كادت تشعل الحرب العالمية الثالثة ، وما زالت نذرها مستمرة ، وعودة ثقاب أحق قد يؤدى إلى الانفجار الخطير . . فلماذا لا يعود اليهود بالذات في فرنسا إلى أسلوبهم القديم . وحتى يصدقهم الفرنسيون ، فقد عرضوا مستنداتهم ، وهى أشرطة جنود مصر في الحرب الأخيرة . . الأشرطة التى تظهر بلاء هؤلاء الجنود وصدق معدتهم .

الموقف الآن

الموقف الآن ، وقد دخلت سنة ١٩٦٩ ، ومضى المعتدين حوالى عامين فى سيناء . . ما هو ؟

هنا نقف ، ومن الواجب أن يكون كلامنا بحيث يفيدنا ، ولا يستفيد منه العدو..

وقد قال الرئيس فى خطاب ٢٢ نوفمبر ، أى قبل ثلاثة أشهر من كتابة هذا الكتاب ، إن قواتنا البرية والجوية أقوى مما كانت قبل العدوان فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ .

وهذا الكلام بالغ الدقة والأهمية . .

فإن ما فقدناه فى سيناء هو نصف فرقة من الجنود ، وكثير من السلاح . .

أما السلاح فقد عوضناه بما هو خير منه ، وكذلك الطائرات ، فإن أنواعاً حديثة جداً منها قد وصلت ، وقد عرف الآن أن قواتنا الجوية فى الرجال لم تنقص إلا أربعين طياراً عوضوا ، وزاد عددهم كثيراً . .

ويكفى فى تقدير عدد جنودنا المتأهبين للمعركة القادمة أن فرقتين كانتا فى اليمن ، عادتا إلى الخدمة فى مصر ، بكامل السلاح ، وكامل الخبرة المستفادة فى معارك السنوات الخمس هناك . وإن كان هناك فارق كبير بين حرب الجبال ، ومواجهة العصابات والقبائل المتمردة ، والحرب الحديثة ضد إسرائيل . . إلا أننا مع هذا فى أمس الحاجة إلى صلابة هؤلاء الرجال البواسل ، وإخوانهم الذين سبقوهم إلى شرف الخدمة هناك . . فالقتال المنتظر فى سيناء ، ستكون فيه جبال أيضاً . . ومستعمرات اليهود عند تطهيرها من العدو ، سوف تحتاج إلى كثير من الحيل وضبط الأعصاب الذى تعلمه مقاتلوننا فى اليمن .

والرجال جميعاً يملأ نفوسهم معنى واحد ، وهو الثأر لما حدث ، ولهذا فإنهم يقبلون على التدريب الشاق العنيف بصدور وقلوب واعية .

وقد ثبت بعد التجارب التي مرت بنا بعد ٥ يونيو الكثير مما نريد أن نقوله ،
وهما تزال في ذاكرة الناس الكثير في هذه التفاصيل .

فمركة رأس العش ، وإغراق المدمرة إيلات ، والمبارزات بالمدفعية عبر القنال ،
وكان من أهمها الرد العنيف القاسى الذى رده المصريون بالمدفعية الثقيلة فى قطاع
القنطرة على اليهود ، لأنهم تعرضوا بالرشاشات لزوارق اختبار القاع فى مواقع معينة
بقنال السويس . وقد ظل العدو ساعات يحمل قتلاه وجرحاه ويحاول إخماد النار التى
اشتعلت فى مراكزه على الضفة الشرقية لقنال السويس . وقد هز هذا الرد اليهود وراحوا
يحسبون ألف حساب للمستقبل .

ولقد تتابعت مبارزات المدفعية ، حتى أصبحت عملية مستمرة تقريبا ، وأخلت
منطقة القنال من المدنيين والمصانع تقريبا ، حتى لا يكون هناك قيد على معاملتنا
مع العدو فى المستقبل . كما أن أسلحة حديثة دخلت المعركة من جانبنا ، ووردت لها
إشارات فى البلاغات الرسمية ، منها الصواريخ والطائرات المروحية والطائرات
العمودية ، وقد كبدت العدو خسائر فادحة حملت موشى ديان على أن يصف جهة سيناء
بأنها أكثر الجبهات حركة .

وقد نشرت جريدة الأهرام فى عدد ١٩٦٩/٤/٧ برقية من تل أبيب ، تتحدث
عن العبء المالى الذى تكبده معارك الجبهتين الشرقية والغربية لإسرائيل ،
وكذلك المقاومة الشعبية فى الأراضى المحتلة . وهذه البرقية قاطعة الدلالة على
أن تصعيد الحرب ، يوشك أن يصل بإسرائيل إلى حالة الانفجار فى داخلها على
الحدود .

وهذا نص البرقية :

تل أبيب فى ٦ - و ١٠ ف - أعلن الجنرال باكوف هيفنز
المستشار المالى لرئيس الأركان أن ميزانية الحرب الإسرائيلية لعام
١٩٦٩ / ١٩٧٠ هى أعلى ميزانية عسكرية فى العالم بالمقارنة بالدخل
القومى .

ميزانية أمريكا العسكرية لاتصل إلى ١٠ ٪ من الدخل القومي
بينما ميزانية إسرائيل تزيد كثيراً عن هذه النسبة .

وأضاف هيفتزر — وكان يتحدث على راديو القوات المسلحة
الإسرائيلية أن الميزانية العسكرية قد ارتفعت إلى ضعف ميزانية ما قبل
حرب يونيو مرتين ونصف مرة .

وقال هيفتزر أن آخر ٤ معارك مدفعية على قناة السويس قد كلفت
إسرائيل ذخائر يبلغ ثمنها مليوناً و ٦٠٠ ألف دولار ، وأن متوسط
الاتفاق الحربي اليوم يبلغ مليوني دولار .

وقال إن هذه الميزانية التي تصل إلى ٢٥٠٠ مليون جنيه إسرائيلي
(٢٩٧ مليون جنيه استرليني) تعتبر نسبياً أعلى من الميزانية العسكرية
في أمريكا .

الحرب في الجبهة الشرقية

عندما تحركت القوات اليهودية لاحتلال القدس القديمة ، حشدت معها عدداً من الصحفيين والمصورين الذين يمثلون جرائد وإذاعات العالم الغربي ، ومن بين هذه الكوكبة ، كان دونالد ما كولين المصور ، وكولين سمسون المراسل الحربي ، يمثلان الجريدة اللندنية المعروفة الصنداي تايمز .

ومن عجب أن محطة الإذاعة البريطانية ، أذاعت صباح يوم الثلاثاء ٦ يونيو أن المدينة المقدسة سقطت في يد اليهود ، في حين أن القتال كان لا يزال دائراً على أبوابها ، مما يدل على أن عناصر كثيرة في العالم الغربي ، كانت على علم بما سيحدث ، وتحدثت عنه ، على أنه وقع فعلاً . . . إن المؤامرة الكبرى كانت مفاجأة لنا في العالم العربي ، ولكنها لم تكن كذلك لدى البعثات العسكرية الإنجليزية والأمريكية ، التي انسحبت في هدوء من الأردن قبل الحرب بأيام ، وبغير ضجة ولا إعلان . . ولم تكن سراً على عناصر الإعلام والدعاية التي ازدحمت بها إسرائيل ، واستخدم أفراد منها في عملية التغطية ، وإطلاق ستار الدخان كما حدث مع راندولف تشرشل الذي سافر من إسرائيل يوم الأحد ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ معلناً قبلها أن الحرب لن تقع . . وذلك عن لسان موسى ديان !

تمتد الحدود بين الأردن وإسرائيل أكثر من ٦٠٠ كيلو متراً وحراسة هذه الحدود [حوالى أربعة أمثال الحدود المصرية مع اليهود] يتطلب قوات كثيفة على طول هذا الامتداد . ومع ذلك فإن روح القتال لدى الجيش الأردني كانت في أوجها . فإن التسمية الخادعة — شرق الأردن وغربه — لم تخدعهم عن الحقيقة ، وهي أن فلسطين كلها هي بلادهم ، وترباها هو معاشهم ومعادهم ، والأجداد من آلاف السنين ، هم الذين كونوا فلسطين إسماء ، ورسماء . . . وما كانت الأعياب الاستعمار في هذا القرن ، بقادرة على محو الحقيقة التاريخية الكبرى ، وهي أن غرب الضفة وشرقها ، هما كباطن اليد وظاهرها يكونان معاً شيئاً واحداً لا انفصال له . . .

بدأت معركة القدس بعد ظهر الاثنين ٥/٦/١٩٦٧ بقليل ، وكانت القوات الاردنية ، قد احتلت موقعا منعزلا لليهود ، في وسط الأرض الاردنية ، تقع فيه جامعتهم القديمة ، وهو جبل المكبر .

وتحرك لواء ميكانيكي يهودي من الرملة عبر ثلاثة طرق للوصول إلى شمال القدس . كما انضمت كتيبة مظلات للهجوم على موقع مدرسة البوليس وسور بحير ، زيدت إلى لواء كامل من جنود المظلات اليهود .

وعند ما أقبل الليل كانت الطائرات اليهودية قد أفقدت اللواء الاردني المدرع رقم ٦٠ كثيراً من فاعليته ، واستولى العدو على جبل عبد العزيز ومركز الرادار . وبرغم الضرب المركز العنيف من المدفعية الاردنية لمواقع اليهود وتعويق زحفهم ، إلا أنهم اخترقوا في الظلام حقول الألغام ، وبمساعدة ثمينة من سلاح الطيران ، ومن العمل الليلي المستمر .

وكان على اليهود أن يجتازوا خمسة أسوار وخنادق ، ليصلوا إلى المدفعية العربية التي كبدهم خسائر فادحة في القطاع الشمالي من المدينة .

وفي القطاع الأوسط — الشيخ جارة — كان على اليهود أن يصلوا إلى موقع مدرسة البوليس وبوابة مندليوم . وقد دافع الأردنيون عن موقعهم دفاعاً بطولياً ، وصفه اليهود بقولهم : « لقد حارب الفيلق العربي كأن أفرادهم شياطين من الجحيم . وقد استشهد في هذا الموقع ١٠٦ جندياً من ٢٠٠ كانوا يدافعون عنه ، وذلك من قصف الطائرات المستمر ، والمدفعية الأرضية ، وقد عمد اليهود إلى أنارة الموقع بكشافات سلطت عليه من فوق مبنى اتحاد العمال اليهودي في المدينة الجديدة [المستادروت] . وبهذا لم تطش قنابل الطائرات ، ولم تتوقف العمليات الجوية خلال الليل .

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ، استولى اليهود على المستعمرة الأمريكية في القدس القديمة ، وفندق الأمبسادور . وبذا سقط الخط الأمامي في الدفاع عن القدس ، وانسحب الجيش الاردني . وبدأت حرب المنازل والشوارع . وكان لا بد من دخول الدبابات اليهودية المعركة في محاولة للسيطرة على النيران المتدفقة من النوافذ ومن خلف الجدران ، فتقدم لواء مدرع إلى باب هيرود . .

وفي نفس الوقت كانت قوات يهودية أخرى تحاول الاستيلاء على اللطرون ،

التي دارت فيها معركة رهيبة عام ١٩٤٧ وقتل فيها ٦ آلاف يهودي ، دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها . وفي الهجوم الجديد على هذا الموقع سقط من اليهود ٧٠٠ فقط حسب بياناتهم .

وفي داخل القدس اتجهت كل القوات اليهودية نحو هدف واحد . وهو المسجد الأقصى ، وحائطه الغربي ، الذي يبكي عنده اليهود . وقاد موسى ديان هذا الزحف بنفسه رغبة في الوصول إلى المبكى قبل أن يصدر قرار مجلس الأمن بإيقاف القتال ، وحتى يكون هو — دون القواد الآخرين — قائد هذا الانتصار الديني ولكن المقاومة العنيفة زادت في المسالك المؤدية إلى المسجد الأقصى ، وتحول القتال إلى مجزرة ، واضطر ديان إلى أن يسحب نفسه من المعركة ، ويركب طائرة هيلوكوبتر ويعود إلى تل أبيب .

وإزاء تمزق لواء المظلات من عنف المقاومة العربية ، توقف زحفهم ، وانسحب جنودهم إلى الخلف لإعادة تنسيق قواتهم ومواصلة الزحف ، مع كتيبتين من الدبابات ، وأسرعت دبابات أردنية للنجدة متجهة من أريحا إلى القدس في هجوم مضاد ، وتفرغ الطيران اليهودي كله — تقريباً — للعمل في الجبهة الأردنية ، وتحرك المظليون تحت ستار كثيف من نيران المدفعية ، ومن نيران مدفعية الدبابات التي كانت تطلق قذائفها في كل اتجاه ، حتى تداعى كل شيء أمامها .. وكان اليهود يعدون قذائفهم عن اتجاه حائط المبكى ، إلا أن القنابل الضخمة كانت تهز كل شيء وكأنها زلزال ، قدسقطت بعض أحجار الحائط . ووصل اليهود إلى بوابة ستيفن والجسر المقام تحتها . وخشية إطلاق القنابل ، على المسجد الأقصى ، قررت قيادة الجيش الأردني سحب قواتها إلى التلال المحيطة . .

وأمام حائط المبكى وقف حاخام اليهود الأكبر ، ومن حوله قواد هذه المعركة . وبعد ساعات وصل ديان إلى المبكى حيث أودع ورقة في ثقب الحائط . . وجاء بن جوريون ليقول إنه شهد أروع يوم في حياته . وكانت توجد لافتة باللغة العربية على الحائط ، فطلب بن جوريون إزالتها ، وتقدم جندي بسونكي بندقيته وخلعها ، واليهودي العجوز يحذره من أن يחדش حجر الحائط !!

كان المرحوم الفريق عبد المنعم رياض يتولى قيادة القوات الأردنية تنفيذاً لاتفاقية الدفاع المشترك ، ومعه مجموعة من أكفأ الضباط الأردنيين والمصريين .

وكان أول نبأ تلقته عمان عن قيام الحرب ، هو ما أذاعته محطات اذاعة القاهرة ، وصدرت على الفور أوامر لطائرات السلاح الأردني المحدودة العدد [طراز هوكر هنتر] بضرب بعض مطارات العدو ، القريبة ، في ثلاث إغارات متتابعة ناجحة ، ولكن ما لبث الطيران الإسرائيلي ، أن أقبل في أعداد كبيرة جداً ، وكان ذلك بعد ظهر الاثنين ٥ يونيو بقليل ، وهاجم مطارى عمان والمفرق ، ودمر ما فيها من طائرات ومنشآت ، وعلى الرغم من تصدى الطيارين الأردنيين العائدين من عمليات الإغارة للإسرائيليين في بسالة ، فقد أسقطت طائراتهم .

وبقى للقيادة الأردنية أربعة عشر طياراً ضموا على الفور إلى القيادة العراقية ليكونوا تحت تصرفها .

وكما حدث في الجبهة المصرية ، بعد امتناع الغطاء الجوي ، فقد تابعت الطائرات الإسرائيلية مهاجمة المدرعات العربية التابعة للواء خالد بن الوليد في قطاع حنين ، واللواء الأربعين في ضواحي أريحا . وجزء من اللواء الستين في هذا القطاع الأخير ، والذي كلف جزء منه بالاشتراك في الدفاع عن القدس . .

وعلى الرغم من المدرعات التي قذف بها العدو تساعد الطائرات ، لتحطيم المقاومة في الخطوط العربية ، فإن رجالها كانوا يستميتون في الدفاع عن أرضهم ومواقعهم ، حتى أن معظم لواء « خالد بن الوليد » أبعد عن آخره .

استمر هذا الصراع الرهيب غير المتكافئ يومى ٥ و ٦ يونيو .

وصول القوات العراقية

وكانت الأوامر قد صدرت في بغداد بتحريك أربعة من ألوية الجيش لدخول المعركة ، وهى اللواء الثامن ولواء المشاة الأول ، ولواء المشاة السابع والعشرين ولواء المدرعات السادس . . وكان معظم هذه القوات يعمل في منطقة الأكراد بشمال العراق . وما أن وصلت إلى الحدود ، حتى تعقبها طائرات العدو بقصف عنيف مستمر .

وقد كافح الجنود العراقيون البواسل هذا الهجوم ورغم خسائرهم الكثيرة ، فقد تابعوا الزحف سبعة أيام كاملة . . وما أن وصلوا إلى ساحة القتال ، حتى كان قرار إيقاف إطلاق النار قد صدر من مجلس الأمن .

وكان صمود نابلس في وجه قوات متفرقة أمراً شيراً للدهشة ، فإن المدفعية ظلت مسلطة عليها ١٨ ساعة ، وهي تقاوم مقاومة صادقة حتى لم تبقى طلقة تطلق فسلمت وكذلك اجتاح العدو أريحا والخليل ، ورام الله وحنين أما طولكرم وقلقلة فقد نسفهما اليهود تماماً حتى سويتا بالأرض .

أما القدس ، فقد سقطت ظهر الأربعاء ، والقتال فيها يصور صفحة . . مكتوبة بدماء الأبطال . . وفيما يلي وصف تفصيل لمعركتها .

* * *

وحتى نأخذ صورة مكبرة عن مأساة سقوط القدس ، فسوف نسير مع المراسل الحربي للصنداي تايمز ، الذي صحب أول قوة يهودية اخترقت المدينة حتى المسجد الأقصى .

كان كولن سيمبسون فوق أحد التلال المشرفة على طريق يؤدي إلى باب يافا . وكان الوقت قبل الظهر بساعة ، واليهود يحاولون الاستيلاء على جبل صهيون . وعندما سمع المراسل محطة الإذاعة البريطانية تعلن نبأ سقوط القدس ، كانت طائرات الميراج قد ألقت حمولتها من القنابل ، ودوت الانفجارات العنيفة ، ثم تبعتها المدفعية الثقيلة التي أطلقت قنابلها ، وهي ترسل اللحم ، وكأنها الزلازل تميد بها الأرض . . ثم توقف الضرب ، وبدأ أن كل شيء هدأ وسكن .

انحدر صاحبنا بسيارته من سفح التل ، متجهاً إلى باب يافا ، الذي كان يقع في منعطف الطريق ، وقبل أن يصل إليه ظهر له أن القوات العربية — لا اليهودية — هي التي ستقابله ، وفي سرعة بخونة اندفع عائداً وقنبلة مورتار تدوى فوق رأسه ، وقد تفادها بأعجوبة . . ولجأ إلى المكان الذي تركه من قبل .

وكان جبل صهيون يخفي وراءه طريق أريحا ، وقبر زكريا والباب الشمالي الشرقي للمدينة ، وهو باب القديس أستفان . .

ولمح المراسل بمنظاره المكبر طابوراً يهودياً يتحرك عن بعد ، فاندفع نحوه ، وقال لقائده بخبت .

— ماذا تصنعون ؟ فرد الضابط اليهودي بتفاخر .

— نحن نصنع التاريخ ! ! فقال المراسل :

— وهل يصنع أحد التاريخ بغير الصنداي تايمز ؟! دعني أشاهد ما تعمل وأسجله
في جريدتي ! !

وسار هذا الطابور مخنيا ظهره ، حتى لا يصيبه سيل القذائف المندفع فوقه في اتجاه المدينة ، وتسلك المعتدون اليهود ، ومعهم المراسل الانجليزي في حذر ، على سفح الغطاء العشبي ، والشجيرات التي تغطي جبل صهيون وكان لابد لتجاوز هذه المنطقة من تسلق حوائط حجرية قصيرة . . وهذه العملية وحدها ، تكشف ولا شك المهاجمين الأردنيين ، ولكن قذائف المورتار الإسرائيلية كانت ستاراً لم يسمح إلا لرصاصات قليلة توجه للطابور اليهودي ، وما أن وصل هذا الطابور إلى كنيسة الفرنسيكان ، حتى وجد ١٢ خيمة كانت تستعملها نقطة حراسة أردنية ، تركت فيها بعض متاعها وهي تنسحب ، وأسرع اليهود ، يخلعون أحذيتهم ، ويقيسون أحذية جديدة وجدوها في هذه الخيام . . وعلى البعد شاهد المراسل الدمار الذي ألحقته قذائف المورتار بالمنطقة ، وكان لابد لاجتياز الطريق إلى الطرف الجنوبي لحائط المبكى والمسجد الأقصى من حماية أوفر . . فطلب قائد الطابور دبابات ، وبعد قليل أقبلت ثلاث دبابات شيرمان تشق الطريق للبوابة الفاصلة . وباستعمال اليهود ، لقنابل وقذائف المورتار تحركت القوة ببطء ، لتجد بعد عشرة أمتار الألغام تفجر تحتها ، وسيلا من الرصاص يغمرها . . ولو استعمل الأردنيون قذائف المورتار لأقنوا هذا الطابور كله . . ولكنهم كانوا يتفادون رصاص المدافع الرشاشة بالوثب وراء أى ساتر وتساقط اليهود قتلى وجرحى .

وفي هذه اللحظة ، كانت الدبابات الأردنية قد انسحبت فوق المرتفعات وأخذت تصب نيرانها على المهاجمين من عدة أماكن .

وردأ على هذه النيران العربية ، وجه قائد الحملة مدافع البازوكا إلى أبواب المسجد الأقصى ، ودمروها . . وعندها وجد قائد القطاع العربي ، أن استمرار الالتحام سيؤدى إلى مزيد من التدمير للمسجد الأقصى ، فتوقف عن الضرب .

وزاد عدد الدبابات اليهودية المتدفقة إلى الساحة من كل اتجاه ، والقناصة العرب مستمرون في إطلاق قذائفهم على المعتدين ، وكانت مدافع الدبابات ترد في كل اتجاه ، حتى أسكتت المقاومة ، بعد أن أصبح الدمار وسط المدنيين شاملاً . .

وهذا كل شيء ، وهنا أقبل موسى ديان ، ليقول لمراسل د الصنداي تايمز : «إننا نستحق هذه المدينة ١١

وأقبل زعماء اليهود بعد ذلك ، والشمس الحارقة تلهب رؤوسهم ، ينتظرون دورهم لكي يقبلوا حائط المبكى ، ويفرقوه بدموعهم . وفي المساء أقبل ليفي أشكول محتالاً كالطاووس ، وكانت قذائف متناثرة ما تزال تسمع هنا وهناك . . . وانهمك الجنود اليهود ، في فتح السيارات العربية الخاصة على جوانب الطرق ، وأخذوا يفكون منها أجهزة الراديو ، وأي شيء يمكن الحصول عليه . . . وبينما كان اثنان من اليهود يهرعون إلى الحائط ، عاجلها زميل ثالث لها بمدفعه الرشاش ظنا منه في غسق الليل أنهما عربيان يريدان الانتقام .

وقد حرص اليهود على إخفاء خسائرهم في مهاجمة المدينة ، ولكن من اللوحات القصيرة التي نشرت ، ظهر أن الثمن كان فادحاً .

* * *

الجبهة السورية

والقليل يمكن أن نقوله عن الجبهة السورية . . . لم تكن الجبهة السورية مواجهة بقوات إسرائيلية ذات شأن ، اللهم إلا أهل المستعمرات اليهودية ، الباقين بعد تجنيد الشباب المشتركين في الجيش العامل ، وهؤلاء رحلوا إلى الجنوب في حرب سيناء . .

فمستعمرة « دان » مثلاً ، يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ شخص أخذ منهم خمسون في التعبئة العامة ، و ٢٤ للعمل في الخنادق التي انشئت كخط دفاع شمالي ، والباقيون في القرية سلخوا مدفعين مورتار غير الأسلحة الخفيفة . . .

وكل ما عمله اليهود في مواجهة الزحف السوري المحتمل ، هو أنهم أغرقوا طريق المرور بين الجبال ، حتى صيروه أوحالا لا تصلح لزحف المدرعات . . . وكانت المدفعية السورية في أعلى السفوح الجبلية تسيطر على السهل تحتها تماماً . .

* * *

وقد شن الجيش السوري ثلاث هجمات برية ، قوام كل هجوم كتيبة واحدة ، وذلك للإستيلاء على مستعمرات تل دان ، ودان ، وشيار باشوف . وكلها تقع قرب الحدود الشمالية الشرقية . وكان ذلك يوم الاثنين ٥ يونيو . والغرض من هذا

المهجوم ، هو تحويل أنظار اليهود إلى هذه المنطقة ، وسحب قواتهم إليها ، ثم دفع كتلة الجيش السوري المحتشد بين القنيطرة والجرمك ، إلى اجتياح مستعمرة مشمار هاياردن ، والاتجاه غرباً نحو حيفا ، مع اتجاه طابور آخر متفرع من هذا الزحف إلى الناصرة ، كما كان هناك خط زحف ثان عن طريق وادي الأردن يتجه غرباً نحو عفولة . وفي حالة نجاح الهجومين ، فقد وضعت خطة للزحف إلى عكا عن طريق الأراضي اللبنانية ..

ولكن ما حدث غير ما وضعت عليه الخطة . فقد بدأ للقيادة السورية ، أن تتريث في التنفيذ ، وأن تعتمد على خط دفاعها المتين فوق الجبال الفاصلة بينها وبين الحدود ، والذي زودت بمدفعية ذات فاعلية شديدة ، عددها ٦٥ مدفعاً ، حسب تقديرات اليهود ، وهذا غير الدبابات (٣٠٠ دبابة) وقاذفات الصواريخ التي تصل قذائفها إلى مسافة ستة عشر كيلو متراً ..

وهذه غلظة كبيرة ، وهي الاعتماد على خط دفاع حصين ، يظن أنه غير قابل للاختراق أو التطويق ، فإن عقلية « ماجينو » انتهت في أوائل الحرب العالمية الثانية عندما أطمئن الفرنسيون على حدودهم مع الألمان ، فإذا بفرق البانزر الألمانية تطوقه ، فتقع فرنسا كلها من ورائه في يد العدو .

وربما كان هذا هو الموقف في تحصينات أبو عجيلة على حدود سيناء الشرقية ، التي التف العدو من حولها وترك حصاراً يثبت قواتها .

إن الحرب الحديثة ، هي حرب الحركة لا الوقوف ، وهي حرب الهجوم لا الانتظار والدفاع ..

وفي انتظار الأيام الثلاثة التي لم تتحرك فيها القوات السورية ، أمكن للعدو أن ينقل قواته وأسلحته إلى جبهته ، وأن يركز هجوماً جويًا مروعاً على كل الاستحكامات السورية ، وفي يوم الخميس والجمعة ٨ و ٩ يونيو ألقى اليهود كيات هائلة من قنابل الماترا زنة ٥٠٠ رطل ، وقنابل النابالم التي تصهر صلب الدبابات .

وقد أثرت هذه الهجمات المركزة على المدافع المضادة وكل ما يتحرك على عجل أو جنزير ، أما المدافع الضخمة الغائرة في تحصينات الجبال فلم تل منها ...

وعلى الرغم من الأمر بإيقاف القتال صباح الجمعة ٩ يونيو ، فقد انهمك اليهود في إحضار تعزيزات من الجبهة الأردنية والجبهة الجنوبية ، ثم شرعوا في اختراق الحدود والتسلق على سفوح الجبل الشديد الانحدار من نقطتي «عين نيسا» و «زاوورا» ، وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي منى بها اليهود ، فقد تمكنوا من تطويق الاستحكامات السورية والاستيلاء عليها ، لأن الضرب السوري على الطوابير الزاحفة لم يكن مركزاً ومائماً من التقدم .

وفي يوم السبت ، اتجه اليهود إلى القنيطرة ، وكانت حكومة دمشق أعلنت سقوطها ، ولم يجد اليهود فيها غير الأهالي الذين دافعوا عن مدينتهم مستبسلين ، ولكن بعد ساعة ونصف ساعة من القتال اليائس انتهت المعركة .

وكان هناك طابور يهودي آخر دخل سوريا من الطرف الجنوبي لبحر الجليل واستولى على منطقة التوافيق الوعرة .

وقد استعمل اليهود في معركتهم بجبال سوريا طائرات الهليكوبتر ، بوفرة ، سواء في نقل المظليين إلى الخطوط الخلفية ، أو الإرشاد عن أماكن الاستحكامات أو المدفعية

وسارعت عناصر من السلطات المسئولة في سوريا إلى حلب وبدء توزيع السلاح على أهالي دمشق استعداداً لحرب الشوارع فيها ، ولكن اليهود ، لم يتقدموا من القنيطرة

وكان يوم السبت في معركة سوريا هو اليوم السادس لحرب اليهود ضدنا .

دروشل لنكسبه

ألقي تشرشل الأب بياناً أوردته في مذكراته عن معركة دنكرك التي خسرها الإنجليز أمام الزحف الألماني في الحرب العالمية الثانية ، قال (الكلام موجه لمجلس العموم) :

« إن على المجلس أن يعد نفسه للاستماع إلى أنباء قاسية وشديدة . ولكنني أود أن أضيف أنه مهما حدث في هذه المعركة ، ومهما يحدث في المستقبل . . . فلن يضعف من إيماننا بقدرتنا على شق طريقنا . كما وقع لنا في ظروف مماثلة في تاريخنا الطويل ، حيث سرنا عبر الكوارث والآلام ، لنلحق الهزيمة الأخيرة بأعدائنا . »

وكان على إنجلترا أن توجد وسائل لنقل جنودها من دنكرك على الشاطئ الأوربي إلى شواطئ إنجلترا ، بأسرع ما يمكن ، مع الاستعداد لتحمل خسائر فادحة في الجنود وهم على الشاطئ الرملی ينتظرون بغير سلاح تقريباً ، وهم في البحر يحاولون العبور .

وكان كل ما أمكن العثور عليه أربعين زورقاً بخارياً ولنشاً . وذلك بواسطة البحث السري السريع . ولكن ما أن أذيع نداء بحاجة الإمبرالية البريطانية إلى زوارق ، حتى اندفع من يملك زورقاً شراعياً أو بخارياً ، إلى شاطئ دنكرك ، وإذا بحشد لا يقل عن ٨٦٠ قارباً يندفع لأداء الواجب ، وقد أمكن بهذا الخليط الغريب من إنقاذ مائة ألف جندي ونقلهم إلى أرض الأمان ، وذلك تحت سماء امتلأت بالطائرات الألمانية التي لم تقطع عن إرسال شواظ من النار على هذه الزوارق .

قال تشرشل الكبير في مذكراته .

« كان العدو يتابع مطاردة عملية الانسحاب . . . وصمد عشرات الألوف من الجنود على الشواطئ ، وبين الكشبان الرملية ، حوالي خمسة أيام ، أمام قصف جوي

مستمر لا يرحم . . ولكن ثبت أن القصف المستمر من الجو لهذه الحشود الكبيرة من الجنود على الشاطئ لم يلحق بهم أضراراً كبيرة . وفي المراحل المبكرة ، وبعد غارة جوية صاعقة ، ذهل الجنود أشد الذهول عندما رأوا أن أيًا منهم تقريباً لم يقتل أو يصب بجراح ، وقد وقعت الانفجارات في كل مكان ، ولكنها لم تصب أحداً تقريباً . ولو كانت الشواطئ صخرية ، لكانت النتائج قاتلة ومميتة .

وقال تشرشل عن أسطول الإنقاذ :

« كان عدد هذه الزوارق الهائل ، هو وحده الذي تحدى الغارات الجوية . وثبت أن أسطول البعوض (كما أسمى وقتها) الجبار لا يغرق . وهكذا تألق المجد ، وسط الهزيمة . وسطع على شعب الجزر البريطانية ، وقد اتحد في مشاعره ، فغدا صعباً على الهزيمة . وستظل قصة شاطئ دنكرك متألة في كل ما تحتفظ به من سجلات . »

وكثير من الألفاظ التي استعملها تشرشل ، تصلح وصفاً لانسحابنا من سيناء بأقل ما يمكن من خسائر الأرواح ، وصمودنا غرب قناة السويس الآن ، استعداداً لاستمرار المعركة هو تكرار لما حدث في الحروب الأخيرة . وقد أشار الرئيس عبد الناصر إلى دنكرك ، وتحدث عن ارتداد الروس أمام جيوش هتلر حتى أبواب موسكو ، على خط طويل نهايته في ستالينجراد ، ثم ما لبث الجزر أن تحول إلى مد ، واندهش المعتدون . . وأشار إلى ما حدث للأمريكان أمام الهجوم الياباني في بيرل هاربور ، والفلبين ، والإنجليز في الملايو ، وكلنا يعلم كيف انتهت هذه الحرب .

إن الهزائم الأولى في المعارك الحاسمة لا تعنى شيئاً ، لأنها فاتحة عمل وليست خاتمة . وهناك عوامل هامة يجب أن نضعها في حسابنا ، ونحن نرسم صورة المستقبل ونمهد الطريق الذي سننطلق فيه . . .

دروس النكسة :

وأول شيء ، هو ألا نضيع الوقت في التماس أعذار للنكسة ، ولكن علينا أن نعن في دراسة أسبابها ، والوقوف عند أهم وأصغر التفاصيل . . .

لقد رأينا خطة العدو انصبت على عدة أمور منها :

١ — تفادي شبكة الرادار المصرية بالطيران المنخفض .

٢ — الضرب المنخفض .

٣ — زيادة مدى الطيران لطائراته .

٤ — استعمال متفجرات محسنة ، ذات حفارات تخرق الغطاء الخراساني وتتفجر تحته انفجارات متعاقبة .

ومعروف عليناً ، أن الرادار يكشف حركة الطيران ، على ارتفاع كبير ، وذلك بسبب كروية الأرض . فإذا قل ارتفاع الطائرة عن ٥٠٠ متر تعذر على أشعة الرادار الإنذار بالحركة .

وكان يمكن في أحداث ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ أن تقوم أجهزة رادار الأردن برصد الطائرات وهي تتحرك من إسرائيل .

والرد على صعوبة الكشف عن الطائرات المنخفضة ، يمكن جداً بداوريات الطائرات المستمرة . وقد عرف العدو مواعيد الداوريات المصرية ، فدخل المجال الجوي المصري ، ما بين ورديتين . ولهذا يجب أن تكون عمليات التحليق الكاشف مستمرة ، وتقوم بها طائرات صغيرة ، قليلة التكاليف ، ولكنها تحمل أجهزة لاسلكي جيدة .

وأما عمليات التشويش ، فتم عادة إذا أمكن للعدو الحصول على موجة الإرسال وما جرى عليه العمل في بعض الجيوش الكبيرة ، هو أن مجال الإرسال يتم على عديد من الموجات ، يمكن التبادل بينها ، وتخصص موجات لوقت الاشتباك . وقد ظهر خطأ الاقتصار على موجة أصلية وأخرى احتياطية وإصلاح هذا الخطأ ميسور جداً .

وزيادة مدى الطيران ، أمر بالغ الأهمية . إذ أن طائراتنا عند معركة ٥ يونيو لم تتمكن بحسب مداها المحدود ، من الوصول إلى المطارات الشمالية في إسرائيل ، وهي التي ركزت فيها طائراته . ولهذا فمن الواجب الاعتماد على طائرات بعيدة المدى ، مع تزويدها بخزانات بطن إضافية .

وقد قيل كلام كثير عن الخبايا التي تحمي الطائرات من القصف الجوي ، وهو أمر مستطاع جداً . . . إلا أنه لا يحمي مدارج الطائرات .

ومن تجارب الحرب العالمية الثانية ، عملت أنواع من شبكات الحديد التي تنفصل وتتصل حسب الطلب ، وتوضع عقب القصف الجوي ، فوق الفجوات التي تحدثها القنابل في عمات الطيران . وذلك حتى يصلح العطب .

ولكن الزيادة الكبيرة في قوة التدمير، حتى أمكن لقنبلة واحدة أن تحدث فجوة عمقها ٥٤ متراً ، دعا إلى إعادة البحث في تصميم الطائرات نفسها ؛ بحيث أمكن الوصول إلى طائرات تستطيع الارتفاع عمودياً ، أو بعد مسافة قصيرة من حركتها على الممرات الأرضية.

وأما الأشعة تحت الحمراء التي توجه القنابل على مسارها حتى تصل إلى الهدف ، فيمكن تلافيها بحركة يسيرة ، وهي إغلاق جهاز الرادار لفترة ثوان ... وذلك لأن الشعاع المنطلق من الطائرة يلتقي بشعاع الرادار ، فإذا قطع الاتصال ، ضل شعاع الطائرة طريقه في الهواء ، وهو بطبيعته متموج ، وبهذا يوجه القنبلة في مسار بعيد عن الهدف بعداً كبيراً . . .

ومن هنا نأتى إلى نقطة هامة جداً ، وهي التعاون بين دوائر العلم عندنا ، وقياداتنا العسكرية . . .

العلم والمعرفة

فقد وضح لنا ، في الحروب الحديثة ، أنه لاغنى للجيش الحديثة عن معونة العلماء . وقد رأينا في الحرب العالمية الثانية ، كيف إن أكبر العقول المفكرة وضعت نفسها في خدمة قواتنا المحاربة . . حتى كبار الأدباء طلبوا أما كنهم في العمل ، لإدارة عمليات الحرب النفسية والمخابرات .

وكنا نعلم أن الذرة انفجرت ، أول ما انفجرت في معمل جامعى بالولايات المتحدة ..

ولدى مصر طاقة عليية ضخمة ، وفي جامعاتها ، وفي مجتمعها العلمى ، ومن الواجب أن تؤدى دورها فى حل مشكلات الحرب الحديثة ، وتيسير حلول محلية ، وقاية لهذا الوطن من المخاطر التى تحيط به . .

ومن المسلم به ، فى بلاد العالم المتقدم كله ، أن هناك فجوة تحيط عادة بين العسكرية وما يحيط بها من أسرار ، وما تستلزمه من كتمان ، والعلم ورجاله ، وما يتمتعون به من حرية التفكير ، وعدم التزام الأوامر فى الصمت . .

ولكن عندما تكون الممارك ناشبة ، فإن التقدير السليم يجب أن يسود الجانبين وعلى العلماء أن يتقدموا هم لتطوير الفن العسكرى . وإيجاد حلول ملائمة ، وعملية ، وسريعة ، للمشكلات التى يتدبون لها .

وفي محيط الكيمياء ، والميكانيكا ، واللاسلكي وغيرها من العلوم ، يوجد مجال واسع جداً للتعاون بين العسكريين والعلماء .

والحلول التي أشرنا إليها فيما سبق ، سمعناها من بعض علمائنا . وهم ولا شك قادرون على نقل أفكارهم هذه إلى مرحلة التطبيق .

وبما يزيد في اطمئناننا على المستقبل ، هو أن العناصر المتعلمة الشابة أخذت مكانها الآن في صفوف الجيش العامل . فإن الجامعة التي يجلس وراء جهاز الرادار ، يستطيع أن يؤدي دوره خير الإداء ، ولا سيما في اللحظات التي يحتاج الأمر فيها إلى حسن التقدير ، وتكن السلامة ، ودحر العدو ، متوقفة على حركة من أصابعه ، في الوقت المناسب تماماً وفي الاتجاه السليم جداً . . وكذلك الأمر في سائق الدبابة مثلاً ، وقد أصبحت الدبابات قلاعاً متحركة مزودة بأجهزة بالغة التعقيد . فإن مجموعة إدارتها يجب أن تتوفر لها العلم والوعى الكامل ، ولا سيما أن رموزها مكتوبة بلغة أجنبية ، وحساباتها من الدقة بمكان .

وهذا الرقم الضخم ، لا يمكن مطلقاً تجنيد كل أفرادهِ ، ولهذا فمن المصلحة الاختيار منه . وكلما كان الاختيار من أوساط المتعلمين تعليماً متوسطاً وعالياً ، كان ذلك أفضل في بناء قوة الطيران ، وقوة المدفعية ، وقوة المدرعات ، والبحرية أما المشاة وأسلحة الامداد والتموين ، فإن المجند المصري العادي هو خير أجناد الأرض طاعة وفهماً وقوة احتمال وصبراً على المعارك .

التموين

قليل كلام كثير ، نشرناه قبل ، عن « ضياع » كميات البترول التي كانت مودعة في غزة ، وكان فقدانها سبباً في عدم فاعلية الدفاع عنها ضد الهجوم اليهودي . . [كانت المستودعات قد نقلت إلى موقع صحراوي خوفاً على غزة من الحريق] .

وقيل أيضاً كلام أكثر — وهو ثابت — أن الهجوم اليهودي الذي كان مركزاً على المطارات ، صحبه هجوم جوى ، بنفس الدقة في التوقيت والتنظيم على قوافل ومراكز التزود في سيناء ، وكلها كانت معروفة للعدو ، وتحركات قوافلها كانت مرصودة .

وتاريخ الحروب في القرن الحالى ، هو تاريخ التزود ، والقدرة على الاحتفاظ بمراكزه ، وإحسان نقله وتوزيعه . ومعركة العيلين ، ضاعت من الألمان بسبب

تخطيط قوافل التزوين البحرية ، وقد ظهر أن أميرال الأسطول الإيطالي بنفسه كان يعطى للحلفاء أنباء تحرك السفن ، ولهذا كان ضربها ذا فاعلية ، وأن نسبة الفاقد تعادل بالضبط نسبة عدم قدرة الجيش على الحركة .

ومعارك الشرق الأوسط التي تدور الآن هي عمليات تموين ونقل . . أى ضمان مصدر من أهم مصادر الحركة في السلم ، وأهم عوامل التفوق في الحرب وهو البترول ، ويلي مادة الوقود تماماً وسائل نقلها .

وكان من أهم ما عنت به حكومة مصر بعد الثورة ، أنها عملت تدريجياً على أن تتمكن الأيدي المصرية من السيطرة على عمليات البترول في بلادنا .

واذكر أنني اشتبكت — بالقلم — في معارك صحفية ضاربة عام ١٩٥٠ إلى ١٩٥٢ مع الوزراء الحاكين ، لكي يكون لمصر وجود فعلي بجانب الشركات الأجنبية المشتغلة بشئون البترول في بلادنا ، وأطلقنا وقتها شعاراً لخص المعركة في جملة ، وهي أنه « لا تصدير للبترول (الخام) إلا بعد التكرير ، ولا تكرير إلا بعد التصدير » . وينبغي أن تنوه في مجال هذه المعارك برجلين من أنبل من عرفت بين المصريين هما المرحوم الدكتور محمود أبو زيد مدير مصلحة الوقود في ذلك الوقت ، وأكبر خبراء البترول في بلادنا ، والصديق الأستاذ محمود فهمي مدير الجمعية التعاونية للبترول السابق . فقد آزرا ووجها صيحة البترول لمصر ، مع المخاطر الكثيرة التي تعرضا لها ، حتى إذا قامت الثورة ، كان من أول القرارات التي رأيت عليها توقيع جمال عبد الناصر قراراً يعطى الجمعية التعاونية ثلث حصة توزيع البترول في مصر ، وأراضى لاستنباط الخام على شاطئ البحر الأحمر .

وما لبثت أن قامت شركات مصرية أخرى ؛ في نطاق الملكية العامة ، تؤدي هذه المهمة ، ووضعت للمرة الأولى برامج مدروسة متقنة لتخزين احتياجات البلاد من الوقود وتوزيع عمليات البحث التكرير على نطاق واسع ، شمل شواطئنا كلها ، وموانئنا البحرية ، وداخل البلاد أيضاً .

وكانت الخطوة الأخيرة ، هي تمصير جميع عمليات البترول في بلادنا تطبيقاً للقوانين الاشتراكية ، مع فتح المجال لرأس المال الأجنبي ، والخبرات الأجنبية للعمل معنا في هذا المجال ، بغير استقلال ولاسيطرة . ونستطيع أن نقول الآن إن مصر هي أغنى بلاد الشرق الأوسط بالخيرات البترولية على جميع المستويات .

بقي بعد هذا — شيء هام — وهو الوسيلة التي نضع بها يترولنا في خدمة المعركة القادمة بغير مفاجآت . ولا جدال في أن العقل المصرى وصل الآن إلى وضع خطته الشاملة موضع التنفيذ .

ولعل أهم دروس الحرب الحالية ، هي عدم تركيز أجهزتنا البترولية في منطقة واحدة ، قريبة من ميدان المعارك . وسيظل قطاع السويس ، وما يليه شرقاً حتى نهر الأردن هو ميدان المعارك ، حتى تظهر الأرض كلها من هذا العدو الخطر الحديث . وقد أشرنا قبل إلى الماء وأهميته في حرب الصحراء . . وسيناء صحراء ، والنقب صحراء ، وفي وسع التنظيم الدقيق ، والجرأة في التنفيذ ، أن نجعل من الماء في المعركة القادمة ، رحيقاً يروى جنودنا ، ليس بالشحيح ، ولا هو مما يشوى الحلو في حرارة الصيف .

ومن التفاصيل الصغيرة في حرب يونيو — عند الصيف — أن كميات ضخمة من الثلجات أرسلت إلى جنودنا في الخطوط الأولى دون الاستعانة بأجهزة التبريد ، قتلت . . وإذن فمن الواجب العناية بالتبريد . .

وما أروع العناية بالتسخين أيضاً ، فإن مطابخ الميدان حين تقدم الوجبات الساخنة ، تشعر الجندي بالعناية به . وكلنا يذكر ما قاله نابليون ، وهو أن أقوى الجيوش هي التي تحارب ببطنها . أي بمعدة ممتلئة .

وقد دفعت الحماسة بعض منتجي « الشربات » ، إلى إهداء عشرات الألوف من الزجاجات إلى جنودنا في الميدان . ولكن جنودنا رفضوا تناولها ، حتى يدخلوا تل أبيب . . ، مسألة نفسية ولا شك يحسن أيضاً مراعاتها .

وقرأت لتشرشل الكبير أن الجنرال مونتهجرى اعتذر عن تناول العشاء مع عدد من الضباط ، لأنه اتخذ قاعدة تناول طعامه منفرداً حتى يحتفظ للقيادة بمحدودها . في حين أن رئيس وزرائه والقواد الذين كانوا معه أكلوا معاً بغير كلفة . . . إنها مذاهب في التفكير على كل حال . ولكتنا نفضل القائد الذي يكون دائماً مع جنوده ، حتى يطمئن إلى نوع وكَم ما يقدم لهم من طعام .

التدريب

لعل أهم ما استفدناه من معركة يونيو سنة ١٩٦٧ ، هو الثغرات التي ظهرت في تدريب جنودنا . .

نحن لا نعلق على هذا الكلام كثيراً ويكفى أن ننقل بعض ما شهد به الأعداء عن صلايتنا في المعركة .

ورد في كتاب « معركة الأيام الستة » ما يأتي :

« يقول الجنرال تال قائد معركة سيناء البرية : إن القوات المصرية كانت حسنة التوزيع والانتشار ، بحيث كانت في أحسن حالاتها لتحركات الدفاع والهجوم وكانت من ناحية في مركز يسمح لها بالاندفاع شرقاً ، عبر الجزء الجنوبي من صحراء النقب ، والاتصال بالأردن ، وبذلك تعزل ميناء إيلات من بقية إسرائيل . ومن ناحية أخرى فمن وجهة النظر الدفاعية ، كان المصريون يسدون جميع خطوط التقدم عبر الصحراء ، وتجمعات هائلة من القوات في مواقع محصنة تحصيناً قوياً ، بعضها كان معداً من قبل خلال العشرين عاماً الماضية . »

وقال في مكان آخر ما نصه :

وعند ما لاح فجر الثلاثاء ، كان الجنرال تال ، ومعه لواءان كاملان من المدرعات في العريش نفسها ، وقد وصف الجنرال تال المعركة بأنها كانت وحشية . . . وقال إن قوة المدفعية المصرية المضادة للدبابات ، ودقة إصابتها للهدف سببت متاعب هائلة لقواته . .

وفي مكان آخر قال :

« المدفعية المصرية المضادة للدبابات ، التي كانت تختبئ بين الكثبان الرملية في نظام دقيق ، كانت تضرب الدبابات الإسرائيلية بشدة . وكانت طلقاتها أشبه بموجات الرعد على طول جبهة المعركة . وكان من المستحيل أن نعرف أين توجد مواقع هذه المدفعية »

وإذن فقد كان هناك قتال ، وكانت هناك معركة كبرى ، وكان في ذهن موسى ديان في كل لحظة أن يطلب إيقاف القتال عن طريق مجلس الأمن وما كان هذا يتم في طلائع الهجوم الإسرائيلي ، إلا لأن بسالة جنودنا وضباطنا ، حملتهم على أن يقولوا هذا الكلام وهل كانوا يقولونه إذا لم يكن القتال على مستوى المعركة !

معركة بور فؤاد الفاصلة

قامت مجلة « دير شبيجل » الألمانية بدراسة مفصلة عن طريق مراسليها الذين كانوا في إسرائيل عن معركة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، وتضمنت هذه الدراسة بالفقرات التالية : وكانت خسائر إسرائيل متوسطة وتعادل النصر الذي أمكن تحقيقه حتى الآن (١) ولكن في يوم ٧ يونيو ارتكبت تل أبيب أول خطأ كبير لها في المعركة فقد كان ديان مصراً على الوصول إلى بور فؤاد ، ولهذا أرسل ١٨٠ دبابة من العريش إلى جنوب رأس العش ، لتحاول الاندفاع من الجنوب ، تعمل على تطويق القوات العربية كما حدث في غزة والعريش ، وقد رأت القيادة العربية في هذه المعركة فرصة لتسديد ضربة قوية للقوات المدرعة الإسرائيلية ، فتركت تلك القوات تتسرب من الجنوب ثم هاجمت الجناح الشمالي للقوات الإسرائيلية وفصلتها تماماً عن بقية القوات الإسرائيلية في سيناء .

ولأول مرة منذ بداية المعارك كانت القوة الجوية للطرفين متكافئة ... ودارت معارك رهيبية بالدبابات ولكن الوقت قد مضى على انتصارات سيناء ... ورمت القيادة الإسرائيلية بكل ما لديها في المعركة لتفك الحناق الذي ضرب على المدرعات ولكن بدون جدوى ...

ومع طلوع يوم جديد وجد موسى ديان أنه فقد كل قواته المهاجمة وأن مغامرته للإستيلاء على بور فؤاد ومدخل قنال السويس قد فشلت وأصبحت قواته المتمركزة أمام القنطرة ضعيفة ... وكان الطيران المصري قد بدأ يعود إلى السماء وإلى جانبه الطيران الجزائري .

وجاء وقف إطلاق النار ليجلس الطرفان المتحاربان ويقدرا الأخطاء التي ارتكبت في الحرب ومدى تأثيرها على المستقبل . قال مراسل المجلة الألمانية :

لقد كنت في تل أبيب يوم توقف إطلاق النار وكنت أرى على وجه اليهود إحساساً بالقلق بأن المعركة لم تنته بعد .. وقد زاد هذا الشعور عندما قطعت روسيا علاقاتها مع إسرائيل ، لا لأن روسيا كانت صديقة لإسرائيل ولكن لأن قطع العلاقات كان علامة على أن روسيا ستساعد العرب بشكل أفضل الآن أو في المستقبل .

(١) أدق تقدير لهذه الخسائر أن إسرائيل خسرت في معركة سيناء وحدها ستة آلاف جندي وضابط .

كيف حدثت الهزيمة

ونسأل جميعاً : إذن كيف حدثت الهزيمة . . . كيف حدث كل هذا ؟ والجواب يتلخص في كلمتين :

« الطيران . . . » وما حدث له . وكلية « الانسحاب . . . » بغير خطة انسحاب وقد ظهر في محاكمة المقصرين خلال حرب الأيام الستة أمام المحكمة العسكرية أن قواعد الطيران تلقت قبل المعركة بيومين — يوم ٣ يونيو — إشارة بأن الهجوم أصبح وشيك الوقوع في مدى ٨٤ ساعة . ومع هذا لم يتسع خيال قواد الطيران ، لتصور خطة العدو ، وأن الهجوم سوف يتم بالطريقة التي حدث بها ، ولعل من أهم — بل أهم — ميزات القيادة الرشيدة ، هو تصور كل الاحتمالات ، وإيجاد الحلول المناسبة لها . فإذا أفلت منها حل . قد يكون إفلاته وعدم التأهب له سبب الكارثة . . وهو ما حدث .

قال رندولف أشرشل :

« كان النجاح الجوي الذي حققه السلاح الجوي الإسرائيلي خلال الساعات الثلاث الأولى من الحرب ، هو العامل الوحيد الذي ضمن تقدم القوات الإسرائيلية بسرعة من رفح إلى العريش » .

ولكن في مجال محاسبة النفس ، ورسم خطط المستقبل ، يجب أن نمنع الفكر في عدة أمور ، وأن نوجد لها حلولاً .

فمنها : كيف تقدم العدو من العوجة إلى أم بسيس وقطع حوالي ١٨ كيلو متراً ، في حوالي ساعة ، مع أن الطريق رملي ، والمعروف في هذه الأحوال ، أن هذه المسافة تقطع في أضعاف هذا الوقت حسب طبيعة الأرض .

هذه مسألة تحتاج إلى دراسة : الزحف الليلي ، والزحف السريع جداً مع عوائق الأرض الرملية وصعوباتها ؟

إن الأمر يحتاج إلى مراجعة فنية لنوع المعدات ، ولطبيعة الاختراق التي تمت ، وما من شيء يعز على الدراسة . وكل هذا يدخل في دور التدريب الجديد ، الذي تتم بعناية تامة ، وعقل متفتح بعيد عن التقيد بالنظريات التقليدية . وجهد منقطع النظر قامت به القيادات على جميع المستويات .

استطاع العدو خداعنا مرة ، وأخذ يعد العدة لهذه الخديعة على أوسع نطاق دولي ممكن ، ولكنه يحتاج إلى عشرين سنة أخرى لكي يوجد أسلوباً آخر ، وقوماً يخدمهم على هذه الصورة . .

ومن هنا يحىء وجوم اليهود ، لا في إسرائيل وحدها ، ولكن في العالم كله . . فقد شنوا مصر - مصر إياها - التي تحدثت عنها ثوراتهم وأنبياءهم وكهانهم ما تحدثوا . . . شنوها بكمية من الكراهية ، سوف تكون أقوى من كل الأسلحة ، وأقل من كل الجيوش .

كلمات لها وزنها

وفي هذا المعنى تحدث الرئيس جمال عبد الناصر إلى الشعب والأمة العربية في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٦٧ . . قال :

نحن أولاً وقبل كل شيء نحتاج إلى وقت لإتمام استعدادنا العسكري ، لقد استكملنا ، وليس هذا سرّاً ، مقدرة الدفاع . وكان من العبث غير المسئول في رأي أن نتكلم عن العمل العسكري ونحن غير قادرين على الدفاع . وفي وقت من الأوقات بعد النكسة كانت خطوطنا غير قادرة على صد الهجوم وكانت سماؤنا مكشوفة ، مصانعنا . . مدننا . . قرانا . . كانت كلها مكشوفة للعدو وإذا كنت أقف في مثل هذا الوقت وأتحدث عن العمل العسكري فمعناه إنني أتاخر أو أنني أضلل وهذا ما لا أَرْضاه ، وبعد ذلك فنحن إذا جاء وقت العمل العسكري لن نكون على موقف الدفاع أى أننا يجب أن نتقدم باستعداداتنا لنستطيع أن نتحمل مسؤولية الهجوم . .

أننا سنهاجم لتطهير أرض لنا يحتلها العدو وهذا حق مشروع لنا ، ولكن يجب أن نكون قادرين عليه والتقدم إلى ذلك قبل امتلاك القدرة عليه خطأ فادح وجريمة ، لا يمكن أن نتقدم إلى نكسة عسكرية أخرى . . النكسات ليست مثل نوبات البرد أو الأنفلونزا يمكن أن يتعرض لها الإنسان بين فترة وأخرى كل شهرين أو كل ٣ شهور أو ٤ شهور أو ٦ شهور . ما حدث بالنكسة يجب أن يكون حادثة في تاريخ مصر لا تقبل التكرار . والمسألة أو صميم المسألة أنه بعد النكسة ليس هناك بديل أمامنا عند ما نقرر ضرورة العمل العسكري غير تحقيق النصر . . ليس هناك بديل للنصر . . بمعنى

ألا يكون هناك نصر ، أى ألا تكون هناك حياة . . شيء أكثر من مجرد الهزيمة . .

الاستعداد العسكري الهجومي بعد استكمال الاستعداد العسكري الدفاعي يحتاج إلى وقت وعمل . . أقول ذلك صراحة وأقوله من موقع المسئولية .

كلمات للفريق أول فوزى

ولإكالا لهذه المعاني ، وكلها تمهيد للمعركة القادمة ، نشير إلى كلمات حديثة للفريق أول محمد فوزى وزير الحربية ، وجهها للأسرى العائدين إلى الوطن يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٦٨ . . والمعنى الهام المستفاد من هذا الحديث وغيره ، أنه واجه المسؤولية بصراحة تامة . . قال إن الشعب أصبح الآن يتابع القوات المسلحة وإمكاناتها ، ويسأل عن تطورها ، وهذا حق ، لأنكم من بين أبنائه ، ولأنه فوجيء بنتيجة المعركة الأولى .

وإذن فهناك وعى كامل لدى قواتنا المسلحة ، بأن ما حدث هو معركة أولى خسرناها . . وأن الجيش « أصبح داخل الإطار الحقيقى للدولة ، ولم يكن كذلك قبل المعركة » . وأكد وزير الحربية الجديد أنه « حصل تكامل بين العناصر الثلاثة الرئيسية للقتال : القائد والمعدات والجنود الفرد ، وعندما يتم هذا التكامل تصبح الفاعلية موجودة .

والشواهد على صحة هذا الكلام كثيرة ، وبعضها يدخل فى نطاق الأسرار ، ولهذا فإن هذا القلم الذى احتمل أمانة التعبير عن النضال الوطنى قرابة ثلث قرن ، يستطيع أن يؤكد بدمية المواطن الشريف ، إن ما حدث فى الشهور التالية للهزيمة ، وهو أمل ضخم كنا نترجاه . . هو تفاعل كبير بين إرادة العصر ، والوسائل المؤدية له .

والنصر لا يعنى طرد اليهود من سيناء ، ولكن يعنى الثأر لهذه الضجة الظالمة ، والمهانة المرة التى وجهت لنا من معظم منابر الإعلام فى العالم . . والثأر يعنى القضاء على التهديد اليهودى نهائياً على حدودنا . . .

وما يدور فى دخيلة النفس المصرية ، غير ما يبدو على الوجوه . إن اللا مبالة التى يلحها بعض زوارنا من الأصدقاء الأجانب ، هى القناع الذى يضعه شعبنا ، ويخفى به ما يملأ قلبه ! ويحرك وجدانه . . هذا هو سره القديم . . سر شعب أصيل الحضارة ، متين التكوين والبناء ، عقيدته أغلى عنده من أن يضعها فى راية يهتف لها . إنها عقيدة النصر أو الموت ، عندما تحين الساعة وإن موعدها لقريب بإذن الله . . وعندها سيلقى المعتدون مصيرهم . .

لقد زرعوا فى أرضنا الريح ، وسوف يحصدون الزوبعة . وهذا تعبيرهم فى توراتهم . . والله مصير الأمور .

نظرة إلى المستقبل...

الولايات المتحدة . . وإسرائيل

من العرض التاريخي والعملي الذي سبق تقديمه في الفصول السابقة ، يمكن أن نصف « إسرائيل » بأنها ولاية « منتسبة » إلى الولايات المتحدة ، إذا جاز أن نستعير الالفاظ الجامعية في وصف طلابها . . وربما زادت هذه العلاقة قوة في عهد رئاسة لندون جونسون ، الذي كان لم تكن له دراية بالشؤون الخارجية لبلاده ، مثل دراية كنيدي أو إيزنهاور أو روزفلت وهم ألمع رؤساء الولايات المتحدة أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية . ولهذا فقد اختار جونسون مستشاريه للشؤون الخارجية من اليهود الضالعين في التطرف الصهيوني ، أمثال جولد نبرج والأخوان روستو . . وكادت هذه المجموعة تدفع الولايات المتحدة إلى حرب عالمية ، دون مبالاة إلا بشيء واحد ، وهو إسرائيل ، ودعمها . وإذا كان « دلاس » قد ابتكر سياسة دفع الأمور إلى حافة الحرب ، دون المغامرة بخوضها اللهم إلا أن تكون حرباً محلية ، فإن الذين ورثوا هذه السياسة ، عمدوا إلى زيادة الحرائق في العالم ، فأضافوا إلى فيتنام حرب الشرق الأوسط . والحرب الأخيرة قريبة جداً من مخازن البارود العالمية ، فهي تقع في أكثر مناطق العالم حساسية . . أنها قلب العالم كله .

ولكن إلى متى تستمر هذه السياسة ؟ إلى متى تظل العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة قائمة على هذه الصورة ؟

الجواب على هذا السؤال سهل : تظل العلاقة قائمة ، ما دامت السلطات الحاكمة وراء ستار الديمقراطية الأمريكية مستفيدة منها . . ونعني بهذه السلطات : المخابرات الأمريكية ، والجهاز العسكري فيها ، وتكتلات الصناعة والمال فيها . . .

ولا جدال في أن الولايات المتحدة استفادت من هذه السياسة فائدة كبيرة . . . ولا نعني بذلك حراسة مصالحها البترولية ، فهذا وهم ضخم ، إذ أنه كان يمكن حراسة

هذه المصالح بصداقات حقيقية ، وتعاون حر مع بلدان الشرق الأوسط . . فضلا عن أن الاستثمارات الأمريكية في الشرق الأوسط لا تمثل إلا نسبة صغيرة من الاقتصاديات الهائلة لها في داخل بلادها وفي أمريكا اللاتينية وأوروبا وأستراليا . وحتى إذا حرمت الولايات المتحدة من دخول هذه المنطقة ، فإنها تستطيع مواصلة حياتها دون ارتباك كبير . . وذلك بعكس أوروبا ودول البحر المتوسط خاصة .

إذن ما وجه الحاجة الأمريكية لإسرائيل ؟

لأنها تريد تبادل المنفعة ، على أساس أنها قاعدة مفيدة لها في هذه المنطقة الحساسة من العالم . وأهم ما حققته هذه القاعدة ، حتى الآن ، هو استغلال الخبرة اليهودية العريقة في أعمال التجسس سواء في الشرق الأوسط ، أو في أى مكان آخر يوجد فيه يهود ، ولا سيما في أوروبا الشرقية ، والاتحاد السوفياتي ، وفي أوروبا الغربية نفسها . فضلا عن عيون اليهود المنبثة في قارتي أفريقية وآسيا . .

لقد كانت ضربة اليابان للولايات المتحدة في « بيرل هاربر » أوائل الحرب العالمية الثانية ، من العنف بحيث نهتها إلى ضرورة تدعيم أجهزة التجسس المتصلة بها ، حتى لا تفاجأ مفاجأة أخرى . . وإذا كانت ضربة « بيرل هاربر » قد أفقدتها جزءاً ثميناً من أسطولها أودعه اليابانيون قاع البحر في لحظة مفاجأة ، فإن الدنيا تغيرت بعد ربع قرن ، بظهور الصواريخ عابرة القارات وهي تحمل الرؤوس الذرية ، وبالتقدم الخطير في البحث العلمى ، والذي تظهر من خلاله مبتكرات تلغى كل ما سبقها ، ولا سيما في عالم الطيران ، والفضاء والكيمياء ، وعلوم البحار والاشعة بأنواعها . .

التجسس العلمى، في العصر الحاضر، هو أخطر من التجسس على قاعدة عسكرية . . وفي هذا المجال تدور منافسات مذهلة بين الدول الصديقة والمحايدة والمعادية على حد سواء .

الطائرة المسروقة

ولنضرب الآن مثلاً بحادث « سرقة » كانت له تأثيرات بالغة في وقته . .

فقد لاحظ الأمريكيون في حربيهم البينيتامية ، أن الطائرات الميج التي يستعملها الفيتناميون تشكل بطائرتهم المقاتلة — ومنها الفانتوم — . وكان عليهم أن يبحثوا

عن الأسرار الكامنة وراء هذه الطائرة الروسية . ولم يتيسر لهم الحصول على المعلومات اللازمة لهم من مصادر إنتاجها ، ووجدوا أن الوسيلة الوحيدة هي «سرقه» طائرة من هذا النوع . . وأطلقوا كلب الصيد الإسرائيلي ليباشر هذه المهمة .

وفي شهر أغسطس سنة ١٩٦٦ ، أذيع أن طائرة « ميج ٢١ » قامت من قاعدة عراقية ، ونزلت في مطار جنوبي بإسرائيل ، بعد أن استنفدت آخر قطرة من وقودها !!

وبعد عامين ، وبعد جهود مضنية بذلتها سلطات الأمن العراقية ، أمكن وضع اليد على شبكة تجسس تضم عراقيين ويهوداً هي المستولة عن هذا الحادث ، وقد علق المدانون من أفرادها على أعواد المشانق .

وقد أذاعت إسرائيل وقتها أنها لن تسمح للأمريكان أو غيرهم بفحص الطائرة المسروقة ، وهذا طلب كذب وقح . فقد نشرت مجلة « أسبوع الطيران وتكنولوجيا الفضاء » الصادرة في يوليو سنة ١٩٦٧ دراسة مستفيضة على طائرة الميج ٢١ ، التي عرفت باسم « الميج ٧ » ، إشارة إلى جاسوس المغامرات في قصص السينما الذي كان اسمه الرمزي « ٧ » ، ! ! وكان صاحب هذه الدراسة ، هو خبير الطيران الأمريكي وراين ويتمور . . . وبدأ هذا الخبير دراسته المنشورة على الملأ بقوله : لقد طرنا على متن هذه الطائرة (ميج ٧) أكثر من مائة ساعة . . . وهي مقاتل ممتاز في الارتفاعات الشاهقة على عكس الطائرة الميراج . . . الخ ،

وليس مجالنا هنا البحث الفني ، ولكن مجالنا هو دور إسرائيل في تقديم هذه « الخدمة » للولايات المتحدة وسلاح طيرانها . . وقد أشرنا قبل إلى أنواع كثيرة من الطائرات السوفياتية ظهرت بعد « الميج ٢١ » ذات كفاءة تفوق كل ما سبقه .

وفي دراسة اللواء محمود شيت خطاب عن العسكرية الإسرائيلية بحث عن الدراسات العلمية في إسرائيل جاء فيه :

« قامت دائرة النظائر في معهد وايزمن [في مدينة رحبوت بإسرائيل] بإنتاج الأوكسجين المقوى المعروف بالماء الثقيل ، وتشير الإحصاءات العلمية إلى أن إسرائيل تؤمن ٩٥ ٪ من متطلبات العالم من هذه المادة . والمعروف أن قيمة الجرام الواحدة

من الماء الثقيل تبلغ ألف دولار امريكى ، (١) .

وقد ساعدت فرنسا على إنشاء المفاعلات الذرية فى إسرائيل ، وأكبرها مفاعل ديمونه الذرى الذى أقيم عام ١٩٥٨ . كما ساعدت الولايات المتحدة فى إنشاء مفاعلات أخرى عرف منها أربعة حتى الآن . وغرض الدول وأولها الولايات المتحدة أن تكون إسرائيل محطة تجارب ورصد ، وأعينهم متجهة دائماً إلى الاتحاد السوفياتى ، صاحب أكبر طاقة نووية مواجهة للغرب .

ومواد الحرب الكيماوية من أهم ما تشترك فيه الولايات المتحدة مع إسرائيل . وكذلك الخواص الفيزيائية للمادة .

ومن ذلك ما ورد فى المصدر السابق عن جهاز تغيير اتجاه القذائف . . قال :

« هذا البحث بدأت به جامعة شيكاغو بالتعاون مع إحدى عشرة شركة أمريكية ، بناء على عقود خاصة مع وزارة الدفاع الأمريكية . . . وانتقلت بعد ذلك بعض أسرار هذا البحث إلى علماء معهد التكنيكون الإسرائيلى عن طريق أحد العلماء اليهود فى جامعة شيكاغو ، ويدور البحث حول دراسة إمكانية خلق موجات مغناطيسية لتدمير القذائف الموجهة فى الجو ، وعلى الأقل تحويل خط سيرها عن الهدف المرسوم لها . »

وواضح أن هذا البحث ما يزال بعيداً جداً عن التحقيق ، وإلا لما اعتمدت حكومة نيكسون أول تسليها المسئولية مبالغ هائلة لعمل شبكة صواريخ مضادة للصواريخ ، بحيث تنصيدها وتدمرها فى طبقات الجو العليا . ولكن ما يعنيننا ، هو أن حكومة الولايات المتحدة — حتى الآن — لا ترى فى انتقال بعض أسرارها الصناعية أو العلمية إلى إسرائيل مخاطرة أمن بالنسبة لها .

حتى ١٩٥٥

ولكن إلى متى يستمر شهر العسل بين إسرائيل والولايات المتحدة . . .

نرى أن هذه العلاقة ، تستمر طالما كانت فوائد هذه العلاقة ، ترجح أو تزيد على مضارها . وقد رأينا أن علاقة إسرائيل مع انجلترا تضائلت بعد فترة ، وقامت علاقة

(١) الماء الثقيل الذى يستعمل فى الانتاج الذرى يمكن استخراجيه من مساقط الماء التى تدير توربينات مولدة للكهرباء . وكثير من محطات الكهرباء المائية تنتجه .

مع ألمانيا الغربية ، ثم أخذت تضعف ، وهذا ما حدث مع فرنسا . . . ونفس الشيء يمكن أن يتحقق بالنسبة للولايات المتحدة ، إذا شعر أى من الجانبين بضرر هذه العلاقة .

وما يعنى الولايات المتحدة ألا تخوض حرباً من أجل اليهود وأطماعهم ، فإن تكاليف الحرب أغلى بكثير من الاحتفاظ بإسرائيل ، لأن امتدادها يمكن جداً .

ولا يعنى امتداد الحرب أن تكون المواجهة الأمريكية دائماً مع الاتحاد السوفياتى .. فإن هناك عالماً آخر يمكن أن يتصدى للولايات المتحدة . ونعنى به العالم الآسيوى الأفريقى .

وأنا أعلم أن كثيراً من القراء سوف يرفعون حواجبهم دهشة ، أو يهزون كتفهم شكاً وإنكاراً .. فالولايات المتحدة ذات الثراء والجاه ، ذات الأساطيل والصواريخ ، لا يقف فى وجهها أحد .

وهذه خرافة . . .

فقد ضربت فيتنام المثل فى حربين : الأولى ضد فرنسا والثانية ضد نصف مليون جندي من الولايات المتحدة وحلفائها . وضربت الجزائر نفس المثل ضد عدد مماثل من جنود فرنسا . . . وسكان فيتنام والجزائر معاً يقولون عن أربعين مليون نسمة . ولم تستطع القوة المادية الهائلة أن تحمل شعباً مكافئاً على أن يركع على قدميه أبداً . .

وإذن فالسؤال هو : هل يمكن أن تحدث مواجهة بين شعوب آسيا وإفريقية ، وبين الولايات المتحدة ؟

والجواب : نعم . . .

فهناك نقطة تفجر هائلة فى حرب الشرق الأوسط ، اسمها القدس ، . والقدس مدينة تعيش فى ضمير وعاطفة المسلمين والمسيحيين الشرقيين . وعالم الديانتين هو بحر فسيح مترام الأطراف . . ودفع أمواجه عند نقطة التفجر ، يحتاج إلى بعض الوقت ، ولكنه ليس وقتاً طويلاً .

إن كل مسلم من ٥٠٠ مليون فرد يعتقدون هذا الدين ، يتمنى الآن أن يكون طريقه إلى الجنة ، استشهاداً فى سبيل الله ورسوله ، مروراً بالقدس . .

وكذلك المسيحيون الشرقيون ، يعلمون أن مقدسات المسيحية كلها في فلسطين ، وأن الحفاظ على هذه المقدسات ، وعودتهم إلى مباشرة القوامه عليها ، كما كان الحال منذ وصول عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى القدس حتى الآن ، باستثناء سبعين سنة تحكم فيها الصليبيون ، أو القساوسة اللاتين في هذه المقدسات ، وقد حارب المسيحيون الشرقيون تحت راية صلاح الدين ، وكان نصرهم على « اللاتين » من نصره . .

والذى يزعم أن الحروب الدينية ، انتهى وقتها واهم كل الوهم . . فماذا يصنع اليهود في فلسطين خلال عشرين سنة ؟ إنهم خاضوا ثلاثة حروب ، وفي يد كل مقاتل منهم التوراة ، وتحت فقرات منها خطوط حرام ، وهى تقول إن ملك إسرائيل يمتد من النيل إلى الفرات . .

هل يشعل اليهود حرباً دينية ، بكل هذه الضراوة ، ثم نجد فينا من يقول إن الحرب الدينية انتهى وقتها ، أو أنها ضد التقدم ؟ . . !

حقيقة لقد تعلمت الإنسانية ، بعد الحروب الصليبية ، كيف تتعايش الأديان ، ولا سيما الإسلام والمسيحية ، وخلفتها الحروب الاستعمارية . .

وعندما أبدت هذا رأى فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، كتب لى ، وتحدث معى بعض قرائه سائلين : هل تريد العودة إلى صيحة « الجهاد » ، التى كانت تبعثها الخلافة العثمانية الزائلة ؟ وقد تكون صيحة الجهاد هذه غير مفهومة لنا اليوم ، لأن القدس ، أو مكة أو المدينة المنورة ، لم تحق بها أخطار طوال ثلاثة عشر قرناً وبعض قرن . . وعندما حدثت هذه الأخطار على أيدى التتار والصليبيين ، حارب الجميع تحت قيادات إسلامية .

نفس الموقف يتكرر اليوم . . وبالأمر احتجنا إلى مائتى سنة لرد الغارتين من أقصى الشرق ، ومن أقصى الغرب عن القدس . . وقد نحتاج الآن إلى زمن أقل ، لوفرة وسائل الإعلام والتعبئة النفسية ، وسهولة المواصلات . .

الانسان . . والقنبلة

وسوف يسأل كثيرون : وهل تستطيع شعوبنا أن تواجه قنابل أمريكا الذرية ، وغير الذرية ؟ وقد أجبت على هذا السؤال بمثلين من الجزائر وفيتنام . وأزيد ، أن الإنسان المقاتل ، القادر على الاستشهاد عن عقيدة ويقين ، هو أقوى الأسلحة فى هذا الوجود منذ نزل آدم إلى هذه الأرض .

أن أكبر دبابه ، تهدم مدينة كاملة ، يمكن لفدائي أن يدمرها في مقتل معروف للبحارين جميعاً . وقد رأينا الفدائيين في معاركنا الحالية يصنعون من قصص البطولة ما يعجز عن تصويره الإنسان . . . وليس معنى هذا أن تتحول حربنا كلها إلى حرب الفدائية ، فلا غنى عن مواجهات مسلحة بالجيش النظامية . ولكن عندما تملأ الفدائية الجيش النظامية نفسها فالنصر معقود بألويتها في مواجهة أى قوة مهما كانت باطشة . . . وهذا بالضبط هو ما صنعتته جيوش الفتح الإسلامى تحت قيادة خالد والمثنى وسعد وابن عوف وعمرو بن العاص وعقبة بن نافع . . .

سوف تصبح شعوبنا طاقة غضب هائلة .

سوف تهدد كل مصلحة لأمريكا ، وأشياعها في أوروبا .

ولست وحدى الذى أقول هذا الكلام . فقد قاله كثير من الساسة الغربيين أصحاب الوعى والإدراك ، بل من خوف من هذه المواجهة الشاملة استقال أحد وزراء إيدن أثناء العدوان الثلاثى ، وعرضنا له من قبل . . .

لا توجد قبلة ، أقوى من إرادة إنسان مؤمن . . . ولتكن هذه عقيدتنا ، نبعتها ، ونستمد منها الزاد المعنوى الذى نحتاج إليه .

جون بادو . . . ومخاطر المستقبل

لا سبيل إلى معاندة حركة التاريخ . هذا هو ما انتهى إليه مفكر كبير ، ومؤرخ عالمى من مؤرخى الحضارة ، هو أرفولد توينبى ، عندما عارض فى شدة وعنف الوجود الإسرائيلى فى أرض فلسطين ، وحكم بزواله ، مهما كانت قوة القهر التى يستعين بها .

ولكن باحثاً آخر من رجال العلم والسياسة عرض رأياً يستحق أن نقف عنده بعض الوقت .

فى عدد شهر يناير سنة ١٩٦٨ من مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية ، بحث عن عواقب حرب يونيو سنة ١٩٦٧ فى الشرق الأوسط بقلم « جون بادو » .

هذا البحث يستوقف النظر . لأن صاحبه عاش فى الشرق الأوسط ، وفى مصر

بصفة خاصة مدة طويلة مديراً للجامعة الأمريكية ، وتعلم اللغة العربية ، ودرس تاريخنا وحضارتنا . فلما تقاعد ، أراد الرئيس الأمريكي الراحل جون كنيدي أن يستعين بخبرته وثقافته وصلاته القوية بمصر ، فعينه سفيراً له في القاهرة ، على أن يكون له حق الاتصال المباشر برئيس جمهوريته ، دون عقبات من وزارة الخارجية في واشنطن .

وقد بذل جون بادو جهده ، حتى بدت العلاقات بين مصر وأمريكا ، وكأنها تسير في طريق آهـن ، وفهم متبادل . ومن هنا جاءت أهمية الآراء التي يبدونها هذا الباحث الأمريكي ، وكانت لديه كل الفرص للاطلاع على أعماق كل شيء في منطقتنا ، قبل العدوان بأمد ليس بالبعيد . .

قال هذا السفير السابق والعالم المستشرق :

« أن السؤال المطروح في الغرب ، كما هو الحال في روسيا ، هو سؤال أساسي وبسيط ، مامقدار المشقة والقلق الذي يستحقه الشرق الأوسط ؟ .. ويبدو أنهما بدءا يقدران ، أكثر فأكثر ، الفائدة التي يمكن أن تعود عليهما من التوصل — بقدر الإمكان — من منطقة تتميز بالمخاطر الكبرى والتكاليف الباهظة والدفع المشكوك فيه ، كما تتميز فوق كل شيء بتضاؤل أهميتها بسبب التطورات الإستراتيجية والإقتصادية والفنية ، وتغطي عليها المشكلات العاجلة التي يتعين مواجهتها في شرق آسيا . وأن هذه الاعتبارات لابد أن تسيطر على التفكير السياسي والإستراتيجي في كل من واشنطن وموسكو (١) . »

« فبالنسبة بين الكتلتين الشيوعية والغربية ، إذن ، يوجد أمامها احتمال التخلص من رمال الشرق الأوسط اللينة التي قد تدقهم تحتها — مهما كان هذا الاحتمال بعيداً . ولكن لا يوجد هذا الاحتمال أمام دول الشرق الأوسط التي عليها أن تروض نفسها على التلاؤم على خير وجه ممكن مع الأحوال السائدة في المنطقة ، بما في ذلك سياسات الدول الكبرى والدول التي تأتي في المرتبة الثانية . ومن ثم ، فإن دروس الحرب تبدو لهذه الدول في شكل يختلف بعض الشيء عما تبدو عليه هذه الدروس للدول الأخرى . »

(١) يشير الى حرب فيتنام ، وموقف كل من روسيا والولايات المتحدة من الصين الشعبية ، ونموها الخطير .

« إن ما تعلته إسرائيل هو نفسه الذى تعلبه المنتصرون دائماً من النصر وهو أنها كانت دائماً على صواب ، ولقد أكدت الأزيمة والحرب معتقدات إسرائيل فى نقطتين على وجه التخصيص ، وهما : أن وجودهم يتوقف فى نهاية الأمر على استعدادهم وقدرتهم على القتال من أجله ، وأنه لا يمكنهم أن يثقوا فى الأمم المتحدة حيث يتمتع أعداؤهم بمركز متميز ، وأن الائتلاف المكون من الكتلة الشيوعية والدول « غير المنحازة » فى الجمعية العامة كاف لمنع صدور أى قرار مقبول لإسرائيل ، وإن لم يكن كافياً لفرض قرار يقبله العرب ، وفى ذلك قال أحد الوزراء الإسرائيليين : « إذا قدم العرب غدا مشروعاً بقرار يقول أن الأرض مسطحة ، فيمكنهم أن يعتمدوا على . . . صوتاً على الأقل . . . » ١١

« اعتماد إسرائيل على قوتها العسكرية والسياسية الخاصة فى الشرق الأوسط وعدم الثقة فى « رعاية الأمم المتحدة » النتيجةتان الرئيسيتان اللتان استخلصتهما إسرائيل من الأحداث الأخيرة ، والدولة الوحيدة ذات الأهمية الحقيقية بالنسبة لإسرائيل ، من بين جميع دول العالم الخارجى ، هى الولايات المتحدة ، وحتى فى نشوة النصر ، يعلم الإسرائيليون إن النية الحسنة الأمريكية لها أهمية أساسية بالنسبة لهم .

وثمة ثلاثة أشياء رئيسية تريدها إسرائيل من واشنطن ، وهى : أولاً — مواجهة الروس كما حدث فى يونيو عام ١٩٦٧ ، لمنعهم من التدخل العسكرى المباشر ضدها ، وثانياً — الامتناع عن فرض أى قرار تراه إسرائيل منافياً لمصالحها ، سواء فعلت أمريكا ذلك بمفردها أم بالاشتراك مع آخرين ، وثالثاً — أن تضمن أمريكا لإسرائيل ألا ينخفض مستوى تسليحها تحت مستوى تسليح العرب ، وبعبارة أخرى ، ترغب إسرائيل أن تطمئن إلى أن الأمريكين لن يقوضوا مركزها ، ولن يسمحوا لروسيا بتقويضه . وإذا توفر لهم هذا الضمان يشعر الإسرائيليون بأنهم قادرون على مباراة جيرانهم العرب ، أما المشكلة الخاصة بمواطنى إسرائيل العرب — وهى أخطر المشكلات فى نهاية الأمر بما تتطوى عليه من احتمالات بالنسبة لمستقبل دولتهم ومجتمعهم — فلا زالت بلا حل ، ولا يوجد حتى الآن سوى قدر ضئيل من الاتفاق داخل إسرائيل على كيفية حلها .

« ولقد كان أثر الأمم المتحدة على المشاكل فى الشرق الأوسط وفى مناطق أخرى من العالم شبيه بأثر الأدوية الحديثة على الأمراض المستعصية ، فهى كافية لمنع المريض

من الموت موتاً طبيعياً ، ولكنها ليست كافية لشفائه ، إن حالة العجز المزمن لا تبعث على السعادة .

« ولعل خير أمل للشرق الأوسط يكمن في تضاؤل أهمية المنطقة نفسها الأمر الذى قد يؤدي بمرور الوقت إلى فقد اهتمام الدول الكبرى بها . ولن تكون هذه هي المرة الأولى ، لأن تضاؤل الاهتمام الأوربي بالشرق الأوسط في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وأثره ، هو أمر معروف جيداً . وثمة مثال آخر يرجع تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي عندما انتهت الحلقة الأخيرة من سلسلة الحروب الطويلة بين روما وفارس . فطالما كان الصراع مستمراً بين الدولتين الكبيرتين في العالم العتيق ، كان لهما نشاط كبير في شبه الجزيرة العربية سياسياً وعسكرياً وتجارياً ، وفي خلال فترة السلام الطويل التي استمرت بين عام ٣٨٤ و ٥٠٢ فقد كلاهما الاهتمام بشبه الجزيرة فتحولت عنها طرق التجارة وهجرت مدن القوافل وعاد الجزء الأكبر من شبه الجزيرة إلى حياة البداوة .

ولن يكون من السهل على الدول الكبرى أن تفقد اهتمامها بالمنطقة كما أن ذلك قد يكون مؤلماً للشرق الأوسط حيث يمكن أن يكون لتحقيق المطلب الذى طال عليه الأمد « بانتهاء عهد الامبريالية ، آثار سياسية واقتصادية ضارة بالمنطقة ، ذلك أنه ، بدون حافز أجنبي ، سوف تتعرض المنطقة لخطر التحلل والتأخر ، وبدون المنغصات الأجنبية — من جهة أخرى ، قد يكون هناك بعض الأمل في السلام ، ا . ه .

إلى هنا انتهت مقتطفاتنا من هذا المقال ، ونراه في حاجة إلى تعليق . . .

الشرق . . والغرب

وعلى الرغم من أن هذا البحث ، أخذ طابعاً علمياً ، إلا أن الروح الصليبية ، هي التى تسوده . . مع روح الاستعلاء ، وافترض أن القوة العسكرية هي وحدها موجهة الحضارة ، ورافعة منارها .

فالسفير السابق جون بادو ينادى بدعوة جديدة ، وهي أن تتفق كل من روسيا وأمريكا ، على ترك الشرق الأوسط ، دون تدخل من أى منهما ، وستقوم فيه حروب ، وينتهى أمره وأمر شعوبه إلى الخمول والتضاؤل ، كما حدث للجزيرة العربية بعد انتهاء الرومان والفرس من صراعهما في القرن الخامس الميلادي ، إذ

انتقلت طرق التجارة وأخذت مسالك برية في الشمال ، وأخرى بحرية ، ودفت أهمية العرب وجزيرتهم تحت رمال الإهمال ١١

وهذا فهم قاصر وخاطئ للتاريخ . فإن الجزيرة العربية التي أصبحت في تقديره خواء ، لأن هرقل انتصر انتصاراً حاسماً على الفرس ، في أوائل القرن السادس الميلادي . . . هذه الجزيرة هي التي ظهر فيها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن وحى دعوته الإسلامية انطلق العرب من جزيرتهم اينزىلوا الامبراطوريتين العنيدتين : فارس وبيزنطة . وليقيموا امبراطورية الحضارة والعرفان والإيمان .

لم يصب العرب بالجنول لأن حروباً في الشمال توقفت ، وان تحدث النتيجة التي توقعها « جون بادو » ، إذا امتنعت الحرب الأوروبية الأمريكية . سواء بين بعضهم البعض ، أو بينهم وبين الاتحاد السوفياتي .

إن الدعوة إلى أن ينسحب كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة من الشرق الأوسط ، ترمي إلى أن يترك الغرب بلادنا تسقط في مهاوى الظلام . . . والانسحاب يعنى عدم المرور براً وجواً وبحراً من المنطقة . . . ويعنى عدم التداخل في تنميتها الاقتصادية ، أو العلمية على صورة من الصور . . . ويعنى أيضاً عدم الاعتماد على موارد الشرق الأوسط من بترول أو حاصلات زراعية أو خامات . . .

إذا حدث هذا ، فإن العالم الغربي ومنافسوه في بلاد اليسار يريحون ويستريحون . وهذا تقدير غريب لرجل من أهل العلم عايشنا عشرات السفين ، وتعلم لغتنا ، وجاس خلال حاضرتنا وماضينا . . .

إنه وحى علم مشبوه ، يخفى في طوایاه أبغض أنواع التعصب والعنصرية . . . فالشرق بمفهومه العلمى لا السياسى المعاصر ، لم يعيش حالة في فكره أو نموه على الغرب ، إلا منذ قرون قليلة ، صاحبت نشأة الاستعمار والسيطرة على الممرات المائية العالمية . ولكن الاستعمار يلفظ أنفاسه الآن . وتفيق شعوب أفريقية وآسيا من كابوس مخيف ، لتتفرض عنها غبار الفترة الماضية ، وتمسك مصائرهما بأيديهما ، وتنطلق في المستقبل ، كما انطلقت في الماضى .

هل أمسكت أوروبا وأمريكا بالفضاء ، وجعلت مسالكه بين أصابعها ؟ حسناً . . . فالفضاء الآن ليس كل شيء . . . إنه صورة من صور التقدم . ولكنه ليس كل التقدم .

إن مرتادى الفضاء ، يتحركون فى حياتهم بطاقة العقل وحده ، وعلى ذلك فى بلادهم الجائع والمحروم . . وفى بلادهم من يصب الهلاك على بنى الإنسان مثلما يحدث فى أنجولا وفيتنام ولاوس ، دون أن تتحرك فيه شعرة رحمة أو أسى . . وفيهم من يتسلط على غيره من بنى الإنسان بالحديد والنار وأقسى وسائل الإرهاب مثلما يحدث فى جنوب أفريقية وروديسيا ١١٤ يسمى الغرب هذه البقع السوداء فى حياة رواد الفضاء ، تقدماً إذا لم نصل إليه فقد وقعنا فى الهاوية ١٥

إن التقدم غير الأخلاقى الذى تعيش فيه أمريكا ، ويفخر به السياسى العالم جون بادو ، يحمل فى طياته جرائم قناته ، وهو بالضبط مسيرة الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الهولندية والامبراطوريتين البريطانية والفرنسية .

ومن أين تأتى الأخلاق ، وهى أعظم دعائم الحضارة ، لقوم يظهر فيهم آينشتين اليهودى ، العالم الكبير من غير شك . . أن صاحب نظرية النسبية كتب قبيل وفاته ينادى بالقضاء على عرب فلسطين ليحل محلهم اليهود !

إذهبوا من بلادنا ، إن أردتم بصواريخكم ، وأقماركم الصناعية ، وكل ماتقفون بأزائه من تقدم مادى ، فهذا أمر سنصل إليه ، وإلى ما هو أقوى وأقوم .

ولكننا نلح فى هذه الدعوة أيضاً ، ضيقاً باليهود ، وما يجرون إليه العالم من كوارث ، فخر بهم الآن فى الشرق الأوسط ليست كل المصائب التى يتسببون فيها ، ولكنهم مسئولون عن حروب كثيرة فى مناطق مختلفة فى العالم ، منها الحربان العالميتان الأولى والثانية ، بفضل ما مهدوا به من دسائس ومؤامرات ، ورشاوى ومكاسب خيالية من تجارة الحروب .

وإذا نحن سمعنا ، رجلاً من حقى اليهود هو موسى ديان ، يقول أنه يستطيع أن يحارب ويهزمها . . فهو لا يعنى جيشه الإسرائيلى ، ولكن يعنى دسائس قومه التى تظن أنها قادرة على تحريك أضرار الحرب الذرية الأمريكية ، ودخول المعركة إلى آخر جندى أمريكى وأوروبى ١١

هذا هو الاحساس الدفين للولايات المتحدة وأوروبا . . وقد سمعت من صديق .
فاضل هو الدكتور يحيى الخشاب ، أن عاش فى مدينة جامعية كتبت على مبانيها من نحو

قرن من الزمان ، إنه لا يصرح بدخول اليهود إلى أى معهد من معاهد الجامعة ، وقد بذل اليهود أقصى جهدهم لمحو هذه العبارات ، ولدخول أبنائهم وبناتهم إلى هذه المعاهد ، ولكن طلبهم رفض بشدة . . . وكذلك نجد عناصر كثيرة من الرأى العام الأمريكى تجد فى السيطرة اليهودية بلاء ما بعده بلاء . وحسبهم أنهم محرومون من وسائل الأداء الحر . وما صيحة الألم والتحذير التى أطلقها هنرى فورد الكبير منشئ صناعة السيارات الأمريكية من تغلغل اليهود شاهداً على ما تعنيه ، وقد نشرنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة آراءه .

كيف نتجه

وفى تقديرنا أن الاتجاه السليم الذى يجب أن نسير عليه ، يجب أن يشمل النقط التالية :

أولاً — محاولة جادة وأمينة للوصول إلى العناصر المتحررة ، غير المخدوعة من الرأى العام الأمريكى والأوروبى ، وتبصيرها بحقائق الأمور فى منطقتنا ، وما قد يجره أكرامها على ماتريد ، من محاذير ومخاطر قد تستمر أجيالاً ، وتسبب مصائب لا أول لها ولا آخر . ومن الواجب أن نعهد بجميع شامل لكافة الكفاءات القادرة على مخاطبة الضمير الغربى ، وإتاحة كل الفرص للواطن العادى هناك ، كي يطلع على الحقائق . . والبلاد العربية ، والبلاد الإسلامية ، وبلاد عدم الانحياز ، ذاخرة بهذه الطاقة الكبرى ، التى تحتاجها معركة الأعلام فى هذه الأيام . .

نحن نتفق على سفارتنا فى الخارج ، مبالغ ضخمة جداً ، وكل ما نحتاجه أن نرسل إليها عقولا ناضجة كبيرة ، وأن نترك لها حرية التصرف ، وحرية التعبير فى داخل الإطار العام الذى نتفق عليه . . فإن كلمة « ممنوع » ، ماتزال حتى الآن صاحبة السيطرة على كل تصرفات السلك السياسى العربى ، ومعظم السلك السياسى الأفريقى والآسيوى . إن عشرات السفارات فى كل عاصمة أوروبية وأمريكية ، قادرة باتفاق بينها ، ومزيد من الثقة فيها ، وكية معقولة من حرية الحركة لها أن تؤدى دوراً كبيراً ، يعزل أكاذيب إسرائيل ، عن حقائق الحال فى منطقتنا . .

وكلمة القدس ، يجب أن تكون هى العماد ، وهى المحور . . تليها كلمة فلسطين . .

ولقد لفتت نظرنا سيدة فاضلة عملت في أحد مراكز الإعلام في الولايات المتحدة ، أن كتاباً تؤلفه نخبة من سيداتنا عن المطبخ الشرقي ، يفيد في تقريب المسافة الفكرية بين نساأهم ومنطقتنا ، ويمهد السبيل لكلمات صادقة قليلة تقال عن معاركنا . . . وتسمع .

ثانياً — الاتجاه إلى العالم الإسلامي ، بصلات قوية غير حذرة ، ولا مترددة لكي يجند ويوجه كل طاقاته لخدمة المعركة . . . والعالم الإسلامي مأثور بأن يتحرك الآن . . . مأثور من الله سبحانه وتعالى ، الذي قال لليهود ، وعنهم ، إن عادوا إلى فلسطين : « وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ، . . . » وبماذا تعود إليهم إرادة الله ؟ تعود إليهم بالتبار ، أى الهلاك الذي سلط عليهم مرتين مرة على أيدي البابليين ، في القرن الخامس قبل الميلاد ، ومرة على أيدي الرومان في القرن الأول المسيحي كما سبق أن أوضحنا .

وتحركة يشمل الحرب النفسية ضد العدو وأسناده ، والحرب المادية في منطقة المارك ، والموازرة المادية للشعوب التي تقف على خط النار ، ولا سيما كتائب الفدائيين . .

ثالثاً — الكتلة الشرقية تؤيدنا بالسلاح ، وهو عماد المعركة ، وبالعامل السياسي الذي نحتاج إليه لالتقاط الأنفاس حتى تبدأ الجولة الجديدة . وأثارة الشبهات أو النقد الطائش ضدها أمر غير مقبول ، ولا معقول . ومن الواجب أن نشعر بلاد اليسار جميعاً ، بامتناننا القلبي لكل ما يصنعونه لأجلنا . . . وقد قلنا من قبل أن مسلك الغرب في مساندة إسرائيل مسلك غير أخلاقي . . . وخير دليل على ذلك سلسلة الأكاذيب المكتوبة والمنطوقة التي سلطها علينا لندن جونسون رئيس الولايات المتحدة في الأسبوعين السابقين لمعركة يونيو سنة ١٩٦٧ . . . فلنكن نحن أخلاقيين ، لتكون لنا ميزة واحدة .

رابعاً — التوفر على تجويد طاقتنا العلمية ، وروح الابتكار فيها . وتطبيق ما فصل إليه في خدمة التنمية بصفة عامة ، وخدمة المعركة بصفة خاصة . .

أن قدرتنا على المعرفة غير منكورة . ودارسوننا في الخارج وصلوا إلى تفوق

كبير ، وبدأت تتخاطفهم دول أمريكا وأوروبا . . . وسبب إشارهم للعمل في الخارج رغم حاجة الوطن إليهم ، هو البذل السخى هناك ، والشحيح هنا . . . أن مليوناً أو مليونين من الجنهات تعطى لعلماء مصر ، تيسر لهم الإقامة في بلادهم ، بدلاً من الهجرة . . . وتيسر وسائل البحث بالانفاق عليها انفاقاً مقدماً على كل مرفق غيرها ، من الأمور الواجبة . .

ومن الواجب أن ننبه إخواننا في البلاد العربية الأخرى ، إلى ضرورة العناية بالأبحاث العلمية ، والأبحاث التطبيقية . . . وهم أولى بشباب علمائنا الفاضلين عن حاجتنا ، يبذلون لهم أجوراً مشابهة أو مقاربة لما تبذله لهم ألمانيا وكندا والولايات المتحدة ، وقد منح الله بعض هذه البلدان موارد مالية يمكن لها أن تسهم في التقدم ، ودفعه إلى الأمام ، وحتى لا يحسب المتحدثون باسم الغرب أننا نعيش . . . وسنعيش على قتاتهم . وإن شاموا حرمونا منه ، لكي نعود إلى الجاهلية !!

خامساً — ضرورة العناية بالتيارات الدينية في الكتلة الغربية ، ولا سيما في منطقة النفوذ الكاثوليكي . فنحن نعلم أن هيئة الأمم تضم ٥٤ دولة كاثوليكية ، تدخل روحياً ، في نطاق السلطة الروحية للقائكان . . . وكانت هناك موجات من الشك في نوايا القائكان ، بعد قرار تبرئة اليهود من دم المسيح . ولكتنا نعلم أن هذا القرار حدث نتيجة ضغط هائل من اليهودية ، وأن صدوره لا يعنى بالضرورة انحياز القائكان إلى جانب اليهود . بل ربما كان للرأى العام المسيحى في أنحاء العالم ، تأثيره بالنسبة للقدس وما حدث لها . والموقف الحازم الصحيح الذى تقفه الكنيسة الشرقية .

إن هناك رأياً عاماً يقول بإمكان التقارب بين عناصر الكنيسة الكاثوليكية من جانب ، وعناصر الإسلام والمسيحية الشرقية من جانب آخر .

ولا ضرر من النقاش ، الذى يدور موضوعه حول القدس ، والمقدسات الفلسطينية بصفة عامة . ولو أن هناك رأياً عاماً ينادى بتأجيل أى نقاش إلى ما بعد المعركة .

وقد حسم الرئيس جمال عبد الناصر ، عندما عبر عن رأى المجموعة العربية ، والإسلامية بالتالى ، بقوله أن القدس ليست موضوع مساومة ، وأنها يجب أن تعود كما كانت قبل ٥ يونيو .

لقد باع اليهود الوصاية على المقدسات المسيحية في فلسطين لفرنسا في معاهدة سرية ، وذلك في الفترة ما بين عام ١٩٤٨ إلى ما بعد عام العدوان — ١٩٥٦ بقليل . . . وهي صفقة غير معقولة طبعا ، لأن اليهود عادوا يعرضونها على غير فرنسا ! ومن لا يملك يريد أن يتاجر ويبيع وصايا لا تغني شيئا لصاحبها .

ومقدسات فلسطين كانت تحت إدارة العرب منذ ثلاثة عشر قرنا ، ويجب أن يستمر الكفاح حتى تعود إلى أهلها ، مفتوحة الأبواب للعابدين والزائرين من أركان الأرض الأربعة .

سادسا — وأخيرا هناك سؤال يبدأ به كل كلام ، وينتهي به كل كلام ، وهو : هل يمكن للعرب أن يتعايشوا سلميا مع اليهود بعد كل ما حدث ، وقبل كل حدث ؟

إن تكتيك المعركة يقضى بالانحياز على هذا السؤال الآن . .

* * *

وإلى اللقاء ، إذا أذن الله ، في جزء ثالث من هذه الدراسة نقدم فيه صورة المعركة الحثامية لهذا الصراع ؟

القاهرة في ١٤ / ٤ / ١٩٦٩ .

محمد صبيح

فهرس الموضوعات

صفحة

٣	مقدمة
٧	قيام الثورة فى مصر
٤٤	ما بعد جلاء الانجليز
٤٨	معركة السد
٦٢	تأمين القنال
٦٨	الاستعداد للمعركة
١٠٤	معركة بور سعيد
١٥٣	معارك أخرى
١٦٤	« سمحونى » و « مور هاوس »
٢٢٨	اسرائيل من ١٩٥٧ - ١٩٦٧
٢٣٤	الحرب النفسية
٢٤٩	قالوا عن هذه الحرب
٢٦٥	الهجوم الجوى
٢٨٣	الهجوم البرى
٢٩٩	الحرب فى الجبهة الشرقية
٣٠٨	دروس النكسة
٣٢٠	نظرة الى المستقبل

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٤٥ لسنة ١٩٦٩

مطبعة دار العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر - بالقاهرة
تليفون ٩٠٦٧٠٦

هذا الكتاب

هذا الكتاب « ٠٠ » وان عدتم عدنا « اكمال لسلسلة الدراسات القومية ، التي تدور كلها حول اليهود وحرينا معهم . وقد خصص مؤلفه - الأستاذ محمد صبيح - كل جهده ، وكل دققة من وقته ، وكل حركة من قلمه لمعاونة المعركة الضارية ، التي تدور الآن بين الأمة العربية ، واليهود وأعوانهم من المستعمرين .

وفي القسم الأول من هذه الدراسة وقف المؤلف عند قيام دولة إسرائيل ، بعد أن استعرض علاقاتنا مع اليهود منذ فجر التاريخ ..

وفي هذا القسم يستعرض المؤلف نتائج حرب ١٩٤٨ ، في المنطقة العربية بصفة عامة ، وفي مصر بصفة خاصة .. مما ترتب عليه قيام ثورة ١٩٥٢ ، وتحقيق الجلاء عن مصر ، وحرب سنة ١٩٥٦ ، ثم حرب ١٩٦٧ ..

وهذه الدراسة في كل مراحلها تستهدف غاية واضحة ، وهي انارة الطريق أمام الأمة العربية وهي تتأهب للمرحلة الرابعة والأخيرة من كفاحها للغارة الصهيونية الاستعمارية ..

وفي سبيل تجميع معلومات وثيقة سافر المؤلف الى الخطوط الساخنة في معركتنا ، فوقف عند شواطئ نهر الأردن ، ووقف عند قنال السويس ، وتحدث مع المحاربين والسياسيين ، ومن نبض المعركة ، ووجيب القلوب المتحرقة شوقا الى لقاء الثار ، نقدم هذا الكتاب الى قرائه ، وان بدا طبعة ثانية من الكتاب الأول : « المعتدون ... » ألا أنه جديد في كل شيء .

والله الموفق ..

مكتبة الشباب

Bibliotheca Alexandrina



0228824